

محمّد علي دولة

قصص

من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم





رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


قصص
من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم
وأصحابه رضي الله عنهم



الطبعة الثانية عشرة

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

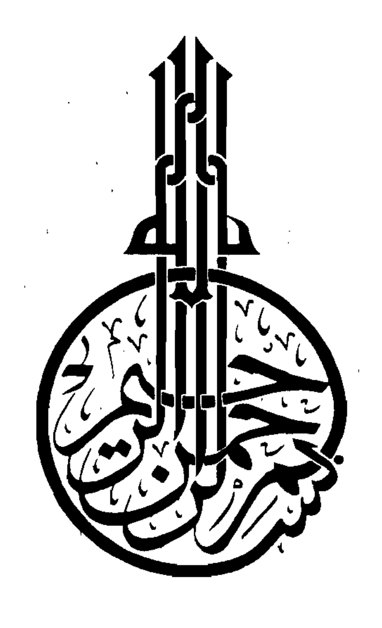
دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤



محمد علي دولة

١



المقدّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه، ومن والاه، وبعـد:



١

فليس هناك في الدنيا سيرة أمتع متعة، ولا أعظم عبرة، ولا أغزر فائدة؛ من سيرة محمد رسول الله ﷺ، وسيرة أصحابه الكرام رضي الله عنهم، وهما سيرتان امتزجتا ببعضهما امتزاجاً لا نظير له، وكانت الثانية امتداداً طبيعياً وصادقاً للأولى، حتى غَدَتا سيرة واحدة، تحكي أجمل قصة في تاريخ البشرية الطويل. وهذا القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى فيقول:

﴿محمدٌ رسولُ الله، والذين معه: أشدّاءُ على الكفّارِ، رُحَماءُ بينهم، تراهم رُكَّعاً سُجَّداً، يبتغُون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهُم في وجوهِهم من أثر السجودِ﴾.

ولقد حفلت هذه السيرة العظيمة ـ سيرة النبي وأصحابه ـ بالكثير الكثير من القصص والحكايات الرائعة، التي ظهر فيها أنبل معاني الإيمان، والبرِّ، والعمل الصالح، والسيرة الحميدة من إيمانهم القوي، ويقينهم العظيم، وتصديقهم بكل ما أخبر الله عنه من المغيّبات. ومن شغفهم العظيم بتبليغ دعوة الله إلى عباده، وحبّهم هداية الخلق لدين الله، واجتهادهم في ذلك، وهجرتهم الأوطان من أجل نصرة الدين، وتحمّلهم الأذى والشدائد في ذات الله تعالى، وبذلهم المُهَج والأموال، وجهادهم وبطولاتهم،

وإقبالهم على الموت وحبّهم للشهادة وشوقهم للجنة، ومن زهدهم في الدنيا وإقبالهم على الآخرة، وتنافسهم في العبادة والطاعة، وحبّهم في الله وتلاقيهم عليه، والرحمة بالمؤمنين والشدّة على الكافرين. ومن قطع حبال الجاهلية وخلوصهم للإسلام وحده، وخروجهم عن الشهوات النفسانية، ومحبّتهم وتناصحهم وتعاونهم. ومن عظيم تأييدات الله لهم وعنايته بهم، وتسخيره لهم أسباباً تعجز عنها الطاقة البشرية. ومن أخلاقهم الرفيعة، وشمائلهم الكريمة، وصفاتهم الحميدة التي حوت جميع الفضائل. إلى غير ذلك من معاني الإيمان والبرِّ الرفيعة.

٢

ولقد عُنيت كتب السيرة النبوية ـ قديمها وحديثها ـ بذكر المعالم الكبرى لسيرة الرسول ﷺ، ولم تحفل بما دونها من الأحداث اليومية، فجميع كتب السيرة تعرض لك حياته عليه الصلاة والسلام على هذا النسق: ميلاد الرسول ـ حياته قبل النبوّة ـ بدء الوحي ـ الدعوة السرية ـ الدعوة الجهرية ـ الاضطهاد ـ هجرة الحبشة ـ الإسراء والمعراج ـ الهجرة إلى المدينة ـ الغزوات والسرايا ـ الوفود ـ حجة الوداع ـ الانتقال إلى الرفيق الأعلى.

والحق أن هذه المعالم ـ على ضخامتها ـ لا تشكّل إلا جزءاً يسيراً من السيرة، فحياته عليه الصلاة والسلام أكبر من هذه الأمور بكثير، فقد أمضى ثلاثاً وعشرين سنة من عمره المبارك يدعو فيها إلى الله ويبلِّغ ما يوحى إليه، ويقيم دعائم الإسلام، وينشىء الأمة المسلمة، ويجاهد في سبيل الله.

وكان كل يوم من أيام حياته الشريفة مملوءاً بجلائل الأعمال، يشغله في البرِّ والخير وفيما يعود على الناس بالنفع، فكان يعلِّم أصحابه، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويختلط بهم ويُجالسهم، ويقضي بينهم في خصوماتهم، ويشير عليهم، ويزوِّج عَزَبَهم، ويطعم جائعهم، ويعلّم

جاهلِهم، ويحضر أفراحهم، ويصلّي على جنائزهم.

وكان يُجيب دعوة من يدعوه، ويقف للكبير والصغير والرجل والمرأة، فيستمع لحاجاتهم، ويقضيها لهم، ويركب الدابة، ويردف وراءه، ويحدِّث رديفه. وكان يغزو بأصحابه، ويسافر بهم، ولا يدع فرصة إلا ويعلّم فيها الناس الخير، ويغرس في نفوسهم الفضائل، ويمحو منها الرذائل.

وكانت وجوه العرب تأتيه من كل الجهات ـ وهم طبقات من الناس ـ فيخاطب كل إنسان على قدر عقله، وباللهجة التي يفهمها، ويستمع إليهم، ويجيبهم على أسئلتهم، ولا يقومون من مجلسه إلا وهم راضون مطمئنون.

وكان بحضرته في مسجده الشريف عشرات من أصحابه الفقراء من أهل الصُّفَّة، فكان لهم كالأب الرحيم، يدبّر لهم أمر معيشتهم، ويخفّف من أحزانهم، ويقرّبهم إليه.

وبالجملة: فسيرته صلوات الله وسلامه عليه مليئة بالأحداث اليومية الصغيرة والكبيرة، وفيها ألوف القصص والحكايات المتناثرة على مدى سنوات الدعوة وأيامها، وكلها تحتوي على ألوان من المعاني الرفيعة والعظات الرائعة والصور الجميلة، ممّا لا يوجد مثيله في غيرها من سِيَر النبيين والزعماء والمصلحين، وملوك الناس وأبطالهم وقادتهم.

ويخطىء من يظن أنه إذا قرأ كتاباً في السيرة النبوية، وأتى على معالمها الكبرى من الميلاد إلى الوفاة؛ أنه أحاط علماً بها!! لا، فقد فاتته هذه الأحداث اليومية الغزيرة، وفاته بالتالي معظم أحداث السيرة التي أغفل تدوينها كُتَّاب السيرة قديماً وحديثاً، واهتم بها أشد الاهتمام أئمة الحديث الذين صنَّفوا فيه، ومؤلفو كتب الشمائل والدلائل، ومفسِّرو القرآن الكريم، والذين ألّفوا في تراجم الصحابة وطبقاتهم وفضائلهم.

٣

ولن تتكامل صورة السيرة النبوية في ذهن القارىء إلا إذا قرأ بتفصيل واسع سِيَرَ أصحاب النبي ﷺ وأخبارهم وتراجمهم، فسيرتهم - رضي الله عنهم - جزء من سيرته، وهم قد شاركوا مشاركة تامة في مسيرة الدعوة وبناء الإسلام، في حياته وبعد مماته صلوات الله وسلامه عليه، وكانوا في إيمانهم وسلوكهم وأخلاقهم وغاياتهم امتداداً عملياً له بعد وفاته.

لقد كانوا - رضي الله عنهم - أبرّ الناس بنبيّهم ﷺ، فصدرت عنهم أمور في حبّه وتعظيمه، وطاعته وإيثار رضاه، والتشبّه به والتخلّق بأخلاقه، والتمسّك بهديه، يعجز البيان عن تصويرها، ولقد حملوا مهمة الدعوة إلى الإسلام، ونشره في الأمم بعده عليه الصلاة والسلام، فتركوا أوطانهم، وهجروا بلادهم، وبذلوا أموالهم وأرواحهم من أجل ذلك، فامتد بهم الإسلام امتداداً عظيماً، وأقبل الناس عليه، وأحبّوا هؤلاء الدعاة الصادقين، وفضّلوهم على ملوكهم ورؤسائهم من أبناء دينهم.

ولقد عُنِيَ الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - بنقل سيرته صلوات الله وسلامه عليه لأجيال التابعين ومَنْ بعدهم، فلم يتركوا أمراً صغيراً ولا كبيراً من حياته إلا وصفوه وبيّنوه، ولم يَدَعوا شيئاً من يومياته الكبيرة والصغيرة، إلا حدّثوا بها مَنْ بعدهم، ثم حدّث بها هؤلاء مَنْ بعدهم، إلى أن دوّنها علماء هذه الأمة من المحدِّثين والمؤرخين وأهل السِيَر.

فإذا ما أضفنا قصص الصحابة وحكاياتهم إلى قصص السيرة النبوية، وجدنا أننا قد وضعنا أيدينا على كنز ثمين من القصص الهادف، والحكايات النافعة، والسيرة الممتعة، التي نحن أحوج ما نكون إليها.

٤

وليس يخفى على القارىء ما لِفنِّ القصة من دور كبير في آداب الشعوب جميعاً، قديماً وحديثاً، فهذا اللون من الأدب محبّب إلى النفس كثيراً، لما يحتويه من عناصر: الأشخاص والحركات، والعقد والمفاجآت، والعبر والعظات، ولما يصوِّره من سِيَر الماضين، وحياة السابقين.

ولقد عُنِي القرآن الكريم ـ وهو أعظم كتاب بين يدي البشرية ـ بموضوع القصة، فقصَّ على الناس أحسن القصص، وطلب من النبي ﷺ أنْ يفعل ذلك، فقال له: ﴿فاقصصِ القصصَ لعلَّهم يتفكرون﴾. ولقد روى النبي ﷺ لأصحابه، قصصاً من أخبار إخوانه الأنبياء ومن أخبار الماضين، يجدها من يطلبها في دواوين السُنّة الشريفة، ويشعر من يقرأها بالمتعة والفائدة العظيمة.

وفي عصرنا هذا ـ عصر الكتب والصحف والمجلات، وعصر «المذياع» و «التلفاز»: الرائي ـ كثر إقبال الكُتَّاب على هذا الفن الأدبي، فأخرجوا للناس سيلاً كبيراً من القصص والحكايات والروايات، منها ما استُقي من وقائع التاريخ، ومنها ما انتُزع من حياة الناس، ومنها ما أَوْحى به الخيال المجرد.

بيْد أن الكثير من هذا القصص تعوزه الغاية النبيلة، والمقصد الحسن، والعبرة النافعة. والكثير منها قد جنح في تصويره المشاعر الإنسانية النبيلة جنوحاً خسيساً منحطاً، فجعل من العواطف الأصيلة في النفس كعاطفة الحب، مادة قصص فاجر، همّه إشاعة الفاحشة، ومحو الفضيلة، وإهاجة الغرائز الجنسية بشكل مجنون. وبعضها قد زين للناس الجريمة، وتقديس اللذة، وتعشّق المبدأ «الميكيافيلي» الذي يقول: الغاية تبرِّر الواسطة.

ولقد وفدت إلى مكتباتنا منشورات المكتبة العالمية، وفيها الكثير من القصص الذي يصوِّر حياة شعوب ومجتمعات، تغاير حياتهم حياتنا، وعقائدهم عقائدنا، وأهدافهم أهدافنا، فكان ذلك مما زاد الطين بلّة على القارىء المسلم، ومما شوّش في ذهنه قداسة موروثاته العقائدية والخلقية والسلوكية.

إنَّ أُمتنا أحوج ما تكون في هذا الزمان لأدب قصصي هادف نبيل، يربّي الأجيال على أعظم مبادىء الخير والسمو الإنساني، ويحمِّلها أقدس رسالة يجدر بالإنسان أن يحملها ويعيش من أجلها، وإن أغزر منبع لهذا الأدب القصصي الجميل هو سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، ففيهما يجد الكاتب القصص المتنوع، والحكايات العجيبة، ويضع يده على كل ما عرفته البشرية من قيم رفيعة، وقد تحولت إلى واقع عاشه جيل كبير من الناس، امتدت حياته حتى زادت على قرن من الزمان.

ولقد كُتب الشيء الكثير في حياة النبي ﷺ وحياة أصحابه ـ قديماً وحديثاً ـ بَيْدَ أنه لكل عصر أسلوبه وذوقه في الكتابة والعرض، وكثيرٌ من كتب السيرة القديمة لا ينتفع بها، إلا قلّة قليلة من الناس، لهم جَلَد على القراءة، وصبر على ما يكدّ الذهن ويجلب السآمة: من اضطراب التأليف، والاستطراد، وذكر الأسانيد، وكثرة الأقوال في المسألة الواحدة، وذكر الألفاظ الغريبة. ومعظم ما كتب في السيرة حديثاً، خَلاَ من الأسلوب الجميل، والتصوير الرائع، وإثارة التشويق لدى القارىء، وكان أقرب ما يكون إلى الكتب الرتيبة الهادئة التي أُحسن فيها التبويب والتأليف، ولانَت فيها العبارة، وقُرِّب فيها المقصد[١].

(١) إنصافاً للحق أَستثني من هذا الحكم الذي أصدرته الكتب التالية: (محمد رسول الله والذين معه) لجودت السحار، (وفقه السيرة) لمحمد الغزالي، (ورجال حول الرسول) لخالد محمد خالد، (وصور من حياة الرسول) لأمين دويدار.
ويمتاز الأول بالعناية البالغة بالأسلوب القصصي الروائي ذي النفس الواسع =

فليتجه كتّابنا وأُدباؤنا لسيرة الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، ولسوف يجدون فيها مادة غزيرة جداً للكتابة، ومجالاً رائعاً للنبوغ والتألّق في هذا الميدان، وإنهم لو فعلوا ذلك لأسدَوا إلى أمتهم خدمات جليلة، يستحقون عليها كل شكر، وأراحوها من مباذل كثيرة لا تزال تعرض على الناس صباح مساء، وتصدرها دُور النشر، وتؤدي دورها السيء في إعاقة انطلاقة هذه الأمة، وفي إبقائها تابعة ذليلة لأمم سبقتها في ميدان العلم والصناعة.

٥

ويسعد كاتب هذه السطور أن يَلِجَ هذا الميدان الذي يقصر فيه باعه، بيد أن الذي شجعه على ذلك إحجام من هم أهل لهذا الميدان عنه. وسوف يجد القارىء في أجزاء هذه السلسلة من القصص قصصاً مُقْتَبَساً من سيرة الرسول ﷺ وسِيَر أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ، كتبتها وأنا لا أقصد أن أجعل منها سيرة متسلسلة الأحداث، متلاحقة الموضوعات، لكني رتبتها في فصولٍ عديدة، وجعلت في كل فصل عدداً من القصص التي يتّحد

= جداً، وإن كنت آخذ عليه الإسهاب الكثير في أمور هي من هامش السيرة لا من صميمها.

ويمتاز الثاني بروعة العبارة، وحرارة العاطفة، وجمال اللفتات.

ويمتاز الثالث بالأسلوب الجميل، والغور إلى أعماق النفوس واستخراج جواهرها، وصرف النظر عن الهنات التي ليست شيئاً أمام فضائل أئمة الصحابة الستين الذين أتى المؤلف على صور من حياتهم.

أما الكتاب الرابع ـ وهو أحسنها ـ فقد اجتمع للمؤلف فيه مزايا ثلاث تجعل الكتاب في نظري من أجود ما كُتِب في السيرة النبوية قديماً وحديثاً، وهي:

١ ـ التصوير الجميل والأسلوب القصصي الرائع.

٢ ـ التفسير السديد للأحداث والتحليل العميق لها.

٣ ـ الربط القوي ما بين الأحداث، حتى ليشعر القارىء لهذا الكتاب، أن حياته ﷺ سلسلة أحداث متلاحقة مترابطة، لا يفصلها عن بعضها زمان ولا مكان.

موضوعها وغايتها، ويجمعها عنوان الفصل الذي تنتظم جميعاً تحت مدلوله.

هذا ومما يجدر ذكره أني لم أكتب هذه القصص لمستوى معين، ولا لطبقة محددة، فهي تصلح لجميع من يُجيد القراءة، ويستفيد منها ـ إن شاء الله ـ سائر القُرَّاء على اختلاف مستوياتهم، بَيْدَ أنَّ مقصدي الأول في عملي هو هذا الجيل الكريم من شباب الإسلام، الذين هم ملء السمع والبصر، ومصدر الأمل العظيم في عودة نور الإسلام وهدايته لمجتمعنا الذي أطبقت عليه ظلمات الجاهلية.

والأمل كبير من جميع القُرَّاء أن يعذروني عمّا يجدونه من خطأ وقصور، وأن يكتبوا لي بذلك لأنتفع من ملاحظاتهم، ولهم مسبقاً الشكر الجزيل على ذلك.

وفـي الختـام:

أرجو الله سبحانه أن يتقبل هذا العمل، وأن يبارك فيه، وأن يجعل من ثمراته ـ لكاتبه وقارئه ـ حبُّ النبي ﷺ، وتعظيمه وتوقيره، والتأسّي به، وحبّ أصحابه، والاقتداء بهم، والتخلّق بأخلاقهم.

وأسأل الله الكريم الرحيم أن يحبّب إلينا الإيمان ويزيّنه في قلوبنا، وأن يكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأن يجعلنا من الراشدين.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون، وصلّى الله وسلّم وبارك عليه في الأوّلين والآخرين إلى يوم الدين.

دمشق في: ١٣٩٧/٧/٢٣ هـ
٩ / ٧/ ١٩٧٧ م

محمّد علي دولة



من أعلام النبوة

ـ ١ ـ

أعلام النبوّة: هي الأمور التي تدل على صدق نبوّة الرسول ﷺ، وتسمى أيضاً «دلائل النبوّة».

وهي أنواع كثيرة، ومنها: أخبار أحبار اليهود ورهبان النصارى، التي أخذوها من التوراة، والإنجيل، ومما عهد إليهم أنبياؤهم، وكذلك أخبار غيرهم من النبهاء. والقصص التي سنسوقها من هذا القبيل.

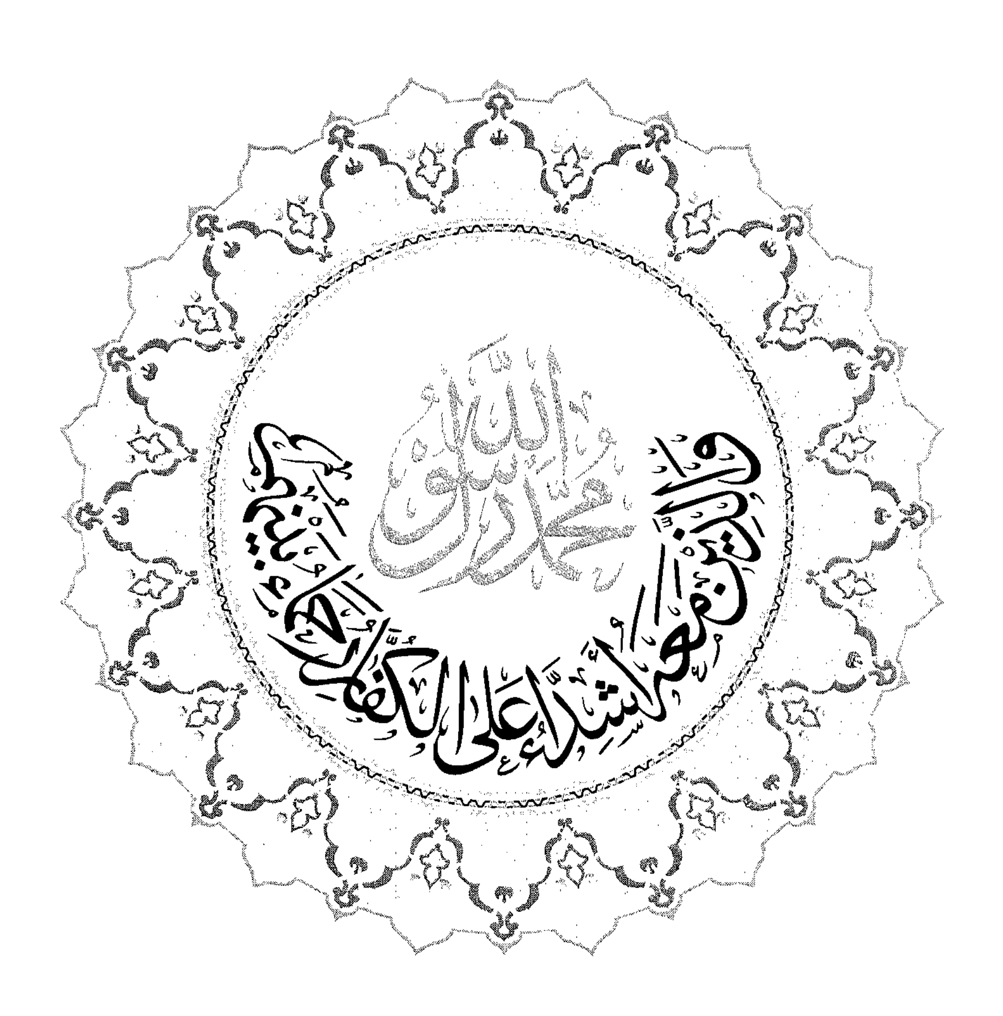
وفي الحديث عن ابن عباس قال:

«ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حيّ ليؤمننّ به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق: لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمِنُنَّ به ولينصرُنَّه وليتبعُنَّه».

ويُعلم من هذا أن جميع الأنبياء بَشروا بمحمد ﷺ وأمروا باتباعه.



١ ـ نجم أحمد.
٢ ـ حبر يهودي يترقب بعثة الرسول.
٣ ـ راهب يتنبأ للرسول وهو غلام.
٤ ـ الملك النصراني الذي أسلم وغامر بملكه.


محمد رسول الله
والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

نجمُ أحمَد

١

وضعت الحرب أوزارها بين الأوس والخزرج، وانجلت هذه الحرب كسابقاتها عن الكثير من القتلى والجرحى، ودفن الناس قتلاهم، وضمَّدوا جراحاتهم، وناحت النساء على الآباء والأبناء والأزواج الذين أكلتهم الحرب، وغشيت يثربَ كلَّها موجةٌ عظيمة من الأحزان.

كان النزاع دائماً في هذه المدينة بين هذين الحيَّين، فمنذ أن نزلا يثرب بعد هجرتهما من بلاد اليمن من قرون عديدة وهما يتحاربان، حتى لقد أصبحت لهما أيام مشهورة يذكرونها، ويفتخر كلُّ حيٍّ بالأيام التي كانت له على الآخر، ويتناشدون الأشعار في ذلك. وكان الذي يغذِّي تلك النزاعات ويؤرِّث نارها اليهود، يريدون بذلك أن تضعف شوكة جيرانهم العرب، فتكون لهم الكلمة في يثرب وما حولها.

وفرح الناس هذه المرة بالهدنة التي قامت، فقد سئموا الحروب وشرورها، ورجوا أن يطول أمَد هذه الهدنة الجديدة، وأن يتاح لهم وقت طويل ينعمون فيه بالسلام والوئام، ويتمكنون من التنقل في أحياء يثرب كلها، من غير ما خوف على حياتهم، ولا حذر من أن يصيبهم مكروه.



أخذ الناس يتنقلون في ربوع يثرب، ويزور بعضهم بعضاً، واطمأنت نفوسهم إلى الأمن الذي ساد البلد. وخرج مالك بن سِنَان الخزرجي يزور

لِداته[1] من غلمان بني عبد الأشهل الذين كانوا يجاورونهم، حتى إذا وصل إلى ديارهم وجدهم قد تجمعوا حول حَبْر من أحبار يهود، كان يعيش بين أظهرهم يُقال له (يوشع) وقد أَصَاخُوا[2] إليه أسماعهم، فجلس مالك بينهم يستمع كما يستمعون، وأقبل على الحَبْر يرمقه بنظره، ويصغي إليه بعقله وقلبه، فسمعه يقول:

أظلَّ[3] خروج نبي يُقال له أحمد، يخرج من الحرم.

فقال له خليفة بن ثعلبة الأشهلي: ما أكثر ما سمعنا وسمع آباؤنا منكم يا معشر يهود عن هذا النبي!! لقد مضى دهر طويل وأنتم تحدِّثوننا عنه، وإلى الآن لم يظهر، وما أظن أنه سيظهر.

وأجابه يوشع: بلى ـ والله ـ إنه سيظهر، وقد أظلّ زمانه.

وقال خليفة مستهزئاً:

ما صفة هذا النبي يا يوشع؟.

فأجاب الحَبْر:

رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، في عينيه حمرة، يلبس الشّمْلَةَ، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره[4].

وقال خليفة: سوف ننتظر يا يوشع، لنرى هل يصدق حديثك أم لا.

وانفضّ اجتماع الناس وتفرّقوا.

---

(١) لداته: نظراؤه في السن.

(٢) أصاخوا: استمعوا.

(٣) أظلَّ: دنا واقترب.

(٤) هذه الصفات التي وردت على لسان يوشع ذكرتها كتب السِيَر والشمائل للنبي ﷺ. والشملة: كساء يتغطى به ويتلفّف فيه. ولبسها من تواضعه عليه السّلام، وكان يلبسها من غير أن تجرّ على الأرض. ورُكْبه الحمار كذلك من تواضعه صلوات الله وسلامه عليه. ومعنى (سيفه على عاتقه): أي: أنه يبعث بالجهاد وقتال أعداء الله ورسله، وأن الجهاد ركن عظيم في دينه.

٣

عاد مالك بن سِنَان إلى بيته وقد أعجبه حديث اليهودي وسرّه ما سمع منه، وتمنى على الله أن يعجِّل بظهور هذا النبي؛ لعلّ القلوب في يثرب تجتمع عليه، ولعلّ هذا البلد يرتاح من عناء الحروب الكثيرة وشرورها.

وسعى مالك إلى قومه بني خُذْرة يريد أن يحدّثهم بما سمع، وقال لهم: لقد سمعت اليوم من يهودي في بني عبد الأشهل حديثاً عجباً!! إنّه يحدّث عن نبي سيظهر قريباً، وسيهاجر إلى بلدنا، وقد وصفه لنا حتى كأنّا نراه!!.

وظن مالك أنه قد فاجأ قومه بحديث جديد لم يسمعوه؛ وإذا بالرجال الكبار يقولون له: إنك غلام حَدَثٌ لم تسمع من يهود عن هذا النبي إلا هذه المرة، أما نحن فقد سمعناهم كثيراً يحدّثون بحديثه، ويستفتحون به علينا[1].

وقال له رجل طاعن من قومه:

يا ابن أخي! يوشع وحده يقول هذا؟!.

كل يهود يثرب يقولون هذا!!.



ازداد اهتمام مالك بن سنان بعد الذي سمعه من قومه بأمر هذا النبي، وأحبَّ أن يسمع من أحبار يهود الآخرين ماذا يقولون في شأنه، فسأل عن أعلم حَبْر فيهم، فقيل له: الزُّبير بن باطا حَبْر بني قُرَيْظة، فخرج يسعى إليهم، وفوجىء بحَبْرهم وقد اجتمعوا إليه يحدّثهم، وأصاخ هو السمع، فسمعه يقول:

---

(١) يستفتحون: يستنصرون ببعثته.

قد طلع الكوكب الأحمر، الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذا مهاجَرُه.

وأدهش مالكاً ما سمعه من هذا الحبر أيضاً، وعلم من كلامه أن ظهور هذا النبي قد أصبح وشيكاً[1]، فقد طلع نجمه، وأن اسمه «أحمد» وأنه سيهاجر إلى يثرب، وتطابق عنده كلام هذا الحَبْر مع كلام يوشع، وقال في نفسه: لا بدّ أن كلام هؤلاء الناس كلام حق وصدق، فهم أهل كتاب، يحدّثون عن الأنبياء بما سمعوا منهم، وعندهم من العلم ما ليس عندنا.

وعاد مالك إلى قومه بني خُدْرة، وإنه في الطريق إذا بصديقه الغلام الخزرجي حسان بن ثابت، فأسرع إليه وقال له: ألم تسمع يا حسان ما قاله الزبير بن باطا كبير أحبار بني قُرَيظة؟!

وأجاب حسان: وماذا قال؟

فقال مالك: سمعته يقول:

طلع الكوكب الأحمر الذي لم يطلع إلا لخروج نبي أو ظهوره، ولم يبق أحد إلا أحمد، وهذا البلد مهاجره.

وقال حسان: أنت سمعت هذا الكلام منه اليوم؟

فقال مالك: نعم، أنا الذي سمعته يقوله في هذا اليوم.

وقال حسان: لا تعجب يا مالك فاليهود قد أكثروا الحديث عن قرب ظهور نبي، ولقد سمعت ـ والله ـ من أيام قريبة يهودياً يصرخ ذات غداة:

يا معشر يهود:

فاجتمعوا إليه وقالوا: ويلك مالك!!

فقال:

طلع نجم أحمد الذي يولد به الليلة!!

---

(١) وشيكاً: قريباً.

وما أدري ـ والله ـ أيصدقنا هؤلاء القوم أم يكذبوننا؟!

وقال مالك: ما أرى إلا أنهم يصدقوننا، فهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا.

وقال حسان: ستُبدي لنا الأيام حقيقة ما يقولون.



تقدم العمر بمالك بن سنان وحديث اليهودي في قلبه وعقله لم يَنْسه، وشغلت يثرب بأيام جديدة من أيامها الحامية، ونكب الناس من جديد بآبائهم وأبنائهم وإخوانهم، وتطلَّع العقلاء إلى رجل ينقذ هذا البلد ويُريحه من هذه الحروب المدمِّرة، وصار مالك يلهج بهذا الدعاء:

اللهمّ عجِّل لنا بخروج هذا النبي الذي أخبرنا عنه يهود، وأجمع عليه قلوبنا.

وبعث محمدٌ رسول الله ﷺ بمكة، ووصلت أنباء دعوته إلى يثرب، وتفاءل مالك خيراً، ولم تمضِ عشر سنوات أو يزيد على دعوته حتى بايعه أشراف الأوس والخزرج على الإسلام والنصرة، وطلبوا إليه أن يهاجر إليهم.

وتمّت الهجرة، واستقبلت المدينة وافدها العظيم صلوات الله وسلامه عليه، وألَّف الله به بين القلوب، وأزال الإِحَنَ والعداوات، وآمن به أهل يثرب جميعاً غيرَ يهود، ودعاهم النبي للإيمان به فلم يفعلوا وذكَّرهم الأوس والخزرج بما كانوا يحدثونهم به عن هذا النبي، فأنكروا أن يكونوا يقصدون هذا النبي، وكفروا به حسداً وبغياً.

وسعى مالك بن سنان إلى رسول الله ﷺ فحدَّثه بحديث الزُّبير بن باطا، الذي سمعه منه من أكثر من خمسين سنة، وتعجّب أمام النبي من كفر الزبير وجحوده للحق، فقال له النبي ﷺ:

«لو أسلم الزبير لأسلم ذووه من رؤساء اليهود، إنما هم له تبَعٌ».

٦

كفر الزبير بن باطا وأحبار يهود وسائر يهود برسول الله ﷺ، وتجهَّموا له ولأصحابه، ونَصَبوا لهم العداء، وغدروا بهم، ونكثوا بعهودهم معهم، وأعانوا عليهم أعداءهم، فكان لا بدّ من عقابهم.

وأخرج النبي ﷺ يهود بني قَيْنُقَاع من يثرب، ثم أتبعهم يهود بني النضير بعد زمن قصير، وبقي يهود بني قُرَيْظَة محافظين على عهدهم قليلاً، لكنَّ خلقهم في الغدر غلبهم أخيراً، فخانوا النبي ﷺ في أحرج المواقف، ومالؤوا الأحزاب التي جاءت تجتثّ جرثومة[1] الإسلام والمسلمين.

لكن الله ـ سبحانه ـ كان للطاغين بالمرصاد، فنصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وخلا الجو للمسلمين ليُجازوا بني قريظة بما يستحقون، فحاصروهم وشدّدوا عليهم.

ونزل بنو قريظة أخيراً على حكم سعد بن معاذ ـ حليفهم في الجاهلية ـ وحكم سعدٌ أن تقتل المقاتلة، وأن تُسبَى النساء والذرية، واستسلم الزُّبير بن باطا، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، وأشفق عليه المسلمون أن يقتل فألحقوه في السبي، وسعى ثابتُ بنُ قَيسُ بن شمّاس إلى رسول الله ﷺ يستطلقه منه مكافأة له على جميل كان قد صنعه معه في الجاهلية، واستجاب النبي لصاحبه، وأطلق له الزبير وامرأته وولده وماله، وقدّم المسلمون اليهود للقتل، وجعلوا يضربون أعناقهم جزاء غدرهم وعقوبة لهم على ما كانوا يريدون صنعه بالمسلمين لو ظفروا بهم.

وعلم الزبير بن باطا بمقتل أصحابه، فجاء إلى ثابت ابن قيس وقال له:

---

(١) جرثومة الشيء: أصله.

يا ثابت، ما فعل الذي كأنَّ وجهه مرآة صينية، تتراءى فيها عذارى الحيّ: كعب بن أسد[١] ؟.

وأجاب ثابت: قُتل.

وقال الزبير: فما فعل سيِّد الحَضَر والبادي: حُيـي ابن أَخْطَب[٢].

وأجاب ثابت: قُتل.

وقال الزبير: فما فعل مقدِّمتنا إذا شددنا، وحاميتنا إذا فررنا: عَزَّال بن شَمْوال؟

وأجاب ثابت: قُتل.

وقال الزبير: فما فعل المجلسان: بنو كعب بن قريظة، وبنو عمرو بن قريظة؟

وأجاب ثابت: قُتلوا.

وقال الزبير بعد الذي سمع:

فإني أسألك يا ثابت بيدك عندي؛ إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فوالله ما أنا بصابر فَيْلَةَ دَلْوٍ[٣] حتى ألقى الأحبّة!!

وقال ثابت: تعال، فقدَّمه، فضربت عنقه.

وحكى ثابت للمسلمين الحوار الذي دار بينه وبين الزبير، فضحكوا ملء أفواههم لغرور هذا الحَبْر وحماقته.

وبلغ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قوله: «ألقى الأحبة» فقال: **يلقاهم ـ والله ـ في نار جهنم خالداً فيها مخلداً!!.**

---

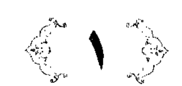
(١) كعب بن أسد: هو زعيم بني قريظة.

(٢) حُيـي بن أخطب: هو سيد بني النضير من اليهود، وكان قد دخل حصن بني قريظة بعد ذهاب الأحزاب، لعهد قطعه على نفسه أنه يصيبه ما أصابهم، وكان هو الذي حمل اليهود على الغدر.

(٣) فيلة دلو: أي: زمن إفراغه من الماء.



حَبْر يهودي يَترقّب بعثة الرسول ﷺ



أكثر ابن الهَيِّبان في الآونة الأخيرة من النظر في أسفار التوراة، ونبوءات الأنبياء من بني إسرائيل، وأقوال الأحبار المدوَّنة؛ فقد ضاق ذرعاً بما آلت إليه حالة الناس عامة ويهود خاصة، من بُعدٍ عن الإيمان، ومن ضلال في الاعتقاد، وفساد في السلوك، وإغراق في الموبقات، وإنه الآن لينتظر متلهفاً بَعْثة هذا النبي الأخير، الذي أخبر عنه سائر أنبياء بني إسرائيل، ابتداءً من موسى وانتهاءً بالمسيح صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولكن متى سيبعث هذا النبي؟

وأين مكان بعثته؟

وأقبل الحَبْر اليهودي الصالح على الكتب المقدسة يقرؤها، ويُمعِن النظر بما فيها، ويجمع كل ما يتعلق بهذا النبي من بشارات الأنبياء، واجتهد في ذلك اجتهاداً عظيماً، وصبر صبراً طويلاً، حتى تحصَّل له عدد كبير من البشارات، فانكبّ عليها ينظر فيها ويتدبرها، وقضى في ذلك وقتاً خرج بعده بنتيجة أثلجت صدره، وأشاعت السرور في نفسه.

وكانت هذه النتيجة: هي أن هذا النبي العظيم الذي ستُختم به النبوّات، قد اقترب زمان خروجه جداً، وسيوشك الشرك أن يمَّحى، ويعمّ الدنيا نور الإيمان واليقين.

أما مكان ظهور هذا النبي فهو بلاد الحجاز، وتدلّ معظم النبوءات على أن خروجه سيكون من جهة الحرم الذي في مكة، وأن هجرته ومكان انطلاق دعوته: أرض بالحجاز بين حَرَّتين[١].

وبعد أن توصّل الحَبْر إلى هذه النتيجة أزمع على الهجرة من بلده دمشق إلى بلاد الحجاز ليرقب بعثة هذا النبي، وليكون أول من يؤمن به، ولا يسبقه في ذلك حَبْر من أحبار اليهود.

وعلم يهود دمشق بعزيمة حَبْرهم الصالح على الهجرة إلى بلاد العرب، فجاؤوا يريدون أن يثنوه عن هذه العزيمة، وألحّوا عليه في ذلك كثيراً، لكنه أصرَّ على الهجرة. وقال له قائل: لا والله ما رأينا أحداً صنع كما تريد أن تصنع!! تترك أرض الأنهار والأشجار، والثمرات والخيرات، وتذهب إلى أرض البؤس والجوع!! وتكلَّمَ آخرون بنحو هذا الكلام.

ولكن ابن الهَيِّبَان لم يعبأ بكلام قومه، وما زاد على أن قال:

يا قوم، نحن في وادٍ وأنتم في وادٍ، وما أنا بالذي يصرفني عن الهدى جوع ولا عطش، ولا تعب ولا ضنى، ولا بُعْد ولا غربة!!.



استقبل يهود بني قُرَيْظة في يثرب «ابن الهَيِّبان» ورأوا فيه شيخاً مهيباً جميلاً، وحبراً متمكناً جليلاً، فأحلُّوه في المكانة التي تليق به، وأحبُّوه وعظَّموه، وصار مرجعاً لهم في شؤون دينهم.

وكان أهم ما يشغل بال هذا الحَبْر هو الاطمئنان إلى صدق النتيجة التي توصل إليها بقراءاته في أسفار التوراة وشروح الأحْبار، وهي: هل أَنَّ هذا البلد الذي حلَّ فيه هو مُهاجَرَ خاتم الأنبياء حقاً؟ فأخذ يطوِّف في

(١) الحرّة: أرض بها حجارة سود. ويحيط بالمدينة المنورة حرّتان هما: حرّة واقم، وحرّة الوَبَرة.

جنبات البلد وأماكنها، وفعل ذلك مراراً، وفي كل مرة يزداد يقينه بصدق ما وصل إليه، وزاده اطمئناناً بذلك أن أَحْبار يهود الآخرين الذين كان يجلس إليهم ويُذاكرهم، كانوا يحدّثونه أن هذا البلد هو مهاجر النبي الأخير، وأن آباءهم إنما هاجروا إليها منذ قرون تَوَكُّفاً[1] لبعثة هذا النبي.

وبعد هذه الطمأنينة، بل هذا اليقين، انصرف الرجل إلى خاصة نفسه، وأخذ يجتهد في العبادة على عادته، ورأى فيه قومه رجلاً تقيّاً برّاً صادقاً، يمتاز من كثير من الأحبار بِصدقه الذي لا أَثر فيه لنفاق، فهو يأمر الناس بالخير ويسبقهم إلى فعله، وينهاهم عن الشر ويبادر إلى تركه. أما كلماته ومواعظه فكان لها تأثير كبير في النفوس، يشعر من يستمع إليها أنها تخرج من قلبه، فتدخل قلوب مستمعيه، ثم هو قليل الفُضُول جداً، يفعل أكثر مما يقول، ويؤثِر العزلة.

وضاق ذرعاً بابن الهيبان أَحبار يهود الآخرون، لا سيما «الزُّبير بن باطا» وأَزعجه حديث قومه عن سيرته الحميدة، وتقواه وصدقه، وقال لبعض الناس:

إن كان صادقاً ـ كما تقولون ـ فهَلُمُّوا، فاستمطروا به ـ كانوا قد قُحِطُوا سنتهم ـ!!.

وجاء يهود بني قريظة إلى الحَبْر التقي، وطلبوا إليه أن يخرج معهم ليستسقوا، فاعتذر الرجل، لكنهم أَلَحّوا عليه، فوافق على الخروج معهم. بَيْدَ أنه اشترط عليهم أَن يقدِّم كلٌّ منهم بين يَدَي خروجه صدقة، ففعلوا، فخرج بهم، ودعا لهم، فلم يلبثوا أن نشأت سحابة صغيرة في السماء، ثم امتدت حتى غَطَّت السماء، ثم نزل الغيث غزيراً مدراراً، فرويت الأرض، وسالت الأودية، وابتهجت النفوس، فازدادت مكانة «الحَبْر» في نفوس

(١) توكفاً: توقعًا.

يهود، وتعلقت به القلوب، فقد كان هذا برهاناً واضحاً على صدقه وإخلاصه وقبوله عند الله.

وتكرر استمطار يهود بابن الهيبان، وفي كل مرة كانوا يغاثون به، وكلما أُجيبوا ازداد إكبارهم لهذا الحَبْر، حتى غدت له منزلة لا يُساميه فيها أَحد من جميع أحبار يهود، لا في بني قُرَيظة، ولا في غيرهم من يهود يثرب القاطنين فيها.

٣

تقدم العمر بابن الهيبان، حتى جاوز الثمانين، لكنه بقي محتفظاً بسائر قواه، ومضى عليه سنوات طويلة وهو يترقب بَعْثة خاتم النبيين، وكان يسأل كل قادم من حرم مكة عن هذا النبي، لكنه كان يُجاب بالنفي، فيتحسر على تأخر ظهوره، ويدعو الله أن يعجِّل بذلك، ويتمنى أن يمتد به العمر أكثر ليدرك هذا الأمر العظيم الذي انتظره كثيراً.

بَيْدَ أن العمر لم يطُلْ بهذا الحَبْر أكثر مما قد بلغ، فمرض مرضاً شديداً، وخشي أن يوافيه أَجَلَه، فبكى حزناً أن يموت ولا تكتحل عيناه برؤية أعظم الأنبياء، ورأى عُوَّاده من يهود أحزانه الكثيرة، وحسبوا أنه يبكي جزعاً من الموت، فجعلوا يطيِّبون خاطره، ويثنون على صَلاَحه، ويقولون له: إنهم جميعاً يتمنون أن يموتوا على مثل ما يموت عليه من التقوى والسيرة الحميدة والعبادة العظيمة.

لكن ابن الهيِّبان لم يعبأ بكلامهم، واستمر على جزعه بل لقد ازداد، وأعاد عُوَّاده كلامهم، فأخبرهم أن سبب جزعه ليس هو الموت الذي سيُلاقيه، ولكنه أمر آخر، وسأله قومه عن هذا السبب، فأمسك عن الكلام.

كان ابن الهيِّبان يأمل أن يبلّ[1] من مرضه، وأَن ينال أُمنيته، لكنه

---

(١) أبلَّ من مرضه: عوفي منه.

أَخيراً أيقن أنه لن يدرك هذا النبي لأمر يريده الله، فدعا يهود بني قُرَيْظة وقال لهم:

كيف علمتم سيرتي فيكم؟

فأجاب بعضهم: ما رأينا منك إلا خيراً.

وقال آخرون: لا والله ما رأَينا حَبْراً أَتقى ولا أَصدق ولا أَزهد منك!!.

ثم قال لهم:

ما ترونه أَخرجني من أرض الخمر والخمير[1] إلى أرض البؤس والجوع؟

قالوا: أَنت أَدرى.

فقال لهم عندها:

والله يا معشر يهود، إني إنما قدمت هذه البلدة أتوكف[2] خروج نبي قد أظلّ زمانه[3] وهذا البلد مهاجره، فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه، وقد أظلّكم زمانه، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري ممّن خالفه، فلا يمنعنكم ذلك منه!!.

وأجاب يهود:

صدقت أَيها الحَبْر، فلطالما سمعنا عن هذا النبي، ونحن نترقب ظهوره، وسوف نبادر الأمّيين[4] إليه.

وخاطبهم الحَبْر ثانية:

ولقد رأيتم مني جزعاً لم تعهدوه فيّ، وما أَنا بالذي يجزع من لقاء

---

(١) الخمر والخمير: الشجر الملتف.

(٢) أتوكف: أتوقع.

(٣) أظلّ زمانه: اقترب زمانه.

(٤) نبادر الأُميّين إليه: نسبق العرب إليه.

ربه، وإنما جزعي أن يفتني حظي من هذا النبي، فإذا أَدركتموه فأقرِئوه منّي السّلام، وقولوا له: إن ابن الهيِّبان يشهد أَنك رسول الله.

وبعد أَيام قليلة أغمض الشيخ الكبير عينيه، ولفظَ أَنفاسه الأخيرة، ودفنه يهود في قبره، وجزعوا عليه، وبقي ذكره غضّاً على أَلسنتهم يثنون عليه خيراً، ويمتدحون سيرته، ويتذكرون فضائله.

٤

لم يمضِ على وفاة ابن الهيِّبان غير بضع سنين، حتى بُعث محمد رسول الله ﷺ في مكة المكرمة، وتسامع أَهل الحجاز بخبره؛ وأَرسل أهل مكة إلى يهود يثرب يسألونهم عنه، فأخبروهم عن صفاتٍ إن كانت به فهو نبي، وكان ما قاله يهود متحققاً في رسول الله، ثم إن الله ـ سبحانه ـ شاء أن تنتقل الدعوة من مكة إلى المدينة، فآمن أَهلها، ودعوا رسول الله ﷺ إليهم، فهاجر واستقبلوه أعظم استقبال، وأَصبحت المدينة دار هجرته ودعوته.

ورأى أحبار يهود رسول الله، وحادثوه وسألوه، وتيقنوا في أنفسهم أنه النبي المبشَّر به؛ لكنهم كبر عليهم أن يُبعث من العرب الأمّيين، فكفروا به حسداً وعناداً، ودعاهم هو إلى الإيمان وذَكَّرهم وحذَّرهم وأنذرهم، لكنهم ازدادوا في غيّهم وضلالهم، وكتب رسول الله بينه وبينهم عهداً على الجوار الحسن والدفاع المشترك عن المدينة، والحرية الدينية، والاحتكام إليه، فوافقوا على ذلك العهد وأَقروه.

لكنهم وبعد زمن يسير نقضوا عهدهم، فعاقبهم النبي على ذلك، ثم نقضوه مرةً أخرى، فعاقبهم الثانية، ثم كان آخر من نقض العهد «بنو قُرَيْظَة» فقد خانوا النبي ﷺ في أصعب المواقف وفي أَحرج الأزمات في غزوة الأحزاب، فانضموا إلى أعدائه، وهدّدوه وأصحابه بالاستئصال، وسعَوا في ذلك.

وخيَّب الله العزيز الحكيم آمال المشركين وآمال يهود، وردّ الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وأمكن رسوله من يهود، فحاصرهم عليه الصلاة والسلام، فأَرَزُوا إلى جُحورهم[1]، وانكمشوا في حصونهم، ظنّاً منهم أنها تُغني عنهم من الله ورسوله شيئاً.

وقام في يهود زعيمهم «كَعْب بن أسد» وقد أَيقن أنه قد تمكن منهم فقال لهم:

يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال:

نتابع هذا الرجل ونصدِّقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبيّ مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم.

فرفضوا طلب زعيمهم.

فقال لهم: فإن أبيتم عليَّ هذه، فهلمَّ فلنقتل أَبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمدٍ وأَصحابه، رجالاً مُصْلِتين السيوف، لم نترك وراءنا ثَقَلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك؛ نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر؛ فلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء.

فأجابوه: نقتل هؤلاء المساكين!! فما خير العيش بعدهم؟

فقال: فإن أبيتم عليَّ هذه فإن الليلة ليلة سبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلّنا نصيب من محمد وأصحابه غِرَّة.

فقالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يُحدث من كان قبلنا إلا

---

(١) أرزوا إلى جحورهم: انضموا إلى مخابئهم.

من قد علمت، فأصابه ما لم يَخْفَ عليك من المسخ[١].

وعندها طفح قلب زعيمهم بالمرارة منهم وقال مؤنباً لهم:

ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً!!.

٥

وكان يصغي إلى حديث كعب بن أسد شاب يهودي اسمه «أسد بن سَعْية» فلما قال لهم كعب عن رسول الله: «فوالله لقد تبين لكم أنه نبيٌّ مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم»، فكأنما أيقظته هذه الكلمة من سبات، وسعى إلى أخيه ثعلبة وقال له: أسمعت ما قال كعب بن أسد في محمد!! فقال: نعم والله، وإن كلمته نفذت إلى أعماق قلبي، فقال أسد:

أَوَلا تذكر يا أخي ما قاله لنا الحَبْر الصالح ابن الهيِّبان في هذا النبي، وما أوصى قومنا به، فلماذا يكفر قومنا وهم يشهدون، ولماذا يصدّون عن سبيل الله وهم يعلمون!!.

وبينا هما يتحدثان في هذا الأمر جاءهم صديقهم «أسد بن عبيد» ففاتحاه بما تحدّثا به، فقال: نعم والله، إن محمداً لرسول صدق، فهلمّوا فلننزل إليه ولنَدَعْ قومنا في غيّهم.

وقال «أسد بن سعية»: لا، حتى نُعذر في قومنا.

وتشجع الشبان الثلاثة وقالوا لقومهم:

يا بني قريظة! والله إن محمداً لهو النبي الذي عهد إليكم فيه ابن الهيِّبان!!.

فأجابوا جميعاً: ليس به.

وقال الشبان الثلاثة:

---

(١) انظر قصة هؤلاء الذين مسخوا قردة وخنازير في تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة، والآيات ١٦١ ـ ١٦٣ من سورة الأعراف.

بلى ـ والله ـ إنه لهو بصفته!!.

وأجاب قومهم: ليس به.

وأعرض الشبان الثلاثة عن قومهم، ونزلوا إلى رسول الله ﷺ، فأسلموا وفرح بهم، وهداهم الله بحديث ابن الهيِّبان، فصاروا من خير الناس، من أصحاب رسول الله ﷺ وأنصاره.

أما قومهم، فقد أَمكن الله منهم بعد قليل، فعُرضوا على السيف[1]، وذهبوا إلى الجحيم.

وحمد الشبان الثلاثة الله على إسلامهم ونجاتهم من القتل في الدنيا والنار في الآخرة، وسعَوا إلى رسول الله ﷺ فحدّثوه بحديث «ابن الهيبان» وأخبروه أنه يقرئه السلام، ويشهد له بالرسالة. فردّ النبي ﷺ التحية، وأعجبه حديث الرجل، وأثنى عليه خيراً، وقال:

«ثلاثة يُؤتَون أجرهم مرتين:

ـ رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيّه وأدرك النبي ﷺ، فآمن به واتّبعه وصدّقه، فله أجران.

ـ وعبد مملوك أدّى حقّ الله وحقّ سيده، فله أجران.

ـ ورجل كان له أَمَة[2] فغذّاها فأحسن غذاءها، ثم أدّبها فأحسن تأديبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران».

وانبسطت أسارير الشبان الثلاثة سروراً بهذه البشرى، وكان ذلك اليوم أسعد يوم في حياتهم.

---

(١) عرضوا على السيف: ضربت أعناقهم، وكان ذلك جزاء وفاقاً، فقد كانوا رصدوا هذه العقوبة للمسلمين لو أنهم ظفروا بهم.

(٢) الأمة: العبدة

رَاهِبٌ يتَنَبّأ للرّسُول وهوَ غلام

١

شبّ الفتى «جرجيس» على الإيمان والطاعة، حتى صار خير فتيان بني «عبد القيس» في بلاد البحرين، وأقبل على علوم الدين يتزود منها من غير شبع ولا كلل، حتى ثقف تعاليم الإنجيل كلها، وصار يحفظها عن ظهر قلب، وحتى أحاط علماً بكل ما عند رجال الدين في قومه، فأصبح نِدّاً لهم، يجيب السائلين، ويقضي بينهم، ويعظ الناس.

بَيْدَ أن جرجيس لم يروِ تعطشه للعلم ما وجده عند قومه، فسأل الأسقف الأكبر عن أصل هذا الدين الذي هم عليه، فأجابه: هو في بلاد الشام، وأردف قائلاً: ولكن يا بني دَعْك في بلادك وقومك، بين أهلك وعشيرتك، ولا تشق على نفسك، ولا تنصب[1] جسمك بالأسفار، فما حصلته من العلم يكفيك.

لكن جرجيس لم يُبالِ بنصيحة الأسقف الأكبر، فقد ودَّع أهله وقومه، وارتحل إلى بلاد الشام، لينال هناك من علوم الدين ما يشفي غليله، ويسدّ نهمته.

وفي بلاد الشام عاش جرجيس زماناً يتنقل من بلد إلى بلد، ومن دَيْر إلى دَيْر، ومن حَبْر إلى حَبْر، حتى إنه لم يدع مكاناً إلا أتاه، ولا حَبْراً إلا

(١) تنصب جسمك: تتعب جسمك.

جلس إليه وأخذ عنه، فقد ذهب إلى الموصل وحلب وحمص ودمشق وبصرى وإيلياء وغيرها، وحتى نصيبين وعمورية لم يدعهما، فقد سعى إليهما، وانتفع من أسقف عمورية كما لم ينتفع من أسقف آخر، فقد رأى عنده إيماناً عظيماً وعلماً كبيراً. . وأخيراً وبعد رحلة طويلة استقرَّ به المقام في بصرى.

أما لماذا استقرّ به المقام في بصرى؟ فلأن الرجل قد تجلّت له حقيقة رهيبة، وهي أن أهل دينه قد غيّروا دينهم، وانحرفوا كليّاً عن الأصول التي جاءهم بها المسيح، ولم يبق على الدين الحق إلا أشخاص قلائل جداً، وأُصيب الرجل بخيبة أمل عظيمة بعد الذي رآه من البون الشاسع بين الأُصول التي جاء بها المسيح عليه السّلام وبين ما عليه رجال الدين الآن، بَلْهَ سائر الناس!!.

ولقد حاول أن يُصلح الأمور، فبذل في ذلك جهداً كبيراً، لكنه أخفق وخاب مسعاه، حتى أنه يئس من أية بارقة أمل في هذا المجال؛ لذا لم يبق أمامه رجاء، إلا بخاتم النبيين الذي بشّر به المسيح، وذُكر اسمه وصفته في الإنجيل، ذلك النبي الذي سيخرج في بلاد العرب من نحو الحرم، والذي قد أظلّ زمانه، فهو قد اختار بصرى ليسأل دائماً عن هذا النبي رجال قريش الذين يأتونها بتجارة لهم في صيف كل عام.

٢

عاش جرجيس في بصرى زماناً طويلاً ينتظر خروج خاتم النبيين، ويتوكّف ظُهوره، ويسأل عنه كل قادم من أرض العرب، وخلال ذلك كانت مكانته قد سَمَت سَموّاً عظيماً، فقد رفعه علمه وتقواه إلى أن صار أعظم رجال الدين في بلاد الشام: علماً وعملاً، وخلقاً وسيرة؛ حتى لقد أطلق عليه الناس اسم «بحيرا» وصار عَلَماً له لا يعرف إلا به، وأرادوا بذلك تشبيهه بحَبْر راهب عاش قبله بزمان وشهر شهرة واسعة بتقواه وصلاحه،

وعلمه وحفظه، وبقي الناسُ دهراً طويلاً يلهجون بذكره ويثنون عليه.

ثم بدا «لبحيرا» الجديد أن ينقطع عن الناس بعد أن سئم ما هم عليه، ويعيش عيشة الرهبان، فاتخذ لنفسه صومعة ـ على عادة رهبان ذلك الزمان ـ بعيدة عن الناس في ناحية من بصرى، وأقبل على العبادة وعلى مذاكرة علومه، وشعر براحة نفسية في البعد عن الناس، وإن كانوا هم لم ينقطعوا عن زيارته، فقد كان هناك ناس يزورونه لِماماً[1]، فيسألونه عن أمور دينهم، ويؤدون له بعض الخدمات، ويتباركون برؤيته، ويطلبون دعاءه.

وكان في بصرى صومعة للراهب القديم «بحيرا» كان الرهبان يتوارثونها كابراً عن كابر[2]، ولا يصل إليها إلا أفضل الناس وأعلمهم، وفي تلك المدة مات راهب تلك الصومعة، فاتجهت أنظار الناس جميعاً ـ وبخاصة الرهبان ـ إلى أن ينزلها بحيرا الجديد، الذي حكت[3] سيرته سيرة ذلك القديم، فتحول بحيرا من صومعته إلى الصومعة العظمى، التي على طريق المسافرين إلى بلاد الحجاز، وارتفعت مكانته أكثر مما كانت عليه، وصار أعظم الأحبار والرهبان في بلاد الشام، وأوسعهم علماً، وأتقاهم تقوى!!.

ولقد اتسعت شهرة هذا الراهب الصالح حتى تجاوزت بلاد الشام، وسارت بذكره الركبان؛ وأثنى عليه الناس في كل مكان، ثم حصل أمرٌ هام جعل ظن الناس فيه يقيناً، فقد سمع كثير من الناس في جزيرة العرب وبلاد الشام عشية ليلة من الليالي هاتفاً يهتف ولا يُدْرَى من هو، ويقول:

ألا إنّ خير أهل الأرض ثلاثة:

---

(١) لماماً: قليلاً.

(٢) كابراً عن كابر: أي: يرثونها عن أجدادهم، كبير عن كبير في الديانة والعلم والسيادة.

(٣) حكت سيرته: شابهت سيرته.

بحيرا.

ورِئاب بن البراء الشني.

والثالث المنتظر[١].

ولقد عرف كثيرون من الناس من هو بحيرا ورئاب الشني. أما هذا الثالث المنتظر، فكان قلّة قليلة جداً من الناس يعلمونه وينتظرونه، وفي مقدمتهم بحيرا الراهب التقي الذي جاوز السبعين، ومضى على ترقبه لهذا المنتظر ما يزيد على نصف عمره.

٣

شغلت قريش كلها في الأيام الأخيرة بأمر رحلة الصيف المتوجهة إلى الشام قريباً، ولم يبق صاحب مال إلا دفعه لأحد رجال القافلة ليتاجر له فيه، وماجت مكة كلها بحركة كبيرة، ونشاطِ عظيم، وزيارات ومحادثات، وإعداد واستعداد.

وفي بيت عبد المطلب - زعيم مكة الذي توفي من قريب - جلس أبناؤه الكثر حول أخيهم أبي طالب الذي سيخرج بتجارة قومه في هذه الرحلة، وجعل كل واحد منهم يوصيه بحسن التصرّف في ماله، وبذل الجهد في تحقيق ربح وفير له، وأخذ هو يعدهم جميعاً وعداً حسناً، ويمنّيهم بما يُدخل السرور على قلوبهم.

وكان أقرب الناس إلى أبي طالب في ذلك الاجتماع ابن أخيه اليتيم «محمد بن عبد الله» فقد حرص على أن يكون قريباً جداً منه في تلك الأيام، ليتزود من النظر إليه، وليمنحه أكبر قدر من العطف والحنان قبل أن يرتحل، فقد كان يحبّه حبّاً عظيماً، وكان حبّه له يربو[٢] على حبّه

---

(١) الثالث المنتظر: هو رسول الله ﷺ. وقال ابن قتيبة عن رئاب: كان قبر رئاب الشني وقبر ولده من بعده لا يزال عندهما طش. وهو المطر الخفيف.

(٢) يربو: يزيد.

لأولاده، وكان ذلك الغلام أيضاً كَلِفاً بعمه[١]، يحبّ ملازمته، ويصعب عليه فراقه.

وتوجه أبو طالب إلى إخوته جميعاً بعد أن انتهوا من حديث التجارة، وجعل يوصيهم بابن أخيه ويبالغ في الوصية، وأبدى كل واحد منهم عن استعداده لكفالته وحسن رعايته، ورغب الجميع في ضمّه إليهم وكفاية شؤونه حتى يعود أبو طالب من رحلته.

وهنا طفرت دمعتان من عيني الغلام اليتيم، واقترب من عمه حتى لصق به، فضمّه أبو طالب إليه وقبّله، ورقّ له رقة عظيمة، وفهم أبو طالب ماذا يريد الغلام؛ فقد كان طلب إليه من قبل أن يأخذه معه، فاعتذر إليه خوفاً عليه من المشقّة، لكنه الآن غيَّر رأيه وقال لإخوانه:

دعوه لي «**فوالله لأخرجنّ به معي، ولا أُفارقه ولا يفارقني أبداً!!**».

وهنا ارتسمت البهجة على وجه الغلام الوسيم، وغاضت الدموع في عينيه، وسُعِدَ لكلمة عمه سعادة كبيرة، ثم انطلق يخبر أترابه[٢] بهذا النبأ.

وفي منتصف إحدى الليالي القمراء المنيرة، كانت مكة كلها يقظى، تودع أعزّ رجالها، ويناجي الناس بعضهم بعضاً في هدأة الليل الجميل، خشية أن يسمعهم القمر الذي يرمقهم بوجهه المشرق الرائع، ويقبِّل الوالد ابنه والوالدة ابنها، ويتعانق الرجال ويصافح بعضهم بعضاً.

وأقبل بنو هاشم جميعاً نحو الغلام اليتيم يقبِّلونه ويضمونه إليهم بحنان زائد، ويوصون به أبا طالب؛ وصافح هو عَمَّيْه ونِدَّيْه: حمزة والعباس، وصافح صديقه عبد الله بن أبي قُحافة[٣]، ودمعت عيون الغلمان الأربعة لذلك الفراق.

---

(١) كلف بعمه: محبّ له مولع به.
(٢) أترابه: جمع ترب، وهو المماثل في السن.
(٣) هو اسم أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وانطلقت القافلة، وغادرت أرض الحرم، وبقيت العيون ترمقها وهي تسري في جوف ذلك الليل المنور، إلى أن غابت عن الأنظار. وطلع على القافلة النهار، وتلته أيام وليالٍ عديدة، وتابعت سيرها في رحلة طويلة شاقة؛ لكنها ممتعة، فوراءها أرباح كثيرة، وآمال عريضة!!.

٤

خرج الراهب «بحيرا» ظهر يوم من الأيام من صومعته، وجلس تحت ظل شجرة قريبة، يستروِح بعض النسمات، فقد كان يوماً حارّاً شديد الحر، وأسند الرجل ظهره للشجرة، وجلس يجيل ناظريه فيما حوله تارة، ويرسل الطرف إلى الأُفق البعيد تارةً أخرى، فقد كانت صومعته تقوم على تلة عالية مشرفة، وكان يستطيع أن يرى منها كل ما يحيط به، مما قرب أو بعد.

ولفت نظر الراهب منظر قافلة كبيرة جداً مقبلة من جهة الحجاز، وإنها الآن لتنحدر من عقبة[1] عالية، وتحطّ في طريق نهايتها حاضرة بصرى، وقال الرجل في نفسه: لا بدّ أنها قافلة قريش التي اعتادت أن تَرِد بصرى صيف كل عام، وشعر بحيرا بسرور خفي يُداخله من رؤية هذه القافلة لم يدرِ له سبباً.

وأمعن الراهب النظر في القافلة فتبين له آخرها عند رأس العقبة، بينما كان أولها قد اقترب منه، وأدهشه هذه المرة أنه رأى منظراً عجباً، فهناك غمامة صغيرة تسير بسير هذه القافلة، لكنها تُظِل جملاً واحداً من ذلك القطار الطويل، يمشي في مؤخرة الركب، ولا تتقدم عليه ولا تتأخر عنه؛ حتى كأنها موكلة به تريد أن تدفع عنه لظى الشمس!! وتساءل في نفسه:

ما قصة هذه الغمامة؟! ومن عساها تُظِلّ؟!

---

(١) العقبة: طريق في الجبل وعر.

وأرجع الرجل البصر مرةً أخرى لينظر إلى الغمامة فلفت نظره هذه المرة ما هو أعجب!!

فماذا رأى بحيرا؟!!.

إنه رأى الحجارة العالية التي كانت تقوم على طرفي العقبة وتنحدر عن جانبي الطريق الذي يسقط منها، رأى تلك الحجارة، تهوي متدحرجة، وتسَّاقط من عليائها منكوسة على رأسها كلما مرّ بها صاحب الجمل المظلل بالغمامة!!.

ولم يقضِ الراهب عجبه من هذا الأمر حتى رأى أمراً جديداً زاده عجباً على عجب!! فقد رأى ـ وقد اقتربت منه مؤخرة القافلة ـ أن الأشجار الباسقة التي كانت تقوم على جانبي الطريق الموصل إلى بصرى، تنحني ساجدة كلما مرّ بها هذا الجمل الأخير، صاحب الآيات الباهرات[1]!!.

ودهش بحيرا مما رأى، وصاح:

يا لله مما أرى، فوالله لم أرَ له شبيهاً في حياتي، ولا بدَّ أن رجلاً مباركاً له كرامة على الله يصاحب هذه القافلة، وتجري هذه الآيات تنويهاً بفضله وإعظاماً لشأنه!!.

ولكن من عسى يكون هذا الإنسان؟!.

أهو النبي المنتظر الذي قد أظلّ زمانه؟!.

إني لم أسمع شيئاً عن خروجه، ولم يتحدث بعد بشأنه متحدّث!!.

وقطع بحيرا تفكيره، وأعاد النظر إلى الغمامة التي تظل الرجل

---

(١) ورد ذكر سجود الأشجار والأحجار في قصة ساقها الإمام الترمذي في سُننه، وقال عنها الإمام ابن حجر في الإصابة: وردت هذه القصة بإسناد رجالٍ ثقات. أما قصة الغمامة فقد ذكرتها سائر الكتب التي تحدثت عن صحبة رسول الله ﷺ لعمه في رحلته إلى الشام.

المبارك، وإلى الأشجار التي تسجد له كلما مرّ بها، ثم عاد إلى دهشته العظيمة وإلى تساؤلاته التي لم يجد لها جواباً!!.

وتوقفت القافلة قريباً منه، وتوقفت الغمامة في السماء فلم تعد تتحرك، وبدا كأنها لا تريد أن تفارق صاحبها الحبيب!!.

٥

حطّت القافلة الرحال في ظاهر مدينة بصرى لتستريح بقية يومها، ولتدخل المدينة صباح غد، فتبيع تجارتها، وتشتري بها تجارة من بضائع الشام المتجمعة في هذه الحاضرة.

أما الراهب فقد أخذه ما تقدم وما تأخر، وقال في نفسه:
لا بدّ أن أعرف سرّ هذا الإنسان العظيم الذي يصاحب هذه القافلة.

ثم رجع إلى نفسه يخاطبها:
ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وكيف الوصول إلى رجال القافلة، وأنا امرؤٌ تعوّدت ألاّ أُغادر صومعتي لشيء، وألا أعبأ بالقوافل الكثيرة التي تمر بجانبي، وألاّ ألتفت إليها؟!! والناس جميعاً ـ القريب والبعيد ـ يعرفون عني أنني لا أهتم بشؤونهم، ولا أجلس إليهم، ولا أُكلّمهم؟!!.

وهداه تفكيره إلى أن يحتال للأمر؛ بأن يعدّ طعاماً ثم يدعو إليه رجال القافلة، وأعدّ الراهب الطعام، وهيّأ له مكاناً تحت ظل الشجرة القريبة من صومعته، ثم هبط باتجاه القافلة يدعوهم إلى طعامه.

أما رجال القافلة، فكانوا قد حطّوا أحمالهم عن رواحلهم وأخلدوا إلى الراحة، بينما انطلق خدمهم وعبيدهم بإبلهم يرتادون لها المرعى في مكان قريب، واستأذن محمد بن عبد الله عمه في أن يصحبهم فأذن له، وقال له: ولكن لا تبعد عنّي كثيراً.

وأقبل بحيرا على رجالات قريش، في جلال السن ووقار الإيمان،

شيخ كبير، منوّر الوجه، فخم الجسم، شعر لحيته أبيض كأنه ثَغامَة[١]، يعلوه الوقار والجلال، وحيَّى بحيرا الركب، فردّوا عليه التحية، وقاموا له جميعاً، ورحبوا به، وعجبوا أشد العجب من مجيئه إليهم، فهو لم يغادر صومعته منذ سنين كما يتحدث عنه أهل بصرى، ولا يطمع أحد أن يراه إلا بعد بذل الجهد؛ فكيف يسعى هو إلى زيارتهم؟!!.

وتفرّس بحيرا في وجوه القرشيين، فلم يلفته شيء فيها، ونظر إلى الغمامة فإذا هي قد زاولت المكان، ونظر هنا وهناك، فإذا به يراها في مكان ليس بالبعيد.

وقال الراهب للقرشيين:

إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحبّ أن تحضروا كلكم: كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحرّكم.

وتكلم أحد رجال القافلة مبدياً عجبه من صنيع الراهب فقال: والله يا بحيرا إن لك لشأناً اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنّا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟!

وأجاب الراهب على الفور:

صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أُكرمكم وأصنع لكم طعاماً، فتأكلوا منه.

٦

أقبل رجال القافلة جميعاً إلى صومعة الراهب، ما عدا محمد بن عبد الله، فقد آثر البقاء إلى جانب الرحال، وجلسوا قريباً منها تحت ظل الشجرة، وكان بحيرا قد راقب مجيئهم فلم يشعر بالغمامة تسير معهم،

(١) الثغامة: شجرة بيضاء الثمر والزهر، تنبت في قمة الجبل، وإذا يبست اشتدّ بياضها.

فأسف لذلك أشدّ الأسف، ورحب بضيوفه حينما حضروا وبادرهم قائلاً:

هل بقي أحد منكم لم يأتِ يا معشر قريش؟

فأجابوه:

يا بحيرا، ما تخلّف عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غلام، وهو أَحدثنا سنّاً، فتخلَّف في رحالنا.

فقال الراهب:

لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم.

وقال رجل من قريش:

واللاَّتِ والعُزّى[1]، إنْ كان للؤم بنا أن يتخلّف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا!!

وسرّ الراهب لكلمة الرجل، وطرب قلبه لسماع كلمة «محمد» فهي قريبة من كلمة «أحمد» المسجلة عنده في الإنجيل، وقال للرجل: قم فأتِ به، فقام سريعاً إلى الرحال، فأمسكه بيده وجاء به إلى القوم، فنظر الغلام فرأى عمّه، فذهب وجلس إلى جواره.

وحين رأى بحيرا الغلام ابتهج قلبه، فقد رأى بأمّ عينيه أن الغمامة سارت معه تظلّه، حتى إذا جلس تحت الشجرة توقفت فوقها، وتهصَّرت أغصان الشجرة[2] نحو الجهة التي يجلس فيها.

وقدَّم الراهب الطعام لضيوفه فأقبلوا عليه، بينما أقبل هو على الغلام فاحتضنه متودداً، وقال للجميع:

---

(١) اللات والعزَّى: صنمان كانت قريش والعرب يعظمونهما في الجاهلية ويحلفون بهما، أما اللات فكانت لثقيف في الطائف، وكانت صخرة مربعة ولم تزل تعبد من دون الله حتى أرسل النبي ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها بعد إسلام ثقيف. أما العزَّى: فكانت في نخلة وكانت أعظم الأصنام عند قريش، تزورها وتهدي إليها وتتقرب عندها بالذبح، وقد أرسل النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد فأتى عليها.

(٢) تهصرت أغصان الشجرة: مالت.

يا معشر قريش، هذا غلام صغير، ما كان لكم أن تأتوا به في هذه الرحلة الشاقّة!! ومع ذلك تخلِّفونه وراءكم عن طعام تُدعون إليه!!

وجعل الراهب يلحظ الغلام لحظاً شديداً، والقوم مشغولون بالطعام، وهو يريهم أنه يتودد إليه لصغره، ورأى أن صفاته هي الصفات المسجلة عندهم في كتبهم للنبي المنتظر، وقال في نفسه:

إن الصفات هي الصفات، والموطن هو الموطن، والزمان هو الزمان!! فهل بقي شيء؟!

وفطن الراهب إلى «خاتم النبوّة» الذي قرأ عنه في الكتب، لكنه لم يشأ أن يبحث عنه في جسم هذا الغلام أمام سائر رجال القافلة حتى لا يريبهم أمره، وأخّر ذلك إلى ما بعد انفضاض القوم.

٧

قام القرشيون عن الطعام، وشكروا للراهب صنيعه، وذهبوا إلى رحالهم، وتأخر أبو طالب يريد أن يسأل الراهب عمّا رابه في ابن أخيه، فقد كان انتبه إلى شدّة لحظه له، وقرأ في وجهه تأثره من رؤيته!!.

غير أن الراهب سبق أبا طالب للكلام، فتوجه للغلام سائلاً:

يا غلام، أسألك بحق اللاتِ والعُزَّى إلاّ أخبرتني عما أسألك عنه[1].

فأجاب الغلام فوراً:

لا تسألني باللات والعزّى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قطّ بغضهما!!.

وقال الراهب:

---

(١) تقول الرواية: إنما قال له بحيرا ذلك، لأنه سمع قومه يحلفون بهما: أي باللات والعزّى، وأرى أنه قال له ذلك امتحاناً واختباراً.

فبالله ألاّ أخبرتني عمّا أسألك عنه.

وأجاب الغلام:
سَلْني عمّا بدا لك.

وأخذ الراهب يسأله عن أشياء من حاله: من نومه، وهيئته، وأموره كلها، وجعل الغلام يجيبه جواباً شافياً عن كل سؤال، وكلما أجابه عن أمر يطفو البشر على وجه الراهب، ويتألق نور محيّاه.

ثم قال للغلام:
ادنُ منّي.

فدنا منه، فنظر إلى ما بين كتفيه، فرأى شامَة سوداء كأنها الخاتم[١]، فصاح فرحاً:
آمنت بالله الواحد الأحد!!.

وازداد عجب أبي طالب مما رآه من الراهب وقال له:
ما الذي أدهشك في هذا الغلام يا بحيرا؟!.

فأجاب بحيرا:
يا أخا قريش! هذا رسول ربّ العالمين، هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين[٢]!!.

وقال أبو طالب:
وما علمك يا بحيرا؟

وأجاب:
إنكم حين أَشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبيّ[٣]!!.

---

(١) هذه الشامة: هي التي تسمّيها كتب السيرة والشمائل بـ «خاتم النبوّة».
(٢) ـ (٣) هذا الكلام لبحيرا ورد في رواية الترمذي التي وثقها الحافظ بن حجر وفي رواية البيهقي، واللفظ له.

وإني أعرفه بخاتم النبوّة، أسفل من غضروف كتفه..

ثم أخبره بما يجد من صفات نبي مرسل من نحو الحرم قد أظلَّ زمانه، وأن جميع هذه الصفات قد وجدت في هذا الغلام.

وتابع بحيرا:

ثم ألا ترى إلى رعاية الله لهذا الغلام، فإنه لا يتحرك إلا وتظلّه غمامة تقيه حرّ الشمس من بين القوم؟!.

وقال أبو طالب:

قد شعرت بظل الغمامة، ولكن ـ واللاتِ والعُزَّى ـ لم أفطن أنها تظل هذا الغلام وحده، ولم يشعر بهذا أحد من القوم!!.

والتفت الراهب إلى أبي طالب قائلاً:

ما هذا الغلام منك؟

فأجاب:

هو ابني.

فقال الراهب:

ما هو بابنك!! وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أَبوه حيّاً!!

وقال أبو طالب:

إنه ابن أخي.

فقال الراهب:

فما فعل أبوه؟

فأجاب أبو طالب:

مات وأمه حبلى به.

فقال الراهب عندها:

أما والله، لم يبق صفة للنبي المنتظر إلا وجدتها في هذا الغلام!!.

ثم أقبل على أبي طالب فقال له:

ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت، ليبغُنَّه شرّاً!!.

فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، نجده في كتبنا وما روينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت إليك النصيحة.

٨

عادت قافلة قريش إلى مكة بعد رحلة الصيف، وفرح المكيّون بمقدمها فرحاً عظيماً، وكانت رحلة مباركة، جلبت لأهل مكة أنواعاً من البضائع لم يروها، وربحوا فيها ربحاً لم يحصلوا عليه من قبل.

وعاد محمد بن عبد الله إلى أترابه، ليُجالسهم ويصحبهم ويسامرهم، وفرح به من جديد عمّاه العباس وحمزة، وصديقه الأثير عبد الله بن أبي قحافة.

بَيْدَ أن أصدقاءه قد شعروا هذه المرة بأن عمّه وكفيله أبا طالب قد ضنَّ به عليهم، فصار يصحبه إلى كل مكان يذهب إليه، ولا يدع له إلا الفرص القليلة، ليخرج إلى أصحابه، فيجلس إليهم، ويتحدث معهم.. وتضايقوا من ذلك، لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً.

أما أبو طالب، فكان الذي دفعه لذلك ما سمعه من بحيرا الراهب، لذا فقد خاف على ابن أخيه من اليهود، فهو يعلم أن مكة يرتادها هؤلاء للتجارة، وأنهم يملكون من المال ما يستطيعون به الفساد في الأرض، فأحبّ أن يأمن على ابن أخيه غائلة اليهود، فضمّه إليه، ولم يخلُ نظره عنه.

ومضى ما يزيد على عشر سنوات على تلك الرحلة التي ذهب فيها

محمد بن عبد الله مع عمّه إلى الشام، شبّ فيها شباباً رائعاً، وأكرمه الله بمزايا جميلة وأخلاق رفيعة، وطهّره من كل دنس، حتى صار أكرم فتيان قريش وأنبلهم.

وسمح له عمّه بمزاولة العمل بعد أن أنس منه رشداً عظيماً، وفتوّة كريمة، ويقظة تامة، وفهماً كبيراً. . فرعى محمد بن عبد الله الغنم عدة سنوات على أجر، ثم زاول التجارة، وأفضى إليه مال امرأة ثرية في مكة هي خديجة بنت خويلد، فقد دفعت إليه هذه المرأة مالها ليتاجر لها فيه لما اشتهر عنه من الأمانة والصدق.

وخرج محمد بن عبد الله في رحلة صيف جديدة إلى الشام بمال خديجة، وخرج معه ميسرة غلامها وخادمها، وقُدِّر لبحيرا الراهب أن يجتمع ثانية بمحمد بن عبد الله، فسلَّم عليه وضمّه إليه، ورأى فيه آيات النبوّة من جديد وقد أصبح فتى، بعد أن رآها فيه وهو غلام، فلم يملك نفسه أن قال له:

أشهد أن لا إلّه إلاّ الله، وأشهد أنك رسول الله، النبي الأميّ، الذي بشّر به عيسى بن مريم!!.

وسمع محمد بن عبد الله يومها تلك الكلمة، كما سمعها من قبل عشر سنوات، سمع كلمة (نبي) فلم يدرِ ما تعني، وطواها في قلبه الشريف أملاً أن تكشف له الأيام عن سرّها، ويعلم حقيقتها.

ومضت سنون عديدة، وتمَّ إعداد هذا الإنسان النبيل لحمل الرسالة الكبرى، ونزل جبريل الأمين بوحي الله إليه، وقال له:

يا محمد! أنت رسول الله، وأنا جبريل.

ويومها أدرك محمد صلوات الله وسلامه عليه ماذا تعني كلمة «نبي».

٩

وهكذا صدّقت الأيام نبوءة الراهب الصالح «بحيرا» فكان محمد بن عبد الله رسول الله ورحمته للعالمين كما قال.

ولكن ـ واحسرتاه ـ لم يطل العمر بهذا الحَبْر الصالح، فلم يكتب له أن يدرك زمان هذا النبي، فقد اختارته المنية وألحقته بجوار ربّه قبل أن ينزل الوحي على محمد رسول الله ﷺ بأكثر من عشر سنوات.

وبعـــد:

فرحم الله الراهب الصادق بحيرا، فقد تعرَّف على رسول الله وهو غلام صغير؛ وتنبأ له، بفضل ما أعطاه الله من علم وهداية وفِراسة.

ورحمه الله ثانيةً إذ اعترف بالحق فأذعن له، وصدَّق به، ولم يفعل ما فعله غيره من الاستكبار والجحود.

رحمه الله رحمة واسعة، فقد كانت نبوءته ـ التي سجّلها له التاريخ بأحرف من نور ـ عَلَماً من أَعلام نبوّة الهادي البشير محمد ﷺ، وبرهاناً مبيناً على صدقها.



الملك النّصرَاني الّذي أسْلَم وغامر بملكه

١

اشتد أذى قريش على أَصحاب رسول الله ﷺ، وأخذت كل قبيلة تفتن من آمن من أبنائها وعبيدها وحلفائها بأنواع من الفتن القاسية، من الضرب المبرِّح، إلى الحبس والتجويع، إلى الكيّ بالنار... وبلغ عتوُّ بعض رجالات قريش مبلغه في إيذاء المسلمين والإضرار بهم، فكان أبو جهل إن سمع برجل قد أسلم له شَرَفٌ ومَنَعَةٌ[١] أنَّبه وخزّاه، وقال: (تركت دين أبيك وهو خير منك!! لنُسَفِّهنَّ حلمك، ولنفيِّلنَّ[٢] رأيك، وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدنَّ تجارتك، ولنهلكنَّ مالك. وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به).

وكان رسول الله ﷺ يرى ما يصيب أصحابه فيحزنه ذلك، ويأمرهم بالصبر، ويواسيهم، ويرجو لهم النجاة مما هم فيه. وأخذ الأذى يزداد يوماً بعد يوم، وطالت مدته، ولاح للمستضعفين من المسلمين أن قريشاً سوف لا تنفك عنهم حتى تهلكهم، وازدادت أحزان النبي ﷺ على أصحابه، وأشفق عليهم كثيراً، فلا هو يستطيع حمايتهم، ولا يرضى زعيم من زعماء مكة أن يكونوا في جواره فيُرفع عنهم الأذى.

وفكر عليه الصلاة والسلام في أمر يخلِّص به أصحابه مما هم فيه،

---

(١) منعة: قوة تمنع من يريده بسوء.
(٢) نفيلن: نخطئن.

ورأى أنَّ خير ما يأمرهم به هو الهجرة من هذه القرية الظالم أهلها، واختار لهم بلداً خارج الجزيرة التي يعمّها الشرك، يحكمه ملك نصراني عادل رحيم، وقال لهم:

«إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده، حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه».

واستجاب المستضعفون لرغبة نبيّهم ﷺ، فأخذوا يخرجون من مكة أرسالاً[1]، وجعلت مكة تفقد كل يوم عدداً من أبنائها، واتجهوا جميعاً إلى بلاد الحبشة، وهناك اجتمع نحو من ثلاثة وثمانين رجلاً من المسلمين، معهم نساؤهم وأولادهم، وانتحوا ناحية من تلك البلاد فسكنوها، وهيّأ الله لهم الأمن والطمأنينة، فلم يستنكر أحد من أهل البلاد سكناهم، ولم يصبهم أذى يزعجهم، وأخذوا يظهرون دينهم ويصلّون وهم آمنون، فخفّف ذلك من أحزانهم لفراق نبيّهم ﷺ ولغربتهم عن وطنهم.

وكان جعفر بن أبي طالب قد أعطاه النبي ﷺ رسالة للنجاشي فقال لإخوانه: إنَّ رسول الله قد أرسل معي رسالة إلى الملك، فكيف نبلِّغه إيّاها؟ فأشار عليه بعض إخوانه بالتريث، وانتظار الفرصة المناسبة فأعجبه هذا الرأي، وأطبق عليه الجميع.

٢

علمت قريش بما أصابه أصحاب رسول الله ﷺ في بلاد الحبشة من الأمن على دينهم وأنفسهم، فزادها ذلك غيظاً عليهم، واجتمع زعماؤها ليمكروا بالمسلمين، واتخذ الجميع قراراً بوجوب مطاردة المسلمين في الحبشة، وأن يسعَوا لدى ملكها بإخراجهم منها، وردِّهم إلى مكة مخذولين منبوذين.

(١) أرسالاً: جمع رسل، بفتح الراء والسين، أي: أفواجاً وفرقاً متقطعة، يتبع بعضهم بعضاً.

وانتدبت قريش لهذه المهمة رجلاً محنكاً وسفيراً قديراً، هو عمرو بن العاص السَّهْمي، وأرسلت معه رجلاً آخر هو عبد الله بن أبي ربيعة، وزوّدتهما بالهدايا الثمينة للنجاشي وأعوانه، وطلبت إليهما أن يحولا دون اجتماع ملك الحبشة بالمسلمين لئلا يتأثر بكلامهم، وفرحت قريش بهذه المكيدة، واعتقدت أنها ستعكر على المسلمين صفو حياتهم في موطنهم الجديد، بل ستخرجهم منه مطرودين مقبوحين.

وفي الحبشة سعى عمرو بن العاص وصاحبه أَوّلاً إلى بطارقة الملك[1]، فأعطوا كل واحد منهم هدية ثمينة، وكلّموهم جميعاً فيما جاؤوا من أجله، ورجَوا نصرتهم عند الملك، فوعدهم الجميع بأن يشيروا في مجلس الملك بإخراج المسلمين من بلاد الحبشة وردّهم إلى مكة.

وبعد ذلك سعى عمرو إلى قصر الملك، وحمل معه الهدايا النفيسة واستأذن في الدخول على الملك، فأُذن له، فدفع الهدايا إلى الخدم ثم دخل هو وصاحبه حتى إذا رأيا الملك سجدا له، ثم قاما فسلّما عليه، فدعا عَمْراً فجلس عن يمينه وعبد الله فجلس عن شماله، وتبسم الملك لعمرو ـ وكان يعرفه من قبل ـ وقال له: مرحباً بصديقي، ما الذي جئتني به من مكة؟ فأخبره أنه جاءه بأَدَم[2] من أجود الأدم، وجيء للنجاشي به ونظر فيه فأعجبه، فشكر عَمْراً على ذلك.

ثم قال الملك لعَمْرو وصاحبه: أخبراني بالذي جئتما لأجله إلى بلادي؟

وأجاب عمرو:

(أيها الملك، إن فتية منّا سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في

---

(١) البطارقة: جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها عند العجم، وهو ذو منصب وتقدم عندهم.

(٢) الأدم: الجلد المدبوغ، وكان من أحب الهدايا للنجاشي.

دينك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجأوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك فيهم عشائرهم: آباؤهم وأعمامهم وقومهم، لتردّهم عليهم، فإنهم أعلى بهم عيناً[١]، فإنهم لم يدخلوا دينك لتمنعهم[٢] لذلك).

وتكلم عدد من البطارقة، وأشاروا على الملك بردّ هؤلاء إلى قومهم، وبصنع هذا الجميل إلى أهل مكة وزعمائها.

وأنصت الملك للجميع، حتى إذا انتهوا من كلامهم ابتدأ يتكلم وقد علا وجهه الغضب الشديد، فقال بصوتٍ عال:

لا ـ لعمر الله ـ لا أردّهم حتى أدعوهم فأُكلمهم، وأنظر ما أمرهم!!

قوم لجأوا إلى بلادي، واختاروا جواري على جوار غيري!!

فإن كان كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعم عيناً[٣].

ثم قال لعمرو وصاحبه: قُوما عنّي، وائتياني غداً.

وخرج عمرو من مجلس النجاشي كاسف البال، حزين النفس لما جرى، وخشي أشد الخشية أن يتأثر النجاشي غداً بمنطق المسلمين، وأن يعطف عليهم، فهو ملك رحيم عادل، لا يكره شيئاً كما يكره الظلم[٤]،

---

(١) أعلى بهم عيناً: أي: أبصر بهم.
(٢) تمنعهم: تحميهم.
(٣) أنعم عيناً: أي: لم أكرمهم بردّهم إليهم، ولم أقرّ أعينهم.
(٤) كان النجاشي متديناً يخاف الله، فكان عادلاً رحيماً، ثم لقد مرّت عليه تجربة قاسية ذاق فيها مرارة الظلم، فكان ذلك مما زاده كراهية له. وخلاصتها:
إن والد النجاشي كان ملكاً للحبشة ولم ينجب سواه، وكان للنجاشي عمّ وله عدد كبير من الأولاد، فرغبت الحبشة بتمليك عمّه ليَرِث أولاده المُلْك من بعده الواحد بعد الآخر، فقتلوا أباه، ثم نصّبوا عمّه. لكن عمّه قرَّبه منه حتى صار مستشاره الأول، فغضبت الحبشة، وطلبت من الملك طرد ابن أخيه، فاستجاب لهم، وباعه بيع الرقيق، فأمضى سنوات بعيداً عن وطنه في بلاد العرب، ثم إن الله عاقب هذا العمّ بصاعقة قتلته، ورغب الأحباش بتمليك أحد أولاده، فلم يجدوا واحداً منهم =

ولم تنفع عَمْراً وصاحبه وساطة البطارقة ولا الهدايا إليهم، فقد أسكت الملك الجميع.

وأمر الملك واحداً من خدمه فذهب إلى المسلمين وأخبرهم أنه يأمرهم بأن يحضر منهم جماعة إليه غداً، فإن له إليهم حاجة.

٣

شعر المسلمون في الحبشة بمجيء عمرو وصاحبه وبالهدايا التي يحملانها، ورأوا أنهما إنما قدما لشرٍّ يريدانه بهم، فلما جاء رسول الملك، تأكد لهم هذا الأمر، فاستاؤوا لذلك أيّما استياء، وعلَت وجوهَهم جميعاً الأحزان، وقال الزبير بن العوام: أحلف بالله، ما جاء عمرو وصاحبه إلا لشرٍّ يريدانه بنا.

وقال مصعب بن عمير: قاتل الله قومنا، ألم يَكْفهم ما فعلوه بنا، ألم يشفِ غيظهم أن أخرجونا من بلدنا، فيلاحقونا هنا في أرض الغربة؟!.

ولم يعجب عثمان بن عفان هذا الكلام، قال لإخوانه: تكلموا يا قوم فيما تجيبون به النجاشي غداً إن سألكم، فإن هذا أجدى لكم.

وقال الجميع: نعم ـ والله ـ هذا أجدى لنا.

وتكلم جعفر بن أبي طالب فقال:

وماذا نقول؟ نقول ـ والله ـ ما نعرفُ وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاءنا به نبينا ﷺ كائن مِنْ ذلك ما كان، ودعوني أُكلمه غداً.

وأجاب الجميع: هذا ما نقوله، وكن أنت خطيبنا غداً يا جعفر.

وسعى وفد من المسلمين في اليوم التالي إلى قصر الملك، واستأذنوا

= يصلح لذلك، فاضطروا للتفتيش عن النجاشي هذا، فأعادوه، وملّكوه عليهم، واستقامت به الأمور أيما استقامة!!.

في الدخول، فأُذن لهم، وعلَّمهم الخدم كيفية الدخول على الملك وتحيته وصورة السجود له، لكنهم دخلوا على النجاشي في مجلسه، فسلّموا ولم يسجدوا، وفوجئوا بالقاعة مزدحمة بالبطارقة والأساقفة والأعوان، وبعمرو بن العاص وصاحبه يجلسان قريباً من الملك، وفوجيء جلوس الملك بصنيع المسلمين في عدم سجودهم له، فسكتوا ينتظرون كلامه.

وابتدرهم النجاشي قائلاً بالعربية ـ وكان يجيدها ـ:

أيها الرهط! ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟

ثم أخبروني لماذا لم تحيّوني كما يحيِّيني سائر الناس، ومن أتانا من قومكم؟!.

وتكلم خطيب المسلمين جعفر فقال:

(أيها الملك، كُنَّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله عزّ وجلّ لنوحِّده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصِلَةِ الرحم، وحسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وشهادة الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله لا نُشرِك به شيئاً، وإقام الصلاة.

فصدَّقناه وآمنَّا به، واتَّبعناه على ما جاء به، فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم الله علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا.

فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله عزّ وجلّ، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث.

فلما قهرونا وظلمونا، وشقّوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظلم عندك أيها الملك.

وأما التحية، فإن رسول الله ﷺ أخبرنا أن تحية أهل الجنة (السلام) وأمرنا بذلك، فحييناك بالذي يحيّي بعضنا بعضاً).

٤

كان جعفر يتكلم والنجاشي يصغي إليه باهتمام بالغ، فقد أُعجب بكلامه ومنطقه، وأعجبه أكثر من ذلك نبأ هذا النبي الذي يخبر عنه، فقد كان يعلم أن هناك نبيّاً سيُبعث ويختم الله به النبوّة، وأن المسيح قد بشّر به وسمّاه لأتباعه، وقال عنه أن اسمه (أحمد)[1].

وأُعجب النجاشي أيضاً بأمر هذا الدين، وما يدعو إليه من الفضائل، وما ينهى عنه من الرذائل، وما يقوم عليه من مبدأ التوحيد.

وقال لجعفر:

ويحك، هل معك شيء مما جاء به هذا النبي؟

وأجاب جعفر: نعم، اسمع أيّها الملك.

وشرع جعفر يقرأ، والنجاشي يصيخ السمع، وبقية مَنْ في المجلس يتناوبون النظر بين جعفر والنجاشي، ولا يفهمون من الكلام شيئاً، إلا أنهم قد سيطر عليهم جو من الرهبة، وبدت آثارها في وجوههم.

وقرأ جعفر صدر سورة مريم حتى إذا وصل إلى قوله تعالى:

---

(١) من أسماء رسول الله ﷺ: أحمد. وقد قال عليه السلام:
«لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأن العاقب». ومعنى الحاشر: أي يحشر الناس خلفه، والعاقب: آخر الأنبياء.

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾، قال النجاشي: اقرأ وتأنَّ بقراءتك ما استطعت.

وتابع جعفر قراءته:

﴿فاتخذت من دونهم حجاباً، فأرسلنا إليها روحَنا فتمثل لها بشراً سوياً. قالت: إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تَقِياً. قال: إنما أنا رسول ربكِ لأهب لك غلاماً زكياً. قالت: أنَّـى يكون لي غلامٌ ولم يمسسني بشر ولم أكُ بغياً؟! قال: كذلك قال ربك هو عليّ هين، ولنجعله آيةً للناس ورحمةً منّا، وكان أَمراً مَقْضِياً. فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً. فأجاءها المخاض إلى جِذْع النخلة، قالت: يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْياً مَنْسِياً. فناداها مِنْ تحتها: ألاَّ تحزني قد جعل ربك تحتك سرِياً[١]. وهُزي إليك بجذع النخلة تُساقِط عليك رُطَباً جنيّاً. فكلي واشربي وقَرِّي عيناً، فإمَّا تَرِيَنَّ من البشر أحداً فقولي: إني نذرتُ للرحمن صوماً، فلن أُكَلّم اليوم إنسيّاً. فأتت به قومها تحمله، قالوا: يا مريم لقد جئت شيئاً فريّاً!! يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ وما كانت أمك بغياً!! فأشارت إليه، قالوا: كيف نكلّم من كان في المهد صبياً؟! قال: إني عبدُ الله، آتانيَ الكتاب وجعلني نبيّاً. وجعلني مباركاً أين ما كنت، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيّاً. وبَرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيّاً. والسلام عليّ يوم وُلدتُ ويوم أموتُ ويوم أُبعثُ حيّاً. ذلك عيسى ابن مريم قولَ الحق الذي فيه يَمْتَرون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. وإنَّ الله ربي وربُّكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾.

ولم ينته جعفر من قراءته حتى بكى النجاشي وأجهش في البكاء حتى أخضل لحيته[٢]، وبكى الأساقفة لبكاء ملكهم، ووجم البطارقة، ثم قال النجاشي لجعفر:

---

(١) سرياً: جدولاً صغيراً.

(٢) أخضل لحيته: بلّها بالدموع.

(إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرجان من مشكاة واحدة)[١].

ثم خاطب عَمْراً وصاحبه قائلاً: انطلقا، فوالله لا أُسلمهم إليكما أبداً، ولا يُكادون[٢].

ثم اتجه نحو جعفر وإخوانه، فكلّمهم كلاماً ليّناً، وختمه بقوله: انطلقوا فعيشوا في أرضي آمنين..

٥

خرج عمرو بن العاص مرةً ثانية من مجلس النجاشي خائباً حزيناً، وأخذ يفكر فيما يكيد به المسلمين من جديد، وقال له عبد الله بن أبي ربيعة: قد ـ والله ـ خيّب الملك أملنا، ولم تنفعنا هدايانا الثمينة التي جئناه بها، وأراك لم تشفع لنا صداقتك له عنده!!.

وقطع عمرو تفكيره الطويل، وقال لصاحبه:

اسكت يا عبد الله، فوالله لآتينَّ الملك غداً، ولآتينَّ بطارقته وأساقفته، أعيب هؤلاء عندهم بما استأصل به خضراءهم[٣].

وقال عبد الله ـ وقد خشي من مكر عمرو ـ: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن خالفونا! فقال عمرو: بلى ـ والله ـ لآتينّهم ولأخبرنَّهم أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبدٌ، فهم لم يفهموا ما تلاه جعفر من قرآن محمد، وإنما تأثروا لتأثر ملكهم فهم يحبونه، ولآتينَّهم فأخبرهم أنهم يسيئون الكلام في المسيح وأمه.

وإن لم أستطع إخراج هؤلاء الصُّباة[٤] من بلاده، لسوف أتركه وملأه

---

(١) المشكاة: الكوّة تكون في الجدار غير النافذة. أراد أن القرآن والإنجيل كلام الله، وأنهما من مصدر واحد.
(٢) لا يكادون: لا يلحقهم كيد.
(٣) استأصل به خضراءهم: أبيدهم وآتي عليهم.
(٤) الصباة: جمع صابىء: وكانت قريش والعرب تقول عن النبي وأصحابه (الصباة) =

على أشد ما يكونون عداوة لبعضهم!!

وسعى عمرو أولاً إلى البطارقة، فأخبرهم بحقيقة ما يعتقد المسلمون في عيسى، ووضّح لهم معنى الكلام الذي تلاه جعفر، وحَثّهم من جديد على إخراجهم من بلدهم، فوجم البطارقة، وحلفوا الأيْمان الشديد ليخرِجُنَّهم ما دام هذا قولهم في المسيح!!

وظنوا أنَّ ملكهم لم يفهم عنهم كلامهم فيه.

ثم سعى إلى النجاشي فاستأذن عليه، فأذن له، فدخل عليه وقال له: أيّها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً.

ولم يعبأ الملك بكلام عمرو فقد عرف أنه مكيدة، لكن بعض جلسائه قالوا: لعلَّهم يقولون في المسيح بنحو ما يقول فيه اليهود[١]!! وأحبّ الملك أن يُظهِر براءة المسلمين من هذا الكلام وقد اعتقدها لهم بعد الذي سمعه من القرآن، فقال: سأسمع ما يقولونه غداً في المسيح.

وأرسل إلى المسلمين ثانيةً: أن أجيبوا الملك، فلقد بلغه أنكم تقولون في المسيح قولاً عظيماً[٢].

واجتمع المسلمون ثانيةً يتشاورون فيما يقولونه، وقال مصعب بن عمير:

قد كادكم عمرو بمكيدة ثانية، فماذا تقولون للملك غداً؟

فقال جعفر:

= لأنهم خرجوا من دين قريش إلى دين غيره.

(١) يعتقد اليهود ـ أخزاهم الله وقبّحهم ـ في المسيح أنه ابن زنى، ويقولون فيه وفي أُمه قولاً شنيعاً.

(٢) كأن النجاشي ـ رحمه الله ـ وقد أرسل للمسلمين يخبرهم أنه يريد أن يسألهم عن قولهم في المسيح؛ كأنه يريد منهم أن يعدّوا الجواب الشافي، حتى لا يصيبهم ارتباك في مجلسه وأمام رجاله حينما يسألهم.

نقول ـ والله ـ ما قلناه أمس، ما قال الله، وما جاءنا به نبيّنا، كائناً في ذلك ما هو كائن.

وقال الجميع: أرشدك الله، هذا ما ينبغي أن نقوله.

وأردف جعفر قائلاً: ولسوف أدفع إليه غداً كتاب رسول الله، فلعلَّه يزداد عطفاً علينا ورحمةً بنا.

وأَيّده بقية إخوانه فقالوا: افعل يا جعفر.

٦

وفي اليوم التالي حضر جعفر وإخوانه إلى قصر الملك، ودخلوا عليه قاعة جلوسه، وحيَّوه وانتظروا ما يقول.

وغصّت القاعة هذه المرة بكبار رجال الدولة وكبار رجال الدين، وانضم إليهم أسقف واسع العلم بلاهوتهم يُقال له (أرياط) ويُجيد العربية، ولم يشعر الملك بدخوله وكان لا يحبّه.

وخاطب الملك المسلمين:
أخبروني ـ أيها الرهط ـ ماذا تقولون في عيسى؟

وتكلم جعفر ثانية في حضرة الملك فقال:
نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا ﷺ:
هو عبد الله، ورسوله، ورُوحه[١]، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

وسرّ هذا الجوابُ النجاشيَّ ـ فقد كان لا يعتقد أُلوهية المسيح ـ

(١) روحه: جاء في سورة النساء: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه﴾، قال الإمام ابن كثير: أي: أنه مخلوق من روح مخلوقة، وأُضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف، كما أُضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله: ﴿هذه ناقة الله﴾، وفي قوله: ﴿وطهّر بيتي للطائفين﴾.

وضرب يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً صغيراً ثم قال:

والله، ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود!!

ونكس عمرو وصاحبه، وشعرا بالخيبة والمرارة. وغضب أرياط للذي قاله الملك، فهمس في أُذن مَنْ حوله بمعنى كلام جعفر وجواب الملك له، وتهامس الأساقفة والبطارقة، وأظهروا غضبهم ونفورهم، وسُمع لهم جلبة، فالتفت إليهم الملك، فوقع نظره على أرياط وقد اكفهر وجهه، فغضب لدخوله، وهو لا يعلم، وأدرك أنه هو الذي أخبر الأساقفة والبطارقة بما قال جعفر وما ردّ هو عليه، فاتجه إليهم جميعاً وقال بأعلى صوته:

وإن نخرتم[١]، فوالله إن القول ما قالوه في المسيح!!

ثم اتجه إلى جعفر وإخوانه وقال لهم:

أَنتم سُيُوم بأرضي[٢]، من سبّكم غرم، وما أحب أَن لي دَبْراً[٣] ذهباً، وأَني آذيت رجلاً منكم.

ثم نظر إلى عمرو وصاحبه، وقال للخدم:

ردّوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لي بها، فوالله ما أَخذ الله منّي الرشوة حين ردَّ عليّ مُلكي، فآخذ فيه الرشوة[٤]، وما أطاع الناس فيَّ فأطيعهم فيه.

وأمر الملك بإخراج عمرو وصاحبه فأُخرجا، وطلب من جلسائه أن ينفضُّوا من عنده فقاموا ولم يبق سوى جعفر وإخوانه، فقال لهم:

مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشّر به عيسى بن مريم.

---

(١) نخرتم: أي تكلمتم كلام غضب ونفور.
(٢) سيوم: آمنون.
(٣) الدبر: الجبل بلغة الحبشة.
(٤) أي كيف آخذ الهدية، فأرتشي لأخذل دين الله، وقد ردّ الله عليّ مُلْكي بدون رشوة أخذها منّي!!.

انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه!!

وسرّ المسلمون سروراً عظيماً لكلام النجاشي، وتكلم جعفر فقال:

الحمد لله الذي هداك للإسلام أيّها الملك، وبارك الله فيك، وجزاك عنّا كل خير.

لقد أثنى عليك رسول الله خيراً، وظن بك ظناً جميلاً، فكنت عند حسن ظنه.

ولقد أرسل إليك كتاباً معي ما أخّرني عن دفعه إلا أني أتحيَّن الفرصة لذلك، ثم دفع إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقبَّله النجاشي، ووضعه على رأسه، ثم أمر به فقرىء له، فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم!

من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة.

سلامٌ عليك، فإني أحمد إليك الله، الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله، وكلمته[1] ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فحملته من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخه

وإني أدعوك وجنودك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني فإني رسول الله.

وقد بعثت إليك بابن عمّي جعفر ومعه نفرٌ من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرَّهم، ودَع التجبُّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجلّ، وقد بلّغَتُ ونصحتُ؛ فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

وفرح النجاشي بكتاب رسول الله فرحاً عظيماً، وجعل يقبِّله ويمرّغ به

---

(١) كلمته: سمّي عيسى عليه السلام (كلمة) لأنه خلق بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام، وهي التي قال له بها «كن» فكان.

وجهه، ويضعه على رأسه، ثم طلب من جعفر أن يكتب له بخطه جواباً على رسالته، وجلس النجاشي يُملي عليه:

(بسم الله الرحمن الرحيم!

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر.

سلام عليك يا نبيّ الله من الله، ورحمة الله وبركاته.

لا إلّه إلاّ هو الذي هداني إلى الإسلام.

فقد بلغني كتابك ـ يا رسول الله ـ فيما ذكرتَ من أمر عيسى، فوربِّ السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرتَ.

وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقرَّبنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسولُ الله صادقاً ومصدَّقاً، وقد بايعتُك وبايعتُ ابن عمك وأسلمتُ على يديه لله ربّ العالمين، وقد بعثتُ إليك ـ يا نبي الله ـ بأريحا[١] بن الأصحم ابن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلتُ يا رسول الله.

فإني أشهد أن ما تقول حق).

وحمل الرسالة إلى النبي ﷺ ابنُ النجاشي، وأتاه بها إلى مكة المكرمة، فدفعها إليه، فسرّ النبي ﷺ سروراً عظيماً لإسلام النجاشي، ودعا له، وأكرم ابنه، وحمد الله على سلامة المسلمين وأمنهم، ثم سرّح أريحا بن أصحم، فعاد إلى أبيه في الحبشة.

٧

رجع عمرو بن العاص وصاحبه عبد الله بن أبي ربيعة إلى مكة بِخُفَّيْ حنين، لم يحصلا على شيء مما ذهبا من أجله، وحنقت قريش للذي جرى، وزادها حنقاً أن الملك لم يكتف بالعطف على المسلمين وتأمينهم في بلاده، بل عاملهما بجفوة وغلظة، وردَّ عليها هداياها؛ لكن عَمْراً قال لقريش:

---

(١) هو ابن النجاشي.

يا معشر قريش! إني وإن لم أعد معي بأصحاب محمد مطرودين منبوذين، لكني تركت رجال الملك يغلون غيظاً على مَلِكِهم، ولسوف يخرجونه ويخرجون المسلمين معه، فطابت أنفس قريش عندها للذي سمعت من داهيتها عمرو.

وفرح المسلمون بالحبشة لنجاتهم من مكيدة قريش، وحمدوا الله على ذلك، وتضاعف فرحهم بإسلام النجاشي، إلا أنهم تواصَوا فيما بينهم ألاّ يشيعوا ذلك في رعيته لئلا تتنكر له، ومكّن الله للمسلمين بالحبشة، وشاع في طول البلاد وعرضها أن هؤلاء في جوار الملك، وأنه قد أنذر من يؤذيهم بالعقاب الأليم، فعاملهم الناس بأحسن المعاملة، وبذلوا لهم المودّة.

أما النجاشي فكان ما جرى في قصره نقطة تحول كبرى في حياته، فقد ترك الرجل دينه القديم، واتبع دين المستضعفين الذين أوَوا إلى بلاده، وأعلن في ساعة من حماسه الديني وأمام أساقفته وأركان حكمه: أن ما يقوله المسلمون في المسيح هو الحق الذي يؤمن به، وجاهر بهذا الرأي حتى أغضبهم.

ثم أعلن إسلامه أمام جعفر وإخوانه، وأقرّ بنبوّة محمد رسول الله، وأخبر أنه الذي بشّر به المسيح، وامتدحه وتمنى أن يتشرف بصحبته وخدمته.

بيد أن الملك ـ وكان عاقلاً بعيد النظر ـ رأى أن لا يجهر بإسلامه أمام حاشيته وأمام رعيته، لئلا يخلعوه من الملك، ويلحقوا الأذى بالمسلمين، وأحبّ أن يُداري قومه بعض المداراة، ويخدعهم بكتم إسلامه؛ لذا فحين راجعه عدد من أساقفته بعد ذلك فيما قاله في المسيح، أجابهم:

إن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالمسيح ويوقرونه، فهم أقرب إلينا من أولئك الذين يعبدون الحجارة، وهذا ما دعاني للعطف على هؤلاء، فكيف

وقد اعتدى عليهم قومهم وأخرجوهم من بلدهم؟!.

وحين قالوا له: إنهم يقولون في المسيح غير ما نقول، أجابهم:

دعوهم وما يقولون، فلهم دينهم ولنا ديننا، ولقد عاهدتُ ربّي ألاّ يُظلم في بلدي أحد، وأن أعطف على كل مظلوم وأنتصف له ما استطعت.

وسرّ الأساقفة بما سمعوا من ملكهم من جديد، وخرجوا من عنده وقد تبدَّد ما في نفوسهم عليه، وعادوا إلى مودّته ومحبته.

٨

هدأت ثائرة بعض الأساقفة بعد الذي سمعوه من ملكهم، واعتقدوا أنه تراجع عن كلامه الذي أعلن فيه أن ما يقوله المسلمون في المسيح هو الحق الذي يدين الله به، وظنُّوا أن الذي دفعه للكلام وقتها نفوره الشديد من الظلم، فقد أحسَّ أن المسلمين مظلومون؛ لذا عطف عليهم هذا العطف الشديد وقال ما قال.

وكذلك اغتفر له كثير من أركان مملكته هذه الهفوة، وذكروا له محاسنه العديدة في عدله ورحمته وعطفه وأمانته، وانتظام شؤون البلاد واستقرارها في عهده، فوجدوا هذه الكلمة صغيرة جداً أمام هذه المحاسن العديدة.

بَيْدَ أن عدداً من الأساقفة تنكرت قلوبهم لملكهم، واعتقدوا أن الرجل ترك دينه، وآمن بدعوة النبي العربي، وعزَّز ذلك في نفوسهم ما كانوا يسمعونه منه من قبل من اعتراضات على رجال الدين القدامى ومن اتهامه لهم بتغيير أُصوله والانحراف به، وكذا ما رأوه منه من فتور عن الحضور للكنيسة العظمى في المناسبات الدينية، ومن بعض الجفاء للأحبار، يقابل ذلك العطف الشديد الذي أخذ يمنحه للمسلمين، والمودّة الكبيرة التي يبذلها لهم بعد الذي سمعه منهم.

وكان من أشد من تنكّر للملك (أرياط) الحَبْر، فقد كان حَبْراً متمكناً في دينه، وكان متعصباً لعقيدته تعصباً شديداً، لذا أخذ يغيِّر القلوب على الملك، ويشحنها بالبغضاء والحقد عليه، ويدعو رجال المملكة لخلعه.

ونشط هذا الحَبْر نشاطاً كبيراً في الإرجاف بالملك والتآمر عليه، ولم يغتفر له كلمته، ولم يقبل اعتذار بقية الأحْبار له، واستطاع أن يستميل لرأيه عدداً من رجال المملكة، وأن يكوِّن جبهة قوية أخذت تكيد للنجاشي وتتربص به الدوائر.

وأحسّ الملك بما يجري في الخفاء ضده، فاحتاط لنفسه، وأعدّ العدّة لمواجهة أعدائه، وآزره في ذلك عدد من رجاله ومستشاريه ممّن كانوا معجبين بعدالته ونزاهته ورحمته لرعيته، واستطاع هو أن يقنعهم أنه لم يبدّل دينه كما يزعم أعداؤه، وأنهم يفترون عليه ذلك افتراء.

٩

مضى زمن وأرياط ومن معه يتآمرون على الملك، ويعدّون العدّة لخلعه، وجاء وقت أعلن فيه هذا الحَبْر وجماعته ثورتهم على الملك، فخلعوا طاعته، وأرسلوا إليه: أن اعتزل الحكم وإلا فإن القتل ينتظرك.

ونهض الملك وجماعته لمواجهة أعدائه، وحملوا سلاحهم وتدرّعوا به، بَيْدَ أن الملك رأى أن يحاور أَعداءه قبل أن ينازلهم في ساحة المعركة، فأرسل إليهم رسولاً يطلب إليهم أن يحضر منهم وفد إليه، ليُذاكِروه فيما ينقمون عليه، لكنهم رفضوا ذلك، وأصرّوا على أن يعتزل الحكم، وأرسل لهم رسولاً ثانياً وثالثاً، وأصرّوا على رفضهم، وأطمعهم ذلك في الملك، ورأى هو أنه لا بدّ من المواجهة، فقرر ذلك، واتجه إلى الله يستمد منه النصر على أعدائه.

وكان من أهم ما يشغل بال النجاشي مصير المسلمين بعده إن حصل

له أمر يكرهه، لذا أعدّ لهم سفينتين في البحر، وأرسل إلى جعفر وإخوانه، وأخبرهم بخبر الثورة عليه، وأنه يخشى إن أصابه شيء أن يلحقهم الأذى من بعده، وطلب إليهم أَن يأووا فوراً إلى السفينتين ويلحقوا ببلادهم. وإن كانت الأخرى ـ وهو ما يرجوه من الله سبحانه ـ فسوف يبقون آمنين مطمئنين.

ووقع نبأ الثورة ضد الملك على المسلمين وقوع الصاعقة، فأحزنهم ذلك حزناً عظيماً، وضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، وخشَوا على مصيره ومصيرهم، ولجأوا إلى الله يدعونه ويجأرون في الدعاء له بالنصر والتمكين.

وجاء يوم المواجهة، وخرج أرياط وجماعته لمقاتلة الملك، وخرج الملك بجماعته، ووقف كل فريق في مواجهة الفريق الآخر، وخرج الناس ينظرون لمن تكون الدائرة، وجزع المسلمون، وقالوا:

مَنْ يخرج حتى يحضر وقيعة القوم، ثم يأتينا بالخبر؟!

وقال الزبير بن العوّام ـ وكان شاباً حدَثاً ـ: أنا، فقال له جعفر: لله أنت!!

ونفخوا له قربة، فجعلها في صدره، فسبح عليها وأتى إلى الجانب الآخر من نهر النيل، حيث ستدور المعركة.

وقبل القتال كان النجاشي قد أعدَّ لأعدائه مكيدة عظيمة، أراد أن يخدعهم بها ويردّهم عنه بغير حرب، بل ويبلبل أمرهم، ويدبّ الفشل في صفوفهم.

فقد عمد إلى كتاب فكتب فيه:

(هو[١] يشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته إلى مريم).

---

(١) هو: أي النجاشي.

ثم جعل هذا الكتاب في قَبائه[1] عند المنكب الأيمن.

وتقدم النجاشي قريباً من صفوف أعدائه قبل أن ينشب القتال، وقال لهم:

يا معشر الحبشة! ألست أحقّ الناس بكم؟

قالوا: بلى.

فقال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟

قالوا: خير سيرة!!

فقال: فما لكم؟!!

فأجابوه: فارقتَ ديننا، وزعمتَ أن عيسى عَبْدٌ!!

قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟

قالوا: نقول: هو ابن الله.

فقال النجاشي ـ ووضع يده على صدره على قَبائه ـ: وهو يشهد أن عيسى لم يزد على هذا شيئاً ـ وإنما يعني ما كتب ووضع تحت قبائه[2] ـ!!.

وحين قال الملك ما قال صاح رجالٌ من معسكر أعدائه:

فما بالكم إذن تريدون قتال هذا الملك الصالح وهو على ديننا!!.

ثم نادت جماعة: اقتلوا أَرياط، فإنه حَبْر فاسد يريد أن يفسد علينا أمور مملكتنا!!.

فصاحت جماعة أخرى: إن الملك يريد أن يخدعكم فلا تنخدعوا له.

وأجابتهم الجماعة الأولى: بل أنتم تريدون خدعتنا.

---

(١) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب.

(٢) قال الإمام السهيلي شارح السيرة النبوية في التعليق على هذا الكتاب: (وفيه من الفقه أنه لا ينبغي للمؤمن أن يكذب كذباً صراحاً، ولا أن يعطي بلسانه الكفر وإن أُكره، ما أمكنه الحيلة، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب).

ووقع اللّدَد في أعداء الملك، وتحولت الخصومة إلى مواجهة بالسلاح، فانقسموا قسمين، وجعلوا يضربون بعضهم بعضاً، ومال الملك بمن معه على أعدائه، فقاتلوهم قتالاً شديداً، فلم يلبثوا أن انهزموا بعد أن قتل عدد كبير منهم وفي مقدمتهم «أَرياط».

وانجلت المعركة عن نصر مؤزر للملك الصالح، وللقائد المحنَّك، وعن خيبة مريرة لأعدائه، ورجع عدد كبير من خصومه لطاعته، واستوثق عليه أمر الحبشة، وتمكن أمره من جديد.

وتفرق الناس من ساحة المعركة وهم فرحون بانتصار ملكهم الرحيم، وعاد الزبير بن العوّام إلى إخوانه ـ وكانوا ينتظرونه بفارغ الصبر ـ فسبح إليهم النيل ثانيةً، ثم خرج إلى الشاطىء الآخر، وجعل يلوِّح لهم بثوبه، مشيراً إلى انتصار الملك، واستبشر المسلمون خيراً، حتى إذا وصل إليهم صاح قائلاً:

أبشروا فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكَّن له في البلاد!!.

ولا تَسَلْ عن سرور المسلمين فقد كان بالغاً عميقاً، وحمدوا الله على ذلك كثيراً.

١٠

تمكن أمر النجاشي من جديد في بلاده بعد تلك المحنة الرهيبة، واجتمعت عليه كلمة الأمة، وخذل الله أعداءه، وأمِنَ المسلمون على أنفسهم ودينهم أكثر من ذي قبل، وازداد عطف النجاشي عليهم، وعاملتهم رعيته بأحسن المعاملة.

ومضت سنوات كان فيها رسول الله ﷺ قد هاجر إلى المدينة المنورة، وعزَّ فيها جانبه، وكثرت أنصاره، وقويت شوكته، وصار يصاول قريشاً والعرب ويجاولهم، وأصبحت له ولدينه مكانة قوية في نفوس قبائل العرب جميعاً.

أما مهاجرو الحبشة فكان قد عاد قسم منهم قبل هجرة النبي ﷺ، وعاد قسم آخر بعد هجرة النبي، لكن معظمهم بقي في بلاد الحبشة ينتظرون أمر رسول الله ﷺ، وبلغ النبيَّ ما جرى للنجاشي بسبب أصحابه وبسبب إسلامه، فسُرَّ بفوزه على أعدائه، وحمد الله على ذلك ودعا للنجاشي.

وكان من جملة المهاجرات إلى الحبشة «أُم حبيبة بنت أبي سفيان» وكان زوجها «عبيد الله بن جحش» قد فارقها بعد فتنة حصلت له، ثم مات وهو مفتون، وعلم النبي ﷺ بقصتها، فأحبّ جبر خاطرها، فهي من المؤمنات الصادقات، وتعيش في بلاد الغربة، ثم هي ابنة زعيم مكة أبي سفيان.

وأرسل النبي ﷺ كتاباً إلى النجاشي يطلب إليه فيه أن يكون وكيله في تزويج أُم حبيبة، فبعث النجاشي جارية له إلى أُم حبيبة فقالت لها:

إن الملك يقول لك: إن رسول الله كتب إليه أن يزوِّجه إياك.

فقالت أُم حبيبة: بشَّرك الله بالخير.

ثم قالت الجارية: ويقول لك الملك وكِّلي من يزوِّجك، فوكَّلَتْ خالد بن سعيد بن العاص.

ولما كان العشيّ حضر جعفر بن أبي طالب ومن كان بالحبشة من المسلمين إلى قصر الملك، وخطب الملك فقال:

الحمد لله القدوس المؤمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأنه الذي بشَّر به عيسى ابن مريم.

أما بعـــد:

فإن رسول الله ﷺ طلب أن أزوِّجه أُم حبيبة بنت أبي سفيان، فأجبت إلى ما دعا إليه رسول الله وزوجته أُم حبيبة، وقد أصدقتها أربعمائة دينار.

وقام خالد بن سعيد فقال:

الحمد لله أحمده وأستغفره، وأشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أما بعـــد:

فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وزوَّجته أُم حبيبة بنت أبي سفيان، فبارك الله لرسول الله.

ثم دفع النجاشي الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها، ثم أرادوا أن يقوموا، فقال النجاشي:

اجلسوا! فإن من سُنَّة الأنبياء إذا تزوجوا أَن يؤكل طعام على التزويج.

فدعا بطعام فأكلوا، ثم تفرقوا.

١١

قويت شوكة المسلمين جداً بعد غزوة الأحزاب وخيبةِ قريش في محاولتها استئصال المسلمين، وكانت محاولتها تلك آخر محاولة كبيرة لها في مجابهة الإسلام، وبعد صلح الحديبية عام ستٍ للهجرة فُتحت أمام المسلمين السُبُل لنشر الدعوة في أرجاء الجزيرة كافّة، وأرسل النبي ﷺ الكتب لملوك الآفاق يدعوهم إلى الإسلام.

ورأى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يرسل إلى من بقي من إخوانه في الحبشة فيعودوا إليه، فأرسل عمرو بن أمية الضَّمْري بكتاب إلى النجاشي، يطلب فيه أن يردّ له أصحابه، واستجاب النجاشي لطلب رسول الله، وحمل المسلمين على سفينتين، وزوّدهم بالتحف والهدايا، وأرسل معهم قريباً له يقال له «ذو مخبر» ليخدم النبي ﷺ، وقال لجعفر:

أخبر رسول الله بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم، وأنا أشهد أن لا إلَه إلا الله، وأنه رسول الله.

وقُلْ له يستغفر لي.

وودع النجاشي أصحاب رسول الله بالدموع الغزيرة، وصافح المسلمين وعانقهم، وأوصاهم أن يُقرِئوا جميعاً رسول الله السلام.

وعاد المهاجرون بعد غربة طويلة، وفرح بهم النبي ﷺ فرحاً عظيماً، وقام إلى جعفر فاعتنقه، ورحّب بـ «ذي مخبر» وبشَّ له، وقال ذو مخبر:

يا رسول الله، هذا جعفر فَسَلْه ما صنع به صاحبنا؟

وقام جعفر، فذكر النجاشي وأثنى عليه خيراً، وأحسن الكلام فيه، وعدّد أفعاله الحميدة معهم، وذكر ما تحمّله من أجلهم، ثم قال: ولقد حَمَلنا وزوَّدنا، وشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأنك رسول الله، وطلب أن تستغفر له يا رسول الله.

وقام النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه فتوضأ، ثم دعا ثلاث مرات: **«اللهمّ اغفر للنجاشي»**.

وقال المسلمون جميعاً: آمين.

ثم قام ذو مخبر فقال:

يا رسول الله، إن الملك أرسلني كي أخدمك وأسعد بصحبتك، فاقبلني خادماً لك جزاك الله كل خير.

وأثنى النبي ﷺ على ذلك الشاب الحبشي الذي ترك بيت المملكة والتحق به، ورحّب به، وضمّه إلى خدمته.

١٢

وفي تلك الأيام التي كان فيها جعفر وإخوانه يغادرون أرض الحبشة، كان يقف على باب قصر النجاشي الزعيم القرشي النبيل عمرو بن العاص ـ وكان قد ترك مكة عقب غزوة الأحزاب بعد أن رأى أمر رسول الله يعلو، وطمع في رحمة النجاشي وعطفه ـ فاستأذن عمرو في الدخول على الملك، ليقدّم له هدية جاءه بها، وليطلب منه أن يكون في جواره في مملكته، وأذن

له النجاشي، فدخل عمرو وحيّاه فقال له الملك:

قل لي يا عمرو ما الذي أقدمك بلادي؟

فأخبره عمرو عن استفحال أمر رسول الله وعلوّه، وعن تخاذل قريش أمامه، وعن اضطراره للهجرة من بلده.

فانبسطت أسارير النجاشي فَرَحاً بما سمع ثم وجّه الكلام لعمرو قائلاً:

يا عمرو! إن محمداً رسول الله، يأتيه الناموس الأكبر[١] الذي كان يأتي موسى.

وقال عمرو:

أيّها الملك، أكذاك هو؟!

وأجاب النجاشي:

نعم والله.

ويحك يا عمرو! أطِعني واتبعه، فإنه ـ والله ـ لعلى الحق، وليظهرنّ على مَن خالفه كما ظهر موسى بن عمران على فرعون وجنوده!!.

ولو أعلم أن قومي يستجيبون لي لدعوتهم إلى الإسلام، ولكنهم كَلِبون[٢] على دينهم، لا يعدلون به ديناً غيره.

وشرح الله صدر عمرو للإسلام ـ وكان قد حدَّث نفسه به من قبل ـ وقال للملك: أفتبايعني على الإسلام؟ فقال: نعم.

وبسط النجاشي يده، وبايعه عمرو، ودخل في دين الله.

١٣

بعد مضي ما يزيد على سنتين من عودة مهاجري الحبشة، وفي يوم من أيام رجب من عام تسع للهجرة مات النجاشي رحمه الله، وجاء الوحي

(١) الناموس الأكبر: هو جبريل عليه الصلاة والسلام.
(٢) كَلِبون على دينهم: حريصون عليه.

بموته إلى رسول الله ﷺ في اليوم نفسه، فقام ينعاه إلى أصحابه وقال لهم: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلُّوا على أخيكم أصحمة».

وطار خبر وفاة النجاشي في المدينة، وهُرِع المسلمون إلى المصلَّى، فصفّوا وراء رسول الله صفوفاً، ثم كبَّر عليه أربعاً، ثم قال لأصحابه: «استغفروا لأخيكم»[1].

وحزن المسلمون جميعاً على أخيهم النجاشي، لا سيما أولئك الذين عاشوا عنده زماناً، وأثنوا عليه خيراً، واستغفروا له.



وبعـــد:

رحم الله الملك الصالح أصحمة بن أبجر: النجاشي، فقد آثر الحق فاتبعه، ولم يُبالِ بتعريض مُلكه للضياع من أجل ذلك، فأكرمه الله ورعاه وصان له مُلْكه.

لقد كان إسلامه آية من الآيات البيِّنات على صدق نبوّة الداعي البشير محمد صلوات الله وسلامه عليه، ولقد شهد له أنه هو الذي بشّر به المسيح ابن مريم، وأنه هو الذي ذكر في الإِنجيل، فآمن ولم يتردد، ولقي الشدائد من أجل إيمانه، فتحمّل ذلك، ودعا أهل بيته فآمنوا بدعوته، وفاز بدعاء النبي له، وباستغفاره له وصلاته عليه.

رحم الله النجاشي رحمة واسعة، ورضي عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه.

---

(١) قال ابن كثير: قال بعض العلماء: إنما صلّى عليه لأنه كان يكتم إيمانه من قومه، فلم يكن عنده يوم مات من يصلِّي عليه، فلهذا صلّى عليه.
قالوا: فالغائب إن كان قد صلِّي عليه ببلده لا تشرع الصلاة عليه ببلدة أخرى، ولهذا لم يُصلّ على النبي ﷺ في غير المدينة؛ لا أهل مكة ولا غيرهم، وهكذا أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة، لم ينقل أنه صُلِّي على أحد منهم في غير البلدة التي صلِّي عليه فيها، والله أعلم.

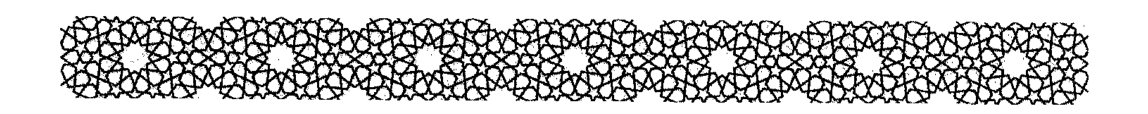
الداعية الحكيم

لم يكن شيءٌ في الوجود أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من دعوة الناس إلى الله، وتبليغهم دينه الذي بُعث به، وهدايتهم إليه.

كانت الدعوة إلى الله تعالى وظيفة النبي الأولى، وعمله الأهم، وكان في دعوته الخلق: حكيماً رحيماً، يخاطب الناس على قدر عقولهم، ويعرض عليهم دينه برفق، ويصبر على إعراضهم وجفائهم؛ حتى إذا أسلموا، ابتهج قلبه، وأشرق وجهه، وكان ذلك أحبّ إليه من الدنيا وما فيها.

***

١ ــ مع ضماد الأزدي.
٢ ــ مع الحصين بن عبيد الخزاعي.
٣ ــ مع الحكم بن كيسان.
٤ ــ مع فتية بني عبد الأشهل.



مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

مَعَ ضِـمَاد الأزدي

١

امتدت شهرة طبيب الأمراض النفسية «ضِمَاد بن ثعلبة الأزدي» حتى طبّقت الكثير من بلاد العرب والعديد من قبائلهم، وحتى بات كثيرٌ من الناس يعتقدون بمهارته في صنعته، وبقدرته الفائقة على جلب الشفاء للمصابين بالصرع، والجنون، ومسِّ الجن، والسِّحر، والعَيْن، وغيرها من الأمراض التي قلَّ أن يبرأ من يُصاب بها.

ومما زاد من مكانته أن العرب كانوا يخافون من هذه الأمراض خوفاً كبيراً، ويعتقدون أن مصدرها إنما هو «الجنُّ» تلك المخلوقات المؤذية، التي ترى الناس ولا يَرَونها، وتستطيع أن تُلحِق بهم ما تشاء من الضرر من غير أن يجدوا قدرة على دفعها، وكانوا يستعيذون بزعمائها حيثما حلُّوا، وأينما أقاموا، فكان العربي إذا آواه المبيت في وادٍ أو سهلٍ أو جبلٍ، أو حلّ فيه في أي وقت شاء؛ يخاطب زعيم الجن قائلاً:
«أعوذ بعظيم هذا المكان».

ويعتقد أنه إن فعل ذلك؛ فقد حصَّن نفسه من أذى أتباع هذا الزعيم من الجن، وأحاط نفسه بسياج من الأمن والعافية!!.

ولقد اكتسب ضماد مهارته في علاج أمراض الجن من عدة أمور: فهناك ذكاؤه الكبير ودقة ملاحظته، وهناك جلساته الطويلة مع: الكُهَّان والسَّحَرة والمنجِّمين والشعراء والسُّجَّاع، وهناك رحلاته الواسعة في البلاد، ثم هناك أمر أكثر أهمية من كل ما سبق، وهو كثرة معالجته للمرضى،

ونظره في حالات كثيرة من الصَّرع، فكل ذلك جعل من ضماد الأزدي الطبيب الأول المرموق في بلاد العرب لهذه الأمراض، وجعل شهرته تطير في الناس، وقبيلته تفخر به، وتذكره في أعلام الناس ووجوههم.

٢

كان ضماد يكثر التردّد على مكة المكرمة؛ لا سيما في المواسم[١]، ويأتيها بين الحين والحين معتمراً، يعرض طبَّه على الناس، ويريد أن يعلم من لم يعلم باختصاصه بالمداواة من الأرواح[٢]، فمكّة بلدٌ يَفِد إليه سائر العرب، ويجتمع فيه من الناس ما لا يجتمع في غيره.

ولقد حصل لضماد أخيراً ما أعاق مجيئه إلى مكة مدة ثلاث سنوات متواليات، فجعل الناس ـ وخصوصاً أهل مكة ـ يتفقدونه ويسألون عنه، أما هو فقد ضاق ذرعاً بالبُعد عن مكة وبالغياب عن المواسم، لذا فما إن حانت الفرصة وذهبت الموانع حتى بادر بالذهاب إلى مكة، حيث لقي من أهلها أحسن استقبال.

وإنه لَسَاعٍ إلى الحرم غَداة اليوم التالي لوصوله؛ إذا به يسمع رجلاً من أهل مكة يقول لبضعة أشخاص أمامه:
ألم تَروا إلى محمدٍ كيف راعَ قريشاً غَدَاة أمس، فجمعها كلّها عِند الصَّفا، ليسمعَها بعض هَذَيانه؟!

فردَّ عليه سفيه ممّن حضر:
«إن محمداً مجنون»

وقال رجل ثالث:
ليت أنّا طلبنا له الطِّبَّ، فالرجل ممسوس[٣]، وما كان به شيءٌ من

(١) المواسم: جمع موسم: وهي أيام الحج من كل عام.
(٢) الأرواح: الجن. سُمّوا بذلك لأنهم لا يبصرهم الناس، فهم كالروح والريح.
(٣) ممسوس: أصابه مسّ الجن.

قبل، وما عهدناه إلا عاقلاً فَطِناً!!

سمع ضماد هذا الحوار فقال في نفسه:

لو أني رأيت هذا الرجل، لعلَّ الله أن يشفيه على يديَّ، فأكون قد أسديت إلى قريش يداً لا تنساها لي.

وعزم على أن يطلبه، لكنه رأى أن يسأل عنه أصدقاءه من زعماء مكة قبل ذلك، فعندهم علمُ ما يجري في بلدهم، ولا بدّ أنه سينتفع بآرائهم.

وسعى ضماد إلى مجالس قريش التي يعقدونها إلى جوار الكعبة، ووقع نظره على صديقه القديم «عمرو بن هشام»[1] في حلقة فيها عتبة بن ربيعة وأُميّة بن خَلَف، وغيرهم، فوقف عليهم، وحيّاهم، فردّوا عليه التحية، ورحّبوا به، وأفسحوا له مكاناً جلس فيه.

وبادر ضماد فسأل عمرو بن هشام قائلاً:

يا أبا الحَكَم، سمعت جماعة من الناس يتحدّثون عن شخص اسمه «محمد» فمن هو، وماذا به؟

وأجاب أبو جهل والحرقة تأكل كبده:

إنه ابن عبد المطلب.

وقال ضماد:

ابن عبد المطلب!! وماذا به يا أبا الحكم؟!

فقال:

إنه أحدثَ فينا حدَثاً لم يُسبق إليه، قام فينا بدعوة فرّق بها جماعتَنا، وسَفَّه أحلامَنا[2]، وأضَلَّ من مات منَّا، وعاب آلهتنا!.

(١) هو طاغوت قريش أبو جهل ـ قبّحه الله وأخزاه ـ وقد فعل. كانت قريش تكنّيه بأبي الحكم، وكنّاه رسول الله ﷺ بأبي جهل.
(٢) الأحلام: جمع حلم: وهو العقل.

وقال ضماد:
عاب الآلهة!!.

فأجاب أبو جهل: نعم عابَ الآلهة، وأشبعها عيباً!!.

وضرب ضماد كفّاً على كفٍّ، وجعل يقول:
وارحمتاه لك يا ابن عبد المطلب، ماذا دهاك!!.

وتكلم عتبة بن ربيعة، فقال ـ وقد توجَّه إلى ضماد ـ:
إنَّ الرجل ساحر. جاءنا بسحرٍ فرَّق فيه بين الولد وأبيه، والزوج وزوجته، والرجل وأخيه، وما ندري ماذا يريد منَّا بسحره!.

وهنا التمعت عينا أُميّة بن خلف غضباً مما سمع من عتبة، وقال: «يا قوم! الرجل مجنون غير شك».

ووقعت كلمة أُميّة في نفس ضماد من بين كلمات القوم، وتأيدتْ بكلمة النفر من قريش الذين سمعهم وهو غادٍ إلى الحرم، وقال في نفسه:
إني رجل أُعالج من الريح[1]، ولسوف أبذل ما عندي في هذا الرجل، وأقرّ عين قريش بذلك.

وخاطب ضماد زعماء قريش، فتعلقت به العيون، وأصاخت إليه الأسماع، وقال لهم:
يا معشر قريش! لا يهولنّكم أمرُ صاحبكم، فسوف أُبرئه لكم، وأُريحكم مما أهمّكم.

ونظر عتبة إلى ضماد نظرة استنكار واستهجان.

وقال له أبو جهل: يا ضماد إن أمر محمد يعسُر عليك، وقد عرضنا عليه أن نطلب له الأطباء فرفض.

---

(١) الريح: مسّ الجن.

أما سائر الملأ ففرحوا لكلام ضماد، ونظروا إليه بأعين ملؤها الإعجاب والإكبار، وقالوا له: ليس لصاحبنا غيرك يا ضماد، وما علمنا أمهر منك بمعالجة المسّ.

وأقبل أميّة بن خلف على ضماد، وقال له:

يا ضماد! إن صاحبنا ليس به إلا الجنون، فهَلُمَّ فعالجه، فأنت أخبر الناس بهذه الأمراض، ونحن بانتظار مقدَمك إلينا على أحرّ من الجمر.

وسرّ ضماد بما سمع، وقال للملأ من قريش: اطمئنوا يا معشر قريش، فسوف أعالج لكم صاحبكم، وأُريحكم مما يعرض له.

وانفضّ المجلس، وقام أكثر الحاضرين، وقد خامرهم أمل كبير بأن مشكلتهم الكبرى سوف تجد لها الحل عن قريب!!.



انطلق ضماد من مجلس قريش وأخذ يطلب رسول الله ﷺ لتوّه، لكنه لم يجده في بقية يومه ذاك، وقام من صباح الغد يطلبه من جديد، فقال له قائل:

تركته في الحرم خلف المقام يقوم ويقعد، فحسب ضماد أن نوبة صرع قد أصابته، فأسرع إليه، فرآه وقد انتصب خلف المقام هادىء النفس، مطمئن البال، ينظر إلى الأرض أمامه، ثم رآه يركع ثم يسجد، ثم يقوم فينتصب ثانية ويتمتم بكلمات تكاد لا تُسمع، وأدركت ضماداً دهشةٌ كبيرة، فقد عجب أولاً من هدوء الرجل واتزانه، وعدم ظهور أي عارض من عوارض الجنون عليه، وعجِب ثانياً من عمله، فهو لم يرَ أحداً من العرب يصنع صنيعه!!.

وجلس ضماد قريباً من رسول الله ﷺ يراقب حركاته، حتى إذا فرغ من صلاته، قام فجلس إلى جنبه وقال له:

يا ابن عبد المطلب!

فالتفت إليه النبي بوجهه الشريف وقال له:

«ما تشـاء»؟

وأُخذ ضماد بروعة وجه رسول الله ﷺ، وهيبته، وآيات الصدق التي تلوح فيه، وكاد لسانه ينعقد عن الكلام، بَيْدَ أنه تماسك وقال:

إني أُعالج من الريح، وقد سمعت قومك يذكرون فيك خصالاً سيئة: من تسفيه أحلامهم، وتفريق جماعتهم، وتضليل من مات منهم، وعيب آلهتهم، فقلت: ما فعل هذا إلا رجل به جِنَّة[١]، فإن أحببت عالجتك؟

فقال له عليه الصلاة والسلام:

«ما بي ما تقول» ثم أَعرض عنه.

وتعجب ضماد من هذا الجواب الهادىء الرزين، وداخَلَه شك سريع في كلام قريش في هذا الرجل، لكنه أراد أن ينكشف له أمره انكشافاً سافراً، فأعاد عليه القول وخاطبه:

يا ابن أخي! لا تكبرنَّ ما بك، فقد عالجت من كان به أشدّ مما بك فبرأ.

وهنا التفت رسول الله ﷺ إلى ضماد بجميع جسمه، وأقبل عليه بوجهه الشريف، فملأت هيبته نفس ضماد، وازدادت شكوكه في مزاعم قـريش، ورأى فيـه رجـلاً تـلـوح عليـه آيـات الكمـال والجـلال، وتكلـم رسول الله ﷺ فقال:

«الحمد لله أَحمده وأَستعينه، وأُؤمن به وأتوكل عليه. من يَهْدِهِ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له. وأَشهد أن لا إلَه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعـــد!».

وسمع ضماد كلاماً غريباً عجيباً لم يسمع قطّ أحسن منه، فقال للنبي ﷺ:

---

(١) الجنة: الجنون. قال تعالى: ﴿أم به جنة﴾ وتطلق على الجن أيضاً.

قف يا ابن أَخي، وأعِدْ عليَّ كلماتك، فأعادها، ثم قال: أعِدْها عليَّ، فأعادها، كل ذلك وضماد لا ينقضي عجبه منها، ثم قال للنبي ﷺ:

والله لقد سمعتُ قولَ الكَهَنة[1]، وقول السَّحَرَة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات!!

ولقد بلغت كلماتك هؤلاء قاموس البحر[2]!!

يا ابن أخي! إلامَ تدعو؟

وأجابه النبي ﷺ:

«إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، وتخلع الأوثان من رقبتك، وتشهد أني رسول الله».

وقال ضماد: فماذا لي إن فعلت؟

فأجاب عليه الصلاة والسلام: لك الجنة.

وأخذ الرجلَ ما تقدم وما تأخر، واستشعر الإسلام فوراً، وداخَلَه الإيمان، فقال:

«إني أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأخلع الأوثان من رقبتي، وأبرأ منها، وأشهد أنك رسول الله»!!.

وسُرّ النبي ﷺ بإسلام ضماد سروراً عظيماً، وحمد الله على ذلك، وسُرَّ بما ساق الله إليه من الهدى والرشاد، ولهج قلبه ولسانه بالثناء على الله سبحانه.

٤

أقام ضماد مع رسول الله ﷺ أياماً في مكة، يتردد عليه كل يوم يعلِّمه الإسلام ويُقرئه القرآن، وانقطع عن الملأ من قريش، وجعلوا هم يرونه

---

(١) الكهنة: جمع كاهن. وهو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدّعي معرفة الأسرار، ويزعم أن له تابعاً من الجن يلقي إليه الأخبار.

(٢) قاموس البحر: وسطه ومعظمه، أي: بلغت غاية البلاغة.

يتردد على رسول الله ﷺ كثيراً، فكانوا يظنون أن الرجل مشغول بمعالجته، منصرف إليه، يريد أن يثبت لهم جدارته في معالجة أقوى الأمراض، وسُرّوا لذلك وتفاءلوا خيراً.

وسعى ذات يوم رجل إلى الملأ من قريش وهم متحلِّقون حلقة إلى جانب الكعبة، وقال لهم:

يا قوم! هل علمتم ما فعل صاحبكم ضماد الأزدي؟

وصاحوا جميعاً:

ماذا؟ هل أبرأ محمداً من مرضه، وكفانا أمره؟

وابتسم الرجل ابتسامة ساخرة مريرة وقال:

بل تابعه على دينه!!

وصاح أُمية بن خلف:

تَعْساً لك، أحقٌّ ما تقول؟!.

فأجاب: نعم ـ واللاّتِ والعُزَّى ـ ولقد رأيته يصلّي إلى جنبه البارحة!!.

ودُهش زعماء قريش دهشة بالغة، وصاروا بين مصفِّق، ومصفِّر، وآخذٍ رأسه براحتيه، ونافضٍ ثيابه!!.

وقال أبو جهل:

قاتل الله أزداً كلَّها لأجل ضماد، زعم المجنون أنه سيشفي صاحبنا، فإذا به يتبعه على دينه!!

وقال عتبة بن ربيعة:

هذا ـ والله ـ ما كنت أخشاه، فقد جلستُ إلى محمد من قبلُ، ورأيت شدّة تأثيره على سامِعه، وحلاوة منطقه، وقوة عارضته[1]!!.

---

(١) يقال: فلان قوي العارضة: ذو جَلَد وصرامة وقدرة على الكلام، وذو بديهة ورأي جيد.

وقال أميّة بن خلف:
أخزى الله ضماداً زعم أنه طبيب، فإذا به سقيم عليل!!
أحلف بالله لئن رأيته لأنكلنَّ به ولأخزينَّه.

أما ضماد:
فقد تمكن الإيمان في قلبه، وأصبح لا يعبأ بشيء يصيبه من أجل ذلك، ولا يقيم حساباً لقريش ولا لقبيلته، ولا للعرب أجمعين، وودّع الرجل جاهليته وترك شأنه القديم، وأقبل على القرآن الكريم، فوجد فيه العَوَض عن كل ما فاته.

وبعد:
رضي الله عن ضماد الأزدي صاحب رسول الله ﷺ، فقد أراد معالجة الرسول لظنه أنه مريض، فإذا به هو المريض العليل!!.

وإذا باليد الحانية الرحيمة تمسح عن قلبه جرثومة مرضه، وتبرئه في الحال، فيعود قلبه إلى صفائه، طاهراً، نقياً، كما برّأه الله.

مَع الحصَين بن عبَيْدِ الخزَاعي

١

جلس الملأ من قريش عند غروب الشمس إلى جانب الكعبة المعظّمة، وأخذوا يتذاكرون في أمر محمد ابن عبد الله ﷺ، وهذا الدين الذي جاءهم به، فأقضّ مضاجعهم، وأقلق بالهم. . كان الجميع قد امتلأت قلوبهم حنقاً وغيظاً على هذا الرجل، وضاقوا به ذرعاً، فانبروا يتنافسون في النيل منه، والحطّ من شأنه، والتواصي بمعارضته.

وتكلم عمرو بن هشام المخزومي ـ أبو جهل ـ فأنصت له الجميع، وقال: يا قوم! والله لقد أعضل[1] بنا هذا الرجل، وأفسد علينا أمرنا: عاب الدين، وسفَّه الأحلام، وضلّل الآباء، وشتّت الشمل، وجعل الولد يعادي أباه، والمرأة تعادي زوجها، وأزرَى[2] بنا في العرب.

ولقد جرّبنا معه كل شيء، فما أجدى علينا ذلك شيئاً. سخرنا منه ومن دينه، فما صدّه ذلك عن دعوته. ثم أرسلنا له وجوهنا كي يردّوه عن دعوته، فما استجاب لهم. ثم عرضنا عليه المال والجاه والنساء والمُلْك، فما قبل شيئاً من هذا. ثم آذيناه وآذينا أصحابه واضطهدناهم، وجعلنا بعضهم يترك مكة ويهاجر إلى الحبشة، فما زادهم ذلك إلا تمسكاً بأمرهم؛ فنحن والله في حَيْرة كبيرة، وما ندري ماذا نصنع مع هذا الرجل وأصحابه!!.

وتكلم عقبة بن أبي مُعَيْط فقال: يا أبا الحَكَم! أراك قد أضجرك أمر

---

(١) أعضل بنا: ضاقت علينا الحيل في أمره، وصعبت علينا مداراته.
(٢) أزرى بنا: عابنا وأهاننا في العرب.

محمد!! وما ينبغي أن يبلغ أمره منك هذا المبلغ، فإنه أهون من هذا، وأرى أن نشتد عليه وعلى أصحابه، فإنهم لا بدّ سيكفُّون عن دعوتهم، ويراجعون دينهم القديم.

وقال أبو لهب: يا قوم، أرى أن تستعينوا على ابن أخي بأشراف العرب، فإنه إن لم يسمع لأشراف قومه فعساه أن يسمع لغيرهم.

فقال قائل: من تُرى نرسل له في هذا الأمر يا أبا عتبة؟.

وأجاب: الأشراف كثير، وابدأوا بالحصين بن عبيد الخزاعي، فإنه شيخ جليل، وسيد كبير من سادات خزاعة، وقد كان صديقاً لعبد المطلب.

وقال النضر بن الحارث: افعلوا يا قوم ما كلّمكم به أبو عتبة، فلعلّ هذا الرجل يُعيننا على صاحبنا، فيكفّه عن هذا الأمر الذي جاءنا به.

وصاح الحاضرون، افعلوا هذا الأمر، واذهبوا إلى هذا الرجل، وكلِّموه، ولا تَدَعوا سبيلاً إلا سلكتموه، وانصروا آلهتكم، واحفظوا شرف آبائكم وأجدادكم.

٢

وسعى أفراد من قريش إلى الحصين بن عبيد، فقالوا: يا أبا عمران، جئناك في شأن محمد بن عبد الله، نريد أن تكلمه فيكفّ عن عيب ديننا، ويدع هذا الدين الذي جاءنا به، فأفسد علينا أمرنا، وشتّت به شملنا، وقد أرسَلَنا قومنا إليك في هذا الأمر.

وأجابهم الحصين: نعم وكرامة، سوف أذهب إليه وأُكلمه، وأرجو أن أردّه عن دعوته، وقد كنت عازماً على الذهاب إليه قبل أن تأتوني، فلقد أصابني منه ما أصابكم، لقد أفسد عليَّ ابني عمران، فاتَّبعه على دينه، ولقد طلبت إليه كثيراً أن يدع هذا الدين المحدَث، فما استجاب لي، فأنا ـ والله ـ في همٍّ عظيم.

وفرح القرشيون بما سمعوا من الرجل، وشكروه على استجابته لطلبهم، ثم قاموا من عنده ورجعوا إلى قومهم، وأخبروهم أن الحصين يشاركهم همّهم ومشاعرهم، وأنه سيذهب إلى محمد ويكلِّمه، وسُرّ الملأ من قريش لهذا النبأ، وتفاءلوا به خيراً.

٣

وبينا رسول الله ﷺ جالس مع عدد من أصحابه في بيته ذات يوم ـ فيهم عمران بن حصين ـ يقرأ عليهم القرآن ويبيِّنه لهم، وقد تعلّقت القلوب والعيون به؛ إذا بعمران بن حصين يلمح أباه من بعيد، وغلام يمسك بيده، ويقوده إلى بيت رسول الله ﷺ، وصاح عمران: يا رسول الله، هذا أبي قد جاءك، وقد علمتُ أن قريشاً أرسلته إليك، فادعُ الله له، لعلّ الله يهديه إلى الحق، فيسلم على يديك، ويرتدّ كيد قريش إلى نحرها.

وقال النبي ﷺ لعمران خيراً، فاستبشر وتفاءل.

وأقبل الحصين يدبُّ على الأرض.. كان شيخاً هرماً جاوز المائة، قد ضعف بصره، ورقَّ عظمه، وكلَّت قوته. وكانت قريش تعظِّمه، فتبعه نفرٌ منها توقيراً له وتبجيلاً، ثم جلسوا قريباً من باب بيت النبي ﷺ يسترقون السمع، وينتظرون النتيجة.

ووصل الحصين إلى باب النبي ﷺ، فاستأذن ثم دخل، فرحب به النبي وبشّ في وجهه، ثم قال لأصحابه: «أوسعوا للشيخ» وأجلسه قبالته.

ولم يعبأ عمران بدخول والده، فلم يقم له ويأخذ بيده فيجلسه، بل ولم يلتفت ناحيته، ولحظ النبي ﷺ ذلك، ولم يشعر حصين بوجود ولده في المجلس.

ورحب النبي ﷺ بالشيخ ثانيةً، وكلّمه أطيب الكلام، ثم أنصت وأصحابه يستمعون له، وتكلم هو فقال:

ما هذا الذي بلغنا عنك ـ يا محمد ـ أنك تشتم آلهتنا وتذكرها بسوء، وتعيب حلوم[١] الآباء والأجداد؟!.

إن هذا لا يليق بك يا ابن أخي وأنت ابن عبد المطلب، فقد كان أبوك حصينة[٢] وخيِّراً.. كان ـ والله ـ خيراً لقومك منك، كان يطعمهم الكبد والسنام، وأنت تريد أن تنحرهم!!.

وأجابه الرسول ﷺ:

يا حصين! إن أبي وأباك في النار[٣].

ودهش الحصين لهذا الجواب، فجعل يقول: في النار! في النار! عبد المطلب سيد قريش يصير إلى النار؟! وما هذه النار يا ابن أخي؟!

وأخبره النبي ﷺ أنها نار حامية باقية، أعدّها الله لمن يموت مشركاً به.

وشُغل ذهن الشيخ بهذه النار التي أخبره عنها النبي ﷺ، ثم عاد ليقول: والله ما سمعنا بهذه النار التي تخبرنا عنها يا محمد!!.

ثم التفت النبي ﷺ إلى الحصين وجعل يحاوره:

ـ يا حصين كم تعبد من إلّه؟

سبعاً: ستة في الأرض، وواحداً في السماء[٤].

ـ فإذا أصابك الضرّ من تدعو؟

الذي في السماء.

---

(١) حلوم: جمع حلم، وهو العقل.

(٢) حصينة: عاقلاً، متحصناً بدين آبائه وأجداده.

(٣) يريد النبي ﷺ أن عبد المطلب وجميع أهل الجاهلية يستحقون النار على شركهم، لكن أهل السنّة يرون أنهم ناجون لأنهم لم تبلغهم دعوة نبي.

(٤) يريد بإلّه السماء: الله سبحانه، وقد كان العرب في الجاهلية يؤمنون به ويعتقدون بوجوده، إلا أنهم كانوا يجعلون له شركاء.

ـ فإذا هلك المال من تدعو؟

الذي في السماء.

ـ فإذا رغبت في خير من تدعو؟

الذي في السماء.

وختم النبي ﷺ هذا الحوار القصير بقوله:

يستجيب لك وحده؛ وتشركهم معه؟!

اترك الستة، واعبد الذي في السماء.

وسكت الرجل، ولم يدرِ ما يجيب به النبي ﷺ، وأدرك أنه لا يكلّم إنساناً عادياً، وإنما يخاطب عاقلاً عظيم العقل، بعيد الغَوْر، بالغ الحجة، يتكلم بالحق، فهذه الآلهة التي يعبدها الناس لا تنفعهم في رغبة ولا رهبة.

ولم يتركه ﷺ في حيرته طويلاً، فقال له:

يا حصين أَسلم تسلم.

أما إنك لو أسلمت لعلّمتك كلمتين تنفعانك.

وتسربت كلمات النبي ﷺ إلى قلب الرجل، وفعلت حجته فعلها في قلبه وعقله، وأيقن أن ما يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ حق، وأن الشرك باطل وضلال، وأشرق نور الإيمان في قلبه، فالتفت إلى النبي ﷺ وقال: إني أسلمت فما أقول؟

فأجابه: قل: أشهد أن لا إلّه إلّا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله.

ونطق الحصين بشهادة الحق، ففرح النبي ﷺ بإسلامه، وابتهج هو وأصحابه، وسُرّ عمران بإسلام والده أعظم سرور، وقام إليه، فجعل يقبّل رأسه ويديه ورجليه، وذرف دموع الفرح غزيرة، وبوغت الشيخ الكبير بابنه فقال: عمران؟! واللَّهِ ما شعرتُ بك حتى هذه الساعة، فالحمد لله يا بني أن هداني لما هداك إليه من الحق.

ورأى النبي ﷺ صنيع عمران بوالده، فقد دخل مشركاً فما قام إليه، ولا نظر جهته، فلما أسلم قضى منه حقه، وأدركته عليه الصلاة والسلام رقَّةٌ، فدمعت عيناه، ونظر أصحابه إلى وجهه الشريف ورأوا الدموع تبلِّله، وأدركوا على الفور معنى تلك الدموع الكريمة.

٤

وقام الحصين من مجلسه يريد أن يخرج، وقام له النبي ﷺ وأصحابه، ومشى الرجل خطوات ثم توقف، وكأنه تذكر شيئاً، وقال للنبي: علِّمني الكلمتين اللتين وعدتني.

فقال له النبي ﷺ: «نعم». قل: «اللهمّ أَلهمني رشدي وأعذني من شرور نفسي».

وأخذ عمران بيد والده ومشى به، وقال النبي لأصحابه: «قوموا فشيِّعوه[1] إلى منزله» فقاموا وراءه.

وخرج الشيخ الكبير من منزل رسول الله ﷺ وهو يقول بصوت عالٍ يسمعه من حوله:

الحمد لله الذي هداني لدينه الحق، اللهمّ ألهمني رشدي، وأعذني من شرور نفسي.

وسمعه رجال قريش، ورأوا ابنه عمران آخذاً بيده وأصحاب النبي يمشون خلفه، وأيقنوا أنه قد أسلم، فامتلأت قلوبهم غيظاً وحنقاً، وقالوا: صبأ والله الرجل، صبأ والله الرجل!! ثم انصرفوا وهم يشتمونه.

ومضت أيام قليلة، وعاد الشيخ الكبير إلى رسول الله ﷺ فقال له:

يا رسول الله، كنتَ علمتني حين أسلمت كلمتين، وقد لانَ بهما لساني، وجئتك لتعلمني كلاماً جديداً أقوله.

---

(١) شيّعوه إلى منزله: اخرجوا معه حتى يصل منزله.

وقال النبي ﷺ: قل:

«اللهمّ اغفر لي ما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أخطأتُ وما عمدتُ، وما علمتُ وما جهلتُ».

وعاد الرجل إلى بيته، وجعل يردّد هذه الكلمات التي تعلمها من جديد من رسول الله.

وغمرت الحصينَ نشوة الإيمان، وعاش يذوق حلاوته، ولكن ـ وا أسفاه ـ لم يطل به الأمر، فما مضت عشرون ليلة على إسلامه حتى مات!!

رحم الله الحصين بن عبيد الخزاعي، صاحب رسول الله ﷺ، فقد آثر الحق، وضرب بالباطل عرض الحائط، ولم يعبأ بما نالت منه قريش التي خيب آمالها.

رحمه الله، وجزى نبيّه محمداً عنه كل خير، فلولاه، ولولا حكمته ورحمته، لمات الحصين مشركاً ودخل النار!!

مَعَ الحَكَم بن كيسَان

١

رجع الحَكَم بن كَيسان من الطائف بصحبة نفرٍ من قريش، بعد أن باعوا واشتروا وربحوا. كان سعيداً بما حقق في هذه الرحلة من ربح، وبما آبَ به من خمر معتَّق، وأدَم[1] وزبيب، وأيقن هذه المرة أن مولاه عمرو بن هشام[2] سيرضى عنه تمام الرضى، وسيصيبه منه خير كثير، بعدما ينتشي بهذه الخمرة الجيدة التي جلبها له.

وجدّ السير بالركب يتقدمهم عمرو بن الحضرمي، صاحب الأسفار الكثيرة، والذي غدا من أعرف الناس بالطريق ما بين مكة والطائف لكثرة ما سلكه. . كانوا جميعاً فرحين راضين بما حققوه من ربح وبما جلبوه من تجارة، ولقد قطعوا معظم المسافة، وها هم أولاء قد أصبحوا قريبين من مكة، ويأملون أن يصلوها بعد ساعات، فيرتاحوا من عناء السفر، ثم يعرضوا بضاعتهم في أسواقها، فيحققوا ربحاً جديداً ومالاً وفيراً.

وبينما هم في مسيرهم والآمال الجميلة تغمرهم، إذا بهم يفاجؤون بما لم يكن في حسبانهم، وبما لم يخطر لهم على بال: نفرٌ من أصحاب محمدٍ ﷺ، أرسلهم رسولهم من المدينة المنورة بقيادة عبد الله بن جحش ليترصدوا قريشاً. . وانقضّ هؤلاء النفر على أعدائهم كالأُسود، فترك هؤلاء إبلهم الموقرة بالبضاعة وهربوا، وتبعهم المسلمون، وجرت بين الفريقين

(١) الأدم: الجلد.

(٢) هو عدو الله ورسوله: «أبو جهل».

مناوشة، قتل على أثرها عمرو بن الحضرمي، وأُسر الحكم بن كَيسان وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأعجز المسلمين نوفل بن عبد الله بن المغيرة، فنجا. وغنم المسلمون العِير وما عليها من التجارات، واعتقدوا أنهم أصابوا من عدوهم قريش إصابة تشفي بعض ما في قلوبهم.

وشدّ المقداد بن عمرو أسيره الحَكَم بن كَيسان وثاقاً، ثم قدم به على أميره عبد الله بن جحش، فسُرّ الأمير بأسره وصاح بالمقداد: اضرب عنق هذا الكافر، وليمت مولاه أبو جهل غيظاً عليه وعلى تجارته. وارتاع الحكم من هذا الموت السريع المفاجىء الذي فَغَر فاه وأقبل عليه، وهمَّ أن يصرخ مستغيثاً، لكن المقداد بن عمرو سبقه فقال للأمير: دَعْهُ، نَقْدَمْ به على رسول الله ﷺ فينظر في أمره.

واستجاب أمير السرية، واطمأنت نفس الحكم بعض الاطمئنان، وسُري عنه بعض الجزع الذي أصابه، وهدأ روعه!!.

٢

رجع المسلمون بغنائمهم وأسيرَيهم إلى المدينة المنورة، وعرضوهما على رسول الله ﷺ. كانت أحزان الحكم ابن كَيسان لا توصف، فقد كان يعيش في ظل الزعيم القرشي أبي جهل عيشة هنية، يتمتع فيها بلهو الحياة وشهواتها، ولا يكاد يفوته شيءٌ من لذائذها، فالمال بين يديه كثير، والمتع مبذولة، ومولاه يحبه ويجود عليه بكل ما يطلبه ـ ثم ها هو ذا الآن يفقد كل شيء ويصبح صفر اليدين، بل هو الآن يكاد يفقد الحياة ذاتها، فقد أوشك أن يعرض على السيف وتزهق روحه!!.

ورأى النبي ﷺ أحزان الحكم العظيمة، وأدرك بنظره البعيد ما يجول في فؤاده، فأقبل عليه يهدىء من روعه، ويسكِّن نفسه، ويدفع همومه، وفعلت تلك المواساة الكريمة فعلها في نفس الأسير الحزين، فخفّ بعض حزنه، واطمأنت نفسه قليلاً.

وأشفق النبي ﷺ على الحَكَم أن يبقى على كفره فيموت عليه، فأقبل عليه يدعوه إلى الإسلام، ويبغِّض إليه الشرك، ويرغِّبه في الجنة ويحذّره من النار.

وأجاب الحَكَم: يا محمد! ما عرفناك إلا أخاً كريماً وابن أخٍ كريمٍ، فامنُن عليّ ولا تحمّلني على دين أكرهه، فأنا لا أدين لغير «هُبَل».

وتعجب النبي ﷺ من كلامه، وتعجب من تمسكه بعبادة صنم من حجارة، لا يرى ولا يسمع ولا يضرّ ولا ينفع!!

وأجاب الحَكَم: هو إلّه قريش وإلّه مولاي أبي الحكم[1].

وعاد النبي ﷺ يخبره أن هُبَل لا يستحق العبادة، وأن تأليهه ضلال بعيد، وحمق كبير، وأن الذي يستحق العبادة هو الله خالق السموات والأرض، وأن من يُشرِك بالله فقد افترى إثماً عظيماً، وأن مصيره إلى النار.

وأَجاب الحَكَم ـ وقد أطمعه حلم النبي وأناته ـ: يرضيني ما يرضي قومي، وما أنا بالذي يخالفهم في شيء!!.

وقال له النبي ﷺ: «يا حَكَم، أسلم تسلم، قل: لا إلّه إلاّ الله تفلح».

وأجاب الحَكَم: لا أقولها حتى يقولها أشراف قريش.

ولم ييأس النبي ﷺ من الرجل برغم صدوده، واستمر يكلِّمه برفقٍ وأناة، لكن عمر بن الخطاب ـ وكان يصغي إلى ذلك الحوار ـ غضب غضباً شديداً من إعراض الحَكَم ومن ذكره لمولاه أبي جهل، وثار به الغضب ثورة عنيفة حتى لم يعد بمقدوره أن يكتمه، وأراد أن يتكلم لكن النبي ﷺ ـ وقد رأى أمارات الغضب تلوح في وجهه ـ أشار إليه بالسكوت، فكظم الرجل غضبه بصعوبة بالغة.. وجاء بلالٌ في تلك الأثناء يُؤْذِنُ رسول الله بالصلاة، فترك الحَكَم لتوِّه وقام إلى مسجده.

---

(١) أبو الحكم: كنية أبي جهل التي شُهر بها في قريش.

٣

أدى النبي ﷺ الصلاة، وعاد إلى الحكم بن كيسان يدعوه إلى الإسلام من جديد، وحضّه ورغّبه هذه المرة أكثر من السابق، لكن الحكم أجاب النبي جواباً فظّاً أراد به قطع حديثه في هذا الأمر. فقد قال له:

يا محمد! لا تعاودني في هذا الأمر، فلست أرغب عن دين قومي أبداً.

وثارت نفس عمر بالغضب من جديد، وقال للنبي ﷺ:

علامَ تكلم هذا يا رسول الله!!

والله لا يسلم هذا أبد الدهر!!

دعني أضرب عنقه ويقدم إلى أمه الهاوية!!

ولم يعبأ النبي ﷺ بغضب عمر ولا بكلامه، وأشار عليه ثانية بالسكوت، ولم يأبه لإعراض الحَكَم عن دين الله، بل اشتد إشفاقه على هذا الإنسان الكافر الذي يتقحَّم جهنم تقحماً بإعراضه عن الهدى الذي ساقه الله إليه، ويغامر بحياته من أجل معتقد سخيف.

وعاود النبي ﷺ دعوة الحَكَم إلى الإسلام، وألان له الحديث، وحضّه كثيراً، ورغّبه ترغيباً عظيماً، فلانت أخيراً تلك النفس العنيدة بعد صدٍّ طويل، وشعر النبي بذلك، فقال له من جديد:

«أسلم تسلم، قل: لا إلّه إلاّ الله تفلح».

وقال الحَكَم: وما الإسلام؟

فأجاب النبيّ ﷺ:

«تعبد الله وحده لا شريك له، وتشهد أني محمداً عبده ورسوله».

واستشعر الرجل الإسلام، ونفذ إلى قلبه وروحه، وعملت رحمته ﷺ عملها فيه، فنطق لسانه:

إني أسلمت، وأنا أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله.

وسُرّ النبي ﷺ بإسلامه أيما سرور، وابتهج ابتهاجاً عظيماً، وحصلت مفاجأة أذهلت الناس جميعاً ممّن سمعوا محاورة النبي للحَكَم، والتفت النبي لأصحابه قائلاً:

«لو أطعتكم فيه آنفاً، فقتلته؛ دخل النار».

وكان من أشد الناس عجباً بهذه المفاجأة عمر بن الخطاب فأخذه ما تقدم وما تأخر، وقال في نفسه: كيف أَردّ على النبي ﷺ أمراً هو أعلم به منّي!!

وحزن عمر لما بدر منه، لكنه اعتذر لنفسه وقال:

إنما أردت بذلك النصيحة لله ولرسوله.



ودَّع الحَكَم بن كيسان الجاهلية، وأسلم لله ربّ العالمين وقرأ القرآن، واجتهد في العبادة والطاعة، وعزم على أن يقف عمره وجهده وكل ما يملك من أجل نصرة هذا الدين الذي أكرمه الله به من غير سعي منه ولا تدبير، وعاهد الله على ذلك، وابتدأ يبذل كل ما عنده من جهد وعمل، وأخذ يشارك في السرايا، ورأى رسول الله وأصحابه صدق هذا الرجل فأعجبوا به وأحبّوه، وبذلوا له المودّة.

ولم يطل الأمر بهذا المؤمن الصادق، فقد كان عاهد الله على نصرة دينه، وصَدَق ما عاهد الله عليه، فاصطفاه الله، وأكرمه سريعاً بالشهادة.

فبعد أقل من عشرين شهراً من إسلامه، قضى الحَكَم بن كَيْسان نحبَه مع من قضَوا نحبهم من أصحاب رسول الله ﷺ في بئر معونة[1]، ولاقَوا

(١) بئر معونة: مكان في نجد استشهد فيه سبعون من المسلمين في السنة الرابعة للهجرة، نتيجة غدر بعض القبائل بهم.

وجه ربهم شهداء أبراراً، ومكث رسول الله يدعو لهم ويدعو على قاتليهم في القنوت شهراً كاملاً، وأثنى عليهم، وشهد لهم بالإيمان واليقين.

وبعــد:

رحم الله الحَكَم بن كيسان الصحابي الشهيد.

وصلى الله وسلم وبارك على معلِّم الخير ورسول الرحمة سيدنا محمد رسول الله، فبسبب من رحمته العظيمة، ودعوته الحكيمة، أسلم الحَكَم، ثم قضى شهيداً سعيداً، وفاز بالنعيم طارفاً وتليداً[1].

---

(١) النعيم الطارف: المستحدث. والتليد: القديم. ونعيم الجنة هو النعيم الطارف والتليد، وما عداه فلا، وقد قال النبي عليه السلام: ألا إن الخير كله بحذافيره في الجنة، ألا إن الشر كله بحذافيره في النار!!.

مَعَ فتيَةِ بَني عَبْدِ الأشهَل

١

كانت جميع الدلائل تشير إلى أنَّ حرباً جديدة وشيكة الوقوع بين الأوس والخزرج في مدينة يثرب، فقد تفاخر الحيّان، وتناشدا الأشعار بأيامهما السابقة، وهدد كل حيٍّ الآخر، فغلَت القلوب بالأحقاد، وطفحَتِ النفوس بالشر، ولم يعدْ أوسيٌّ يأمن أن يأتيَ الخزرج في ديارهم، ولا خزرجيّ يأمن أن يأتيَ الأوس في ديارهم!!

وفرح اليهود بما آل إليه الأمر، وبذلوا جهداً كبيراً في إذكاء نار العداوة هذه المرة، وكان هذا ديدنهم منذ أن جاورهم هذان الحيّان من العرب، وهبطا يثرب بعد هجرتهم من بلاد اليمن منذ قرون.

ودعا «حُضَير الكتائب» ـ فارس الأوس وبطلهم ـ أشراف قومه لاجتماع يتداولون فيه أمر الحرب المقبلة، وتكلم أُناس من الحضور، فأظهروا مخاوفهم من الهزيمة أمام الخزرج الذين يزيدون عليهم في العدد كثيراً، وطمأنهم حُضير، وحثّهم على الصبر ومجالدة الأعداء، وأخبرهم أنه موقن بظهورهم هذه المرة على الخزرج لا محالة، فقد مضى عليه زمن وهو يعدّ العدّة لهذه الحركة.

لكن ناساً من بني عبد الأشهل ـ رَهْط الحضير ـ لم تطمئن قلوبهم، وخافوا من نتيجة المعركة، وأَلَحُّوا على قومهم بأن يحالفوا بعض أحياء العرب، فيقوَوا بهم على جيرانهم الخزرج، وكان على رأس المنادين بهذا

الأمر «أبو الحَيْسر: أنس بن رافع» وتجادل يومها مع الحضير، وقال له: دعني أفعل ما فيه صالح قومي، فأجابه الحضير: افعل ما تشاء.

وفكر أبو الحيسر في أمره وأجال تفكيره في قبائل الحجاز، فلم يجد أفضل من قريش لمثل هذا الحلف، فهي أعزّ قبائل العرب، وهي صاحبة الحرم، ثم إن لها تجارة دائمة تمرّ على يثرب إلى الشام وتؤوب من الشام فتمر على يثرب، فليكن الأوس حلفاءَهم في هذا البلد، يحمون لهم تجارتهم، وليكونوا معاً على الخزرج.



خرج أَبو الحَيْسر من يثرب ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حَدَثاً لم يبلغ الحلم، إلا أنه كان فطناً عاقلاً تعلق بقومه فحملوه معهم ـ وحلقوا رؤوسهم وأظهروا للناس أنهم يريدون العمرة.

ودخل أبو الحَيْسر ومن معه مكة المكرمة، وطافوا حول البيت، وأتمّوا عمرتهم، ثم سعَوا إلى الزعيم القرشي الكبير عتبة بن ربيعة، فاستضافهم وأكرمهم، ثم حدّثوه بما جاؤوا من أجله، وأنهم إنما يطلبون حلف قريش، وحثّوه على أن يُعينهم على أشراف قومه، فيقبلون منهم بهذا الحلف.

بَيْدَ أن الرجل اعتذر لهم اعتذاراً لطيفاً، وأخبرهم أن قريشاً لا تودّ أن تُعادي أحداً من العرب فهي عزيزة الجانب، وتتمتع باحترام الجميع، وقوافلها التجارية لا يتعرض لها أحد، فلا حاجة لها بأية خصومة، وأنهى الرجل كلامه قائلاً:

ومع ذلك فقريش في شغل شاغل عن جميع العرب، فقد ظهر فيها رجل يدعو لدين جديد، ويستنكر دين الآباء والأجداد، وأحدث فيها هزّة عنيفة، وأهمّها وأقلق بالها.

ولم يرضَ أبو الحَيْسر باعتذار عتبة، فقال له: ما هكذا الظن بك يا أبا الوليد، جئناك لتُعيننا على أشراف قومك فإذا بك تعتذر عنهم، واستحيَى عتبة من ضيوفه، وقال لهم: قوموا بنا نطوف على وجوه القوم، واعرضوا عليهم ما جئتم من أجله.

وطاف عتبة بفتية بني عبد الأشهل على زعماء مكة، وعرض عليهم رغبة الأوس في التحالف معهم على جيرانهم الخزرج، وحضَّهم على الاستجابة لهم؛ لكن زعماء قريش أبَوْا جميعاً، وقالوا لأبي الحَيْسر ومن معه:

(بَعُدَت داركم منّا، متى يجيب داعينا صريخكم، ومتى يُجيب داعيكم صريخنا!!).

٣

علم رسول الله ﷺ بقصة وفد بني عبد الأشهل، ووصل إليه أنهم أخفقوا في مسعاهم، فمشى إليهم وهم في أبطح مكة، فسلَّم عليهم ثم جلس بينهم، وأخبرهم أنه قد علم بما جاؤوا من أجله إلى مكة وبما جرى لهم، ثم قال لهم:

«هل لكم فيّ خير مما جئتم له»؟.

فقالوا له: وما ذاك؟

فقال: «أنا رسول الله، بعثني الله إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأَنزل عليَّ الكتاب».

وبوغت أبو الحَيْسر بما سمع فسكت!

وقال أَحد أُولئك الفتية: وما هذا الدين الذي جئت به؟

وتكلم رسول الله ﷺ، فبيّن لهم الإسلام، وأنه دين الله الذي بعث به أنبياءه، وأن الله ختم به النبوّات، وأخبرهم أن دينه هو الدين الذي

يقبله الله، وأن من يبتغِ ديناً غيره فلن يُقبل منه، وأن الله سيبعث الناس من قبورهم ويحشرهم ويحاسبهم على جميع ما عملوه في حياتهم، وقد أعدّ لعباده المؤمنين نعيماً مقيماً، وأعدَّ للكافرين عذاباً مهيناً.

ثم أخبرهم صلوات الله عليه أن دينه يدعو بعد الإيمان بالله واليوم الآخر إلى اتباع الفضائل وترك الرذائل، وإلى الأُخوّة بين الناس والتعاون والتراحم، وأنهم إن اتبعوه فهو يرجو أن يجمع الله عليه قلوب أهل يثرب جميعاً أوسهم وخزرجهم، ويريحهم من الحروب التي أكلتهم.

وأعجبت كلمات النبي ﷺ عدداً من هؤلاء الفتية، وكان أشدهم انتباهاً لها وإعجاباً بها الغلام الصغير «إياس بن معاذ»، بل لقد تأثر تأثراً بالغاً بتلك الكلمات، وسَرَت إلى قلبه وروحه، وصدَّقها وأيقن بها، واعتقد أن توحيد الله هو الحق وأن الشرك هو الباطل، وأن الموت ليس نهاية الناس، وأن ما يدعو إليه هذا الرجل هو الذي يجتمع عليه أمر يثرب، وهو الذي يُريحها من تلك الحروب الدائمة.

ونظر إياس بن معاذ إلى النبي ﷺ وقال له: اتلُ علينا بعض ما أُنزل عليك.

وتلا النبي ﷺ آيات من كتاب الله عزّ وجلّ أخذت بألباب القوم، فجعلوا ينظرون إلى بعضهم، وهم يتعجبون، ثم تركزتْ أنظارهم على أبي الحَيْسر، ليروا ماذا سيجيب به النبي ﷺ فالأمر بيده والكلمةَ له.

وسكت أبو الحَيْسر، وسكت الجميع.

وتجرأ الغلام إياس بن معاذ على الكلام، فخاطب جماعته قائلاً:
يا قوم! هذا ـ والله ـ خيرٌ مما جئتم له!!

وسُرّ لكلمة معاذ عدد من فتية بني عبد الأشهل، لكن زعيمهم أبا الحَيْسر غضب لها غضباً شديداً، فأخذ حفنة من رمال البطحاء، فرمى بها وجه الغلام الصغير، وقال له:

دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا!!

وسكت إياس، وأطرق رأسه إلى الأرض حزيناً كئيباً، وسكت بقية الحضور إشفاقاً أن يصيبهم من أبي الحيسر ما أصاب إياس.

وتوجه أبو الحَيْسر إلى جماعته وقال لهم:

ما أشغلنا عن هذا الأمر الذي سمعتموه، ما قدم وفدٌ ـ إذاً ـ على قوم بشرٍّ مما قدمنا به على قومنا!!

إنّا خرجنا نطلب حلف قريش، فنؤوب بعداوتها وعداوة الخَزرج!!

إنَّ هذا لَلْرجل الذي أخبرنا عنه عتبة بن ربيعة!!.

ثم توجه إلى النبي ﷺ قائلاً:

أيّها الرجل، لا حاجة لنا بما تدعوننا إليه.

وقام عندها رسول الله ﷺ، وانصرف حزيناً لإعراضهم، صابراً على أمر الله.

٤

عاد فتية بني عبد الأشهل إلى يثرب خائبين، فهم لم يحصلوا على الحلف الذي أرادوا، ولا قبلوا دعوة الحق التي سيقت إليهم. بيد أن واحداً من أولئك كان قد عاد بأعظم الربح؛ ذلكم هو الغلام الصغير إياس بن معاذ، فقد استشعر الإسلام في تلك الجلسة التي سمع فيها من رسول الله ما سمع، وامتزجت كلمات القرآن التي تلاها الرسول ﷺ بقلبه وروحه، وصدَّقها وأيقن بها.

ولقد أدرك بثاقب نظره من بين رجال ذلك الوفد جميعاً أن هذا الدين الذي يدعو إليه هذا الرجل في مكة؛ هو وحده الذي يستطيع أن يزرع السلام والوئام في ربوع يثرب، ويؤلِّف بين قلوب أوسها وخزرجها، ويريحهم من الحروب المستمرة التي تستنزف دماءهم؛ أَما بقية رجال ذلك

الوفد، فهم ـ وإن كانوا يكبرونه في السن كثيراً ـ لم يستطيعوا أن يدركوا ما أدرك، ولم يقدروا أن ينظروا تلك النظرة البعيدة التي نظرها، وحين صاح بهم أبو الحَيْسر صيحته مالؤوه جميعاً على رأيه الخاطىء؛ بعد أن تأثروا بعض التأثّر بكلمات الرسول ﷺ.

وكان لا بدّ لأهل يثرب من وقعة شديدة تصيبهم جميعاً، حتى يصلوا إلى القناعة التي وصل إليها غلامهم الصغير إياس بن معاذ، وحتى يفهموا أن بَلْسَم جراحاتهم إنما يكمن في دعوة محمد رسول الله ﷺ.

وهذا ما كان، فقد حصل ما كان متوقعاً، واشتعلت الحرب من جديد في يثرب، واحترب أهلها واقتتلوا قتالاً شديداً، وأثخنوا في بعضهم، وكادوا يتفانَوا، وكانت الدائرة هذه المرة للأوس، فقتلوا رجالاً كثيرين من الخزرج، وأدرك بعض عقلاء الأوس هول المأساة التي ستصيب الفريقين، وصاح في قومه:

كُفُّوا عن إخوانكم ـ الخزرج ـ فوالله إن جوارهم خير من جوار الثعالب[١].

وانتهت الحرب عن فاجعة كبيرة، وعن فائدة عظيمة، فقد قتل أشراف البلد ورؤساؤه، وقتل بطل الأوس «حُضَيْر الكتائب»، بَيْدَ أن هذا اليوم ـ الذي سمي بيوم بُعاث ـ وإن كان يوماً مريراً إلا أنه كان من جهة ثانية سبباً في أعظم خير أصاب يثرب وأهلها فيما بعد، فقد كان يوماً قدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقد قَدِمَ عليه الصلاة والسلام يوم قَدِم المدينة وقد افترق مَلَؤهم وقتل سَرَاتهم[٢]، فاجتمعت عليه القلوب، وتوحدت به الكلمة، وقبل الجميع دعوة الله عزّ وجلّ.

---

(١) المراد بالثعالب: اليهود الذين كانوا يقيمون في يثرب.

(٢) سراتهم: أشرافهم.

٥

حزنت يثرب حزناً عظيماً لمصاب أبنائها، وجزع الفريقان: الرابح والخاسر، وبكَوا قتلاهم بدموع سخينة، وكان من أشدّهم حزناً «إياس بن معاذ»، فقد أحزنه أن قومه رفضوا تلك الدعوة الكريمة التي سيقت إليهم، والتي فيها وحدها نجاتهم من عذاب الدنيا الذي يعيشونه، ومن عذاب الآخرة الذي ينتظرهم.

ومرض إياس بن معاذ، واشتد عليه المرض حتى ذبلت حشاشته[1] وحضره الموت، فتجمع أهله ورجال من بني عبد الأشهل حوله، وكان فيهم: محمد بن مسلمة، وسلمة بن سلامة بن وَقْش، وأبو الهيثم بن التيِّهان، وأحسّ إياس بالموت، فانطلق لسانه يردّد هذه الكلمات:

لا إلّه إلاّ الله، والله أكبر، الحمد لله وسبحان الله، لا إلّه إلاّ الله، والله أكبر.

وعجب قومه منه، وقالوا له: ماذا تقول يا إياس؟ فلم يستطع أن يردّ عليهم بشيء، وبقي يردّد هذه الكلمات حتى توقفت أنفاسه، وفاضت روحه إلى بارئها.

وبعـــد:

رحم الله إياس بن معاذ رحمةً واسعة، ورضي الله عنه وأرضاه، فقد كان أول الأنصار إسلاماً، وكان رائد أهل يثرب في الدخول في دين الله، ذلك الدين الذي أسعدهم به الله، وأنجاهم، وألّف به بين قلوبهم.

---

(١) الحشاشة: الروح.



محمد علي دولة

٢



من أعلام النبوة

ــ ٢ ــ

كثر الحديث عن رسول الله ﷺ قبل مبعثه وخاصةً لمَّا تقارب زمانه، فقد تحدّث عنه الأحْبَار من يهود، والرهبان من النصارى، والكهَّان من العرب، وغيرهم من المُلهمين. فأما أَحْبَار يهود ورهبان النصارى فعمَّا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عَهْد أَنبيائهم إليهم فيه. وأما الكهَّان من العرب فأتتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع. وأَما غيرهم فكان ما يرونه فتح من الفتوح، وإرهاص من الإرهاصات بين يدي النبوّة.

... وانتظر الناس، وبُعث خاتم النبيين، وتحققت النبوءات، وأَدرك العقلاء أن ما كان من أحاديث الناس وقصصهم؛ إنْ هو إلا من أعلام النبوّة الأخيرة، وآياتها، ودلائلها!!



١ ــ بشائر النور.

٢ ــ حَبْر يهودي يبشّر بمبعث الرسول.

٣ ــ فتى يهودي يسلم وهو يحتضر.

٤ ــ بشائر الرهبان من النصارى.


محمد رسول الله
والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

بَشَائِر النّور

١

حضر موسم الحج، وأقبلتِ الوفود من جميع القبائل إلى مكة المكرمة، حاجَّة إلى بيت الله، معظِّمة له.. وجعل الناس يطوفون حول البيت وهم يرتدون ثياب الحُمُس[١]، ومن لم يجد ثوبَ أحمسيٍ صار يطوف عُرْياناً.

ولقي الحجيج من كرم الضيافة وحسن المعاملة من قريش ما أدخل السرور على قلوبهم، وزاد من مكانة هذه القبيلة في نفوسهم، حتى إذا انتهت أعمال الحج أخذت الوفود تغادر البلد الأمين راجعة إلى قبائلها ومواطنها، بعد أن أدَّت المناسك[٢].

وكان من بين تلك الوفود التي أمَّت مكة هذا العام وفدٌ من «جُهَيْنَة» وفيهم رجل ذو عقل وبصيرة يقال له: «عمرو بن مرّة الجهني».. كان رجلاً تام الرجولة، وقد جاء مكة للمرة الأولى، وأدى مناسك الحج مع من أدّاها؛ لكنه أحسَّ أن يقينه في دينه قد تزعزع، وأن شكوكه في معتقده قد ازدادت، على عكس ما كان يتوقع وهو قادم يريد الحج، فقد ساءه منظر

(١) الحمس: جمع الأحمس: وهم قريش، ومن ولدت قريش، وكنانة، وجديلة قيس، سمّوا حمساً لأنهم تحمسوا في دينهم أي تشددوا. كانوا يقفون بمزدلفة ولا يقفون بعَرَفة، ويقولون: نحن أهل الله فلا نخرج من الحرم، وكانوا يرون أن لا يصحّ طواف حول البيت إلا بثيابهم.

(٢) كان العرب يحجّون في الجاهلية، وحجّهم من بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلا أنهم حرّفوا هذه العبادة كثيراً وغيّروها وبدّلوها.

الأصنام الكثيرة المنصوبة في الحرم، ورأى أن الناس يهينون أنفسهم وهم يقدِّسون هذه الحجارة المنحوتة، ويشدّون إليها الرحال من بلاد بعيدة، وينفقون في سبيلها الأموال.

وساءه أكثر من ذلك أولئك الناس الذين يطوفون حول البيت، فيصفِّقون ويصفِّرون، وأولئك السخفاء الذين تعرَّوا من ثيابهم وطافوا حول البيت كما ولدتهم أُمهاتهم، وجعل يقول في نفسه.

ما هذه العبادة؟! بل ما هذا الدين الذي نحن عليه؟!.

والله إنْ نحن إلا في ضلالٍ بعيد!!.

وما انتهت أيام الحج إلا وقد سيطر عليه شعور طاغٍ بالمرارة والحزن لما عليه الناس من سخف في المعتقد، وسفاهة في العبادة، وطيش في التصرّف، ولقد قرر ألاّ يعود مرةً ثانية إلى مكة، حتى لا يرى هذه الأصنام الكثيرة، ولا تقع عيناه على تلك المناظر التي ساءته وأودعت في قلبه الحزن الكبير.

وفي آخر ليلة من مقامه في مكة المكرمة، وبينا عمرو نائم مستغرق في نومه، إذا به يرى نوراً عظيماً خرج من جوف الكعبة، وأضاء الأفق المديد، فأشرق منه السهل والجبل، والقريب والبعيد، ونظر عمرو فإذا أشْعَرُ جهينة[1] يلوح له وكأنه أمامه. ثم نظر نظرة أخرى فإذا جبل أُحُد الذي في يثرب منتصباً قبالته، فدهش الرجل لهذا النور العجيب الذي أراه البعيد قريباً والقاصي دانياً، وقال في نفسه: إنَّ هذا الذي أرى عجب من العجب، ووالله ما أدري ما سره!!.

وإنه لفي دهشته من النور ينظر إليه ولا يملّ من ذلك إذا به يسمع صوتاً ينبعث من خلاله ويقول:

انقشعت الظلماء!!

(١) أشعر جهينة: جبل لقبيلة جهينة بين المدينة والشام.

وسطع الضياء!!
وبعث خاتم الأنبياء!!

وازدادت دهشة الرجل، فقد رأى عجباً، وسمع ما هو أعجب!!

ثم إن النور امّحى من الوجود، وغاض في منبعه، وعاد الليل بظلامه، وانتهت تلك الرؤيا الجميلة التي انطبعت في ذاكرة عمرو، واستمر الرجل في نومه.

وبعد وقت قصير، إذا به يرى النور قد انبثق من جديد من جوف الكعبة، فأشرق به الظلام، وأضاءت به الدنيا، فنظر أمامه فرأى قصور الحيرة، ثم نظر أخرى فإذا به يرى القصر العظيم الأبيض الذي لكسرى في عاصمة ملكه: المدائن. وقال في نفسه: إن هذا النور أعجب وأغرب من ذاك!!

وإنه لمستغرق في تعجبه إذا بصوت ينبعث من وسط النور يقول ولا يدري مَنْ القائل:

ظهر الإسلام!!
وكسرت الأصنام!!
ووصلت الأرحام!!

ثم لم يلبث النور أن امّحى، وعاد الظلام يخيم على الأفق.

واستيقظ عمرو هذه المرة مذعوراً مما رأى في نومه أولاً وآخراً، وارتسمت صورة ما رأى أمام ناظريه، حتى لكأنه يراه الآن، وأخذ يردّد كلمات الهاتف وسط النور وكأنها مكتوبة على قرطاس أمام ناظريه:

انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبُعث خاتم الأنبياء!!
ظهر الإسلام، وكُسرتِ الأصنام، وَوُصِلتِ الأرحام!!

وقال في نفسه:

مَنْ خاتم الأنبياء هذا؟! وما هو هذا الإسلام الذي ظهر؟! ومن

ذا الذي سيكسر الأصنام؟! بل ومن له طاقة بكسرها وإراحة العرب من تعظيمها وعبادتها؟!

وشعر عمرو بأن كثيراً من أحزانه التي أصابته من قبل قد تبدَّدت، وأن روحه قد أشرقت، ثم قال في نفسه:

أحلف بالله إنها لرؤيا حق، ولسوف تكون!!

وفي الصباح حدَّث قومه بما رأى وقال لهم:

والله، ليحدُثَنَّ في هذا الحيّ من قريش حدث!!

وعجب الجميع من هذه الرؤيا، لكنهم لم يفهموا لها تأويلاً.

٢

عاد عمرو بن مرّة إلى قبيلته جهينة بقلب غير القلب الذي ذهب به إلى مكة، فقد امّحت من قلبه ظلمات كثيرة، وأشرق فيه نور وهاج، وبُغِّضت إليه الأصنام، فصار يُعرِض عن صنم قومه ـ وكان أبوه سادناً له[١] ـ وجعل يتسقَّط الأخبار عمّا يجري في مكة، ويقول لكل قادم:

هل حدث أمر في مكة؟ هل هناك من مُغَرِّبة خبر[٢]؟

فكان الناس يجيبونه: لم نسمع بشيء، ولم يجرِ أمر ذو بال.

ومضت بضع شهور على موسم الحج السابق وأوشك الموسم القابل أن يأتي، وقام محمد رسول الله ﷺ في مكة المكرمة يدعو إلى الله، ويبشّر الناس وينذرهم، ويبلِّغهم دعوة الإسلام.

وقدم رجل من جهينة إلى مكة، فسمع أهلها يذكرون النبي محمداً ﷺ

---

(١) السادن: الخادم. هذا وقد كان لكل قبيلة من قبائل العرب صنم تعظّمه، وكانت هناك أصنام يعظمها الجميع، كهُبَل الذي في جوف الكعبة، والعزّى التي في نخلة. وكان في كل بيت من بيوت الأشراف صنم!!.

(٢) مغربة خبر: الخبر الجديد يأتي من بلد بعيد.

وما جاءهم به، وعاد الجهني إلى قومه، وسعى أول ما سعى إلى عمرو بن مرّة وقال له:

هذا منامك الذي رأيت قد تحقق!!

وقال عمرو بلهفة: ماذا؟!

فقال الرجل: ظهر بمكة رجل يقول عن نفسه إنه نبي، وهو يدعو قومه لدين اسمه الإسلام، ويدعو لهجر الأصنام، ويهتف بالناس: قولوا: لا إلّه إلاّ الله.

وقال عمرو بن مرّة: أحقٌّ ما تقول يا هذا؟!

فقال الرجل: واللّاتِ والعُزَّى ما كذبتك.

وقال عمرو: ويحك، لا تحلف بهما، وطفح السرور على وجهه وقال:

هذا ـ والله ـ تأويل رؤياي!!

ثم إن عَمْراً أخبر أهله أنه مرتحل إلى مكة، وقام في جوف الليل إلى صنم قومه، فكسَّره وجعله جذاذاً، ثم امتطى ناقته وسرى بها باتجاه مكة والسرور يملأ فؤاده، وجاشت نفسه بالأماني الحلوة، ولم يشعر إلا بأبيات من الشعر تتدفق على لسانه، معبّرة عمّا يكنه جَنانه، وشرع ينشدها بصوت عالٍ يشق بها سكون الليل ويقول:

شهدتُ بأن اللَّهَ حقٌّ وإنني ... لآلهة الأحجار أولُ تاركِ

فشمَّرتُ عن ساقِي الإزارَ مهاجراً ... أجوب إليك الوَعْثَ بعد الدكادكِ[1]

لِأَصْحبَ خيرَ الناسِ نَفساً ووالداً ... رسولَ مليكِ الناسِ فوقَ الحبائكِ[2]

(١) أجوب: أقطع. الوعث: الطريق الغليظ العسر. الدكادك: جمع دكدك: الأرض التي فيها غلظ.

(٢) الحبائك: جمع حبيكة، وهي الطريقة بين النجوم، والمراد: السموات.

٣

وفي مكة المكرمة لقي عمرو رسول الله ﷺ، ونظر في وجهه فرأى آيات الصدق تلوح بارزة فيه. وقبل أن يسأل النبيَّ عن أمره ودعوته، بادره قائلاً: لقد أُخبرت بخبرك قبل أن تبعث!!

وقصَّ عليه قصة منامه العجيب، وقال: لقد أشرق في قلبي نور من هذا النور الذي رأيته، فحجب عني الظلمات، ولقد قلت لقومي يومها:
واللَّه ليحدثنَّ في هذا الحي من قريش حدث!!

وبرق وجه رسول الله ﷺ سروراً بما سمع، وقال لعمرو:
«يا عمرو بن مرَّة، إني رسول الله المرسل إلى العباد كافّة، أدعوهم إلى الإسلام، وآمرهم بحقن الدماء وصلة الأرحام، وعبادة الله ورفض الأصنام.
فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار، فآمنْ يا عمرو بنَ مرَّة يؤمنْكَ اللَّهُ من نار جهنم».

وأجاب عمرو على الفور: قد آمنت ـ بأبي أنت وأُمي ـ وأَنا أَشهد أَن لا إلّه إلا الله، وأَنك رسول الله. آمنتُ بكل ما جئتَ به من حلال وحرام، وإن أرغم ذلك كثيراً من الأوثان.

ثم قصَّ على رسول الله ﷺ قصة كسره لصنم قومه، ومهاجرته لوالده في ذلك، فسُرّ سروراً عظيماً، وأثنى على صنيعه خيراً..

ثم قال عمرو:
يا رسول الله، لقد فرحت بنبأ ظهورك فرحاً عظيماً، حتى لقد فاض على لساني الشعر وما أنا بشاعر، وقلتُ في ذلك أبياتاً أُريد أن أُنشدك إيّاها، وابتدأ ينشد أبياته، فلما قال:
لأصحبَ خيرَ النـاسِ نفساً ووالـداً رسولَ مليكِ الناس فوق الحبائك

قال له رسول الله ﷺ:

«مرحباً بك يا عمرو بن مرَّة».

وأجاب عمرو: وبك يا رسول الله، الحمد لله الذي منّ عليَّ بصحبتك واتباعك على الحق الذي تدعو إليه.

٤

سُعِـد عمرو بما هداه الله إليه من الإسلام، وبما أزاح عن قلبه من ظلمات الجاهلية، وتمنى أن يسعد قومه بما سُعِد هو به، وأن ينجوا من سفاهات الجاهلية وضلالاتها، فقال للنبي ﷺ:

يا رسول الله - بأبي أنت وأمي - ابعث بي إلى قومي، لعلّ الله أن يمنَّ بي عليهم كما منَّ بك عليَّ.

وأجابه النبي ﷺ إلى طلبه، وأمره بالذهاب إلى قومه ودعوتهم للإسلام، وأوصاه قائلاً:

«عليك بالقول السديد، ولا تكن فظاً ولا متكبراً ولا حسوداً».

وعاد الرجل إلى جُهَينة، وكانت قلوب القوم قد تنكرت له لتكسيره صنمهم، وسعى أول ما سعى إلى أبيه - وكان من أشد الناس مَوْجدة عليه[(١)] - فأغلظ له أبوه الكلام وقال له:

إليك عني يا غُدَر[(٢)]، عدوتَ على إلّهنا فكسرتَه، فلستَ مني ولستُ منك!!

وأقبل عمرو على والده وقال له:

يا أبت إنه حجر صنعناه بأيدينا، لم يغضب لِما أصابه، ولو غضب لكان أصابني منه الضرّ، ولدافع عن نفسه، فيسكت هو وتغضب له أنت؟!!

---

(١) الموجدة: الغضب.

(٢) يا غدر: يا غادر.

وأُسكت والد عمرو، ولم يستطع أن يردّ على ابنه شيئاً.

واستأنف عمرو الكلام فقال:

يا أبت! إن الله قد بعث محمداً بالدين الحق، وهو قائم بمكة يدعو الناس، ويحذرهم وينذرهم، فآمن يا أبتِ، وإياك أن تجحد دعوة الله، وتصرّ على الشرك به، فيدخلكَ الله نار جهنم وتخلد فيها.

وشرح الله صدر والد عمرو فآمن، وآمنت أمه وأهل بيته جميعاً، فاتجه إلى عشيرته الأدْنَين: بني رفاعة، وإلى قبيلته جهينة، وجعل يدعوهم إلى الإسلام ويقول لهم:

يا بني رفاعة، بل يا معشر جهينة، إني رسولُ رسولِ الله إليكم.

أدعوكم إلى الإسلام، وآمركم بحقن الدماء وصلة الأرحام، وعبادة الله وحده، ورفض الأصنام.

فمن أجاب فله الجنة، ومن عصى فله النار.

يا معشر جهينة، إن الله جعلكم خيار العرب، وبغَّض إليكم ما حبّب إلى غيركم من العرب(١)، فأجيبوا هذا النبي المُرسل من لؤي بن غالب(٢)، تنالوا شرف الدنيا وكرامة الآخرة.

٥

واستجابت جهينة بعد مدة لهذا الداعية الكريم، وآمنت بالله وحده لا شريك له، وأقبلت على الإسلام وارتضته ديناً، وأنجاها الله من الكفر والضلال.

وحمدت سائر جهينة لعمرو دعوته لها إلى هذا الدين الحق، وشكرت

---

(١) كانت جهينة في الجاهلية لا تجمع بين الأختين، ولا يخلف الرجل على امرأة أبيه، وكانت تحرم على نفسها الثأر في الأشهر الحُرُم.

(٢) لؤي بن غالب: قريش.

له صنيعه وصبره على دعوتها، إلا رجلاً طاعناً في السن، صعب عليه تغيير دينه، والانعتاق من تقليد الآباء والأجداد، فسعى إلى عمرو بن مرّة وشتمه وقال له:

يا عمرو بن مرّة، أمرّ الله عيشك، أتأمرنا برفض آلهتنا، وأن نفرّق جمعنا، وأن نخالف دين آبائنا، إلى ما يدعو إليه هذا القرشي من أهل تهامة[١]!!

لا حبّاً ولا كرامة.

ثم أَنشأ يقول:

إنَّ ابــن مــرّة قــد أتــى بمقــالــة ليست مقــالــة مـن يـريـد صـلاحـا
إنــي لأحســبُ قــولَــهُ وفعــالَــه يــومــاً وإن طـال الـزمـان ذُبـاحـا[٢]
ليسفِّــه الأشيــاخ ممّــن قــد مضــى مــن رام ذلــك لا أصــاب فـلاحـا

وسمع عمرو بن مرّة كلام هذا الشيخ الأحمق، فأجابه:
الكاذب منّي ومنك أمرَّ الله عيشه، وأبكم لسانه، وأكمه إنسانه[٣].

وترك عمرو هذا المشرك السفيه لم يأبه له، وكذا لم تأبه له جهينة، ومضت سنوات طويلة، ورأى هو وقبيلته آية الله في هذا المشرك العنيد الذي آثر الكفر، فلم يمت حتى سقط فوه[٤]، وعمي وخرف، وكان لا يجد طعم الطعام!!.

وبعـــد:

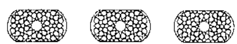
رحم الله عمرو بن مرّة الجهني، فقد أكرمه الله برؤية علم عظيم من أعلام نبوّة رسول الله ﷺ، فسارع إلى الإسلام، وكان من خيّار الصحابة.

---

(١) تهامة: منطقة من بلاد الحجاز تجاور البحر.
(٢) الذباح: وجع في الحلق.
(٣) أكمه إنسانه: أعماه.
(٤) سقط فوه: سقطت أسنانه وأضراسه.

وقد استجاب الله دعاءه ـ وهو الداعية الصادق ـ في ذلك المشرك، فكان ذلك آية[1] بليغة له.

رحمه الله، ورضي عنه، وجمعنا به في دار كرامته.



المـراجـع:

ـ البداية والنهاية، لابن كثير، ٢/ ٣٥١.
ـ مجمع الزوائد، للهيثمي، ٨/ ٢٤٤.
ـ حياة الصحابة، للكاندهلوي، ١/ ٢٩٣، (طبعة دار القلم بدمشق).

(١) الآية هنا: العبرة المدهشة الصادقة.

حَبْر يَهُوديّ يُبشِّرُ بمبعَثِ الرَّسُول

١

جلس سَلمة بن سَلامة الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ بعد صلاة الفجر يتلو القرآن الكريم في بيته، وجلس إلى جانبه ابنه عوف يستمع لتلاوة أبيه، وافتتح سلمة القراءة في سورة البقرة ومضى يتلو بصوت تشوبه نغمة حزن، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدِّق لما معهم ـ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ـ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾؛ توقف عن القراءة، وأخذ يقول: صدق الله العظيم، ألا لعنة الله على الكافرين. وكررها ثلاثاً.

ولفت ذلك سَمْعَ ابنه عوف، فقال: من هم هؤلاء الكافرون الذين تلعنهم يا أبت؟ فأجاب: اليهود يا بني؟!

فيهم نزلت هذه الآية التي وقفت عندها... لقد حدّثونا في هذه المدينة عن رسول الله كثيراً، وأنذرونا ببعثته، وذكروا لنا صفاته، واستفتحوا به علينا[1].

لكنهم حين بعث وهاجر إلينا، ورأوه وسمعوا منه، كفروا به حسداً وعناداً!!

لقد كان يعيش بيننا هنا في بني عبد الأشهل[2] حَبْر من أحْبارهم يقال له «يوشع» لم يكن غيره من يهود يجاورنا، فكان يأتينا ويحدّثنا كثيراً عن هذا النبي، الذي ذكرته كتبهم وبشّرت به أنبياؤهم، ويقول لنا: إنه سيكون آخر الأنبياء!!

---

(١) استفتحوا: طلبوا النصر به.

(٢) بنو عبد الأشهل: بطن من بطون الأوس، ومنهم الصحابة الأجلّاء: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعبّاد بن بشر، رضي الله عنهم.

ولا أزال أذكر حديثاً له سحر به لبّ القوم وأخافهم وشدّ عقولهم إلى هذا النبي، وكنت يومها غلاماً لي من العمر اثنتا عشرة سنة... وقال عوف: هلاّ أخبرتني بهذا الحديث يا أبت، فقد شوّقتني لسماعه، وأجاب سلمة: نعم يا ولدي، فأصغِ إليَّ أُحدّثك به.



... لقد مضى على هذا الحديث ما يزيد على خمسين سنة، لكني كأني سمعته أمس، فهو في ذاكرتي ما يغيب عنها، ولقد وعيته كما لم أعِ حديثاً مثله في صغري... كان ذلك عصر يوم من الأيام؛ وقد تجمع رجالٌ من بني عبد الأشهل أمام بيتنا هذا حول فارسنا الشجاع «حُضَيْر بن سماك» وأخذوا يتحدثون عن تشوقهم لوقعة عظيمة يصيبون فيها من الخزرج، وينتصفون منهم، وطمأنهم «حُضَير» إلى أنه يعدّ العدّة لهذه الوقعة التي سوف لا ينساها الخزرج وسيعمل فيهم السيف حتى يفنيهم، لكنه الآن ينتظر انتهاء أجَل الهدنة القائمة بين الحَيَّيْن.

وبينا القوم يتحدثون إذ أقبل عليهم «يوشع»، فسكتوا عن حديثهم خوفاً أن يسمعه فينقله إلى الخزرج، فهو وإن كان يوغر صدور الأوس دائماً على الخزرج، ويشير عليهم في الإيقاع بهم، إلا أنه كان يفعل هذا أيضاً مع الخزرج، فيسعى إليهم، وينقل الكلام لهم، ويهيجهم على إخوانهم الأوس..

وقام القوم جميعاً ليوشع، فحيّاهم ثم جلس وجلسوا، وأخذوا يتحدثون عن قتلاهم في المعركة الأخيرة ـ وكانوا قد نفضوا أيديهم من تراب قبورهم من جديد ـ وأبدوا الأسف عليهم وأثنوا خيراً على ما بذلوا في الحرب وما أوقعوا في الخزرج.

وتكلم يوشع فأنصت له الجميع، وقال: أتعلمون يا قوم ما يحدث للناس بعد موتهم؟

فقال أحد القوم ساخراً: ماذا يحدث لهم؟! إنهم يَرِمُّوا[١]، ثم تنتهي قصتهم ولا شيء بعد ذلك.

وقال يوشع: لا والله، هذا ظن أكثر الناس. إنهم لم يتفكّروا في هذا الخَلق وحكمة وجوده، ولم يسمعوا كلام الأنبياء وأخبار الغيب التي أخبروا بها عن الله الذي خلق السماء والأرض، وخلق الموت والحياة.

إن موتنا موتاً أبدياً من غير أن نحاسب عبثٌ تنزه الخالق عنه، ولا بدّ أن يجري على الناس ما أخبر به أنبياؤُنا.

وقال قائل: وما أخبركم به أنبياؤُكم يا أبا عزرا؟

فأجاب: إنهم أخبرونا أن الله قد جعل لهذه الحياة أجلاً محدداً، فإذا انتهى أمات الناس جميعاً، ثم يبعثهم من قبورهم، ثم تحشرهم الملائكة في صعيد واحد، ثم يُحاسبون على ما عملوه في حياتهم الدنيا حساباً دقيقاً، ويُعطى كل إنسان كتاباً قد سجل فيه كل شيء قاله وعمله، ثم توزن الأعمال ويجازى الناس، فيساقون إما إلى جنة فيها نعيم مقيم، لا يلحقهم فيها فناء ولا يصيبهم فيها شقاء. وإما إلى نار حامية خالدة، لا يُفَتَّر عنهم من عذابها ولا يخفف عنهم من حرِّها!!.

٣

وأذهل القومَ حديثُ هذا الحَبْر اليهودي، فهم لم يسمعوا منه حديثاً مثله من قبلُ، وانقسم الحضور إلى ما بين رجل متعجب، وآخر متشكك، وثالث ساخر، فقد سمعوا حديثاً عجيباً غريباً!! وهم يعتقدون أن الموت نهاية كل إنسان، وأنْ لا بعثَ ولا نشورَ، ولا حساب ولا جزاء.

وقال قائل: ويحك يا أبا عزرا أحقٌّ ما تقول؟! أترى الناس سوف ينشرون[٢]

---

(١) يرمّوا: يصبحوا رميماً، والرميم: العظم البالي.
(٢) ينشرون: يبعثون ويحيون من جديد.

من موتهم، وتعود إليهم أجسادهم، ثم يفترقون إلى جنة أو نار؟!

وأجاب يوشع: نعم والله، إني لا أكذبكم، ولا أزيدكم على ما أَخْبَرَنا به أنبياؤُنا!!

ولوددت ـ والله ـ أن لي بحظي من تلك النار أعظم تنُّور في هذه الدار، تحمونه، ثم تدخلوني إياه، ثم تطيِّنونه عليّ، وأن أنجوَ من تلك النار غداً!!.

وذهل القوم ثانيةً لحديثه، وقال رجل منهم:
ويحك يا أبا عزرا، فما آية ذلك[1].

فأَجاب: خاتم الأنبياء الذي قد أظلَّ زمانه[2].

وقال آخر: ومن هو خاتم الأنبياء؟

فأجاب: النبي الأميّ، الذي سيبعثه الله من نحو هذا البيت الذي تعظمونه في مكة.

وقال ثالث: أبا عزرا متى يكون هذا؟

فأدار اليهودي عينيه في القوم، فرآني ـ وأنا مضطجع على بردة لي ـ فأشار إليّ وقال: إن يستنفدْ هذا الغلام عمره يدركْهُ.

٤

ومضى سلمة في حديثه لابنه قائلاً:
وانفضّ القوم ـ يا بنيَّ ـ ما بين مصدِّق ومكذِّب، لكنهم جميعاً وَعَوْا حديث الرجل، وتأثروا به، ولقد وعيته كما وعاه أولئك الرجال الكبار، وها أنذا أُحدّثك به كما سمعته.

وقال عوف:

---

(١) آية ذلك: علامة ذلك.
(٢) أظل زمانه: اقترب زمانه.

ثم ماذا كان يا أبت من شأن يوشع؟

فأجاب سلمة:

وماذا كان من شأنه؟! فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسولَهﷺ، فدعا قومه بمكة زماناً ثم هاجر إلينا، فآمنّا به وصدَّقناه، ويوشع حيٌّ بين أظهرنا، لم يسلم ولم يصدِّق!! وقال له رجال من قومنا: يا أبا عزرا، أليس هذا هو النبي الذي بشّرتنا به، فهلمّ أسلم واتبعه على دينه، فأجاب:

ليس هذا الذي أخبرتكم عنه. إنه نبي غيره!!

وجادله رجالٌ من بني عبد الأشهل، وألحّوا عليه في اتباع الرسول، لكنه بقي على كفره، لم يؤمن برسول الله ﷺ حسداً وبغياً، وظن أن كذبه وكذب الأحْبَار من قومه سيجوز على الناس، لكن حَبْراً من أحْبَارهم أسلم واتبع النبي، وفضح كذب قومه وحسدهم للنبي ﷺ، وأخبره أنهم يجدون اسمه وصفته في كتبهم، وقد هاجروا إلى بلاد الحجاز ترقباً لبعثته، وهذا الحَبْر هو عبد الله بن سَلاَم صاحب رسول الله ﷺ.

ثم لم يلبثوا أن جاءتهم فضيحة أخرى من العليم الخبير ـ سبحانه ـ فأنزل في شأنهم يذمّهم، وينعي عليهم كذبهم وفجورهم:

﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم ـ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ـ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله على الكافرين﴾.



المـراجــع:

ـ سيرة ابن هشام، ١/ ٢١٢.
ـ مسند أحمد، ٣/ ٤٦٧.
ـ دلائل النبوّة، للبيهقي، ١/ ٤٢٩.
ـ البداية والنهاية، ٢/ ٣٠٩.



فتىً يَهُوديّ يُسْلِم وهوَ يحتَضِر

١

كان عُزَير بن وَهْب فتى صغيراً من أذكى فتيان يهود بني قينقاع، الّذين يسكنون يثرب من بلاد الحجاز، وكان على صغره يقرأ التوراة ويعرف الكثير مما احتوت، ويحبّ الاستماع لقصص الأنبياء وأحاديثهم، ويحفظ الكثير من هذه الأحاديث التي سمعها من والده الحَبْر ومن الأحْبَار الذين كانوا يُسمرون عنده[١].

وكان أهم حديث استقر في قلبه وعقله حديثهم الدائم عن النبي المرتقب الذي أوشك أن يظهر، والذي تسمّيه التوراة محمداً، وأحمد، وتقول عنه إنه سيخرج من أرض الحرم، ويهاجر إلى أرض ذات نخل، بين حَرَّتين[٢]، وتذكر الكثير من أوصافه وتنعته نعت من يعرفه معرفة يقينية.

ولقد دهش عزير من صنيع قومه بهذا النبي بعد أن هاجر إليهم، فقد كانوا أول كافرٍ به، وقابلوا هجرته بالامتعاض والكراهية، وتشاءموا من مقدمه عليهم، وبادروا إلى تخذيل الأوس والخزرج عن اتباعه، وفَتْلهم عن تصديقه، والتشويش عليه والإرجاف به!!

وأحزن عزيراً جداً أنه سمع الأحْبَار يتحدّثون فيما بينهم في منزل والده أنَّ ما ذُكر في التوراة عن خاتم النبيين ينطبق تماماً على هذا النبي القرشي، وأنه هو المبشَّر به، لكنهم كانوا يتواصَوْن بتكذيبه، ويقولون:

---

(١) يسمرون: يتحدثون ليلاً.

(٢) الحرّة: الأرض البركانية، ويحيط بالمدينة المنورة حرّتان.

لا نتبع نبيّاً من غير بني إسرائيل، ويُظهرون الاشمئزاز من هذا النبي الذي ظهر من العرب!!

ومما زاد عزيراً حَزَناً أن رسول الله ﷺ أتى يهودَ فقال لهم:
«أَخرِجوا إليَّ أعْلَمكم».

فقالوا: ليس عندنا أعلم من عبد الله بن صوريا.

فخرج ابن صُوريا، وخَلاَ به رسول الله ﷺ، فناشده بدينه، وما أنعم الله به عليهم، وأطعمهم من المنّ والسلوى، وظلّلهم به من الغمام، ثم قال له:

«أَتَعْلَمني رسول الله؟».

فأجاب الحَبْرُ:

نعم، وإن القوم ليعرفون ما أعرف، وإن صفتك ونعتك لمبين في التوراة، ولكنهم حسدوك!!.

وقال له النبي ﷺ:
«فما يمنعك أنت؟».

فأجاب الحَبْر:
أكره خلاف قومي!!

... لقد حزن عزير أشد الحزن لموقف عبد الله بن صوريا من رسول الله، فقد كان حبرهم الأعظم، وكانت تبدو عليه أمارات الصلاح والخوف من الله، وتجرَّأ عزير ففاتح والده فيما يعتمل بفؤاده، وأظهر استنكاره لكفر قومه بهذا النبي المرسل، واستهجانه لتصرفهم، فقد كانوا يبشرون به قبل مبعثه؛ حتى إذا بُعِثَ جحدوه وأنكروه!!.

لكن والده عبس في وجهه، وقال له: اسكت يا عُزير، إن محمداً ليس هو النبي الذي ذُكِر في كتبنا، إنه غيره!!

وحاول هو أن يجادل والده، فغضب غضباً شديداً، وقطع على ابنه حديثه، وصرخ به قائلاً:

اسكت أيّها السفيه، إنه ليس هو، إنه ليس هو!!.



كان ما جرى تجربة قاسية لهذا الفتى الصغير، البريء الصادق، الذي لا يعرف النفاق والكذب، وأطلعه ذلك على خلق لقومه ما كان يعرفه، ألا وهو الجحود والتكذيب، والنفاق والمراوغة، وكان يظن أن هذا هو خلق الأقدمين من بني إسرائيل الذين عاقبهم الله، فأخرجهم من بلادهم، وأن قومه قد تخلَوا عنه.

لكنه أيقن بعد الذي رآه من موقف والده والأحْبَار ـ ولا سيما ابن صوريا ـ أن قومه لم ينتفعوا بما حلّ بأجيالهم السابقة من اضطهاد وتشريد ومذلّة، نتيجة لمخالفتهم الأنبياء وتكذيبهم لهم، وأنهم يسيرون على سَنَن أولئك وينهجون نهجهم!!

واعتمل صراع عنيف في قلب الفتى الصغير بين أمرين:

أيذهب إلى محمد رسول الله ﷺ، فيعلن إسلامه، ويصدِّق بنبوّته، وينضم إلى أصحابه، ويبادي أباه وقومه بالعداوة؟!

أم يبقى في حِجر والده، فلا يكلّف نفسه ما لا تطيق، وينتظر لعلّ الله يُحدِث له أمراً؟!

وفكر عُزير طويلاً في هذين الأمرين، ورأى أن هواه مع الأمر الأول، فأخذ يقدِّم رِجلاً ويؤخِّر أخرى، بيد أنه عزم أخيراً على اللحاق بالنبي ﷺ، وهو سيعلن إسلامه، ويوطِّن نفسه على أن يتحمل كل ما يصيبه من بلاء من جرّاء ذلك.

ولقد شجعه على اختيار الأمر الأول ـ بعد قناعته به ـ أن حَبْراً من

أخبَار قومه ـ بني قينقاع ـ كان قد أسلم، وتحدّى جميع يهود يثرب، بل فضحهم أمام رسول الله ﷺ، وأخبره أنهم يجدون اسمه وصفته في كتبهم، لكنهم كفروا عناداً وحسداً، وأن هذا الحَبْر الذي سمّاه رسول الله ﷺ «عبد الله بن سلام» لم يستطع اليهود أن يُلْحِقوا به شيئاً، فإخوانه من المهاجرين والأنصار يحافظون عليه، ويدفعون عنه كل أذى.

٣

اطمأن قلب عُزير لما عزم عليه من إعلان إسلامه والانضمام إلى أصحاب رسول الله ﷺ، وأعرض عن الأمر الآخر إعراضاً تاماً، وأغلق دونه قلبه وفكره، وأبغض أباه وأهله وقومه بغضاً عظيماً، واستولى عليه شيء عظيم من حبّ رسول الله وأصحابه، وأخذ يتحين الفرصة ليفاجىء قومه بإسلامه وبراءته منهم.. لكن مرضاً مفاجئاً عاجل هذا الفتى الصغير، وأقعده عن الانضمام إلى ركب الإيمان، واللحاق بالمسلمين، وأسرع المرض بالفتى واشتد عليه، وزادته أحزانه بسبب ما حلّ به مرضاً على مرض، فذبل جسمه وأصبح طريح فراشه، ثم ساءت أحواله جداً، وشعر بثقل الموت وهو يسعى فيه، فحمل لذلك همّاً أثقل من الجبال، فهو سيموت ولا يتشرف بالمثول بين يدي خاتم الأنبياء محمد رسول الله، ويعلن أمامه إسلامه!!

ولجأ عزير إلى الدعاء، فجعل يتجه إلى ربه، ويناجيه صباح مساء أن يَنْسَأَ له في أجله[1]، ويكرمه ولو بنظرة واحدة إلى رسول الله يودّع بها الحياة.

.. واستجيب دعاء هذا الفتى الصادق، وشاء الله أن لا يحرمه من رؤية رسوله ﷺ، وشهادته له في الآخرة أنه مات على الإيمان، فقد خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى ظاهر المدينة ومعه صاحباه الأثيران: أبو بكر وعمر

---

(١) ينسأ له في أجله: يمدّ له في أجَلَه.

وآخرون من أصحابه، ومرّ في طريقه على ديار بني قينقاع فإذا به يرى حَبْراً يهودياً أمام فِناء بيته[١]، يجلس إلى جانب فراش، وعلى الفراش فتى كأحسن الفتيان وأجملهم، قد نشب به الموت فأغاض بهاءه وجماله، وإذا بالحَبْر قد نشر التوراة يقرؤها، يعزّي بها نفسه عن ابنه الذي حضره الموت.

ووقف رسول الله على الحَبْر يواسيه، ويخفِّف أحزانه.. وأحسّ عزير برسول الله فوق رأسه، فثابت إليه روحه، وابتهج قلبه، ولهج لسانه بحمد الله وشكره، وأشرق وجهه بالفرح.

وجلس رسول الله إلى جانب عزير، وأبدى حزنه لمصابه، ثم خاطب أباه قائلاً:

«أُنشدك بالذي أنزل التوراة، هل تجد في كتابك ذا صفتي ومخرجي؟».

ورفع الحَبْر برأسه، وأومأ للنبي أنْ لا.

وغضب الفتى الدَّنِف[٢] من إنكار أبيه، وتحركت شفتاه بكلمات ضعيفة، وصوت خافت، وقال:

«إي والذي أنزل التوراة، إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك!!
وأنا أشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وأنك رسول الله».

وكانت مفاجأة مذهلة، فرح لها رسول الله ﷺ فرحاً كبيراً، وكبّر أصحابه تكبيرة سُمع صداها من بعيد، وكُبِت الحَبْر اليهودي، وسيطرت عليه الدهشة، فعُقد لسانه عن الكلام، ولم يعد يدري ما يفعل.

وقال النبي لأصحابه:
«أقيموا اليهودي عن أخيكم».

فأقبل أصحاب رسول الله على عُزير وزاحموا أباه دونه، وحدبوا

(١) فناء البيت: المتّسع أمام الدار.
(٢) الدنف: الذي اشتد مرضه وأشرف على الموت.

عليه، وقالوا للحَبْر: نحن أولى به منك.. ورقّ رسول الله وأصحابه لهذا الفتى رقّة شديدة وأحاطوا به من كل جانب، وقام رجال يهود من وراءهم ينظرون ماذا يصنعون!!.

٤

لم يطل الأمر بعُزَير، فما هي إلا ساعة حتى قضى نحبه، ولفظ آخر أنفاسه وهو يقول: أشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

وأقبل أصحاب النبي ﷺ على عُزَير، فغسلوه وكفّنوه، ثم تقدم الرسول عليه السّلام، فصلّى عليه وصلّى أصحابه خلفه، ثم وارَوه في قبره.

ورفع النبي ﷺ يديه يدعو له، ثم قال بعد دعائه:

«الحمد لله الذي أنقذه بي من النار».

وقال لأصحابه: «استغفِروا لأخيكم»، فاستغفَروا له.



رحم الله عزيراً صاحب رسول الله ﷺ.

فقد كان نقي الفطرة، سليم الصدر، ينشد الهداية، فأكرمه الله واصطفاه، فتوفّاه على الإيمان وجعله من الصحب الكرام.

لقد كان إسلامه آية باهرة من آيات نبوّة خاتم النبيين والمرسلين محمد رسول الله، أُضيفت للكثير الكثير من الآيات التي سبقتها والتي تلتها، وسجلها التاريخ بمداد من نور!!.

المـراجـع:

ـ فتح الباري، ٣/ ٤٦٤، (طبعة مصطفى البابي).

ـ البداية والنهاية، ٢/ ٣٢٣.

ـ السيرة الشامية، ١/ ١١٥.

بَشَائِر الرُّهبَان من النَّصَارى

١

كان سلمان غلاماً طويل القامة، ممتلىء الجسم، قوي العضلات، سليم الفطرة، كبير العقل، قوي الذاكرة، تفوَّق على سائر أقرانه في قريته «جَـيّ» بل على سائر أقرانه في مدينة «أصفهان» التي كان أهلها يقولون عنها أنها نصف الدنيا[١].

ولقد عجب أهالي «جَـيّ» من دِهْقانهم[٢] «بوذخشان» فقد كان رجلاً واسع الغنى، يتحلى بسائر صفات الزعيم الكبير، وكان يتمنى أن يُرزق الولد الذي يرثه ماله ومواهبه وزعامته؛ إلا أنه رغم تكرر زواجه لم ينجب الولد!!.

ثم إنه سَعَى إلى مدينة «رَامَهُرْمُز» وهناك اتصلت حباله بحبال امرأة أرملة ثرية، فأُعجب بها وأُعجبت به، وتزوجها وقدم بها وبطفلها الصغير «سلمان»[٣] إلى بلدته «جَيّ» ولقد أحبّ الدهقان هذا الطفل حبّاً عظيماً، حتى كأنه هو الذي أنجبه، فرعاه رعاية عظيمة، ونشأ هو ولا يحسب الدهقان إلا أنه أبوه، وصار يناديه كما ينادي الابن أباه، ووجد «بوذخشان» به العَوَض عمّا فاته من الولد، فسكنت نفسه، وذهبت أحزانه واطمأن إلى أنه

(١) أصفهان: أي نصف جهان، والمعنى: نصف الدنيا.
(٢) الدهقان: شيخ القرية، العالم بشؤون الفِلاحة.
(٣) لم يكن اسم هذا الطفل «سلمان» بل صار اسمه هكذا بعد زمان، ولقد آثرنا أن نطلق عليه هذا الاسم مبكراً، فهو الاسم الذي حفظ الله له به ذكره.

قد وجد من يرثه ويكون امتداداً له.

... حرص الدهقان على هذا الولد الذي ساقته إليه المقادير حرصاً عظيماً، فجعل يحوطه ويرعاه ويكرمه، ولا يدعه يخرج من البيت إلا قليلاً، وإن هو خرج أرسل وراءه من يكلؤه[1] حتى يعود إليه، وأحبّ أن يشغل له عقله الكبير، وذهنه الوقّاد، فلم يجد خيراً من أن يوجهه لدراسة طقوس «المجوسية»: دين الأعاجم... وأقبل الغلام النبيه على المجوسية يقرأ تعاليمها بشغف عظيم، حتى فقِهها، واتجه بكل طاقته نحو «النار» التي ترمز للمعبود الأعظم للمجوس وهو «إلّه النور» حتى صار القيِّم الأول على بيتها في بلدته «جَيّ» فكان لا يدعها تخبو ساعة من ليلٍ ولا نهار، وكان يلقي إليها بخشب الصندل والبخور، ويسعد لتلك الروائح الذكية وهي تفوح منها، ويُسرّ بمنظر لهبها الأحمر الجميل الذي كان يرى فيه رمز الضياء والصفاء!!.

٢

سعد سلمان بادىء الأمر بوظيفته الرفيعة التي أصبح يشغلها وهو لا يزال بعد غلاماً، فقد كان يتمناها كل إنسان في بلدته، واعتقد هو أنه يقوم بعملٍ يرضي الإلّه عنه، ويرتفع به قدره عنده، وأذهبت هذه الوظيفة أيضاً كثيراً من أحزانه التي أصابته بسبب موت والدته المفاجىء، وخففت كثيراً من وقع هذه الفاجعة على قلبه الغضّ.

وكانت تستولي عليه نشوة غامرة من السرور حينما يفد إليه أهل القرية صباح مساء، فيقفون أمام النار صامتين لمدة يسيرة ثم ينصرفون، وكذلك حينما كان يأتيه الحجيج من بلاد بعيدة، ومعهم الهدايا من الخشب النفيس والبخور والأموال والتحف، يقدمونها للنار المقدسة ويأتمنونه عليها. ولا تَسَلْ عن سعادته العظيمة حينما كان يتسلَّم بين الحين والحين هدايا الملك

(١) يكلؤه: يحفظه.

الكبير «شاهنشاه»[١] راعي المجوسية الأكبر.

بَيْدَ أنه لم يمضِ على سلمان إلا سنوات قليلة حتى شعر أن نفسه قد عزفت عن هذا الدين الذي عليه قومه، ومَلّ حياته الرتيبة، وملّ هؤلاء الناس الذين يعيش معهم، فقد كان لا يعرف من الدنيا سوى بيته، وبيت النار القريب من بيته، وليس له صحب ـ وهو الشاب النابغ ـ سوى أولئك الشيوخ الذين كانوا يعتكفون بجانب النار المقدسة، يقضون ما تبقّى من أعمارهم، وكان هؤلاء يلتزمون الصمت ويؤثرونه، فلا مجال لحديث يجريه معهم، ولا مجال لمحاورة ونقاش في تلك الشكوك التي بدأت تثور في نفسه حول هذا الدين الذي هم عليه، وحول اعتكافه هو وإيّاهم فيما يحسبونه طاعة وتقرباً من الإلّه.

.. وهكذا تبدلت نظرة سلمان إلى دينه، وتلاشى السرور الذي وجده بادىء الأمر، وأصبح في حيرة من أمره، لا يدري ماذا يصنع!!

أما أبوه الدهقان فقد تاه فخراً على أهل قريته، وأعجبه انصراف ابنه لخدمة النار وشغفه بها، وانصرافه هو لشؤون الزراعة وإدارة شؤون القرية، واعتقد أنه قد حاز المجد من أطرافه، فهو رئيس القرية وكبير أغنيائها، وابنه قيِّم النار وعالِم المجوسية!!.

٣

شُغل الدهقان ذات يوم ببناءٍ له عن الخروج إلى ضيعته القريبة من «جَيّ» فدعا إليه ابنه سلمان، وطلب منه أن يذهب إلى الضيعة فيشرف على شؤونها، وفرح سلمان بطلب والده أشد الفرح، فقد كان يتمناه، فهو يريد أن يغادر بيت النار الذي سئمه، ويبتعد عن أولئك الرجال الذين عافتهم نفسه، وأسرع فامتطى جواد والده الذي أوصاه قائلاً: لا تتأخر عليَّ يا بني،

---

(١) شاهنشاه: ملك الملوك، وكان هذا لقب ملوك فارس.

وعُد إليّ سريعاً، فلست أصبر على فراقك. ثم شيَّعه بنظرات الحب والحنان، إلى أن غاب عن ناظريه.

سار سلمان والسرور يملأ قلبه، فقد شعر وكأنما خرج من سجن طال فيه مكثه، أو كأنما أبلّ من مرض قد لزمه، وتجاوز أطراف القرية، ثم سلك طريقاً في سفح جبل تكسوه الأشجار الجميلة، كان قد سلكه بضع مرات بصحبة والده، وأهوى سلمان بسوطه على جواده، يريده أن يسرع ليصل إلى ضيعة والده، فيستمتع بجناتها ومياهها، ويقضي فيها هذه الفرصة النادرة التي حصل عليها.

وبينا هو في سيره، إذا به يمر بجانب بناء لا يشبه في طرازه أبنية أهل جيّ، فلفت ذلك نظره، فاقترب منه فإذا به يسمع أصواتاً جميلة تنبعث منه، وترانيم رائعة تنساب إلى القلب انسياباً، فتوقف عن سيره ليعرف حقيقة ما في هذا البناء الذي لم يلفت نظره من قبل، وربط جواده في ظل شجرة قريبة، ثم دخل في ممر ضيق قد سقف، ثم أفضى إلى قاعة واسعة، مرتفعة السقف، ذات نوافذ علوية وسفلية، وإذا فيها عدد من الرجال المسنِّين، يلبسون المُسُوح[1] السوداء، قد طالت لِحاهم، وغطّوا رؤوسهم بالقلانس، وإذا بهم وكأن الروح قد خرجت منهم لكثرة اجتهادهم في عبادتهم، وقد اتجهوا جميعاً إلى بلاد الشام بينما نصب كبيرهم ورئيسهم لهم وجهه.

... دهش سلمان لهذا المنظر، فجلس خلف أولئك الرجال يستمع لترانيمهم، ولم يعبأوا هم به بل تابعوا تلاوتهم بأصواتهم العذبة، وجعلوا يتناوبون القراءة، حتى إذا أتموا نسكهم[2] قام إليه واحد منهم، فسأله عن حاله، فأخبره سلمان، فأمسك بيده وجاء به إلى رئيسهم وقال له: سيدي، هذا الغلام هو ابن دهقان «جيّ» دخل علينا فأعجبه حالنا وهو يريد معرفة ما نحن عليه.

---

(١) المسوح: جمع مسح، بكسر فسكون: الكساء من شعر.
(٢) النسك: العبادة.

.. جلس سلمان بين يدي كبير الرهبان، فأخذته هيبته، وتكلم الشيخ الجليل، فزادت هيبته في قلب الغلام، واتجه إلى سلمان قائلاً:

يا غلام، إن لك ربّاً، وإن لك مَعاداً، وإن بين يديك جنة أو ناراً إليها تصير.

وإن هؤلاء الذين يعبدون النار أهل كفر وضلالة ليسوا على دين!!

ودهش سلمان للذي سمعه، ونفذت كلمات الشيخ إلى قلبه، وسأل كبير الرهبان ببراءة:

وهل لنا ربٌّ سوى النار(١)؟

فأجابه:

ربّنا هو خالق الأرض والسماء، وخالق النار والماء، وخالق الجبال والأشجار، وخالق جميع البشر، وهو على كل شيء وكيل. أما هذه النار، فنحن نشعلها ونحن نطفئها، فكيف نعبدها؟...

وسكت سلمان ولم يستطع أن يردّ على الراهب شيئاً، بل لقد أقنعه كلامه... بيدَ أن ذهنه بقي مشغولاً بما سمع من الراهب عن الجنة والنار، فسأله قائلاً:

هذه الجنة والنار من أخبركم عنهما؟..

فأجاب الشيخ الكبير:

أنبياء الله ورسله.

وقال سلمان:

ومن أنبياء الله ورسله؟

أجاب الشيخ:

(١) كان المجوس يعبدون إلّهين: إلّه الخير والشر أو إلّه النور والظلمة، ويمثلون لإلّه الخير والنور بالنار والشمس.

هم بشرٌ من الناس، اصطفاهم الله وأكرمهم، وأنزل عليهم كلامه، وأمرهم أن يدعو الناس إلى دين الله، ويبلّغوهم كلامه.

ثم ذكر له من مضى من الأنبياء والرسل حتى خلص إلى عيسى، فقال:

ثم بعث الله عيسى رسولاً، وسخّر له ما كان يفعل من إحياء الموتى، وخلق الطير، وإبراء الأكمه[1] والأبرص. . . وكفَرَ به قوم واتّبعه قوم، وإنما كان عبدَ الله ورسولَه، ابتلى به خلقه، وما ترك الناس حتى بشّرهم برسول عظيم يأتي من بعده ونحن في انتظاره.

وفتح الراهب النصراني الصالح قلبَ سلمان على الهداية، فأشرقت فيه ونوَّرت جوانبه، وأيقن أن هذا الدين خير من دين قومه، وأعلى شأناً، فأعلن أمام الرهبان جميعاً أنه قد ترك دينه القديم وأنه على دينهم، وهو يشهد أن الله إلَه واحدٌ لا شريك له، وأن كل ما عداه مخلوقات له، وعبيد خاضعون لجلاله، وأنه يؤمن بالآخرة وما فيها من جنة ونار!

وفرح الرهبان أشد الفرح لدخول سلمان في دينهم ، وظهر منهم سرور بالغ، فازداد اعتقاد سلمان بصدقهم وإخلاصهم، وأقبل عليه كبيرهم يقول له:

ولكن يا سلمان، أُوصيك بألّا تجهر بدينك في قومك، فإن ذلك يؤذيك ويؤذينا.

وقال سلمان:

وكيف يا سيدي ونحن على الحق وهم على الباطل!

وأجاب الراهب:

إنهم يَرَوْن العكس. . إن الكفر أبداً عدوٌّ للإيمان، فخفِّف عنّا وعنك، ولا تحمِّلنا من الأمر ما لا نطيق، فنحن إنما هاجرنا إلى بلادكم فراراً بديننا من قومنا الذين غيَّروا وبدَّلوا.

---

(١) الأكمه: الأعمى.

وقال سلمان: من أين أنتم يا سيدي، وأين أصل هذا الدين؟

فأجابه الراهب:

نحن من بلاد الشام، وهي أصل ديننا، ولكن. .

ولم يتم الراهب كلامه، وسكت سلمان ولم يُرِدْ أن يحمله على كلامٍ لا يريده.

٤

أقام سلمان في الكنيسة مع الرهبان إلى غروب الشمس وهو لا يشعر بمضي الوقت، فقد سيطرت عليه حالة من السرور أنسته كل شيء، فلم يفطن إلى وصية أبيه بألاّ يتأخر عليه، بل لقد نسي الأمر الذي أرسله من أجله!!

أما أبوه الدهقان فقد شُغل باله على ابنه حين استبطأ مجيئه، فأرسل الناس في طلبه، فمضى بعضهم إلى ظاهر القرية وبعضهم إلى الضيعة فلم يجدوه، وفتشوا عنه في سائر الأماكن التي تقع على طريقه، ثم عاد الجميع يخبرون أباه بأنهم لم يعثروا على أثر لغلامه، فأصابه همّ شديد، وصار يضرب كفاً على كف، وأسف أشدّ الأسف لإرساله إيّاه خارج «جَيّ» وحيداً.

وبينا هو على هذه الحالة من الهمّ الكبير ورجاله يحيطون به من كل جانب، إذا بسلمان يدخل البيت، فأسرع إليه واحتضنه وجعل يقبّله، ثم أجلسه إلى جنبه وجعل يعاتبه ويقول:

أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك أن لا تتأخر عليّ؟! وماذا حبسك عني حتى أدخلت عليّ همّاً كالجبال؟!

وأجابه سلمان ببراءة:

يا أبت، مررت بأناس يصلّون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من

دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس!

وذُعر الدهقان لما سمع، وصاح في ابنه:

أي بُني! ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خيرٌ منه!

وقال سلمان بجرأة وقوّة:

كلا والله، إنه لخيرٌ من ديننا، هؤلاء قوم يعبدون الله ويدعونه، ويصلّون له، ونحن إنما نعبد ناراً نوقدها بأيدينا، وإذا تركناها ماتت!.

وأسكت الدهقان، فلم يجد ما يردّ به على ابنه فقد أفحمته حجته، وألجمه عن الكلام منطقه، وأعيته الحجة يقارع بها الحجة؛ لذا لجأ إلى التهديد والوعيد، وصاح في سلمان: أقسم بديني ودين آبائي العظام، لئن غيَّرت دينك لأحبسنّك، ولأضعنَّ القيود في رجليك حتى تدَع هذه الضلالة التي هويتها.

وأجاب سلمان بشجاعة:

اصنع بي ما تشاء فقد اتَّبعتُ هؤلاء على دينهم، ووالله لا أدع هذا الدين القويم الذي هداني الله إليه مهما أصابني بسببه، وإنه لخير من دينكم، وإنكم وآباءكم لفي ضلال بعيد!!

واستشاط الدهقان غضباً مما سمع من ابنه، وأيقن أنه جادّ في اتباع دينه الجديد، وأن الوعيد لم يُخِفْه، وخشي هو على مكانته وسمعته في قريته، فلم يجد بدّاً من تقييد ابنه وحبسه في بيته، لئلا يعلم الناس من أمره شيئاً فيفتضح أمامهم وهو الذي كان يباهي الناس به، وأرسل إلى رجال المعبد أن ابنه سيغيب عنهم فترة من الزمن في أمرٍ شَغَلَه.

❁ ❁ ❁

... مضت على سلمان أيام وهو في قيده، وأبوه يراجعه صباح مساء، ويلحّ عليه أن يعود لدينه القديم ولوظيفته الرفيعة، لكنه كان يرفض بإباء، وأخيراً يئس منه، فشدّد عليه قيده، وزجره زجراً قوياً وقال له:

لا تزال هكذا حتى تراجع دينك القديم.

ولم تزد هذه المحنة سلمان إلا تمسكاً بدينه الجديد، ولم تزده إلا إصراراً على رفض دينه القديم، وتلقى الحبس والتضييق صابراً محتسباً، سعيداً مطمئناً.

وفكر سلمان في الهرب بدينه إلى بلاد الشام التي خرج منها هذا الدين، فأرسل خادماً له ـ كان يحبّه ويشفق عليه ـ إلى رجال الكنيسة يخبرهم بما جرى له مع أبيه وبما هو عازم عليه، فحزن الرهبان أشد الحزن لما أصابه، وأرسل إليه كبيرهم: إنه كان يسعك أن تخفي دينك عن أبيك وتعبد الله خفية، وتتردد علينا حتى يأتيك الفرج من الله، وحبّذا لو أنك فعلتَ ذلك الآن.

لكن سلمان بعث خادمه ثانيةً إلى كبير الرهبان: أنه لا يسعه ذلك، وليس بقادر على ألاَّ يجهر بالحق، وأنه يتوسل إليه أنه إذا قدم عليهم ركب مسافرون إلى بلاد الشام؛ فليرسلوا إليه من يخبره ليهرب من بيت أبيه، وينطلق معهم.

وأجابه كبير الرهبان ثانيةً جواباً ينصحه فيه بالبقاء قريباً منهم وأن يكتم إيمانه، ويقول له: إن الناس في بلاد الشام قد غيَّروا وبدَّلوا، وصاروا شِيَعاً، وأنه لم يبق على الدين الحق غيرهم وغير أشخاص قلائل يعيشون في الصوامع في تلك البلاد.

وأرسل سلمان مرةً ثالثة لكبير الرهبان يقول له:

سيدي، إنني لا أستطيع البقاء في بلدي، فأبي يريدني أن أعود قيّماً لبيت النار، وأنا قد كفرت بالنار وبمن يعبدها وأبغضتهما بغضاً عظيماً، وليتني أستطيع أن أحيا إلى جواركم، فما أسعدني إذاً!! ولكنها أمنية لست بمُدرِكها، لذا فإني أتوسل إليكم أن ترسلوا إليَّ حينما يقدم عليكم ركب مسافرون إلى الشام لأذهب معهم، ولعلّ الله يهيىء لي إخوة ومعلِّمين صالحين أمثالكم أعيش بينهم.

ولم يسع كبير الرهبان إلا أن يستجيب لهذا الغلام الصالح القوي في دينه، فأرسل إليه: أن انتظر حتى يمر بنا ركب مسافرون إلى الشام، فنرسل إليك لترتحل معهم، وفرح سلمان باستجابة كبير الرهبان له، وخفَّت أحزانه، وانتظر يترقب ساعة الخلاص.

٥

مضت على سلمان عدة أسابيع وهو أسير قيده، لا يستريح منه إلا ساعات من الليل كان والده يطلقه فيها بعد أن يقفل عليه باب غرفته، حتى إذا طلعت شمس اليوم التالي أمر والده بوضع القيد في رجليه، ثم يخرج إلى عمله بعد أن يشيِّعه بنظرات الغضب الشديد.

وفي ليلة من ليالي تلك المحنة القاسية رأى سلمان وهو في نومه كأن القيامة قد قامت، وأن الناس حُشروا على صورهم، وحشر المجوس على صور الكلاب، فأفاق من نومه فزعاً، وأيقن أنه على حق في مفارقة دين قومه، ثم رأى من ليلته القابلة أن الناس قد حُشروا على صورهم وأن المجوس قد حشروا على صور الخنازير، فزاد اعتقاده بضلال المجوسية، وأصبح يقينه بدينه الجديد أثبت من الجبال الراسيات، وتطلع إلى فرج قريب يمنُّ به عليه المولى سبحانه.

وبعد صبر طويل مضت أيام المحنة القاسية، وفُتح باب الفرج، وأفاق سلمان في يوم من الأيام على خبر سارٍّ جداً؛ فقد نقل له خادمه «مِهْران» الذي يحبّه ويعطف عليه، رسالة من كبير الرهبان يقول له فيها:

احضر إلينا يوم كذا لتنطلق إلى بلاد الشام مع ركب مسافرين إليها.

كان خبراً سارّاً جداً نسي معه سلمان كل أحزانه وآلامه، وحين جاء اليوم الموعود حلَّ «مِهْران» قيده، فانفلت من بيت أبيه ولا يشعر به أحد،

ثم أوى إلى الرهبان، فرحبوا به أجمل ترحيب، وهنأوه بالنجاة من القيد، ثم قال له كبير الرهبان:

كنا نودّ يا سلمان لو بقيت قريباً منّا، ولكن الأمور لم تتم على ما نحب ونريد، ولقد أُوصينا بك الركب المرتحلين، فانطلق معهم على بركات الله، ودُم على ما تعلمته منَّا من أمور دينك، وإياك أن تبدِّل وتغيِّر، وابحث عمّن هم مثلنا فالزمهم وكنْ معهم.

ثم ودَّعه وبقية الرهبان، وانطلق مع التجار المرتحلين وهو يدعو الله أن ينجو من هذه البلدة الظالم أهلها، وألا يُردّ فيفتن بدينه.

وبعد أيام أحسّ سلمان أنه قد جاوز حدود بلاد فارس فسكن وجيب قلبه، ونزلت عليه السكينة، وأيقن أنه قد نجا، فلم يعد لأبيه سلطان عليه، فليذهب هو وماله وجاهه إلى الجحيم، ولتذهب قرية «جيّ» وأهلها وبيت نارها إلى الجحيم أيضاً، فإنه غير نادم على فراقهم، وإنه الآن ليشعر بالسعادة الكبيرة تغشى فؤاده وهو يعبد الله على بصيرة، ولا يجد أحداً يضطهده في دينه.

وطال سفر سلمان، وأحسن الركب صحبته، ومرّ في أثناء سفره بكثير من صوامع الرهبان، فكان يذهب إليهم، فيسلِّم عليهم، ويتمتع بالنظر إليهم، ويطلب دعواتهم، وكان يعجب العجب الكبير من اجتهادهم بالعبادة، حتى إن أجسامهم لتكاد تنبري من هذا الصنيع، وكم أسف على أولئك الشيوخ الذين تركهم في بيت النار يتعبدون لها، كم أسف على ما يصنعون من عمل باطل، وعلى ما يبذلون من جهد ضائع، وكم رأى الفرق بعيداً بين هؤلاء الذين يعبدون الله على بصيرة، وأولئك الذين ضَلّوا في عبادتهم فلا يهتدون سبيلاَ!.

وأخيراً وبعد مسيرة ما يزيد عن شهر من الزمان حطّ رجال القافلة في مشارف دمشق، وقالوا لسلمان: هذه حاضرة بلاد الشام «دمشق» ادخلها

بسلام آمناً، وهنؤوه على نجاته وسلامته، فشكر لهم على صنيعهم به، وأثنى عليهم خيراً، ثم دخل المدينة ولسانه يلهج بحمد الله وشكره ويدعوه أن يرعاه ويهديه سَواء السبيل.

٦

قدم سلمان بلاد الشام وقد تجاوز الخامسة عشرة بقليل، وأصبح فتًى كأحسن ما يكون الفتيان: قوة وفهماً وبصيرة.. كان في شوقٍ بالغ إلى أن يتعلّم أمور دينه الجديد، وأن يفهمه فهماً تاماً، لذا سارع فسأل عن أعلم الناس، فقيل له: الأسقف في الكنيسة، فدخل الكنيسة العظمى، وسلّم على أسقفها، وأخبره بقصته، ثم ختم كلامه قائلاً:

إني رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك، فأخدمك في كنيستك، وأتعلم منك.

ورحَّب به الأسقف ترحيباً ليس بالحار، وقبله خادماً له، فأوى سلمان إلى الكنيسة، وشعر بنشوة روحية تسري في كيانه، وجعل يطّوّف في جنباتها، ويعجب من فخامة بنائها، وأدهشه أمر لم يكن قد شاهده في كنيسة الرهبان في بلاده، ألا وهو كثرة الصور التي تملأ جدران الكنيسة، وكثرة التماثيل التي ملأت أرجاءها، وسأل الأسقفُ عنها فقال له:

هذه صورٌ وتماثيل لربنا المسيح منذ ولدته أُمه وإلى أن صُلب، وبعضها صور للقديسين من علماء ديننا الذين كان لهم شأن كبير وبلاء عظيم!

وعجب سلمان لما سمع، واسترعت انتباهه كلمة الأسقف «ربنا المسيح» وقال في نفسه: لم أسمع الرهبان في فارس يقولون عن المسيح هذا الكلام، وإنما قالوا: هو عبد الله ورسوله!

وسكت سلمان على مضض، ولم يشأ أن يسأل الأسقف عن معنى هذه الكلمة، وعزم على أن ينتظر مدة ثم يسأله.

وجاء يوم الأحد، وتوافد الناس منذ الصباح الباكر على الكنيسة، وغصَّت بهم على سعتها، وقام الأسقف على منبره وجعل يعِظ الناس، فأمرهم بفعل الخير، ونهاهم عن فعل الشر، وحثّهم على العطف على الفقراء والمساكين وختم موعظته قائلاً:

أيّها الإِخوان، يا أبنائي: لا تزنوا، لا تسرقوا، لا تأكلوا المال الحرام، وآمنوا بالآب الرب، والابن الرب، تفوزوا بالسعادة.

وانفضّ جمع الناس، وغادروا الكنيسة بعد أن ملأوا صندوقاً خشبياً صغيراً بقطع الذهب والفضة، وتركوها لراعي الكنيسة لينفقها على الفقراء والمساكين.

أما سلمان فقد شُغل باله بكلمة الأسقف الأخيرة: «آمنوا بالآب الرب، والابن الرب، تفوزوا بالسعادة» فما إن غادر الناس الكنيسة حتى جاء إلى الأسقف وقال له:

سيدي، سمعتك تقول: الآب الرب، والابن الرب، فمن هو هذا الآب ومن هو الابن؟

وأجاب الأسقف:

يا بني، الآب هو الله، والابن هو المسيح، وكلاهما هو الله!

ودهش سلمان لما سمع دهشة بالغة وقال للأسقف:

لكن الرهبان الّـذين آمنت على أيديهم في بلادنا لم يقولوا مثل قولك في المسيح، وإنما أخبروني: أنه عبد الله ورسوله!!

وغضب الأسقف غضباً شديداً، وصاح في سلمان:

يا بني، هؤلاء قوم ضالّون منحرفون، لا يعرفون المسيحية حقّ المعرفة، وهم بعيدون عن مواطن العلم، بعيدون عن أصل الدين، غرَّر بهم علماء مارقون، وما نحن عليه هو الحق الذي لا مِرية فيه، وهو دين الملك الأعظم: قيصر الروم، إن المسيح هو ابن الله، وهو الله، وقد بعثه الله

مخلِّصاً للناس من ذنوبهم وآثامهم، وقدَّمه فصُلب ليحمل عن الناس خطاياهم!!

وسكت سلمان فلم يردَّ عليه شيئاً، ومضى إلى حجرته، وجلس على الأرض، وأسند ظهره إلى جدار الكنيسة ومدّ رجليه الطويلتين، وجعل يفكر فيما سمع، وقال في نفسه:

ما أعظم الفرق بين ما سمعته عن المسيح من الرهبان في بلادي، وما سمعته من هذا الأسقف!! وكيف يكون المسيح إلّهاً وقد ولدته امرأة؟! وهل الله بحاجة إلى من يُعينه في أُلوهيته للعباد؟! وما شأن المسيح وذنوب الناس حتى يتحملها عنهم، وكيف هم يذنبون وهو يجازي على ذنوبهم؟!!

ولم يجد سلمان جواباً شافياً لتساؤلاته، وأحسّ بالامتعاض الشديد من هذا الكلام الذي سمعه، وقال في نفسه:

إن هذا الأسقف من الرجال الذين حذَّرني منهم كبير الرهبان في فارس، ولا بدّ أنه من الذين غيّروا وبدّلوا واتبعوا دين الملك. وإن كلام أولئك الرهبان لهو أقرب إلى الحق، إنه هو الذي ترتاح إليه النفس، وهو الذي يقبله عقل الإنسان ويسيغه!!.

٧

تكررت مواعظ الأحد، وفي كل مرة كان سلمان من أكثر الناس إصغاء للأسقف، ولم يمضِ عليه كبير وقت حتى حفظ جميع مواعظه، وثقف جميع العلم الذي عنده وأخذ يشعر أن الأسقف لا مزيد عنده، وإنما هو يعيد ويكرر.

وآلم سلمانَ أنه يعيش في كنيسة لا يشعر فيها بأية عاطفة تجاه راعيها، فقد أحسّ بنفور شديد منه منذ أن سمع منه ما سمع عن المسيح، لكنه قال في نفسه: لا بدّ من الصبر الطويل حتى تنجلي الأمور، بيد أن الأيام لم تزده إلا نفوراً من هذا الأسقف، بل إن هذا النفور قد تحول إلى بغض شديد له، فقد رآه كثير الأكل، كثير النوم، لا ينشط للعبادة ولا

لتعليم الناس، حتى إنه هو الذي يخدمه ويلازمه لم يكن ليحظى منه بالكلمة تنفعه إلا في أيام الآحاد.

زد على ذلك كذبه ونفاقه، وحبّه العظيم للمال، وشغفه باكتنازه، فقد كان يأخذ ما يدفعه إليه الناس من صدقات للفقراء، فيدّخره لنفسه، ويكنزه في جِرار من فخار كان قد حفر لها في الأرض في جانب من الكنيسة، وكان يقضي وقتاً طويلاً بتفقد هذا المال وتعداده، ويكلّف سلمان أحياناً بعدِّ قطع الذهب والفضة للتأكد من صحة عدِّه هو!!

ومضى زمن، ولم تزد الأيامُ سلمانَ إلا كراهية لهذا الرجل، فقد رأى فيه منافقاً كبيراً، مولعاً بالدنيا، معرِضاً عن الآخرة، بل لا يكاد يذكرها في كلامه، كسولاً عن العبادة، متهاوناً في الإقبال على الله... وضاق به الحال، وضاقت عليه نفسه، وعجب أشد العجب لهذا الأسقف كيف لا يتقي الله سبحانه، ولا يرعى له حرمة وهو يختم مواعظه دائماً:

لا تزنوا، لا تسرقوا، لا تأكلوا المال الحرام.

ثم هو يأكل المال الحرام كل أسبوع فيدّخره لنفسه ولا ينفع به أحداً.

وأزعج سلمان أكثر من هذا ما سمعه منه ومن عامّة الناس من اعتقادهم بألوهية المسيح، وما كان يسمع سرّاً من بعض اليهود من قولهم القبيح في المسيح ومن حطِّهم من شأنه، وقولهم عليه وعلى أمه بهتاناً عظيماً... وراودته فكرةُ مغادرةِ الكنيسة والتحول عنها إلى مكان آخر، لكنه لم يعرف إلى أين يذهب!!

وقوّى هذه الفكرة عنده منام رآه وألقى الرعب في قلبه، فبينا هو نائم في يوم من الأيام إذا به يرى أن الناس حشروا، وأن اليهود أُتي بهم فسلخوا ثم أُلقوا في النار فشووا، ثم أُخرجوا فبُدِّلت جلودهم، ثم أُعيدوا في النار. ثم رأى كأن ملكاً أخذه فجاء به إلى صراط على النار، فقال: اعبر هذا، فقال صاحب الصراط:

انظروا، فإن كان دينه النصرانية، فألقوه في النار!!

وخاف سلمان من هذا المنام خوفاً شديداً، وعزم على التحوّل عن الكنيسة، واعتقد أن هذا المنام إنما هو بمثابة إنذار موجّه إليه لكي ينتقل إلى أُناس صالحين يعبدون الله على يقين، ويكون حالهم كحال أولئك الذين هداه الله على أيديهم.

وانتظر الفرصة المناسبة ليغادر الكنيسة، وليستريح من رؤية هذا الأسقف الخبيث الطوية، الجاهل المنافق.. وإنه لفي الانتظار إذا به يحدث أمر لم يخطر له على بال، فقد مرض الأسقف مرضاً شديداً، ولم تمض أيام قليلة على مرضه حتى قضى نحبه، وفرح سلمان بموته، واجتمع جمع كبير من الناس لتشييعه إلى قبره، وتقدمهم الرهبان الكبار يحملون الصلبان، ثم وضعوه في تابوته، وقام عدد من الرهبان فأبّنوه، وأثنَوْا عليه خيراً، وأزعج ذلك سلمانَ إزعاجاً عظيماً، وعزم على أن يكشف سرَّ هذا الأسقف ولو كلّفه ذلك حياته، فما إن انتهى الرهبان من تأبينهم حتى قام في الناس وقال بصوت عالٍ:

أيها الناس، إن هذا الأسقف الذي تثنون عليه لا يستحق هذا الثناء، إنه كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم بها، فإذا جئتموه بها كَنَزَها لنفسه ولم يعطِ المساكين منها شيئاً.

وقال له أحد الرهبان غاضباً:

وما علمك بذلك؟

فأجاب سلمان:

أنا أدلّكم على كنزه؛ وقام فمشى ومشى وراءه عددٌ من الرهبان، فاستخرج لهم سبع قلال[1] مملوءة ذهباً ووَرِقاً[2]، فأدهشهم ذلك،

(١) القلال: جمع قُلَّة بضم أوله: إناء من فخار يشرب منه.
(٢) الورق: بكسر الراء: الفضة.

وقالوا: لا ندفنه أبداً، ثم قاموا فصلبوه ورجموه بالحجارة.

أما سلمان فقد ارتفعت مكانته في عيون الناس، ورأوا فيه شاباً صالحاً، يخشى الله، ويؤثر الصدق ويكره الكذب، فأحبّه الناس حبّاً عظيماً، وعرفوا له قدره وخطره، بعد أن كانوا يظنون أنه إنسان مسكين، لا يليق به إلا أن يكون خادماً للناس، يكون في مهنتهم وحاجاتهم.

٨

فرح سلمان فرحاً لا يوصف بالأسقف الجديد «سمعان» الذي نَصَبه النصارى على كنيستهم العظمى، فقد كان راهباً صالحاً، عابداً زاهداً، جاؤوا به من صومعة له في جبل دمشق كان قد انقطع فيها للعبادة وهو لا يريد هذا المنصب، ولقد ذكَّرته سيرته بسيرة أولئك الأبرار الأطهار الذين آمن على أيديهم في بلاد فارس، لذا غيّر رأيه في التحول عن الكنيسة، وعزم على البقاء فيها بصحبة هذا الشيخ التقي والراهب الجليل.

واستمع لكلامه، فرأى الحلاوة والنور يخرجان من شفتيه، فعلقه قلبه، ثم جعل يرقبه، فرآه إذا خلا بنفسه جعل يصلي فيركع ويسجد كما كان يفعل الرهبان الصالحون، ولم يكن قد رأى الأسقف السابق يركع ويسجد أبداً، وكان هذا يخفي صلاته عن الناس، ففطن إلى أن الراهب «سمعان» ليس على رأي عامة الناس، وأنه من أولئك القلائل الذين أُخبر عنهم بأنهم لم يغيِّروا ولم يبدِّلوا، وكانت أول كلمة سمعها منه قوله له:

(يا بني، بلغني أن عيسى عليه السلام قال:

طول القنوت أمانٌ على الصراط، وطول السجود أمان من عذاب القبر. لا تكذبنَّ مازحاً ولا جادّاً حتى يسلِّم عليك ملائكة الله، ولا تغضبِنَّ الله في طمع ولا غضب حتى لا تحجب عن الجنة طرفة عين.

يا بني، عليك بنعيم الآخرة، فإنه نعيم لا يفنى!!).

ولاحظ سلمان أن الراهب قد ذكر (عيسى) باسمه، ولم ينعته بأي نعت، فتشجع وقال له:

سيدي، أخبرني عن المسيح، ماذا تقول فيه؟

وأجابه فوراً:

هو عبدُ الله ورسوله، لا أقول فيه غير هذا!!

وقال سلمان:

قد ـ والله ـ وصفه لي الرهبان في بلادنا بهذا الوصف!!

فقال الراهب:

هو كما وصفوه لك، ولكن الناس غيّروا وبدّلوا، واتبعوا دين ملوكهم، ونحن لا نستطيع أن نجهر بما نعتقد في المسيح، فينالنا من الملك وأعوانه ومن رهبان السوء أذىً كبير.

وحكى سلمان للراهب الصالح قصة إسلامه على يد الرهبان ثم هربه إلى الشام، وأخبره عن تبرمه بالأسقف السابق، ثم قصّ عليه قصة منامه العجيب الذي رآه من قريب وألْزمه على التحوّل عن الكنيسة لما رأى وسمع من ذلك الأسقف، فعجب لحديثه أشد العجب، وقال له: أُريدَ بك خير إن شاء الله يا سلمان، وإن ما رأيته في منامك حق، فالزم ما أنت عليه من الدين تنجو غداً إن شاء الله يوم الحساب.

وأراد سلمان أن يجاري الراهب في عبادته وتهجده وصومه فقال له:

يا سلمان، إنك فتًى، وإنك لا تستطيع أن تصنع كما أصنع، فصلٍّ ونم، وكُلْ واشرب.

... مرّت عدة سنوات على سلمان وهو بصحبة هذا الرجل التقي ولم يشعر بمرورها، فقد سعد بالعيش معه، وأفاد منه كثيراً، وكان يشعر أن علمه يزداد يوماً بعد يوم، وأن إيمانه يقوى حيناً بعد حين، وكانت مواعظه تنفذ إلى قلوب مستمعيه، وعجب سلمان أشد العجب لذكاء هذا الراهب،

فقد مضى على تنصيبه أسقفاً للكنيسة عشر سنوات وهو يعظ الناس كل أحد، ويتحاشى أن يصف المسيح، بما كان يصفه به سلفه وهم لا يفطنون لذلك، فقد كان يشغل فكرهم وعواطفهم بمواعظه الرقيقة المؤثرة ونصائحه القيِّمة.

ومرض الراهب مرض الوفاة، وأحسّ بدنوّ أجله، وشعر سلمان بذلك، فحزن أشدّ الحزن، وقال للراهب: إن أنت متّ فسوف يخلفك رجل سيء يؤمن بما يؤمن به عامة الناس، ويجاري الملوك وأعوانهم على أهوائهم، فماذا تنصحني أن أفعل، وإلى من توصي بي، وهل سيأتي يومٌ يموت فيه الدين الحق بموت أهله؟

وأجابه الراهب بصوت خافت:

يا بني، إنه سيبعث نبي هو آخر الأنبياء، اسمه محمد وأحمد، يخرج من جبال تهامة في بلاد العرب، وأراك ستدركه، فإن أنت أدركته فآمن به، واقرأ عليه منّي السلام، فإنه بلغني أن عيسى بن مريم قال:

من سلّم على محمد ـ رآه أو لم يره ـ كان له محمدٌ شافعاً ومصافحاً!!

وطرب قلب سلمان لهذا النبأ، وقال للراهب:

ماذا ترى أن أفعل: أذهب إلى بلاد العرب فأنتظر هذا النبي، أم أذهب مذهباً آخر حتى يظهر؟

وأجابه الراهب:

يا بني، إن هذا النبي لم يظهر بعد، وحين يظهر فسوف لا يخفى عليك أمره، فإن دينه سيظهر على الدين كله. وما أرى لك أن تذهب الآن إلى بلاد العرب فهي بلاد يسودها الشرك، وتنتشر فيها الأوثان، ولكن اذهب إلى الموصل؛ فإن بها رجلاً صالحاً اسمه «يعقوب» وهو على ما نحن عليه من الدين، لم يغيِّر ولم يبدِّل، فكن معه حتى يظهر النبي في بلاد العرب.

٩

ودّع سلمان دمشق بعد أن عاش مع الحَبْر الصالح عشر سنين كانت من أسعد أيام حياته إلى ذلك التاريخ، ولم يطق الانتظار طويلاً بعد وفاته، فقد كره خَلفَه الذي أقامه الناس عليهم فورَ أن سمعه يقول: الآب الرب والابن الرب، وارتحل لتوِّه إلى الموصل، وقضى في سفره قريباً من الشهر حتى وصلها، ثم سأل عن الراهب «يعقوب» فدُلّ عليه، فجاءه وسلّم عليه، وأخبره أنه قد جاءه من قِبَل أخيه في دمشق «سمعان»، وأقرأه منه السلام، ونعاه له فبكى عليه «يعقوب» وأكثر عليه من الترحم، ودعا له، ثم قال لسلمان:

مرحباً بك يا بني، كن معي ما شئت نعبد الله ونذكره ونوحِّده.

ووجد سلمان الراهب الجديد على نهج سلفه: تقوى وعبادة وعلماً وزهداً وتطلعاً إلى الآخرة، ووجده يقول عن المسيح: إنه عبد الله ورسوله، فعاش معه سعيداً راضياً مطمئناً.

ولقد حفظ منه وصايا سجّلها على صفحات قلبه، وكان مما حفظه منه قوله:

يا بني، إن هممتَ بخير فلا تؤخره.

وأُوصيك ألاّ تحتقر معصية، ولا تعجب لحسنة تعملها!!

.. ومرّ الزمن سريعاً، ولم تطل سعادة سلمان بصحبة هذا الراهب المخبت الأوّاب[١]، فقد قدم عليه وإن له من العمر مائة وخمسين سنة، وها هو ذا قد حضره أجله، وها هو ذا سلمان يبكي فوق رأسه ويقول له:

إلى من توصي بي؟

فيجيبه:

---

(١) المخبت: الخاشع المتواضع. الأواب: الكثير الرجوع إلى الله تعالى.

يا بني، لا تبكِ عليّ، ومن أنا حتى تبكي عليّ، إنه قد بقي نبي ليس من نبي بأفضل منه، وهذا زمانه، ولعلّك تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فإن أدركته فآمن به.

ثم قال له:

ولكن أُوصيك الآن أن تلحق بأخٍ لي في «نصيبين» اسمه «أَنْدَرَاوْس» فإنه على ما نحن عليه من الحق، فكن معه حتى تسمع بظهور النبي في بلاد العرب.

١٠

مات راهب الموصل، وبكاه سلمان، وبعد دفنه ارتحل إلى «نصيبين» فبحث عن راهبها الصالح فوجده، وإذا به أكبر الأحْبَار الذين رآهم سنّاً، قد احدودب ظهره، وطال شعره، ورقّ عظمه، وبرت كثرة العبادة جسمَه. ثيابه ونعله من الشعر، وليس في صومعته إلا مِسْحٌ من شعر قد مدّه على الأرض، وإلا إداوة لشرابه وإداوة لطهوره[١].

ورحَّب به الراهب ترحيباً كبيراً، وقصَّ عليه سلمان قصته، فسُرّ بما سمع سروراً عظيماً، وقال له: بارك الله فيك يا سلمان، وثبّتك على الهدى واليقين ما بقيت.

.. دُهش سلمان دهشة بالغة لاجتهاد هذا الراهب بالعبادة ولزهادته وإعراضه عن متاع الدنيا، فلم يره نائماً ولا طاعماً إلا راكعاً وساجداً من الأحد إلى الأحد.. بَيْدَ أنه لم يُكتب لسلمان أن يعيش مع هذا الراهب أيضاً إلا زمناً قصيراً، فلم يلبث أن حضره الموت، فقال له سلمان: أوصني.

فحمد الراهب الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وذكر رسله، ثم ذكر مولد عيسى بن مريم، وأنه ولد بغير أب، فبعثه الله رسولاً، وأجرى على

---

(١) الإداوة: إناء صغير من جلد يتخذ للماء.

يديه إحياء الموتى، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأنزل عليه الإنجيل، وعلَّمه التوراة، وبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل فكفر به قوم وآمن به قوم.

ثم قال له:

فالزم يا سلمان ما جاء به عيسى ولا تخالف فيخالف الله بك، وكن عليه حتى يُبعث رسولٌ اسمه أحمد[1]، يخرج بتهامة، وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب، فأما أنا فإني شيخ كبير، ولا أحسبني أُدركه، فإن أنت أدركته فصدِّقه واتبعه.

وقال سلمان:

وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه؟

فأجابه الراهب: نعم! فإن رضا الرحمن فيما قال!!

.. واشتد احتضار الراهب، وأنشب الموت فيه أظفاره، وجلس سلمان عند رأسه يبكيه، فقال له:

ما يُبكيك يا بني، إنك أسعدُ منّا حظاً، إنك ستدرك خاتم الأنبياء!!

وقال سلمان:

أبكِي أني أتيتك من الموصل أطلب صحبتك، ولقد أحسنتَ صحبتي وعلّمتني، وها قد نزل بك الموت، ولا أدري أين أذهب، وأنا لم أسمع بظهور النبي الأخير الذي أخبرتني عنه حتى ألحق به.

وقال له الراهب:

يا سلمان، إن لي أخاً في عمورية يقال له «جُريج» لا أعلم أحداً غيره بقي على الحق، فأْته فاقرَأْه مني السلام، وأخبره أني أوصيت بك إليه، وأوصيتك بصحبته.

---

(١) من أسماء الرسول ﷺ «أحمد»، قال الله تعالى في سورة الصف على لسان المسيح عليه السلام: ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾.

١١

توفي «أنْدَرَاوس» راهب «نصيبين» وتحول سلمان منها إلى «عمورية» في بلاد الروم، وأوى إلى راهبها العظيم الجليل «جُريج».. كان خير الرهبان الذين رآهم سلمان وصحبهم، وكان أعظمهم علماً وصلاحاً، يحفظ الإنجيل عن ظهر قلب، ويحفظ الكثير من التوراة، ويقصّ من قصص الأنبياء ما يطرب له قلب السامع وروحه، وله اجتهاد في العبادة لا نظير له، طعامه الخل والزيت والحبوب، قد تجاوز المائة؛ إلا أن همّته قوية، وعزيمته ماضية!!.

وقال الراهب لسلمان بعد أن سمع منه قصته مفصّلة:

مرحباً بك أيها المهاجر الباحث عن دين الله، كن معي ما حييت؛ نعبد الله، ونوحده، ونعظمه ونشكره.

وأخذ سلمان ينهل من مورد هذا الراهب العذب، ويتعلم كل يوم منه شيئاً جديداً، وسرّ أيّما سرور بقصص الأنبياء يرويها له وكأنه عاشها وشاهدها، وأعجبته قصة إبراهيم عليه السلام وقصص الأنبياء من أولاده وذريته، وعجب لهذه الدوحة العظيمة التي ابتدأت شجرة صغيرة، ثم نمت أغصانها واستطالت، وامتدت زماناً ومكاناً، حتى أصبحت دوحة هائلة، زكية يانعة.

وأفاق سلمان فجر تلك الليلة التي سمع فيها حديث إبراهيم ليقول للراهب: إنه رأى مناماً عجيباً في شأن هذا النبي، فقال له الراهب: هاتِ حدّثني به.

وقال سلمان:

سيدي، رأيت فيما يرى النائم إبراهيم الخليل على أبهى صورة، وأتم خِلْقَة، وإنه لقائم عند العرش، والناس يُعرضون عليه، وتسوقهم الملائكة

زرافات ووحداناً إليه، فجعل هو ينظر في وجوه من يأتيه، ويميزهم على الفور، فمن كان على ملَّته طلب من الملائكة أن يأخذوه إلى الجنة، ومن كان على غير ملَّته قال للملائكة: سوقوه إلى الجحيم!

وختم كلامه قائلاً: سيدي، أرجوك وأتوسل إليك أن تدلني على دين هذا النبي العظيم، الذي سيُسعد من يتبعه ويشقى من يخالفه.

وأجابه جريج الراهب:

يا بني، إن الذي تطلبه ليس اليوم على ظهر الأرض، ذاك دين الحنيفية، وهو دين أهل الجنة، وإنما نحن على شيء منه، وقد أظلَّ واقترب زمانه، نبي يثرب يدعو إلى هذا الدين. نبي يركب الجمل والحمار والفرس والبغلة[١]، ويكون الحرّ والمملوك عنده سواء، وتكون الرحمة في قلبه وجوارحه، ليس بحقود ولا حسود، ولا يُظلم عنده أحد، يُعاديه يهودُ وقومُنا أشد العداء!!

وقال سلمان:

سيدي ما اسم هذا النبي؟

وأجابه الراهب:

له خمسة أسماء: مكتوب في العرش محمد، وفي الإنجيل أحمد، ويوم القيامة محمود، وعلى الصراط حمّاد، وعلى باب الجنة حامد، وهو من ولد إسماعيل.

وعجب سلمان من علم الراهب، وأكبَّ عليه يقبّل رأسه ويديه ورجليه ويقول له: يا سيدي، مدّ الله في عمرك، ونفعني بك، ما أعظم ما وهبك الله من العلم والفهم!!

... ورأى جريج اجتهاد سلمان، وشغفه العظيم بالعلم، فطلب منه

---

(١) هذا من تواضعه عليه الصلاة والسلام، فلم يكن يخصّ نفسه بركوب الخيول الجياد، كما كان شأن الكبار والزعماء في زمانه.

أن يحفظ الإنجيل عن ظهر قلب، فانصرف سلمان لذلك، وما مضت عليه سوى مدة يسيرة حتى استظهره.

وخاف جريج على سلمان أن يتسرب إلى قلبه العُجْب، فيفسد عليه نيته الصادقة وعلمه وعمله، فأخذ يعظه ويحثّه على إخلاص العمل لله تعالى، وإخراج حظ النفس من قلبه، وكان يكثر أن يقول له:

يا بني، إنَّ بين يديك جنة وناراً، وإن أمامك عقبة كؤوداً: الحساب، ولن تجوز تلك العقبة إلا بإخلاص العمل لله وصدق النيّة معه.

١٢

كان سلمان يأمل أن يطول العمر بمعلمه وشيخه الجليل «جريج» فيعيش سعيداً بصحبته، ويزداد انتفاعاً من علمه وعمله؛ لكن المقادير لم تشأ أن تستمر هذه الحياة السعيدة التي يحياها هذا المهاجر الصادق، بل كانت تدّخر له خيراً أعظم بكثير مما هو عليه الآن؛ فقد مرض الراهب فجأة، وظن سلمان أنه مرض طارىء سرعان ما يزول، فجعل يأتيه بالدواء، ويرعاه ليل نهار، ويدعو له بالشفاء.

بيد أن المرض كان يزداد يوماً بعد يوم، فاشتد جزع سلمان، وصار يقول للراهب كل يوم: سيدي كيف تجدك؟ فيثني على الله سبحانه ويقول: الحمد لله على كل حال... وأحسّ الراهب بدنوّ أجله، وقال له سلمان يوماً على عادته:

سيدي، كيف تجدك؟

فأجابه الراهب:

يا بني، لا أرى إلا أني أموت في مرضي هذا.. وانهمرت عينا سلمان، وجعل يبكي حتى علا نحيبه، فقال له جريج: لا تبكِ يا بني، وأكثِر لي من الدعاء والاستغفار، فإذا أنا متُّ فادفنّي، والزم ما أنت عليه، وإياك أن تبدِّل، وعليك بالحنيفية دين إبراهيم، اسعَ إليها وانتظر نبيِّها

المرسل الذي قد أظلَّ زمانه[1].

وقال سلمان:

سيدي، إلى من توصي بي فأصير إليه حتى يخرج النبي المرتقب، وبِمَ تأمرني؟

وأجاب الراهب:

أي بني، والله ما أعلم أصبح أحد من الناس على مثل ما كنّا عليه آمرك أن تأتيه، وما بقي أحد على دين عيسى أعلمه، لقد هلك الناس، وبدّلوا، وتركوا أكثر ما كانوا عليه!! ولكن قد أظلّ زمان النبي المبعوث بدين إبراهيم.

يخرج بأرض العرب، مهاجره أرض بين حرّتين بينهما نخل.

به علامات لا تخفى:

يأكل الهدية.

ولا يأكل الصدقة.

بين كتفيه خاتم النبوّة.

فالحق بتلك البلاد، ولا أراك إلا أنك ستدركه.

وكانت هذه الكلمات في ذكر بعض صفات خاتم النبيين هي آخر ما سمعه سلمان من آخر الرهبان، الذين قدِّر له أن يصحبهم ويسمع منهم عن هذا النبي ويدلّوه عليه، وكانت آخر جملة نطق بها الراهب الصالح «جريج» قوله لسلمان: فالحقْ بتلك البلاد، ولا أراك إلا أنك ستدركه.. فبعد قليل سكت الرجل عن الكلام بتاتاً، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة، ولحق بربه عزّ وجلّ، فقام إليه سلمان فغسله وكفّنه، ثم صلّى عليه، ثم دفنه، وذرف عليه الغزير من دموع الوفاء والمحبة.

---

(١) أظلَّ زمانه: اقترب.

١٣

شعر سلمان بعد موت آخر الرهبان الصالحين بالغربة الشديدة، فقد كان عاش عشرين عاماً بعد موت الأسقف السيء في أسعد حال، وأخذ الإيمان والعلم في تلك المدة عن أربعة من الرجال الصالحين الربّانيين، ولقد تأثر بمسلكهم وخلقهم، ولم يعد يطيق العيش بعيداً عن أمثالهم، ولقد كان لآخرهم أثرٌ في قلبه لا يمحى، وما كان أشد لوعته عليه حين توفي، وكان يأمل أن تطول صحبته له؛ لذا لم يطل المقام بسلمان في عمورية بعد وفاة الراهب «جريج» فقد علم بخبر جماعة من العرب كانوا في تجارة لهم في بلاد الجزيرة[1]، فذهب إليهم، وقال لهم:

احملوني معكم إلى بلاد الحجاز وأدفع لكم بقرة وبضع غُنيمات لا أمتلك غيرها.

ووافق التجار على ذلك، وقالوا له: هيّا، هات ما عندك وأصحبنا، وقدَّم لهم سلمان ما يملكه، وكان قد اكتسبه بعد وفاة الراهب «جريج» ليستعين به على سفره، ثم انطلق معهم مهاجراً إلى البلد الذي سيلقي فيه خاتم النبيين، ذلك النبي الذي لم يبق له أملٌ إلا فيه، في طلب دين الله الحق وصراطه المستقيم.

... كانت رحلة شاقة وطويلة، لكن سلمان ـ وكان قد بلغ مبلغ الرجال الأشدّاء ـ تحمّل تلك المشقات، وظهرت منه ألوان من الرجولة والشهامة والمواساة لمن سافر معهم، جعلت الجميع يعجبون به، ويسمو قدره في نفوسهم، إلى جانب أدب رفيع، وصمت طويل، وكلام قيّم سديد حين يحتاج الأمر لذلك.

وأحسّ سلمان بعد مسيرة ما يزيد على الشهر أنه قد دخل بلاد

(١) هي الجزيرة الواقعة بين دجلة والفرات.

العرب، وأخذ يرى القبائل ترود البلاد وهي تعلو الإبل، وأخذ يسمع حُداة الإبل[١] يَحْدون لها ويرغِّبونها في المسير بصوت جميل أخّاذ، ثم أخذت تظهر له مناظر كان يرجف لها قلبه، ألا وهي مناظر واحات النخيل التي تقوم هنا وهناك، وحدّثته نفسه أنه قد اقترب من الأرض المباركة التي نعتها له الرهبان والتي ستكون مهجر آخر الأنبياء وإمامهم.

ووصل الركب ذات يوم إلى «وادي القرى»[٢] فحطّوا هناك الرِحال ليستريحوا، ودارت برأس أحدهم فكرة شيطانية ماكرة، ما لبث أن أخبر بها رفاقه قائلاً:

لماذا لا نبيع هذا الأعجمي من يهود هذا البلد، ونقبض ثمنه غالياً، فهو رجل تام الرجولة، قوي على الخدمة، يرغب فيه أُناس كثيرون؟

ووافق أولئك الأشرار على رأي صاحبهم، وما هي إلا ساعات حتى انتقل سلمان من حال إلى حال، انتقل من الحرية والكرامة، إلى العبودية والمذلّة، وقبض أولئك الغادرون ثمنه، ثم تركوه في قبضة يهودي لئيم، ولم تشفع له توسلاته، ولا قوله لصاحبه: إنه رجلٌ حرٌّ وأن القوم مكروا به!!.

... حزن سلمان أشد الحزن لهذه المصيبة التي حلَّت به، فهو لم يحسب لها حساباً، بل كانت مفاجأة قاسية، رأى فيها لوناً من وحشية الإنسان حين يخلو قلبه من الإيمان، ويتجرد من خوف الله ومراقبته، ويجهل دينه وشريعته.

واعتقد سلمان أن ما أصابه إن هو إلا ابتلاء يريد الله أن يبتليه به، وأن هذه المصيبة سوف لا تدوم، وأن الله سيجعل له من بعد عُسر يسراً.

---

(١) الحداة: جمع حادي. وهو الذي يغني للإبل كي تنشط في سيرها.
(٢) وادي القرى: وادٍ بين المدينة المنورة والشام، قريب من المدينة وبه كثير من القرى.

وابتدأ هذا الرجل الممتحن مرحلة جديدة من مراحل حياته ـ هي مرحلة حياة العبودية ـ وأخذت الأوامر تتوالى عليه، والأعمال تثقل كاهله، وشعر بأنه لم يعد يملك نفسه، وأن إنسانيته قد انتقصت كثيراً.

. . . ومع ذلك فقد أخذ يؤدي أعماله على أتم وجه، حتى إذا انتهى منها جعل يطَّوَّف في جنبات البلد الذي حلّ فيه، يرى معالمه، ويتنسم الأخبار عن خاتم النبيين، ولفت نظر هذا الرجل النبيه واحات النخيل التي تقوم على أطراف البلد، فظن أن العلامات التي ذكرت له عن مهجر النبي هي لهذا البلد، لكنه وبعد نظر وتدقيق لم يحقّ له الأمر، وعرف أن المكان غير هذا.

١٤

كان سلمان حينما قذفت به المقادير إلى بلاد الحجاز وأصبح في الرق قد أتم الأربعين، واستوى رجلاً كأكمل ما يكون الرجال، فهو رجل طويل ضخم قوي، يتمتع بالفهم الكبير والذكاء النادر، إلى جانب أخلاق رفيعة وأدب جمّ، وقد جعلت هذه الصفات سيده يتمسك به ويحرص عليه أشد الحرص، فقد رفض عروض الكثيرين ممّن راودوه على شرائه منه، لكنه أخيراً وبعد إلحاح شديد أذعن لرغبة ابن عم له من يهود يثرب، فباعه منه بعد أن قبض ثمنه غالياً، وتحول سلمان إلى يثرب، وانصرف لخدمة سيده الجديد، الذي أُعجب به أشد الإعجاب، وسُرّ بنشاطه وأمانته وفهمه وأدبه.

وتجول سلمان في جنبات يثرب وضواحيها، وأخذ ينظر ويدقِّق في معالمها وأوصافها، فرأى أن جميع الصفات التي ذكرت له عن مهجر خاتم النبيين قد توفرت في هذا البلد، ثم تذكر أن راهب عمورية قد ذكر له هذه البلدة باسمها، فأيقن أن هذا البلد هو بلد الهجرة، وزاده يقيناً ما سمعه من أحْبَار يهود مما يؤيد ذلك، وعلم منهم أن جميع يهود الحجاز كانوا قد

هاجروا من مئات السنين إلى بلاد العرب توكفاً[١] لبعثة هذا النبي وانتظاراً لهجرته إلى هذه البلدة.

... وسُرّ سلمان بما وصل إليه من نتيجة، وأيقن أن ما يكرهه مما هو فيه من العبودية ربما يكون فيه خيرٌ لا يعلمه، وطابت نفسه بعض الشيء، وجعل كلما حَزَبه أمرٌ[٢]، ينصرف بفكره إلى أنه سيُكتب له إن شاء الله لقاء النبي الذي سيُبعث بدين إبراهيم، وسيؤمن به، ويسعد بصحبته، فكانت هذه الآمال الجميلة بَلْسَم جراحه، ودواء أحزانه، وراحة نفسه.

وانتظر المهاجر الممتحن بعثة النبي وهجرته، وأخذ يتنسم الأخبار، وطال انتظاره لها، وتنقل في أيدي الناس، وتداولته الأيدي الكثيرة، وتنافس يهود يثرب في اقتنائه، فهم لم يشهدوا بعدُ عبداً رقيقاً مثله في مجموع صفاته، ومضى عليه عشر سنوات في يثرب، وها هو ذا الآن في يد سيده الحادي عشر «عثمان بن أشهل» الذي أبى أن يبيعه من غيره، ولم تنفع جميع الوسائل في حمله على ذلك.

وتعلم سلمان لغة العرب، وأتقن صناعة الخوص[٣]، وصبر على قيده الذي ضرب عليه، وكان له من انطلاقة روحه الوثّاب، وآماله العريضة، ما عوَّضه بعض الشيء عن حريته المفقودة، وكرامته المنكوبة.

١٥

بُعث رسول الله ﷺ في مكة، ودعا إلى الله، وعلم الكثيرون من الناس بأنباء بعثته، بل لقد وصلت دعوته إلى يثرب حيث يعيش سلمان الفارسي، وانتشر الإسلام في أهلها، وأرسل إليهم النبي داعية يقرئهم القرآن ويعلّمهم

(١) توكفاً: انتظاراً.
(٢) حزبه أمر: اشتدّ عليه وضاق.
(٣) الخوص: ورق النخيل، وكانوا يصنعون منه أشياء عديدة.

الدين اسمه: مصعب بن عمير، وبعد مدة بايعه عدد كبير من زعماء الأوس والخزرج ودَعَوْه للهجرة إلى بلدهم، فقبل ذلك، وها هي ذي يثرب تستعد لاستقبال المهاجر العظيم.. جرى كل ذلك وسلمان لا يعلم منه شيئاً، فهو غارق في عبوديته، لا يدع له سيده وقتاً يروح ويأتي فيه فيتزود من الأخبار، بل كان يتعبه، ويحمِّله من العمل ما يطيق وما لا يطيق.

وسئم سلمان هذه الحالة التي هو عليها، وكره عِشرة اليهود كراهية شديدة، فقد اطَّلع على صفاتهم السيئة وأخلاقهم القبيحة، ورأى رؤية العين ما هم عليه: من حبٍّ شديد للمال ورغبة عظيمة في اكتنازه بأية وسيلة، وحرصهم الشديد على انتهاب الملذات وعدم يقينهم بالآخرة، ورأى غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وتعاليهم على غيرهم، وزعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وهم أبعد ما يكونون عن الله ودينه الذي بعث به أنبياءه، ثم رأى ما يتصفون به من حسد شديد للناس وبغض لهم وتمنٍّ للشرّ أن يقع عليهم، وما هم عليه من غدر ومكر والتواء، ومن كذب ونفاق ومخاتلة، ورأى فجورهم وادّعاءاتهم الباطلة، ورأى الكثير الكثير من صفاتهم السيئة، فمقتهم أشدّ المقت، وزاد من مقته لهم ما كانوا يذكرون به المسيح عليه السلام من سيء الوصف، وما كانوا يقولون عنه وعن أمه، بل ما كانوا يلحقونه بسائر أنبياء الله من نقائص يتورع عنها عامة الناس!!

وكره سلمان العرب أيضاً، فقد وجدهم في ضلال مبين، فهم غارقون في عبادة الأصنام، أميُّون جاهلون، بأسهم بينهم شديد، قد نشأت فيهم عادات قبيحة، وأعمال مرذولة، وهم سادرون في غوايتهم، فلا رادع يردعهم، ولا مُصلِح يُصلح أُمورهم!!.

وجعل هذا الممتحن الصابر يقلِّب وجهه في السماء، ويكثر من الدعاء إلى الله أن يمنَّ على عباده بإرسال رسوله الكريم ونبيّه العظيم، وكان لا ينفك من قبل يدعو بهذا الدعاء، بيد أنه في الآونة الأخيرة جعل يدعو ويكثر، ويبتهل إلى الله صباح مساء ويناشده إجابة الدعاء.

. . . وفي صبح يوم من الأيام جلس سلمان في حائط[١] من حوائط سيده، وأسند ظهره إلى شجرة ينتظر طلوع الشمس وانتشار النور ليقوم إلى عمله، وأخذ يفكر في ماضيه وحاضره، واستعرض بسرعة كبيرة شريط الذكريات والصور التي عاشها، فأمرّ على خاطره صورة الطفولة السعيدة في بلدته «جَيّ»، ثم انصرافه بتوجيه من أبيه لخدمة النار، وكيف أقبل عليها ثم زهد فيها، ثم استعرض ساعة دخوله لكنيسة الرهبان وكيف هداه الله على أيديهم، وما كان من شأنه وشأن أبيه معه فيما بعد، وكيف قيّده وحبسه، ووبخه وأنَّبه، ثم استعرض صورة هربه مع التجار إلى بلاد الشام وتنقله فيها وصحبته للرهبان الصالحين، وما أفاده من علمهم وتقواهم، وكيف تواطؤوا جميعاً على دلالته على خاتم النبيين، وحَثّوه على الهجرة إليه، ونعتوه له، ثم استعرض صورة هجرته إلى بلاد العرب وغدر التجار الذين سافر معهم به، وما حلّ به من محنة مؤلمة لا تزال مستمرة إلى يومه بل إلى ساعته. . . وإنه لغارق في تفكيره، يستعرض هذه الصور، وينتقل بالذاكرة من صورة إلى أخرى، إذا بسيده يناديه من بعيد:

سلمان، هيّا إلى العمل، لقد تأخرنا.

وكأنما انتبه من حلم، واستيقظ من رقاد، فنظر فإذا بشريط الصور يمّحي من أمامه، فقام سريعاً، ثم صعد إلى شجرة نخل وجعل يقطف من ثمارها ويضع ما يقطفه في مِكْتل[٢] معه، فإذا ما امتلأ المكتل نزل فأفرغه ثم صعد ثانية. . وارتفعت الشمس في كبد السماء، وبلغت حرارتها مبلغها، واكتوى سلمان بلظاها، وهو لا يزال يصعد وينزل، وسيده جالس في ظل النخلة يميّز ثمرها، فيضع حباته الكبيرة في جانب، ويضع الحب الآخر في جانب آخر، ولا يدعُ سلمان يستريح ولو لبرهة صغيرة.

. . وبينا سلمان في عمله وقد أخذ منه الجهد كل مأخذ، إذا بابن عمٍّ

(١) الحائط: البستان

(٢) المكتل: وعاء من خوص.

لسيده قد أقبل حتى وقف عليه وقال له:

قاتل الله بني قَيْلة[١]، والله إنهم لمجتمعون الآن بقُباء على رجل قدم من مكة يزعمون أنه نبي!!

وارتجف سلمان حين سمع ما سمع، وأخذته رعدة شديدة، حتى لقد ظن أنه سيسقط على سيده، لكنه تماسك على نفسه، ونزل عن النخلة، وأقبل على ابن عم سيده يسأله:

ماذا تقول، ماذا تقول؟!

وقبل أن يُجيبه الرجل، قام إليه سيده غاضباً، فلكمه لكمة شديدة وقال له: ما لك ولما يقول؟! انصرف إلى عملك، فإنما أنت عبد خلقت للعمل، ولا شأن لك بهذه الأمور!! وأيّده ابن عمه في ذلك وصاح فيه: يا سلمان إن هذه الأمور لا تعنيك، فارجع إلى عملك.

وحزن سلمان من صنيع سيده أشد الحزن لكنه كتم أحزانه؛ وصبر على ما لحقه من إهانة وقال له: ما أردت إلا أن أتحقق من كلامه، فقد ظننت أنه إنما يسخر من العرب.

... وصعد سلمان إلى النخلة يقطف من ثمارها، ورأى سيده وابن عمّه أنه قد انصرف عن حديثهما، بيد أنه أصاخ إليهما سمعه، وانتبه إلى كلامهما أشد الانتباه، فهو ينتظر هذا النبأ الذي سمعه في هذه الساعة من أكثر من عشر سنوات، وإن قلبه ليخفق الآن خفقاناً شديداً وهو ينتظر التأكد من صحة ما سمع.

ودار حوار بين عثمان بن أشهل وابن عمه، وأصاخ سلمان له السمع حتى وعاه وعياً تاماً.

قال عثمان:

أحقٌّ ما تقول يا ابن عم؟!

---

(١) بنو قيلة: هم الأوس والخزرج.

نعم والذي أنزل التوراة على موسى!!

ومن أي البلاد هو وإلى أين يقصد؟

هو من مكة، وقد هجرها ليعيش هنا بين الأوس والخزرج الذين آمنوا به وبايعوه.

وصاح عثمان: وقد اجتمعت عليه كلمة الأوس والخزرج؟

فقال ابن عمه: نعم!!

وقال عثمان: والله لئن اجتمعت كلمة الأوس والخزرج فسوف لا تقوم لنا قائمة في هذا البلد!!

أخبرني يا ابن عم، أتراه النبي الذي ذكر في كتبنا وحدّثنا عنه الأنبياء؟

نعم والله، ما أراه إلا هو.

وهل سيتبعه قومنا ويؤمنوا به؟

معاذ الله أن نتبع نبياً من غير بني إسرائيل، وما أعظم ما نزري بأنفسنا إن اتبعنا نبياً من الأميين!!

وكيف سيكون موقفنا منه؟

علينا أن نعاديه، ونُرْجِف به وبدينه، ونسعى به حتى نخرجه من يثرب، ثم نؤلّب عليه العرب ونعينهم عليه.

وصاح عثمان: لا فضَّ الله فاكَ يا ابن عم، هذا ما يجب أن يتواصى به قومنا، وما يجب أن نعمله جميعاً.

١٦

كان ذلك اليوم الذي سمع فيه سلمان باسم النبي ﷺ أسعد يوم مرّ عليه في عمره، فهو اليوم الذي يتوق إليه وينتظره من أكثر من عشر سنوات

ومن يوم أن حلَّ ببلاد العرب، وهذا الدين الذي بعث به هذا النبي هو الدين الذي يبحث عنه من يوم أن خرج من بلاده فتىً صغيراً وقد أربى على الخامسة عشرة بقليل، ولقد مضى عليه خمس وثلاثون سنة وهو دائب البحث عن هذا الدين، ينتظر النبي المبعوث رحمة للعالمين، فما أسعده في هذا اليوم وقد سمع بهذا النبأ العظيم، نبأ هجرة سيد المرسلين!!

وانتظر سلمان حتى جاء المساء، فحمل شيئاً من تمر ثم اتجه إلى قُباء حيث ينزل النبي ﷺ، وإن لِقَلْبه وجيباً لم يشعر له بمثيل فيما مضى من عمره، حتى إذا وصلها سأل عن النبي ﷺ فدُلّ عليه، فنظر إليه فرآه أحسن الناس وجهاً وهيبة، وقال في نفسه: والله إن وجهه لوجه نبي، ثم سلّم وجلس قريباً منه ثم قدم له التمر قائلاً:

إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتكم أحقّ به من غيركم.

وشكره النبي ﷺ على ذلك، ثم قال لأصحابه الذين حوله: «كلوا»، وأمسك هو فلم يأكل شيئاً.

وقال سلمان في نفسه: هذه ـ والله ـ أولى صفاته التي ذكرها لي الراهب جريج، إنه لا يأكل الصدقة، ثم أمضى ساعة في مجلس النبي ﷺ، وسمع منه كلاماً لم يسمع بمثله من قبل، وأكثر من النظر إلى وجهه الكريم، فسعد بذلك سعادة كبيرة، وتمنى ألّا يفارقه، ولكن. . .

انصرف سلمان فغاب بضعة أيام، ثم أتى النبي ﷺ وهو في بيت أبي أيوب الأنصاري الذي نزله حينما حلَّ في مدينته الطيبة، وجاءه هذه المرة بتمر أيضاً وقال له:

إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها.

فأخذ النبي ﷺ التمر من يد سلمان، ثم سمّى الله وأكل، وأمر أصحابه أن يأكلوا فأكلوا.

واهتز فؤاد سلمان طرباً وقال في نفسه: هذه ـ والله ـ الثانية: إنه يأكل الهدية!!

عاد سلمان إلى حجرته، وأوى إلى فراشه، لكنه لم تغمض له عين تلك الليلة... قال في نفسه: لقد وضح الأمر واستبان، وأحلف بالله إنه للنبي الأخير الذي عهد إليّ فيه الرهبان من النصارى!!

فاسمه محمد، وهو عربي من تهامة، وهذا البلد مهاجره، ثم رأيته يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، ووالله إن وجهه لينبىء أنه صادق.

ثم خاطب نفسه، فماذا بقي؟ ولماذا لا أذهب إليه فأقصّ عليه قصتي وأصدِّقه وأُبايعه على الإسلام؟!

وتذكر سلمان خاتم النبوّة، وقال في نفسه: لا بدّ أن أحتال لرؤيته عن قريب، وأُعلن إسلامي.

ومضت أيام قليلة، وخرج النبي ﷺ في جنازة صاحبه «كلثوم بن الهُدْم» ومشى معها إلى بقيع الغرقد[1]، ثم جلس مع أصحابه يذكِّرهم بالآخرة، وعليه شملتان... وأقبل سلمان على رسول الله ﷺ، فجاءه من قِبَل ظهره، ثم أخذ ينظر إلى ما بدا من عنقه وكتفيه ﷺ، ويحتال لذلك وهو يريد ألّا يراه أحد، وفطن له رسول الله ﷺ، ـ وكان قد علم أن للرجل شأناً من يوم أن أتاه في قباء، لكنه تركه حتى تنجلي له الأمور ـ وتململ النبي قليلاً، فسقط الرداء عن ظهره، وظهر خاتم النبوّة، فطار سلمان فرحاً بذلك، وأكبَّ على النبي ﷺ يقبّله ويبكي ويقول: أشهد أنك رسول الله.

وعجب الصحابة من صنيع سلمان، ورقّ له النبي ﷺ رقّة شديدة، فأمسكه من يده، وحوّله إلى أمامه، فمسح بيده الشريفة على صدره وقلبه، وأقبل عليه بوجهه الكريم، وطلب منه أن يحكي له ولأصحابه قصته...

---

(١) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة وتقع قريباً من المسجد النبوي.

فهدأت نفس سلمان، وسكن وجيب قلبه بعد أن وضع النبي يده الشريفة عليه، وبرق وجهه بالسرور والحبور، ثم قال للنبي ﷺ:

إني أنتظرك يا رسول الله من أكثر من خمس وثلاثين سنة، وإني أبحث عن دينك، وقد طوَّفت البلاد، وهجرت الأهل والوطن من أجل ذلك. ثم حكى للنبي وأصحابه قصته كاملة من بدايتها وإلى ساعته هذه، فسُرّ النبي ﷺ بما سمع وأثنى على سلمان خيراً ودعا له، وعجب الصحابة أشد العجب لهذا المؤمن المهاجر، الذي آلى على نفسه أن يبحث عن الدين الحق، وحمدوا الله أن هداه لذلك، وجاء به إلى رسول الله ليسلم على يديه، ويفوز بسعادة الدنيا والآخرة.

١٧

وأخيراً انتهت الرحلة الطويلة البعيدة، ووصل سلمان الفارسي إلى مبتغاه، فها هو ذا قد لقي خاتم النبيين واتبعه على دينه، هو أصبح من أصحابه، وها هو ذا قد تعرَّف على الحنيفية التي بعث بها إبراهيم، ونجا من الأضاليل والأباطيل.

ولكن ـ واحسرتاه ـ فسلمان لا يملك لنفسه حرية، ولا يشعر لشخصه بقيمة، ولا يستطيع أن يحظى برؤية النبي ﷺ كثيراً، ولا يتمكن من العيش إلى جانبه وأخذِ العلم منه.

ومضى على سلمان مدة بعد هجرة النبي ﷺ وهو لا يزال يرسف في أغلال العبودية، وشكا للنبي ﷺ ذلك، فقال له:

«كاتب يا سلمان»[1].

وأخبر سلمان سيده عثمان بن أشهل برغبته بالمكاتبة، لكنه رفض ذلك بإصرار وقال له: أحررك لتكون مع محمد إلْباً[2] علينا، لا والله لا أفعل!!

---

(١) المكاتبة: اتفاق بين العبد وسيده على أن يدفع له العبد مبلغاً من المال مقابل تحريره.

(٢) الإلب: القوم يجتمعون على عداوة إنسان.

وحزن سلمان أشد الحزن، وأخبر النبي ﷺ بكلام سيده، فأمره بالصبر حتى يجعل الله له مخرجاً، وصبر سلمان، وشغله الرق عن شهود يومين عظيمين من أيام الإسلام: يوم بدر ويوم أُحد، فأحزنه ذلك كثيراً، وجعل يراجع سيده كثيراً بشأن المكاتبة فيأبى عليه ذلك.

. . . ونكث اليهود بعهدهم مع رسول الله ﷺ، فطرد قبيلتين من قبائلهما: بني قينقاع وبني النضير، وخاف عثمان بن أشهل ـ وكان من يهود بني قريظة ـ أن يصيب قبيلته ما أصاب أُختيها، وخاف أن يفقد بستانه فيغنمه المسلمون، بل لقد أيقن أنهم لا بدّ صائرون إلى هذه النتيجة، فهو يعلم أنهم سوف يغدرون وسوف يجازون على غدرهم، لذا قبل أخيراً من سلمان المكاتبة لأنه سوف لا يحتاج إليه إن هو فقد نخيله، بَيْد أنه طلب منه مبلغاً كبيراً.

ولجأ سلمان إلى رسول الله ﷺ يستعين به، وشكا له ما طلبه منه سيده لقاء تحريره، فقد طلب منه أن يغرس له ثلاثمائة نخلة، وأن يدفع له أربعين أوقية من ذهب، وضحك النبي ﷺ لمطلب عثمان بن أشهل، وتعجب من صنيع هذا الرجل؛ فهو يريد بيع عبده خوفاً ألاّ يحتاج إليه إن طُرد وقومه من البلاد وفقدوا بساتينهم؛ ثم هو يطّلب منه غرس هذا العدد من النخيل!!

وقال ﷺ لأصحابه:

«أعينوا أخاكم».

ونهض الصحابة في عون أخيهم الفارسي، وبذلوا له كلٌّ على حسب طاقته. .

يقول سلمان:

(فأعانوني في النخل: الرجل بثلاثين وَدِيّة[1]، والرجل بعشرين

---

(١) الودي: صغار النخل.

ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ:

«اذهب يا سلمان ففقِّر لها[١]، فإذا فرغت فائتني أكن أنا أضعها بيدي».

وذهبتُ، ففقّرتُ وأعانني أصحابي، حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرِّب إليه الوديّ، ويضعه رسول الله ﷺ بيده، حتى فرغنا، فوالذي نفسي بيده، ما مات منها ودية واحدة[٢]!

فأدّيت النخل وبقي عليَّ المال.. وأُتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن، فقال: «ما فعل الفارسي المكاتب» فدُعيت إليه، فقال:

«خذ هذه فأدِّها ممَّا عليك»، فقلت: وأين تقع هذه مما عليّ يا رسول الله؟ فقال: «خذها فإن الله سيؤدي بها عنك».

وأخذتُها فوزنتُ لهم منها ـ والذي نفس سلمان بيده ـ أربعين أوقية، فأوفيتهُم حقَّهم.

وعَتَق سلمان، فشهدتُ مع رسول الله ﷺ الخندق حرّاً، ثم لم يفتني معه مشهد).

١٨

أصبح سلمان بعد تحرره من الرقّ من أسعد الناس، ولزم رسول الله ﷺ، واجتهد في طلب العلم.. وأحبه النبي حبّاً كبيراً، وسمت مكانته عنده لما رأى فيه من الصدق والعقل والفهم العظيم، ولما تحمَّله

(١) فقر: احفر لها حفراً لتغرس فيها.

(٢) ولقد صارت شجرات النخيل هذه بعد قليل غنيمة للمسلمين ـ والحمد لله، وحرم الله منها ذلك اليهودي اللئيم الناقض للعهد.

في البحث عن الدين الحق من مشاق عظيمة، وتضحيات جسيمة، ولما ابتلي به من محن أليمة، وسُرّ هو بتلك المنزلة التي أصبحت له عند رسول الله وبذلك الحب الذي منحه إيّاه، وحمد الله على ذلك وأثنى عليه أطيب الثناء.

وذات يوم سأله أحد إخوانه قائلاً:
ابن من أنت يا سلمان!.

فأجابه على الفور:
أنا سلمان ابن الإسلام!

ورفض الرجل المؤمن الصادق كل نسب سوى نسب الإسلام، وأبى كل عزة سوى عزته، وأنَّى له أن يعتز بغيره، وقد ترك كل شيء من أجله، وتحمّل ما تحمّل بسببه!!.

... وشغل بال سلمان بشأن الرهبان من النصارى الذين صاحبهم وأفاد منهم، وذكروا له أوصاف النبي ﷺ وحثُّوه على اتباعه، وجاء النبيِّ يريد أن يسأله عنهم، لكنه قال:
يا رسول الله، ما تقول في دين النصارى؟

فأجابه عليه الصلاة والسلام:
«لا خير فيهم».

وحزن سلمان للذي سمع، وخشي أن يكون أصحابه من الرهبان ممّن ضلّ عمله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ووقع في قلبه من ذلك أمر شديد، لكنه سكت، وقال في نفسه: أسأل رسول الله ثانيةً عن الرهبان خاصة.

وأدرك النبي ﷺ ما اعتمل في قلب سلمان في شأن أصحابه الرهبان، وما أصابه من الحزن والهمّ بسببهم، فأرسل وراءه، فجاء وجلس بين يديه عليه الصلاة والسلام وإن فؤاده ليرجف خوفاً أن يكون قد ألمّ بمعصية أو قارف ذنباً، وتلا النبي ﷺ عليه قوله تعالى:

﴿لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنَّ أقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾.

ثم نظر في وجه سلمان وقال له:

«يا سلمان، أولئك الذين كنت معهم لم يكونوا نصارى، بل كانوا مسلمين».

وبرق وجه سلمان سروراً بما سمع، ونزلت السكينة على فؤاده، وقال للنبي ﷺ:

والذي بعثك بالحق، لهم أمروني باتباعك، وذكروا لي أوصافك، وحمدوك لي حمداً عظيماً!!



وبعـــد:

رحم الله المهاجر الباحث عن دين الله: سلمان الفارسي صاحب رسول الله ﷺ، فقد كانت قصة طلبه للدين القويم، وهجرته الوطن، وتنقله في البلاد، وتقلبه بين الرهبان، وأحاديثهم ووصاياهم له، ونعتهم رسول الله له بأصدق الصفات، وإخبارهم عن زمان بعثته ومكان هجرته.. كان كل ذلك عَلَماً مبيناً من أعلام النبوّة، وبرهاناً واضحاً من براهينها، وآية بليغة من آياتها!!



المـراجـع:

- **صحيح البخاري**، كتاب الفضائل.
- **سيرة ابن هشام**، (رواية البكائي عن ابن إسحاق)، ١/ ٢١٤.
- **دلائل النبوّة**، للبيهقي، (رواية يونس بن بكير عن ابن إسحاق)، ١/ ٤٤٤.
- **سير أعلام النبلاء**، للإمام الذهبي، ١/ ٣٦٣.
- **البداية والنهاية**، للإمام ابن كثير، ٢/ ٣١٠.



حكايات بالغة

يجد القارىء لسيرة الرسول ﷺ وسِيَر أصحابه رضوان الله عليهم حكايات يومية، جرت لهم في شتى شؤون الحياة، بلغت حدّ التمام في روعتها وعبرتها، وفي تأكيدها على مبادىء هذا الدين العظيمة، ومعانيه الرفيعة، وأخلاقه النبيلة، وتشريعاته السامية، وفي بيانها لفضل رسول الله وفضل أصحابه.

وهـذه الحكـايـات ينتفـع بهـا النـاس أكثـر ممـا ينتفعـون بالنصوص، وتحدث في نفوسهم أثراً أعظم بكثير مما تُحدِثه تلك؛ لأنها ترجمة عملية لها وصورة حيّة لكلماتها.. بل هي - في الحقيقة - الإسلام بعينه، عملاً يتحرك، وواقعاً يشاهد، وروعة تبهر الأسماع والعيون!..

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ

زاهِـر الأشجَـعيّ

أحب النبي ﷺ زاهر بن حَرَام الأشجعي، وسَمَت مكانته في قلبه، وصار كلما جاءه زاهر بطُرْفة[1] من طرف البادية التي كان يسكنها، يقابله عليها بطرفة أجود وأثمن من طرف المدينة، وقال عنه يوماً بين أصحابه:

«زاهر باديتنا، ونحن حاضرته»[2].

كان زاهر البدوي يتحلّى بأمور أحبّه النبي ﷺ من أجلها، فهو مؤمن قوي الإيمان عميقه، شديد التصديق لرسول الله، عظيم الحب له، يطيعه في كل ما يأمره به.. كان هذا هو رأس ماله، أما ما عدا ذلك فلا شيء، فهو فقير مملق، ذو أسمال بالية، وهو دميم الشكل جداً، لا ترتاح العين لرؤيته؛ ثم هو أعرابي فيه بعض جفوة الأعراب.

... وأتى النبيُّ ﷺ يوماً بيته، فأخبره أهله أن زاهراً قد قدم من البادية، وأنه قد أهدى إليهم؛ فخرج عليه الصلاة والسلام إلى سوق المدينة ليراه فوجده يبيع متاعاً له، فأتاه فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال زاهر: من هذا، أرسلني. لكن النبي ﷺ ظل ممسكاً به، لم يرسله، فأعاد زاهر القول ثانيةً، وثالثة: أرسلني، أرسلني، فلم يرسله، فالتفت برأسه ليرى من يمسكه، فإذا به يرى أحبّ الناس إليه: رسول الله ﷺ، هو الذي يمسكه ويداعبه، فطار فرحاً بذلك، وجعل يجتهد في إلصاق ظهره بصدر النبي ﷺ ويرغب أن يظل ممسكاً به، يضمه إلى صدره الشريف.

---

(١) الطرفة: الهدية المستحسنة.

(٢) أي هو يهبنا حاجات البادية، ونحن نهبه حاجات الحضر.

ونادى النبي عليه السّلام في أصحابه مازحاً:
«من يشتري العبد؟ من يشتري العبد؟».

وقال زاهر:
يا رسول الله، إذاً ـ والله ـ تجدني كاسداً.

لكن النبي الرحيم الكريم يجيبه مطيِّباً خاطره:
«لكنك عند الله لست بكاسد!! إنك عند الله غالٍ!!».

❁ ❁ ❁

المراجع:

ـ مسند أحمد، ٣/ ١٦١.
ـ مجمع الزوائد، ٩/ ٣٦٨.
ـ البداية والنهاية، ٦/ ٤٦.

اليَقِـينُ العَظِـيمُ

١

راعَ أهلَ باب الجابية من سكان دمشق ضحى يوم من الأيام، انبعاثُ دخان أسود كثيف من بيت من بيوتهم، ثم تبعته ألسنة من اللهب حمراء، أخذت تفور في الجو فوراناً، وأيقن الناس أنه بيت يحترق، وأن هذا الحريق مخيف يهدد جميع البيوت التي تقع في تلك الناحية من دمشق.

وهُرع الناس إلى مكان الحريق: كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، وواجه الجميع ذلك الحريق بما عندهم من جهد، فأخذوا يرشونه بدِلاء الماء، ويهيلون عليه من التراب، وأخذ بعضهم يخلي البيوت المجاورة من أثاثها لئلا يأتي عليها الحريق الزاحف. . بَيْدَ أنه كان حريقاً مرعباً عجز عنه أولئك الذين حضروا، فصاح أحدهم بأعلى صوته يستغيث بالناس، ويطلب عونهم، وأسرع كلٌّ من بلغه الصوت، وتكاثر الناس على النار، وأخذوا يقاومونها بأقصى ما عندهم من قوة وجرأة، ونجحوا بعض النجاح في إيقاف تقدمها في بعض الجهات.

لكن جهة من تلك الجهات أسرعت فيها النار وصعب على الناس إطفاؤها، وكان في تلك الجهة بيت قاضي دمشق وصاحب رسول الله أبي الدرداء (رضي الله عنه)، فصاح رجل ممّن علا بعض السطوح: أدركوا أبا الدرداء صاحب رسول الله في المسجد يقرىء الناس القرآن، وقولوا له: إن بيتك احترق.

وأسرع رجل فدخل المسجد فزعاً وصاح:

يا أبا الدرداء، أدرك بيتك، إنه احترق، لقد شبت نار حوله، وداهمته، ولقد تركت الرجال يذودون عنه النار!

وبقي أبو الدرداء على حاله لم يصبه فزع، ولا ارتجف له قلب، وقال للرجل بهدوء وسكينة: ما احترق!!

ثم أمر عدداً من إخوانه أن يسرعوا فيساعدوا الناس في إطفاء الحريق، فهبُّوا مسرعين، ومضى هو في إقراء من بقي القرآن.

٢

أعيت ألسنة اللهب الرجال، فامتدت في الجهة التي فيها بيت أبي الدرداء، وأوشكت أن تصل ذلك البيت فتلتهمه، وصاح رجل من جديد: أدركوا بيت صاحب رسول الله أبي الدرداء، وأرسلوا وراءه.

وهُرِع رجل آخر إلى المسجد، وصاح فزعاً:
يا أبا الدرداء، أدرك بيتك، إنه احترق!!

وأجابه الرجل الجليل بهدوء وثبات:
ما احترق!!

ثم أمر عدداً آخر من إخوانه أن يفزعوا فيساعدوا الناس في إطفاء النار، ومضى هو يقرىء الباقين.

وأدهش القرّاء جواب شيخهم وصنيعه، لكنهم التزموا الصمت، وهابوا أن يسألوه عن ذلك.

... ولم يمضِ الرجل الثاني حتى جاء رجل ثالث يصيح من باب المسجد:
يا أبا الدرداء، أدرك بيتك فقد احترق!!

وقال أبو الدرداء هذه المرة أيضاً:

ما احترق!!

وزادت دهشة القرّاء، وعقد هدوء شيخهم وثباته ألسنتهم، فلم يتكلموا بشيء.

وتكاثر الناس على الحريق، وأحاطوا به من كل جانب، وسدّوا عليه السُبُل بكثرة ما أراقوا عليه من الماء، وأهالوا عليه من التراب، وما وصل إلى بيت القاضي أبي الدرداء، حتى خمدت أنفاسه، وذوت ألسنته، ثم قُضي عليه تماماً وتمَّ إطفاؤه.

وأسرع رجل يبشّر أبا الدرداء بنجاة بيته، ودخل المسجد على عجل وقال: احمدِ الله يا أبا الدرداء، فقد انبعثت نار قوية مريعة، حتى إذا وصلت إلى بيتك أُطفئت.

وقال أبو الدرداء:
الحمد لله حمداً طيباً كثيراً.

قد علمتُ أن الله عزّ وجلّ لم يكن ليفعل ذاك!.



ودهش القرَّاء لكلمة أبي الدرداء هذه كما دهشوا لكلمته السابقة، وتشجع أحدهم على الكلام وقال:
والله يا أبا الدرداء ما ندري أي كلامك أعجب:
قولك: ما احترق!!
أو قولك: قد علمتُ أن الله لم يكن ليفعل ذاك!!.

ورأى أبو الدرداء أن يزيل دهشتهم فقال:
إنها كلمات سمعتها من الصادق المصدوق رسول الله ﷺ؛ وأخبر أن من قالهنَّ حين يصبح لم تصبه مصيبة حتى يمسي، ومن قالهنَّ حين يمسي لم تصبه مصيبة حتى يصبح.

وسأله أحد إخوانه:

وما هي هذه الكلمات يا أبا الدرداء؟

وأجاب الشيخ المعلِّم والرباني الموقن:

استمعوا إلى كلمات رسول الله ﷺ:

«اللهمّ أنت ربي لا إلّه إلا أنت، عليك توكلت وأنت ربّ العرش العظيم.

ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

أعلمُ أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً.

اللهمّ إني أعوذ بك من شرِّ نفسي ومن شرِّ كل دابة أنت آخذٌ بناصيتها.

إن ربي على صراط مستقيم».

وأدرك القرّاء سرَّ صنيع شيخهم، وأعظموا أمره، وزاد توقيره في قلوبهم، بل لقد علت منزلته في قلوب أهل دمشق جميعاً بعد الذي سمعوا عنه ما سمعوا.

وكان ما جرى درساً بليغاً في اليقين العظيم، لم يسمع الناس بمثله أبداً[1]!.

(١) هذه الحكاية مأخوذة عن كتاب الأسماء والصفات للبيهقي، ص ١٦٣.

لا أعطيكم وأدَع أهلَ الصُّفَّةِ

١

جلس علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد يومٍ حافل بالتعب إلى زوجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وجعل يبثّها شَكَاته مما يلقاه من استقاء الماء من الآبار لبعض أهل المدينة على أجر، وقال لها: يا فاطمة، والله لقد سَنَوت[1] حتى اشتكيت صدري، ولقد جاء الله أباك بسَبْي[2]، فاذهبي إليه، واطلبي منه أن يهبنا خادماً يعيننا على شؤون عيشنا، ويعمل لنا فننتفع بكسبه، ويستقي لنا الماء الذي نحتاج إليه.

وأثارت شكاة علي شكاةً كانت حبيسة في نفس فاطمة، فقالت هي الأخرى: وأنا ـ والله ـ لقد طحنت حتى مَجَلت يداي[3]، فيا ليته يكون لنا خادم يكفينا بعض شؤوننا.

وقال علي ثانيةً: قومي إذاً إلى أبيك فاستخدميه[4]، ولا تضيِّعي هذه الفرصة.

وخرجت السيدة من بيتها، ودخلت حجرة والدها القريبة من بيتها، وسلمت عليه، ثم همّت أن تكلمه في الأمر الذي جاءت من أجله، لكن

(١) سنوت: استقيت الماء وأخرجته من الآبار.
(٢) السبي: العبيد والإماء، الذين كانوا يستعبدون بعد أسرهم في الحروب.
(٣) مجلت يداي: أي ثخن جلدها وتعجر، وظهر فيها ما يشبه البثر، وكانت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ تطحن بالرحى اليدوية.
(٤) استخدميه: اطلبي أن يهبك عبداً أو أمة لخدمتنا.

الحياء عقد لسانها، وقرأ النبي ﷺ في وجه ابنته أنها جاءت لحاجة تريدها، فقال لها: «ما جاء بك أي بنية؟»، فأجابت: جئت لأسلِّم عليك، ولم يُرِد النبي إحراجها، فمكثت قليلاً، ثم عادت إلى زوجها الذي كان ينتظرها بفارغ الصبر.

وبادرها علي: ما فعلتِ يا فاطمة؟

وأجابت: استحييت أن أسأله.

وقال علي: ما أراك ـ والله ـ أغنيت عنّا شيئاً!!

فقالت فاطمة: ألا تقوم معي إلى والدي، فنسأله جميعاً؟

وأجاب علي: نعم.

... وقام علي وفاطمة، فاستأذنا على رسول الله ﷺ، ثم سلَّما وجلسا، وتكلم علي فقال:

يا رسول الله، لقد سَنَوت حتى اشتكيت صدري.

وتشجعت فاطمة، فتكلمت هي الأخرى وقالت:

وأنا قد طحنت حتى مَجَلت يداي، وقد جاءك الله بسَبْي وسَعَة، فأخدِمْنا.

ونظر رسول الله ﷺ إلى ابنته وصهره نظرة حنان وإشفاق، ودخله الحزن لما بهما، لكنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تذكَّر حال أصحابه وجيرانه من أهل الصُّفَّة، فذكر جوعهم، وذكر عريهم وشدة عيشهم.. ذكر تحملهم الشدائد العظيمة في ذات الله تعالى، وحبّاً برسول الله، ورغبة بهذا الدين الذي آمنوا به واعتقدوه، ورأى أن هؤلاء أحق بالعطاء من ابنته وصهره، فنظر إليهما وقال لهما: «لا والله، لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تَطْوَى[1] بطونهم

(١) تطوى: تخلو من الطعام وتجوع.

من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم[١] وأنفق عليهم أثمانهم».

وقفل علي وزوجه راجعين إلى بيتهما من غير أن يحصلا على شيء، وقبلا عذر النبي ﷺ، فقد كان أهل الصُفَّة أحق بالعطف منهما، فعيشهم صعب، ورسول الله يتألم لحالهم، وهو يؤثر ببرّه ذا الحاجة ومن مسَّه الجوع قبل غيرهم.



عاد علي وفاطمة إلى منزلهما، وأويا إلى فراشهما يريدان النوم، ودخلا تحت قطيفة لهما إذا غطَّت رؤوسهما تكشفت أقدامهما، وإذا غطَّت أقدامهما تكشفت رؤوسهما، وإنهما لفي أول نومهما، إذا برسول الله ﷺ يستأذن عليهما، فهمَّا بالنهوض من فراشهما فقال لهما: مكانكما.

وأقبل عليهما ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعتذر إليهما ويطيِّب خاطرهما، ثم قال لهما: «ألا أدلكما على ما هو خير لكما من خادم؟»، فأجابا: نعم يا رسول الله.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«تسبّحان الله دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمدانه ثلاثاً وثلاثين، وتكبِّرانه أربعاً وثلاثين، وإذا أخذتما مضجعكما من الليل[٢]، فتلك مائة».

وطابت نفس علي وفاطمة بهذه المواساة النبوية، وبهذا التوجيه الكريم، وكان ذلك درساً بليغاً لهما، وجعل علي من كلمات النبي وِرْداً دائماً له، وجد معه العون الكبير، والقدرة على تحمّل التعب الكثير.

. . . ومضى زمن ولم ينسَ عليٌّ ما جرى له مع النبي ﷺ، فجعل يحدّث أصحابه بقصته وبما قاله النبي له ولزوجه، ويقول عن الكلمات التي

---

(١) أبيعهم: أي أبيع العبيد.
(٢) أي وتذكران مثل ذلك عند نومكما.

تعلَّمها منه: والله ما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ.

وفي يوم بعيد، وبعد سنين طويلة، حدَّث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أصحابه بقصته، وقال لهم في ختام حديثه:

واللَّهِ ما تركتُ هذه الكلمات منذ علمنيهنَّ رسول الله ﷺ.

وقال له أحد أصحابه مازحاً: ولا ليلة صِفِّين؟

وأجابه أمير المؤمنين:

قاتلكم الله يا أهل العراق، ولا ليلة صِفِّين.



المـراجــع:

- البخاري، في (كتاب الفضائل).
- مسلم، في (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار).
- مسند أحمد، ١/ ١٠٦.
- الطبقات الكبرى، لابن سعد، ٨/ ٢٥.

بَطل إلى النّار

أوشك آخر حصون خيبر المنيعة أن يسقط بأيدي المسلمين، ولم يغنِ عنه قتال أصحابه المستميت دونه، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أبطالاً لا يقف أمامهم عدو، ولا يستعصي عليهم شيءٌ.

وفي مساء يوم وبعد أن حجز الليل بين الفريقين؛ ذكر الناس لرسول الله ﷺ قصة رجل منهم، فأثنوا على صنيعه خيراً وقالوا:
يا رسول الله، ما أجزأ أحدٌ منّا ما أجزأ فلان[1]، كان لا يدع شاذّةً[2]، إلا اتّبعها يضربها بسيفه!

وأصاخ النبي ﷺ سمعه للناس، حتى إذا انتهَوا من ثنائهم على الرجل ظنوا أنه سيدعو له، أو أن يقول عنه: إنه قد أوجب[3]، لكنهم فوجئوا جميعاً بالنبي ﷺ يقول:
«إنه من أهل النار!». .

وتعجب الناس من تلك الكلمة. . قال أناس: الله ورسوله أعلم. . وقال آخرون: لعلّ النبي قد أطلعه الله على نيّة هذا الرجل فعرف أنه لا يقاتل ابتغاء وجه الله، وصعب على أناس إدراك ما سمعوا فقالوا: أيُّنا من أهل الجنة؛ إن كان هذا من أهل النار؟!

---

(١) أي لم يصنع أحد صنيعه ولم يكفِ كفايته.
(٢) الشاذ والشاذة: الخارج عن الجماعة. والمعنى: أنه كان شجاعاً لا يلقاه أحد إلا قتله.
(٣) قد أوجب: استحق الشهادة.

وفي اليوم التالي اشتد القتال وحمي الوطيس[١]، فأبلى الرجل بلاءً عظيماً، حتى جرح جراحات بليغة، فسقط على الأرض، وسكنت حركته وخمدت أنفاسه، وظن الناس أنه قد قتل.. وعجب بعض الناس لحاله من جديد، وكادوا يرتابون، فقد كانوا يرقبون صنيعه ويريدون أن يعرفوا ما سيؤول إليه حاله.

وفي المساء وبعد توقف القتال جاء رجل إلى النبي ﷺ يقول له:

يا رسول الله، إن الرجل الذي أُخبرت عنه أنه من أهل النار قد قاتل اليوم قتالاً شديداً، وقد مات!

وقال النبي ﷺ: «إلى النار».

ودهش الناس أكثر من ذي قبل، وقالوا: الله ورسوله أعلم!

... ولم يمضِ غيرُ قليل حتى جاء رجلٌ آخر يركض إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الرجل الذي أخبرت أنه من أهل النار لم يمت، ولكنْ أصابته جراحات شديدة، فلما كان من الليل لم يصبر على نفسه، فأهوى بيده إلى كِنانته[٢]، فاستخرج منها أسهماً فنحر بها نفسه، وقد صدّق الله حديثك يا رسول الله.

وعندها قال النبي ﷺ: «الله أكبر، أشهد أني عبدُ الله ورسوله! إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار! وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو الناس وهو من أهل الجنة!.

قُمْ يا بلالُ فنادِ في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر!».

---

(١) حمي الوطيس: اشتدت المعركة وحمي لظاها.
(٢) الكنانة: جعبة صغيرة من جلد يوضع فيها النبل.

.. وقام بلال فنادى بتلك الكلمات حتى سمعها الناس جميعاً..
ويومها لم يبقَ أحد من الناس إلا قال:
أشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وأشهد أنّ محمداً رسولُ الله.



المـراجـــع:

- صحيح البخاري، كتاب الجهاد وكتاب الأنبياء.
- صحيح مسلم، كتاب الإيمان.



إنَّه أخي دُونَك

أبلى أبو عزيز بن عُمير بلاءً كبيراً في قتال المسلمين يوم بدر، فقد كان فتىً شجاعاً، وكان لواء المشركين قد صار إليه بعد النضر بن الحارث، ثم إنه لم تغبْ عن ذهنه وصية أمه؛ فقد أوصته حين ودَّعته قائلة:

يا أبا عزيز، إنْ أنت لقيت محمداً وأصحابه، فاعملَنْ فيهم سيفك حتى يرتوي من دمائهم، واعمد إلى هذا الصابىء المخدوع: مصعب[١]؛ فأْسره، وائتني به مقيّد اليدين لأروي غليلي منه.

... لكنّ بلاء أبي عزيز وغيره من شجعان قريش وكُماتها[٢] لم ينفعهم، فقد زُلزل القوم أمام بطولة أولئك الشجعان الأبرار الذين يقودهم رسول الله ﷺ، واستولى عليهم رعب شديد لم يشعروا بمثله في حياتهم.. فما هي إلا ساعات حتى انكشف عسكر المشركين عن هزيمة منكرة، بعد أن قتل سبعون من شجعانهم، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون.

... ووقع أبو عزيز في الأسر، وساقه «أبو اليَسَر»[٣] صاحب رسول الله ﷺ مقيّد اليدين إلى صفوف المسلمين، وأطرق الأسير رأسه في الأرض خجلاً مما جرى، فهو لا يريد أن يرى أحداً، ولا أن يراه أحد!.

وأمر النبي ﷺ بدفن الشهداء من أصحابه، وأمر بدفن قتلى المشركين

(١) هو مصعب بن عمير، صاحب رسول الله ﷺ، وشهيد يوم أُحد.
(٢) الكماة: جمع كمي: وهو الشجاع المقدام الجريء.
(٣) أبو اليسر: هو كعب بن عمرو الأنصاري السلمي ـ رضي الله عنه.

أيضاً، ثم فرّق أسرى قريش السبعين على أصحابه وقال لهم: «استوصوا بالأسارى خيراً».

ثم انطلق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عائداً إلى المدينة بعد أن أكرمه الله بهذا النصر المبين.

❁ ❁ ❁

وفي الطريق إلى المدينة لقي أبو عزيز من حسن معاملة صاحبه أبي اليَسَر وغيره من المسلمين ما شجعه على أن يرفع رأسه، وينظر إليهم، ويكلمهم ويكلمونه.

يقول أبو عزيز:

(فكانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز وأكلوا التمر، لوصية رسول الله إياهم بنا.. ما تقع في يد أحدهم كِسْرة خبز إلا نَفَحني بها[1]، فأستحي فأردّها فيردّها عليّ ما يمسها!).

وبينما القوم في مسيرهم إذا بأبي عزيز يلمح أخاه مصعباً، فصار يتشوّف إليه[2]، لعلّ مصعباً يقبل عليه فيرى منه أبو عزيز خيراً.. ورأى مصعبٌ أخاه فأقبل عليه بوجه عابس، حتى إذا وصل إليه لم ينظر في وجهه، وإنما أقبل على أبي اليَسَر فقال له:

شُدَّ يديك به.

فإن أمّه ذات مُتاع، لعلّها تفديه منك!!

ودهش أبو عزيز من كلمة أخيه مصعب، وهو الذي كان يرجو أن يجد عنده ما يسرّه، واتجه إليه قائلاً:

يا أخي، هذه وصاتك بي؟!

---

(١) نفحني بها: رماها إليّ.
(٢) يتشوف إليه: يتطلع إليه.

وحين سمع مصعب من أخيه ما سمع، نظر إليه بوجه مغضب، وصاح فيه وهو يشير إلى أبي اليَسَر:

«إنه أخي دونك»!

وسكت أبو عزيز، ولم يستطع أن يردّ على أخيه شيئاً!

وأمسك التاريخ بقلمه، فسجل بأحرف من نور:

رحم الله مصعب بن عمير، فقد عاش عمره ينشد نصرة دينه، وكان ولاؤه للإسلام وحده[(١)]!.



(١) ذكر حكاية مصعب هذه ابن هشام في سيرته ١/٦٤٥، ومما يجدر ذكره أن أبا عزيز أخاه أسلم فيما بعد وصار من أصحاب النبي ﷺ.



الحُوتُ العَجيبُ

١

انتهت غزوة الأحزاب، وغادرت قريش وحلفاؤها المدينة المنورة وهي تمضغ المرارة، ويغشاها الخزي والعار، وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً.. وأدرك النبي ﷺ ببصيرته النافذة أن قريشاً لم يعد بمقدورها أن تسوق جيشاً من جديد فتحاول غزو المدينة، فقال لأصحابه يطمئنهم ويبشرهم:

«الآن نغزوهم ولا يغزونا».

ورأى عليه الصلاة والسلام أن يجدِّد بعث السرايا[1]، ليكيد لقريش ويضعفها، وليؤدِّب القبائل التي كانت تعاديه وتنال من أصحابه.. وأصدر عليه الصلاة والسلام أمره لأصحابه بالتهيؤ للخروج، لتلقِّي عيرٍ لقريش على الساحل في حي من أحياء جُهَينة، ولتأديب هذا الحي الذي كان عدواً للمسلمين.

وتجمع في هذه السرية ثلاثمائة رجل، فأمَّر عليهم النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح[2]، ثم أوصاهم بتقوى الله، وأوصى أميرهم بأصحابه خيراً، ثم زوّدهم بجِراب[3] من تمر لم يجدْ لهم ما يزودهم به غيره!

---

(١) السرايا: جمع سرية: وهم الجماعة من الصحابة كانوا يخرجون للجهاد وليس معهم الرسول ﷺ.

(٢) أبو عبيدة: هو الصحابي القائد، أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، واسمه على الصحيح: عامر بن عبد الله بن الجراح، ونسب إلى جده.

(٣) الجراب: وعاء من جلد.

وخرج الغزاة من المدينة المنورة يمشون على أرجلهم، إذ لم يكن معهم سوى القليل من الإبل، وحمل كل واحد منهم زاده على عنقه، ثم أَغَذّوا[١] السير، يقصدون الجهة التي أمرهم بها النبي ﷺ، ويخفون على الناس قصدهم ما استطاعوا.



مضت بضعة أيام وأصحاب رسول الله ﷺ يواصلون سيرهم، وفي خلال تلك الأيام كان أميرهم يعطي كل واحد منهم في كل يوم قبضة تمر من الجراب الّذي زوّدهم به النبي... ونفد ذلك الجراب، ونفد زاد الكثيرين من الصحابة، فأحسّوا بوطأة الجوع، وشكَوا ذلك إلى الأمير، فطلب أبو عبيدة من أصحابه أن يؤتوه بما بقي عندهم من الزاد، ولبّى الناس الأمر، فتجمّع عند الأمير كمية من التمر ملأت مِزْوَدَين[٢]، فصار يعطي منهما سائر أصحابه، فيقبض لكل واحد قبضة كل يوم، وسُرّ الجميع بهذا التصرّف الحكيم، وطابت أنفسهم، وسعدوا بهذا التعاون والمواساة والرحمة!.

.. وأحسّ أبو عبيدة بأن التمر أوشك أن ينفد، فأخذ يقلّل لهم العطاء يوماً بعد يوم، ثم جاء يوم وإذا نصيب كل واحد منهم فيه تمرة واحدة، وبعد أن أعطى الأمير كل واحد تمرته أوصاهم جميعاً قائلاً:

يا قوم، لا يمضغنَّ أحدٌ منكم تمرته، وليمَصَّها مصّاً، وليشرب عليها من الماء، فإنها ستكفيه عامّة يومه إن شاء الله.

.. ومضت أيام وزاد كل واحد من رجال السرية تمرة واحدة يمصّها كما يمصّ الصبي، ثم يشرب عليها من الماء.. وجاء يوم فَقَد فيه الغزاة هذا الزاد القليل، فلم يبق معهم شيء من التمر ـ واحسرتاه ـ وها هم أولاء على

---

(١) أغذوا السير: أسرعوا.
(٢) المزود: وعاء كالجراب.

الساحل قد وصلوا المكان الذي أُرسلوا إليه، يرصدون عير قريش، ويتهيؤون للإغارة على الحي من جهينة.

وتحسَّر الناس على تمراتهم التي كانت تقوتهم وقالوا: ليته بقي لنا نصيبنا من تلك التمرة الواحدة التي كنا نقتات بها عامّة يومنا! وصاح واحد منهم: يا قوم، لا تعجزوا فيجهدنكم الجوع، وهذا الخَبَط[1] أمامكم، فاجعلوه طعامكم حتى يجعل الله لكم من بعد عسرٍ يسراً.

وأقبل الناس على شجر الخبط يضربونه بعصيِّهم، فتسَّاقط أوراقه، فيأخذونها ويبلونها بالماء ثم يأكلونها، ومنهم من كان يضع تلك الأوراق تحت الشمس حتى إذا يبست فتتها ثم سفَّها وشرب عليها من الماء.

.. مضت أيام على الصحابة وهم يأكلون هذا الطعام القاسي، وتقرحت أشداقهم لكنهم صبروا على ذلك، لم يعبأوا بالجوع، ولم يعبأوا بغلظ الطعام، كانوا يخشون أمراً واحداً: هو أن لا يستطيعوا منازلة العدو إن هم التقوا به، وعبّر أحدهم عن هذا الأمر حين خاطب إخوانه فقال:

لو لقينَا عدوٌّ ما كان منّا حركة إليه، لما بالناس من جَهْد!

ورأى قيس بن سعد ما بإخوانه من المشقة، فحزن لذلك أشد الحزن، فانطلق إلى رجال من جهينة كانوا سِلْماً للمسلمين، فقال لهم: من يشتري مني تمراً أوفِّيه له في المدينة بجُزُرٍ يوفِّيها إليّ ههنا؟

وقال له رجل من أهل الساحل: أنا أفعل، ولكن ما أعرفك، فمن أنت؟

فقال: أنا قيس بن سعد بن عبادة[2].

فقال الرجل: ما أعرفني بسعدٍ، إن بيني وبينه خُلَّة، سيدُ أهل يثرب!

.. واشترى قيس عدداً من الجزر، وساقها إلى إخوانه، ففرحوا بها

---

(1) الخبط: ورقُ نوعٍ من الشجر كانت تأكله الإبل.

(2) سعد بن عبادة هو سيد الخزرج من الأنصار رضي الله عنه، وكان شهماً كريماً.

أشد الفرح.. ونحر لهم قيس ثلاثة جزر، فطعموا وسكن جوعهم، وداخلهم السرور، ثم نحر لهم في اليوم الثاني ثلاثاً، وكذا في اليوم الثالث، وأراد ذلك في اليوم الرابع.. لكن أبا عبيدة جاءه وقال له:

عزمتُ عليك ألّا تنحر، أتريد أن تخفر ذمتك[١]؟!

وقال قيس: أترى أبا ثابت[٢] يقضي ديون الناس، ويطعم في المجاعة، ولا يقضي ديناً استدنته لقوم مجاهدين في سبيل الله؟!

وقال أبو عبيدة ثانيةً: عزمتُ عليك ألاَّ تفعل!

وأجاب قيس: قد أبررتُ عَزْمة أميري، ثم كفّ عن الذبح.

٣

عاد المسلمون إلى ورق الخبط يأكلونه، وكان ذلك آلَمَ لنفوسهم بعدما طعموا اللحم ثلاثاً، وتقرَّحت أشداقهم من جديد، وخشوا أن تمر بهم عِير قريش فتفلت منهم، لما بهم من السَّغَب[٣]، أو أن يفاجئهم عدوٌّ فلا يثبتون له.. وحزن أميرهم أبو عبيدة أشد الحزن لما أصاب أصحابه من الجهد، وأشفق عليهم شفقة عظيمة، وجعل يدعو الله أن يمنحهم الرزق ويجعل لهم من هذا الضيق فرجاً.

.. وأفاق المسلمون فجر يوم من الأيام، فصلّوا صفوفاً خلف أميرهم، ثم جلسوا يذكرون الله تعالى، حتى إذا طلعت الشمس نظر أحدهم قِبَل الساحل، فإذا به يرى شيئاً عظيماً كأنه كثيب رمل[٤]، فصاح في إخوانه: ألا ترَون يا قوم ما أرى؟!.

---

(١) لم يكن لقيس مال، وخشي أبو عبيدة أن لا يوفي له أبوه بما التزم به لصاحب الإبل، لذا عزم عليه أن لا ينحر، وآثر جوع أصحابه على أن تخفر ذمة قيس!.

(٢) أبو ثابت: هو أبوه «سعد».

(٣) السغب: الجوع.

(٤) كثيب رمل: التل من الرمل.

ونظروا جميعاً قِبَل الساحل، فدهشوا لهذا الشيء العظيم الذي قام عليه؛ حتى كأنه جبل صغير نبت فيه فجأة، وهُرعوا إليه جميعاً، وصاح مَنْ سبق:

يا قوم، إنه حوت العنبر، قد رفعه البحر إليكم!

ودهش الجميع لعظمة هذا الحوت الذي لم يَرَوا له مثيلاً من قبل، وصعدوا جميعاً على ظهره، فمشوا ها هنا وها هنا، وجعلوا ينظرون في أطرافه، ويعجبون أشد العجب لهذا الخلق العظيم من خلق الله!

وقال أحدهم مستبشراً:

قد ـ والله ـ ساق الله لكم الرزق الوفير والطعام الجزيل يا أصحاب رسول الله!

لكن عدداً منهم ردّ عليه قائلاً:

كيف نأكله وهو ميت؟!

.. تحرَّج الناس من الأكل من الحوت، وتحرَّج أميرهم من الإذن لهم، وقال لهم: إنه ميت.. وشغل بال أبي عبيدة أكثر من قبل بشأن إخوانه، وفكر الرجل في أمر الحوت، فبدا له أمر آخر، فقد رأى أن أصحابه مضطرون للأكل فالجوع أوشك أن يهلكهم، وأن الله لم يجعل عليهم في الدين من حرج، وأيقن الرجل أنه لا بأس عليه وعلى إخوانه أن يأكلوا من هذا الحوت، فأقبل عليهم والرضا والسرور باديان على وجهه وقال لهم:

أيها الناس، نحن رسُلُ رسولِ الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطُررتم فكلوا.

وزال الحرج من نفوس الناس بعد الذي سمعوه من أميرهم، فأقبلوا على الحوت، فجعلوا يقتطعون منه قطع اللحم العظيمة، فيتخذونها طعاماً لهم، ويغترفون من وقب عينه[1] الدهن.. وما هي إلا أيام حتى ثابَتْ

---

(١) وقب عينه: أي نقرة عينه.

إليهم أجسامهم، وقويت أبدانهم، وسمنوا، وتمنَّوا لقاء العدو!

ومضى على الغزاة شهر كامل وهم يأكلون من هذا الحوت العظيم، ونظروا إليه فإذا به وكأنه لم ينقص منه شيء، فلم ينقضِ عجبهم من هذا الأمر، وحمدوا الله كثيراً على ما أكرمهم به من هذا الرزق الوفير بعد الذي رأوه من الجوع والمشقة.

وفي يوم من الأيام جاء عددٌ من الصحابة بضِلَع من أضلاع الحوت إلى أميرهم، وتجمعوا كلهم ينظرون إليه ويعجبون من علوِّه، ونادى أبو عبيدة قيس بن سعد ـ وكان أطول القوم ـ فجاءه قيس، وأمر أبو عبيدة رجلاً من أصحابه بأن يضع رَحْلاً على أعظم بعير معهم ففعل، ثم قال: اعلُه يا قيس، ثم اعبر من تحت هذا الضِلَع، وفعل قيس، ومرّ من تحت الضلع فلم يلامس رأسه أعلى الضلع فضحكوا جميعاً!

وفي يوم آخر دعا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً من أصحابه فأقعدهم في وقب عين الحوت، فاتسع لهم المكان، بل وفَضَل عنهم.

وضحكوا جميعاً ثانيةً ملء أفواههم، وعجبوا أشدّ العجب لحالهم كيف تبدل ولشأنهم كيف تحوّل، فقد عاشوا أياماً وقوت أحدهم في اليوم التمرة الواحدة، ثم اضطروا لأكل ورق الخبط، ثم ها هم وقد أكرمهم الله بحوت لو أقاموا عليه سنة يأكلون من لحمه الشهي لفَضَل منه الشيء الكثير.

***

وأخيراً وبعد مضي ما يزيد على شهر رأى أمير القوم أن لا داعي للبقاء في الساحل، فهم لم يجدوا أثراً لقافلة قريش، وها هو ذا الحي من جهينة قد هرب منهم.. وأصدر أبو عبيدة أمره إلى إخوانه بالتأهب للرجوع، فتأهبوا لذلك، وتزودوا بوشائق[1] من لحم الحوت لتكون زاداً لهم في رجوعهم.

---

(١) الوشائق: هو اللحم يغلي ولا ينضج، ويحمل في الأسفار.

.. عاد المجاهدون إلى المدينة المنورة وأتَوا رسول الله ﷺ يسلِّمون عليه، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم بعد تلك الغيبة عنه، وحكَوا له قصة جوعهم، ثم قصة شبعهم، ووصفوا له حوت العنبر العجيب الذي أكرمهم الله به.. ونظر إليهم رسول الله ﷺ والسرور يبرق في وجهه ثم قال لهم:

«هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟!».

وفرح سائر الصحابة بما قاله رسول الله، وطابت أنفسهم، فقد أيقنوا أنّ ما أكلوه كان حلالاً طيباً.

ثم طابت أنفسهم من جديد وهم يرون رسول الله يأكل ممّا جاؤوه به من الوشائق، ويحمد الله على ما أكرم به أصحابه من هذا الحوت العجيب!!.



المـراجــع:

- صحيح البخاري، كتاب المغازي.
- صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح.
- البداية والنهاية، ٤/ ٢٧.



محمد علي دولة

٣

حُبٌّ عجيبٌ وطاعةٌ نادرة

لم تشهد الدنيا إنساناً أحبه أصحابه كما شهدت في محمد رسول الله ﷺ!! فلقد أحبه أصحابه حباً يعجز عنه الوصف، ولقد آثروه على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم وأزواجهم وعشيرتهم وعلى كل متاع الدنيا، حتى لقد قال أبو سفيان قبل أن يسلم:

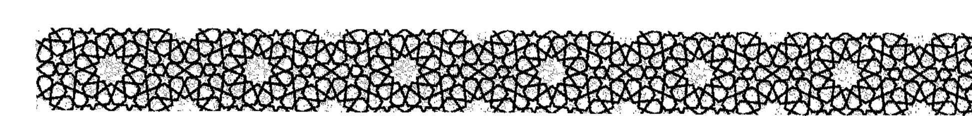
(وما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً!!).

وقال عروة بن مسعود الثقفي أيضاً قبل أن يسلم:

(والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً!!).

ولم تكن تلك المحبة كلاماً يؤثر، بل كانت طاعة واتباعاً، وجهاداً ونصرة، وكانت شوقاً لاهباً في الصدور، وحنيناً لاعجاً في الأعماق. ولقد كانت حياة جميع الصحابة ترجمة لهذا الحب العظيم، صاغوه بهذه اللغة المعبرة، التي تدهش وتعجب وتطرب!!.





محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

حُبٌّ عجيبٌ

١

كان طلحة بن البَرَاء غلاماً أنصارياً له من العمر ثلاث عشرة سنة، يعيش مع أمه وأبيه وقبيلته في قُباء بجوار المدينة المنورة، وكان أسعد يوم مرَّ عليه في عمره القصير ذلك اليوم الذي رأى فيه رسول الله ﷺ، حين نزل في بني عمرو بن عوف بقُباء أثناء هجرته إلى المدينة.

في ذلك اليوم أحسَّ طلحة أن حب هذا النبي قد ملأ عليه قلبه، وشعر برغبة شديدة في متابعته على دينه، ومناصرته في دعوته، والانضمام إلى جماعته، فدعا أبويه لذلك فلم يستجيبا له، وطلبا منه التريُّث حتى تنجليَ الأمور.

لكن طلحة لم يطق الانتظار، وأخذ يعتمل في قلبه صراع عنيف بين أمرين: أيطيع والديه اللذين يحبهما كثيراً، أم يرفض طاعتهما ويذهب إلى النبي ﷺ فيؤثر طاعته، ويدخل في دينه؟

ولم يطل عليه أمر هذا الصراع، فقد عزم على أن يعتنق هذا الدين الجديد، وذهب إلى النبي ﷺ، فسلَّم عليه، وقال له: ابسط يدك أُبايعك، فسأله النبي عن أبويه، فأخبره أنهما لا يزالان مشركين، فقال النبي ﷺ: «وإن أمرتك بقطيعة والديك؟» وغلب طلحةَ حبُّه لوالديه فقال: لا. ثم انصرف، وتركه النبي لما يعلم من استشعاره الإسلام ودخول الإيمان قلبه.

وعزَّ على طلحة ألا يكون بايع النبي بعد أن بايعه معظم أهل المدينة،

فعاد إليه في اليوم التالي وقال له: ابسط يدك أبايعك، فقال النبي: «علامَ؟» فقال طلحة: على الإسلام، فقال النبي: «وإن أمرتك بقطيعة والديك؟» وللمرة الثانية غلبت طلحةَ عاطفتُه تجاه أبويه، فقال: لا، ثم انصرف.

وبعد أيام عاد طلحة إلى النبي ﷺ وقد عزم على أن يبايعه هذه المرة على الصورة التي يريدها، ودخل المسجد وسلَّم على النبي ثم قال له: ابسط يدك أبايعك، ومدَّ النبي يده الشريفة إلى طلحة، فبايعه على الإسلام، ثم قال له مبيناً سرَّ صنيعه معه في المرتين السابقتين:

«يا طلحة، إنه ليس في ديننا قطيعة رحم، ولكن أحببتُ أن لا يكون في دينك ريبة».

وسرّ طلحة سروراً بالغاً بمبايعته للنبي عليه الصلاة والسلام، وصار يتردد عليه كل يوم، وأحبه حباً عظيماً، وتمكن الإيمان من قلبه تمكناً عجيباً.

٢

مضى على طلحة زمان وإيمانه يزداد كل يوم، وكَلَفُه[١] برسول الله ﷺ ينمو ويتعمق، حتى صار أحب إليه من أمه وأبيه، ومن الناس أجمعين، وأسف ألَّا يكون بايعه يوم بايعه على الطاعة التامة، وأتى يوماً إلى النبي ﷺ، فسلَّم عليه ثم أكبّ عليه يلصق بدنه ببدنه ويقبِّل يديه ورجليه ويقول:

يا رسول الله، مُرْني بما أحببت، ولا أعصي لك أمراً.

وعجب النبي ﷺ لهذا الغلام الصغير، وأحب أن يختبره، فقال له: «اذهب فاقتل أباك!».

ولم يراجعه طلحة، فقد أصبح غيره بالأمس، وخرج سريعاً يريد

(١) الكَلَفُ: شدة الحب.

تنفيذ أمر النبي ﷺ، وسرَّ النبي بصدق إيمانه، وعظيم طاعته، وأمر أحد أصحابه أن يردَّه، فخرج وراءه سريعاً، وقال له: أجبْ رسول الله، فرجع طلحة للحال، ومَثَل بين يدي النبي ﷺ، فتبسَّم له، وأمسكه من وسط ذراعيه، وهزه برفق وحنان وقال له: «يا طلحة، ألم أخبرك أني لم أبعث بقطيعة رحم!!».

وأسلم والدا طلحة فيما بعد، وسعد بإسلامهما كثيراً، وصار يتردد على النبي صباح مساء، ويتحمل مشقة المجيء من قباء والذهاب إليها بسرور بالغ، وراحة تامة.

٣

مضت أشهرٌ على إسلام طلحة وصحبته للنبي عليه الصلاة والسلام، ثم أَنه مرض مرضاً شديداً، وألحّ عليه الوجع فألزمه الفراش، وحرمه من الذهاب إلى النبي ﷺ، وفُقد من مجلسه، فسأل عنه، فأُخبر أنه مريض وأن المرض قد ثَقُل عليه.

وأتاه النبي ﷺ يعوده في جماعة من أصحابه، وتحمل مشقة المسير إلى قُباء في يوم كان فيه برد وغَيْم، ودخل عليه، ولم يشعر به طلحة لِما كان به من الآلام التي أذهبت وعيه، ورقَّ له النبي ﷺ رقَّة شديدة، فقد لمح أمارات الموت في وجهه، ثم قام من عنده بعدما دعا له، وقال لأهله:

«لا أرى طلحة إلاّ قد حَدَث فيه الموت، فآذنوني به[1]، حتى أشَهِّده وأصلي عليه، وعجّلوه».

ومضى النبي ﷺ راجعاً إلى المدينة وقد جنَّه الليل.

وأفاق طلحة من إغمائه في جوف الليل، فقال لأهله: ما عادني النبي ﷺ؟! فقالوا: بلى، وقد أقبل عليك ودعا لك، وقال لنا:

أخبروني بما يحدث لطلحة.

---

(١) آذنوني به: أعلموني بوفاته.

وفرح طلحة بهذا النبأ، وقال لأبويه: ما أُراني إلاّ ميّتاً، فإذا أنا متُّ فادفنوني وألحقوني بربي عزّ وجلّ، ولا تَدْعُوا رسول الله ﷺ في هذه الساعة، فتلسعه دابة، أو يصيبه شيء، وإني أخاف عليه اليهود أن يصاب بسببي، ولكن إذا فُقدت، فأقرِئوه مني السلام، وقولوا له: فليستغفر لي.

ولم تمض عليه ساعة حتى قضى رحمه الله.. وبكاه أهله، ثم قاموا فحفروا له قبراً ثم وارَوه فيه، ولم يعلِموا النبي ﷺ، عملاً بما وصَّاهم به ابنهم، وإشفاقاً منهم على رسول الله.

وبعد صلاة الفجر من تلك الليلة، أقبل أحد أقارب طلحة على النبي ﷺ فأخبره بموته، فترحَّم عليه، ودعا له، ثم ذهب هو وجماعة من أصحابه، حتى وقف على قبره، فصفَّ الناس خلفه، ثم صلَّى عليه، ودعا له، وقال في جملة ما قال:

«اللهمّ الْقَ طلحة تضحك إليه، ويضحك إليك».



رحم الله الغلام الصغير طلحة، فقد أحبَّ رسول الله ﷺ حباً عجيباً، ومات على تلك المحبة. رحمه الله، وجمع بيننا وبينه في دار كرامته.



المـراجـــع:

ـ الإصابة، (ترجمة طلحة بن البراء).
ـ مجمع الزوائد، للهيثمي، ٩/ ٣٦٥.
ـ كنز العمال، ٧/ ٥٠.

طَاعَـةٌ نَـادِرَة

١

خرج التاجر اليهودي «ابن سُنَيْنَة» من بيته عشية يوم من الأيام، ومشى إلى ديار بني الحارث من الأوس ليَسْمُر[1] عندهم على عادته، وطرق باب صديقه «حُوَيِّصة بن مسعود» ثم دخل وجلس في صدر المجلس، وتحلَّق حوله أهل البيت: حويصة، وزوجه، وأولاده، وأخذ يحدثهم وهم يصيخون السمع إليه[2].

وبعد قليل دخل بيت حُوَيِّصة أخوه الصغير «مُحَيِّصة» فرأى أخاه وأهله قد تحلَّقوا حول اليهودي ابن سُنَينة، فامتعض لذلك، وظهر الاستياء على وجهه، لكن أخاه أمره بالجلوس، فجلس على مضض.

ومضى التاجر اليهودي في كلامه، فحدثهم عن تجارته، وشَكَا لهم ركودها، وعبَّر عن تخوفه مما سيصيب يثرب عموماً من فقر وبوار تجارة، نتيجة للحرب التي بدأت تشغل نفسها بها، ثم وجّه الكلام إلى حويصة وقال:

والله يا أبا سعيد، لئن لم تخرجوا محمداً من بين أظهركم، لسوف ترميكم العرب عن قوس واحدة، وسوف تأتي عليكم وعلى تجارتكم فتهلككم!!

كان حويصة يستمع لحديث التاجر اليهودي باهتمام، ويصدِّقه في كل

---

(١) السمر: الحديث بالليل.
(٢) أصاخ السمع: ألقاه وأنصت لما يسمع.

ما يقوله، فقد كان لا يزال على شركه، أما أخوه محيِّصة ـ وكان قد أسلم ـ فقد ضاق ذرعاً بحديث هذا اليهودي، وكتم بادىء الأمر غيظه، ولكنه لما قال كلمته التي يحض فيها على إخراج الرسول ﷺ، غضب غضباً شديداً، وصاح في اليهودي:

يا أبا شَمْويل، فقد كنتُ نهيتك مراراً عن التعرض لمحمد رسول الله، وأراك لستَ بمنتهٍ حتى يصيبك مني شرّ، وأقسم بالله، لئن لم تنته لأنفحنَّ[1] رأسك بسيفي!!

وغضب حُوِّيصة لمقالة أخيه، وشتمه، وقال له:

اسكت أيها الوغد، أتقول هذا لأبي شمويل؟!

وضحك اليهودي ضحكة عريضة، وقال لمضيفه: لا عليك يا أبا سعيد، ثم وجّه الكلام إلى أخيه وقال: يا ابن أخي، إنك شاب مغرور، غرّك محمد بكلامه وزُخرفه، وسوف ترى صدق ما أقول في مستقبل الأيام.

وردَّ الشاب المسلم «محيِّصة»:

بل أنت ـ والله ـ المغرور، غرَّتك نفسك وأمانيك، وسوف ترى أن الله سيخزيك.

ثم نهض مغضباً وغادر المجلس.



أدَّى المسلمون صلاة العصر خلف النبي ﷺ في المسجد النبوي، وقام بعد الصلاة أحد الأنصار فقال: يا رسول الله، لقد استفحل أمر كعب بن الأشرف، ولقد آذانا كثيراً، إنه لم يكتف برثاء قتلى المشركين يوم بدر، والذهاب إلى مكة وتحريض أهلها علينا، بل زاد على ذلك فهو

(١) لأنفحن: لأضربن.

يهجونا بشعره ويشبِّب[١] بنسائنا!!

وتكلم رجال آخرون في شأنه، وسمع النبي ﷺ كلامهم، ورأى أن يريح المسلمين من هذا العدو الفاجر، فقال:

«من لي بابن الأشرف، فقد آذى الله ورسوله؟!».

وفهم الصحابة أن النبي يريد التخلص من هذا الطاغية. وسعى إليه رجال في جُنْح الليل، واحتالوا عليه فأخرجوه من حصنه، ثم قتلوه. وفرح المسلمون لمقتله، وذعر اليهود.

ورغب النبي ﷺ بتقليم أظفار أولئك الأعداء فقال لأصحابه:

«من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه».

وسمع هذه الكلمة محيِّصة بن مسعود، ففرح بها، وقال في نفسه: والله لأفعلنَّ بابن سُنَينة إن عاد للنيل من النبي ﷺ ما فعل إخواني في كعب بن الأشرف. وصار يرصد غدواته وروحاته، ويأتي ليلاً فيجلس قرب بيت أخيه يسترق السمع، فعلم أن ابن سنينة لا يزال على دأبه في الطعن بالنبي عليه الصلاة والسلام، لم يُخِفْه التهديد، ولم يرعبه مقتل كعب بن الأشرف، لذا عزم على قتله، إعزازاً لدينه، ونصرة لنبيه.

وبينا ابن سنينة قادم في ليلة مظلمة إلى بيت صديقه حُوَيِّصة بن مسعود، إذا بمحيِّصة يفاجئه، ويقول له: ألم أنهك عن النيل من رسول الله يا عدو الله، لكنك لم تنته، ثم ضربه بسيفه ضربة بترت رأسه وقال له: اذهب إلى أمك الهاوية[٢].



ذعر اليهود من جديد لمقتل تاجرهم الكبير ابن سنينة، وجزعوا عليه،

---

(١) التشبيب: نوع من الغزل.
(٢) الهاوية: النار.

وزادهم جزعاً أنه قتل أمام بيت صديقه وصاحبه «حوِّيصة بن مسعود»، وأن قاتله هو أخوه الصغير محيِّصة، وجاؤوا إلى حويصة يعتبون عليه ويقولون:

ماذا فعلتم بتاجرنا، نسيتم صنائعه لكم، هلاّ ذكرتم فضله عليكم؟!!

وأبدى حويصة حزنه، وقال لهم: قاتل الله أخي ما أغدره وما ألأمه، ولكن هذا الأمر لم يستقلَّ به[1] وحده، إنه أمر دُبِّر بليل، ودفع هو له!!

وجاء حويصة إلى أخيه، فشتمه وقرّعه، وجعل يطعنه بعود معه في بطنه ويقول: أيْ عدو الله، أقتلتَه، أما لَرُبَّ شحم في بطنك من ماله، إنك لئيم يا محيصة!!.

وأكثر الأخ الكبير على أخيه الصغير، وألح عليه في الشتم والضرب، فما كان من الأخ الصغير إلاّ أن قال له بصوت عالٍ:

تَعَلَّم[2] يا حوِّيصة: «والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربتُ عنقك!!».

وأذهلت هذه الكلمة الرجل، فحملق في أخيه وقال له: تقتلني أنا إن أمرك محمد بقتلي؟!

فأجاب الصغير:

نعم، أقتلك طاعة لرسول الله.

ثم انصرف وترك أخاه.

أما حوِّيصة فقد عاد إلى بيته وقد ركبه همٌّ كالجبال، ولم تغمض له عين تلك الليلة إلاّ قليلاً، فجعل يغفو لِماماً[3] ثم يستيقظ ويفكر في كلمة أخيه:

«لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لقتلتك».

---

(١) لم يستقل به: لم ينفرد به.
(٢) تعلم: اعلم.
(٣) لماماً: فترات قصيرة.

وصار يقول:

ماذا أصاب أخي، ما هذا الأمر الذي دخله، ما هذا الدين الذي اتبعه!!

وفي الصباح سعى حوَيصة إلى أخيه وقال له:

محيِّصة، أذكرتَ ما قلتَ لي البارحة؟! أكنتَ عاقلاً حين قلت لي ما قلت؟!

فأجابه أخوه: نعم ذكرتُ ما قلت، وما كان أعقل مني حين قلت لك ما قلت!!

وقال حويصة: آلله! لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟!

فأجابه:

نعم والله، لو أمرني محمد بقتلك لقتلتك!!

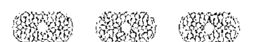
وذهل حويصة ثانيةً وقال لأخيه:

والله إن ديناً بلغ بك هذا لعجب!!



وشغلت كلمة محيِّصة أخاه الكبير أياماً عديدة، لكنها فتحت أخيراً القفل الذي أحكمته الجاهلية على عقله، وتسربت إلى قلبه ينابيع الهداية، وامتدت إلى عقله أنوار الإيمان.

ثم لم يلبث هذا الرجل أن أسلم، وانضم إلى قافلة الأبرار من أصحاب محمد وأنصاره، رضي الله عنهم أجمعين.



المراجع:

ـ سيرة ابن هشام، ٢/ ٥٨.

ـ كنز العمال، ٧/ ٩٠.

ـ الإصابة وأسد الغابة والاستيعاب، (ترجمة محيِّصة بن مسعود).

فَما فَعَل رسُول اللّه ﷺ ؟

١

أشرق الصبح وعمّ نوره الكون، وأخذت خيوط أشعة الشمس تلوح للأعين في الأفق الشرقي، وبدأ أهل مكة يخرجون من بيوتهم ويولّون وجوههم شطر المسجد الحرام، ويطوفون حول البيت. ثم إنّ منهم من كان ينصرف إلى عمله، ومنهم من كان يتخذ لنفسه مجلساً في حَلْقة من تلك الحِلَقِ(١) الكثيرة التي كانت تُعقد حول الكعبة.

كانت هناك حَلْقة تجلس في الحِجْر(٢)، قد اجتمع فيها عددٌ من أشراف مكة على اختلاف قبائلهم، وكأنما كان اجتماعهم مقصوداً، وقد بدا لكل من يرمقهم أنهم ينتظرون غائباً هم متلهفون لحضوره، فالأعناق كانت تشرئبّ لجهة واحدة وتتطاول ناظرة إليها، والجميع كانوا يعاودون النظر بين الفَيْنة والأخرى.

وبعد وقت صاح أحدهم: أبشروا فقد جاء.

ونظر الجميع فرأوه مقبلاً، فغشيهم السرور، وقالوا: أجل قد جاء!!

وأقبل «عتبة بن ربيعة بن عبد شمس» يدبُّ على الأرض... كان رجلاً طويلاً، ضخم الجثة، عظيم الهامة(٣)، له رأي وحِلْم(٤)، تسمع قريش لقوله، وتنفذ فيها كلمته.

---

(١) الحلق: بكسر الحاء وفتحها: جمع حَلْقة، وهي الجماعة من الناس مستديرين.
(٢) الحجر: موضع إلى جانب الكعبة الشمالي، يحيط به حائط مستدير.
(٣) الهامة: الرأس.
(٤) الحلم: اللب والعقل.

وحين وصل قام له الجميع، وحيَّاهم هو، فردّ الجميع التحية، ثم أفسحوا له مكاناً في صدر المجلس، ثم جلسوا جميعهم، وبادره أحدهم: قد أهمنا شأنك يا أبا الوليد، ففيمَ تأخرت علينا؟ وأجاب: لا شيء سوى أني شغلت ببعض شأني.

وأنصت الجميع، ثم تكلم رجل كان يجلس إلى جانب عتبة فقال:

يا معشر قريش، أنتم أشراف الناس ووجوههم، وقد اجتمعنا لأمر يهمنا جميعاً، وهذا أبو الوليد ـ وهو سيد الناس وكبيرهم ـ يريد أن يحدثكم فيه.

والتفتت الأنظار كلها إلى عتبة، وتكلم هو فقال:

يا قوم، أريد أن أكلمكم في شأن محمد بن عبد الله، فإن أمره قد عَظُم، وإن شأنه قد استفحل، ولا واللات والعُزَّى ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط: سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعابَ ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم!!

وحمي القوم كلهم لكلمة عتبة، وصاحوا جميعاً: أجل قد صبرنا عليه طويلاً حتى لقد نَفِد صبرنا، وإنَّا غير ساكتين بعد اليوم على شتم آلهتنا، سوف ننصرها، ونتصدّى لهذا الذي يذكرها!!

وبينا القوم جالسون يتذامرون[1] في أمر رسول الله ﷺ، ويتواصَون في في إيذائه؛ إذا بهم يفاجؤون به وقد أقبل يريد الحَرَم، فَعَلاَ الغضب وجوههم، وشجع بعضهم بعضاً على النيل منه.

وبدأ النبي ﷺ طوافه حول الكعبة، حتى إذا وصل إلى الحِجْر ومرّ بالملأ من قريش؛ صاح عقبة بن أبي مُعَيْط بأعلى صوته مستهزئاً:

يا قوم، قولوا لا إلّه إلاّ الله تفلحوا، قولوا لا إلّه إلاّ الله تخضع لكم بها العرب، وتذلّ لكم العجم!!

---

(١) يتذامرون: يحض بعضهم بعضاً.

وضحك القوم ملء أفواههم، وعَلَت أصواتهم، وعُرف الغضب في وجه رسول الله ﷺ، لكنه أعرض عنهم، ومشى يطوف، حتى إذا انتهى إليهم ثانيةً صاح أمية بن خَلَف مستهزئاً معرِّضاً:

﴿يا أيها المدثِّر، قم فأنذر، وربَّك فكبِّر، وثيابك فطهِّر﴾.

وضحك القوم ثانيةً، وعلَت أصواتهم، وعُرف الغضب هذه المرة أيضاً في وجه رسول الله ﷺ، لكنه أعرض عنهم ثانيةً واستمر في طوافه.

ومرَّ عليهم رسول الله ﷺ مرة ثالثة؛ حتى إذا وصل إليهم صاح شيبة بن ربيعة:

﴿عبس وتولّى. إنْ جاءه الأعمى. وما يدريك لعلّه يزكّى﴾.

وأخذ يمد بها صوته والآخرون يضحكون.

ووقف رسول الله ﷺ على رؤوسهم والغضب بادٍ في وجهه، وخاطبهم قائلاً:

«أتسمعون يا معشر قريش؟!

أما والذي نفسُ محمدٍ بيده، لقد جئتكم بالذبح!!».

ووجم القوم، وسكتوا جميعاً، وسكنت حركاتهم حتى كأنما على رؤوسهم الطير. وأخذتهم كلمة رسول الله أخذاً شديداً، فخضعوا وذلُّوا وشعروا بالقَماءة[١] أمامه عليه الصلاة والسلام، ثم قاموا إليه جميعاً يستعتبونه[٢]، ويخفِّفون من غضبه.

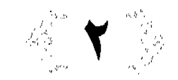
وأمسكه عقبة بن أبي معيط برفق وجعل يقول له:

انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشداً، فوالله ما كنت جهولاً!!.

---

(١) القماءة: الصَّغار والذل.

(٢) يستعتبونه: يسترضونه.



انفض الملأ من قريش إلى بيوتهم وهم يمضغون المرارة، وكبر عليهم ما حصل لهم، وجعل يلوم بعضهم بعضاً، واتَّعدوا على أن يلتقوا غداً في الحِجْر.

وفي يوم غدٍ انتظمت حَلْقتهم من جديد، وكان أول متكلم شيبةُ بن ربيعة، فأنحى باللائمة على الجميع، وأكثر من عَذْل[1] عقبة بن أبي معيط، وخاطبهم قائلاً:

عجيب ما كان منكم أمسِ، تذامرتم على محمد، وتعاقدتم على النيل منه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه!!

وحمي عقبة بن أبي معيط وقال:

أما واللَّات والعُزّى لئن رأيته لأنكلنَّ به، ولأنصرنّ آلهتنا، وليفعل بي بنو هاشم ما شاؤوا!!

وصاح الجميع: لافضَّ فوك يا أبا الوليد، فافعل بمحمد ما شئت، ونحن معك ننصرك ونقف دونك.

.. وأقبل رسول الله ﷺ ـ على عادته ـ يطوف بالبيت، وبدأ بالركن، حتى إذا انتهى إلى الحِجْر وثب عليه «عقبة» ولفّ ثوباً على عنقه وخنقه خنقاً شديداً، ووثب عليه بقية الملأ، وأطافوا حوله، وجعلوا جميعاً يغمزونه ويدفعونه دفعاً شديداً، ويقولون:

أنت الذي تقول في آلهتنا كذا وكذا!!

ورسول الله ﷺ يجيبهم:

«نعم أَنا الذي أقول!!».

وجعل رسول الله ﷺ يدفعهم عن نفسه بكل ما أُوتي من قوة، وجعلوا

(١) العذل: اللوم.

هم يزدادون عليه جراءة، وشمت به الكافرون، وحزن عليه المؤمنون، بَيْدَ أنه لم يستطع أحدٌ منهم أن يقترب منه فيدفع عنه!!.

وهُرع رجل إلى أبي بكر الصدِّيق وناداه:

يا أبا بكر، أدرك رسول الله بين أيدي المشركين!!

وهبَّ أبو بكر من بيته سريعاً، ومضى مغضباً حزيناً يركض إلى المسجد، وأقبل على الملأ من قريش يدفع هذا ويضرب هذا، ويقول:
(ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبيِّنات من ربكم؟!).

واستمر أبو بكر يدفعهم ويتلتلهم[1]، حتى خلص إلى رسول الله ﷺ، فكفَّ أيديهم عنه، وأقبل عليه يقول: بأبي أنت وأمي، نفسي لنفسك الفداء، لعن الله قوماً فعلوا بك هذا.

وانصرف المشركون عن رسول الله ﷺ بعد أن نالوا منه ما شفى صدورهم، وأقبلوا على أبي بكر وجعلوا يضربونه ضرباً شديداً، وأخذ أبو جهل بغدائره[2] وجعل يشدُّها شداً عنيفاً؛ حتى لقد ظن أبو بكر أنها قد قلعت من رأسه. ولبث المشركون ساعة يضربون أبا بكر ويضربهم، ثم تركوه بعد أن نالوا منه شيئاً كبيراً.

وعاد رسول الله إلى بيته، ومشى معه أبو بكر حتى إذا اطمأن إلى أنه أوى إلى بيته، تركه وذهب هو إلى بيته سعيداً بما فعله بين يدي النبي ﷺ، فرحاً لما بذله في سبيل الله، وجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلاّ جاء في يده، فأخذ يقول:

تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام[3]!

---

(١) يتلتلهم: يحركهم ويقلقهم ويزعزعهم.
(٢) الغدائر: الشعر الملتف (الجدائل).
(٣) يتعجب أبو بكر في قولته تلك من حلمه سبحانه وتعالى على هؤلاء الكافرين.

وأوى أبو بكر إلى بيته، ورأت ابنته أسماء ما أصابه، فجعلت تبكي، لكنه نظر إليها وقال:

لا تبكي يا بنية، فلا بأس على أبيك، ولقد ـ والله ـ انتصفتُ منهم.

٣

قويت عزيمة أبي بكر الصدِّيق بعد تلك المعركة مع المشركين، وصغروا في عينيه، فصار بعد ذلك يصلِّي أمامهم جهاراً في الحَرم، بل لقد شجَّع عدداً من أصحاب رسول الله على ذلك، فأغاظ بذلك قريشاً غيظاً كبيراً، فجنَّ جنونهم لصنيعه، وشعروا وكأنه قد طعنهم في صميم كبريائهم وكرامتهم!!

وتداعى الملأ من قريش إلى اجتماع يعقدونه في الحِجْر، والتقوا صبيحة يوم من الأيام، واتجه الجميع بأبصارهم إلى كبيرهم عتبة بن ربيعة لينظروا ماذا سيقول.

وتكلم عتبة فقال:

يا قوم، أما كفانا ما يغيظنا به محمد بن عبد الله من صلاته في الحرم ونحن ننظر إليه، حتى ابن أبي قحافة[١] قد تجرأ علينا وجرّأ علينا أبناءنا وعبيدنا، فجعلوا يغيظوننا بمثل ما يغيظنا به صاحبهم!!

أحلف بالله لئن لم ينته ابن أبي قحافة عن صنيعه لأخزينّه وأصحابه، ولأجعلنَّهم عبرة للناس، ولأنصرنَّ آلهتنا نصراً عزيزاً، فانصروني أنتم إن شئتم أو دعوني، فواللاتِ والعُزَّى إن قلبي ما شُفي منه، وأراه لم يعتبر بما نِلْنا منه من قريب!!

وصاح الجميع:

سترى يا أبا الوليد ماذا نفعل بهذا الصابىء[٢] معك!!

---

(١) أبو قحافة: والد أبي بكر، وهذه كنيته، واسمه عثمان.

(٢) الصابىء: الذي غيّر دينه.

.. ولم يمض غير قليل حتى أقبل رسول الله ﷺ فطاف حول البيت، ومرَّ بالمشركين فلم يلتفتوا إليه، فهم قد نالوا منه من قريب ما شفى بعض ما في قلوبهم، وهم الآن يُبيتون الشرَّ لأبي بكر وإخوانه.

وجاء أبو بكر وتلاه عدد من المؤمنين، وانفرد كل واحد في جانب من الحرم فجعل يصلي، وقام إليهم المشركون قَوْمة رجل واحد يضربونهم ويؤذونهم، واتجه عدد منهم إلى أبي بكر، وانهالوا عليه ضرباً ولكماً ودفعاً، وأفرغوا كل ما عندهم من غيظ في إيذائه، ونالوا منه نيلاً شديداً بأيديهم وأرجلهم!!

وكان أشدهم في ذلك عتبة بن ربيعة، فقد أمسك بنعلين مخصوفتين[1]، وجعل يضرب بهما وجهه حتى سالت الدماء منه، وغطَّت وجهه، فأصبح لا يُعرف أنفه من فمه، ودافع أبو بكر عن نفسه دفاعاً قوياً، لكنه أخيراً أعيى تجاه ما أصابه، وعجز عن دفعهم عنه.

... وسقط أبو بكر على الأرض، وجعل عتبة يطعنه برجله في بطنه طعناً قوياً!!

وشغل أبو بكر عن آلامه الشديدة، وجعل ينظر هنا وهناك يريد أن يرى رسول الله، فقد خشي عليه أن يكون قد أصابه بأس، لكنه لم يستطع أن يراه بسبب هذا الجمع الذي يحيط به... وبلغ الجهد مبلغه من الصدِّيق، فخارت قواه تماماً، وغاب عن وعيه، وأصابه إغماء شديد، حتى لقد ظن الناس أنه مات، فتفرقوا عنه.

وتفرق المسلمون عن المسجد إلى بيوتهم بعد أن نال منهم المشركون نيلاً شديداً، وأقبل رسول الله ﷺ على صاحبه حزيناً كئيباً، وأسرع بنو تَيْم[2] إلى صاحبهم، فوجدوه وليس به حَرَاك، فظنوه قد مات، فاحتملوه إلى بيته وهو لا يشعر.

---

(١) مخصوفتين: مرقوعتين.
(٢) بنو تيم: هم قبيلة أبي بكر رضي الله عنه.

وجاء أبو قحافة إلى المسجد ـ وكان شيخاً كبيراً أعمى ـ وجعل يقول:

لعن الله من فعل هذا بابني!!

والله يا معشر قريش لقد أحدثتم في هذا البيت ما لم يحدثه غيركم.

وعاد رجال من بني تَيْم إلى المسجد يبحثون عن عتبة لينتقموا منه، فلم يجدوه، وصاحوا بأعلى صوتهم:

أما والله لئن مات أبو بكر، لنقتلن به عتبة بن ربيعة!!.

٤

رجع بنو تيم إلى بيت أبي بكر، واقتاد واحد منهم الشيخ الضرير أبا قحافة، وأقبل الشيخ على ابنه ـ وكان مطروحاً على فراشه وليس به حراك ـ وزاحم عليه أمه ـ أم الخير ـ التي كانت مكبّة عليه تبكي، وجعل يناديه باسمه، وأبو بكر لا يرد عليه شيئاً، وكرر النداء، وهو لا يحظى بجواب... ووضع الشيخ يده على وجه ابنه، وجعل يمسح بها عليه ويناديه فلم يرد عليه أبو بكر شيئاً فقد كان في غيبوبة شديدة، وانفجر الشيخ الكبير يبكي ويقول:

لقد قتلوك يا بني، لقد أهلكوك... لعنهم الله من قوم فاسقين!!

وأقبل رجال ونساء من بني تيم على أبي قحافة وزوجه، وجعلوا يكفكفون من بكائهما، ويروِّحون عنهما، ويقولون:

يا أبا قحافة، لا بأس على ابنك، إنه لم يمت، إنه مغمىً عليه وسوف يفيق، إنَّ نَفَسَه يتردد.

وقامت أم الخير فأتت بماء وجعلت ترشه على وجه ابنها، وتمسح عنه الدماء، وتصلح من شعره وهيئته وثيابه.

وأخذ رجال ممن حضر يحركون أبا بكر، ويفتحون له عينيه،

ويريدونه على الكلام. . . كل ذلك وأبو بكر لا يحس بشيء، ولا يشعر بمن حوله، ولا يخرج منه إلاّ نَفَس ضعيف لا يكاد يسمع.

ومضت ساعات، وقوي نَفَس أبي بكر، وفتح عينيه قليلاً، واستبشر الجميع خيراً وقالوا لأبي قحافة: ها هو ذا قد فتح عينيه، فأقبل الشيخ الكبير يحتضنه ويبكي من الفرح!!

وفي أُخريات النهار استطاع أبو بكر أن يفتح عينيه تماماً، وأجالهما في الحضور وكأنه يبحث عن إنسان ، ثم فتح فاه وقال بصوت ضعيف:

ما فعل رسول الله؟!

وأقبل أبو قحافة وبنو تيم عليه يعذلونه، وقال له أبوه:

ما لك يا بني ولمحمد بن عبد الله، كدتَ تهلك نفسك من أجله، دعنا منه، فلعمري قد أوشكنا أن نفجع بك بسببه!!

وتكلم أبو بكر ثانيةً، فقال:

ما فعل رسول الله، ناشدتكم الله إلاّ أخبرتموني، هل نالت منه قريش شيئاً؟!

وعاد أبو قحافة وبنو تيم يلومون أبا بكر، واشتد لومهم هذه المرة، وغضب أبو قحافة وقال له:

والله لا تزال في غيّك حتى تهلك، أترى قريشاً يتركونك وصاحبك تنالان من دينهم وتسبَّان آلِهتهم؟!

ثم صرخ الشيخ الكبير في قومه قائلاً:

قوموا عنه فلعمري لئن لم ينته عما هو عليه لأهجرنَّه!!

ثم انصرفوا بعد أن أوصَوا أُمه أن تطعمه وتسقيه شيئاً حتى تثوب إليه قوته.

٥

انفضَّ بنو تَيْم عن أبي بكر، وفرح هو بذهابهم، ولم يبقَ عنده غير أُمه، فأقبل عليها بوجهه وقال لها:

يا أُماه، أخبريني ما فعل رسول الله؟

وردت عليه أُمـه:

والله ما أعلم يا بني ما حصل له، ولقد شُغلنا بك عن كل شيء!!

وحزن أبو بكر لجوابها، فقد كان قلق النفس، مشغول الفكر، مهموم النفس، خشية أن يكون لحق برسول الله ﷺ أذى، وهو يريد أن يعرف حقيقة ما جرى له بعد تلك المعركة التي شنّها المشركون على المسلمين، والتي ناله منها أوفى نصيب.

وقامت أُمه، فأحضرت شيئاً من اللبن والطعام، وقدمته إليه قائلة:

كُلْ من هذا، واشرب من هذا، فلقد أضرَّ الجوع جسمك كثيراً.

وأعرض أبو بكر عن الطعام، وألحّت عليه أُمه في أن يتناوله وأكثرت من الإلحاح، كل ذلك وهو يأبى ويقول:

أُريد أن أعرف ماذا حصل لرسول الله، وأُمه تقول له: والله يا بني ما لي علم بصاحبك!!

وفطن أبو بكر إلى فاطمة بنت الخطاب، فهي من المؤمنات المسلمات، ولعلَّ عندها خبراً عن النبي ﷺ وقال لأمه:

اذهبي إلى فاطمة بنت الخطاب فاسأليها عنه.

وقامت المرأة مسرعة تريد أن تستعجل المجيء بخبر عن رسول الله ﷺ لابنها، حتى تحمله على تناول شيء من طعام أو شراب. . . ودخلت أم الخير على فاطمة وقالت لها:

يا ابنة أختي إن ابني أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ويقول لك: ماذا حصل له؟

ورجف قلب فاطمة بنت الخطاب حين سمعت من أم الخير ما سمعت، وخشيت أن يكون خبر إسلامها قد وصل إليها وشاع في مكة، وتمثل أمام ناظريها أخوها عمر وقد علم بإسلامها، فاضطربت وخافت أشد الخوف وتغير لونها، لكنها في الوقت نفسه أشفقت على أبي بكر، فقد علمت بخبر ما أصابه من البلاء في هذا اليوم، ولم يغبْ عن ذهنها اضطراب فكره وانشغال باله برسول الله، فقالت لأمه:

أنا ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك فعلت؟

وقالت أم الخير: نعم، قومي معي يا بنيَّة.

ومضت المرأتان، واستخفَتْ فاطمة بثيابها، ثم دخلت على أبي بكر، ونظرت إليه فرأته صريعاً دَنِفاً[1]، فتألمت لحاله وصاحت:

والله إنَّ قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم!!

وفرح أبو بكر بمقدم فاطمة وبادرها قائلاً:

ما فعل رسول الله؟

فأجالت فاطمة عينيها يميناً وشمالاً تنظر إلى أمه وهي لا تريد أن تسمع كلامها، ثم قالت لأبي بكر بصوت منخفض:

هذه أمك تسمع!!

وأجابها: لا شيء عليك منها.

واطمأنت فاطمة، فقالت: هو سالم صالح!!

(١) الدنف: الذي ثقل مرضه.

وتنفَّس الصدِّيق الصُّعداء، وأشرق وجهه بالفرح، وأخذ يحمد الله تعالى.

ثم قال لفاطمة:
أخبريني أين هو الآن؟

فأجابت: هو في بيت الأرقم مع إخوانه.

ورأت أم الخير السرور قد طفح على وجه ابنها، فقالت له:
ها قد اطمأننتَ على صاحبك، فهيّا خُذْ شيئاً من هذا الطعام والشراب.

وقالت فاطمة أيضاً: كُلْ يا أبا بكر حتى يثوب[1] إليك جسمك.

لكن أبا بكر نظر إلى أمه وإلى فاطمة وقال لهما:
(إنّ لله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا شراباً، أو آتي رسول الله!!).

وتعجبت أم الخير من صنيع ابنها، وجعلت تضرب كفاً على كف وتقول له:
أتريد أن تهلك نفسك، كُلْ أولاً، ثم اذهب إلى صاحبك!!

لكنه أبى عليها وقال: لا... لا آكل حتى أرى رسول الله!!

ونظرت أم الخير إلى فاطمة وقالت لها: قومي بنا نعينه على الوصول إلى صاحبه، لكن فاطمة قالت لها: انتظري الآن.. وفهم أبو بكر ماذا تريد فاطمة.

... ومضى النهار وأقبل الليل، وهدأت الرِجْل، وسكن الناس، وقالت فاطمة لأم الخير: قومي الآن.. ومشى أبو بكر يتهادى[2] بين أمه وفاطمة بنت الخطاب، وأدخلتاه على رسول الله ﷺ، وما أن رآه حتى بكى

---

(١) يثوب إليك جسمك: تعود إليك قوتك.
(٢) يتهادى: يمشي رُوَيداً متأنياً.

من الفرح، وأكبَّ على رسول الله ﷺ يقبّله، وسرّ به النبي سروراً عظيماً، واحتضنه وقبّله، ورقَّ له رقَّة شديدة، وفعل ذلك بقية من كان معه، فقد كانوا جميعاً قد أصابهم حزن شديد لما أصاب أبا بكر في هذا اليوم من البلاء، وكانوا يتوقون لمعرفة حاله، وها هو الآن بين أيديهم!!

وأقبل رسول الله ﷺ على أبي بكر يسأله عما أصابه، وعما يَألَمُ منه؟ فأجابه:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ليس بي من بأس، إلاّ ما نال الفاسق «عتبة» من وجهي.

ولكن الحمد لله الذي عافاك أنت منهم، وأكرمني برؤية وجهك، فوالله إن همي عليك كان أعظم بكثير من همي لما أصابني!!

ودعا رسول الله لأبي بكر، وأثنى عليه خيراً، وأقبل عليه يمسح بيده الشريفة على وجهه ويواسيه.

وقال أبو بكر:

يا رسول الله، هذه أمي وهي برّة بي وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادعُ الله لها، عسى الله أن يستنقذها بك من النار.

ودعا رسول الله أم الخير إلى الإسلام، ورغَّبها فيه، فما قامت المرأة من مجلسها حتى أَسلمت، ففرح الصدِّيق بذلك فرحاً عظيماً، وذهبت بقية أحزانه، وأبلَّ من مرضه.

.. ومضى ذلك اليوم العظيم من أيام الصدِّيق، وكان يوماً حافلاً بالحب والبذل والفداء، وسجَّل التاريخ له فيه منقبة من أعظم مناقبه.

ومناقبه رضي الله عنه كثيرة، ومن أعظمها: محبته لرسول الله، فقد كان يحبه حباً كبيراً عظيماً، وكان رسول الله أحب إليه من نفسه، ووالده، وولده، والناس أجمعين.

المراجــع:

- البداية والنهاية، ٣/ ٣٠.
- مجمع الزوائد، ٦/ ١٦.
- الإصابة، (ترجمة أم الخير).

خِفتُ أن تُنكَبَ

١

انتصف الليل، ونام كل من في مسجد رسول الله ﷺ من أهل الصُّفَّة[1]، إلاّ رجلاً واحداً ما وجد النوم إلى عينيه سبيلاً.

أغمض جفنيه مراراً وحاول النوم فلم يستطع، فأعرض عن النوم وجعل يستعرض ذكرياتٍ من ذكرياته الحلوة التي تملأ قلبه سروراً.

تذكَّر بشير بن الخَصَاصِية كيف كان استقبال رسول الله ﷺ له من قريب حين هاجر إليه من قبيلته ربيعة، وكيف رحب به وتودّد إليه، وكيف بايعه على الإسلام.

إن الصورة لَمَرسومة أمام ناظريه يراها.. يُقبل بشير من بلاده البعيدة على مدينة الرسول، فيَمْثُل بين يديه ثم يسلِّم عليه قائلاً:

السلام عليك يا رسول الله، جئتك مسلماً مهاجراً.

ويرد النبي ﷺ التحية، ويرحب به، ثم يقول له:

«ما اسمك؟».

فيجيب: نذير.

---

(١) أهل الصُّفَّة: جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا فقراء، وأكثرهم من المهاجرين ممن لم يكن لهم في المدينة أهل ولا مال، فكانوا ينامون في موضع مظلل في المسجد يقال له الصفة. وكانوا يجاهدون مع رسول الله ويتعلمون منه، وكان عليه الصلاة والسلام يعطف عليهم، ويوزعهم مساءً على إخوانهم ليطعموهم، ويستأثر هو بعدد منهم.

ويقول النبي ﷺ:
«بل أنت بشير».

ويبتسم الرجل ويقول: أنا بشير!!

ويطلب الرسول ﷺ منه أن يبايعه على الإسلام، فيقول بشير:
علامَ أبايعك يا رسول الله؟

فيمد رسول الله ﷺ يده ويقول:
«تشهد أن لا إلّه إلاّ الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبدُه ورسوله.
وتصلِّي الصلوات الخمس لوقتها.
وتؤدي الزكاة المفروضة.
وتصوم رمضان.
وتحج البيت.
وتجاهد في سبيل الله».

وينظر بشير في وجه رسول الله ﷺ ويقول له:
يا رسول الله، كُلّاً أطيق[١] إلاّ اثنتين فلا أطيقهما:
الزكاة: فوالله ما لي إلاّ عشر ذَوْدٍ هُنَّ رِسْل أهلي وحَمولتهن[٢].
وأما الجهاد: فإني رجل جَبَان، ويزعمون أنه من ولَّى فقد باء[٣] بغضب من الله، وأخاف إن حَضَرَ القتال أن أخشع[٤] بنفسي فأفرَّ، فأبوء بغضب من الله!!

---

(١) أطيق: أستطيع.
(٢) الذود من الإبل: ما بين الثنتين إلى التسع. والرِسْل: اللبن..والحمولة: ما يحتمل عليه الناس من الدواب.
(٣) باء: رجع.
(٤) أخشع: أخاف.

ويقبض النبي ﷺ يده، ويتغير وجهه، ثم يهز يده ويقول له:
«يا بشير، لا صدقة، ولا جهاد؛ فبمَ إذن تدخل الجنة؟!».

ويراجع بشير نفسه على الفور، ويطمئن قلبه للبيعة التامة، فيقول للنبي ﷺ:
يا رسول الله، ابسط يدك أبايعْك.

ويبسط النبي ﷺ يده، فيبايعه بشيرٌ على جميع تلك الأمور.

ويظهر السرور على وجه رسول الله ﷺ ويقول لبشير:
«ممّن أنت؟».

فيجيبه:
مِنْ ربيعة الفَرَس[١]!!

ويزداد سرور النبي ﷺ، ويتعجب من هذا الذي ترك قبيلته التي كانت ترى نفسها فوق كل قبائل العرب، ويقول له:
«ربيعةَ الفَرَس، الذين يقولون أنْ لولاهم لائتفكت الأرض بأهلها![٢].
احمدِ الله الذي مَنَّ عليك من بين ربيعة!!».

ويقول بشير:
الحمد لله الذي منَّ عليَّ بالإسلام، وأكرمني باتباعك يا رسول الله!!.



وصورة أخرى ترتسم أمام ناظري بشير..

(١) ربيعة الفرس: هم ربيعة بن نزار: شعب عظيم، فيه قبائل عظيمة وبطون وأفخاذ، كانت ديارهم في بلاد نجد وتهامة. وسُمّوا بربيعة الفرس: لأن أباهم ربيعة بن نزار أُعطي من مال أبيه الخيل، وأُعطي أخوه الذهب، ويقال لهم: ربيعة القشعم. والقشعم من أسماء الأسد.
(٢) ائتفكت الأرض بأهلها: انقلبت بأهلها.

يمسك رسول الله ﷺ بيده، ثم يسعَى به إلى الصفَّة، وينزله بين أهلها، ويوصيهم به خيراً.. ويعيش بشير بين إخوة صدق، ويرى من حالهم ما تدمع له العين، ومن بؤسهم ما يحزن له القلب؛ بَيْدَ أنه يكبرهم على عظيم إيمانهم وتصديقهم، وتحمُّلهم في سبيل الله ورسوله.

ويتذكر بشير كيف أن النبي ﷺ يكرمهم دائماً، ويشركهم في جميع ما يأتيه من الهدايا.

يدعوهم إلى بيته، ويسقيهم اللبن، ويطعمهم الطعام.

ويواسيهم دائماً، ويحنو عليهم حنوَّ الأم على رضيعها، فإذا ما جاءته صدقة صرفها كلها إليهم، يأكلونها ويتمتعون بها.

***

وصورة ثالثة يتذكرها بشير وتمرّ على خاطره وترتسم أمام ناظريه...

يمسك النبي ﷺ يوماً بيده، ثم يمشي به في طريق من طرقات المدينة، ويقول له:

«يا ابن الخصاصية، ما أصبحت تنقم على الله تبارك وتعالى!!
أصبحت تماشي رسول الله آخذاً بيده!».

وتدمع عينا بشير، ويرقّ قلبه لكلمات رسول الله، وتخشع نفسه، ويجيب:
بأبي أنت وأُمي يا رسول الله.
ما أصبحت أنقِم على الله شيئاً!!
قد أعطاني الله تبارك وتعالى كل خير!!.



أمضى بشير وقتاً وهو سعيد كل السعادة باستعراض هذه الذكريات؛ وكان يقول بين الفينة والأخرى:

الحمد لله على نعمة الإسلام، الحمد لله على صحبة رسول الله.

وبينا هو غارق في ذكرياته، إذا به يسمع باب حجرة رسول الله ﷺ يفتح، فرفع بشير رأسه فإذا به يرى رسول الله ﷺ يخرج منه، ويتابع بشير النظر فيرى النبي يخرج من باب المسجد، فيقوم بشير من مضجعه ويمشي قليلاً ليرى رسول الله أين هو ذاهب، فيراه يتجه إلى بقيع الغَرْقد[1].

ويهمُّ بشير أن يعود إلى مضجعه، لكنه يخاطب نفسه قائلاً:

ويح نفسك يا بشير، كيف تعود لمضجعك، وتخلد إلى راحتك، ورسول الله ﷺ قد خرج وحيداً!!

وما يؤمنك يا بشير أن تصيبه نكبة، أو تلسعه دابة من دواب الأرض!!

هيَّا يا بشير، امشِ وراء رسول الله، وادفع عنه كل ما يؤذيه!!.

وترك بشير المسجد، ومشى الهوينا وراء رسول الله لئلا يزعجه، وبعد قليل انقطع شِسْع[2] نعله، فحمله بيده، وجعل يدوس برجله على الحجارة والشوك، ولا يبالي، وخاطب نفسه:

والله ما أُبالي بما أصابني في سبيل الله ورسوله!!

... وأقبل رسول الله ﷺ على أصحابه ممّن ضمهم الثرى وخاطبهم: «السلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، وإنّا بكم لاحقون، وإنا لله وإنّا إليه راجعون.

لقد أصبتم خيراً بجيلاً[3]، وسبقتم شراً طويلاً».

... وأحسَّ النبي ﷺ بحركة إنسان يتبعه، فقال:

«من هذا؟».

---

(١) بقيع الغرقد: مقبرة أهل المدينة.
(٢) شسع النعل: سيره.
(٣) بجيلاً: واسعاً.

وأجاب:
أنا بشير يا رسول الله.

وأمره النبي ﷺ أن يدنو منه فدنا، فقال له:
«يا بشير، أما ترضى أن أخذ الله سمعَك، وقلبَك، وبصرَك إلى الإسلام!!
مِنْ بَيْن ربيعة الفَرَس، الذين يقولون: أنْ لولاهم لائتفكت الأرض بأهلها!!».

ويجيب بشير:
بلى يا رسول الله!

ويسأله النبي ﷺ:
«ما جاء بك؟».

ويجيب
خفت أن تُنكب - بأبي أنت وأمي - أو تصيبك هامّة من هوامِّ الأرض[1].

ويُثْني رسول الله على بشير خيراً، ويدعو له.

ويمكثان ساعة في مقبرة البقيع، يدعوان ويستغفران لأهلها، ثم يعودان.

ويأوي بشير إلى مضجعه من جديد والسرور يملأ قلبه، ويخاطب نفسه:
لَكَ الله يا بشير، كم أصبتَ في ليلتك من خير جزيل.

***

ويسجل التاريخ في صفحاته:

---

(١) هوام الأرض: دواب الأرض وحشراتها.

غفر الله لك يا بشير، وأجزل ثوابك، فقد هجرت مضجعك، وقمت تمشي على الشوك في ليل بهيم، تعرِّض نفسك للمخاطر، وتقتحم المهالك، خوفاً على رسول الله، وإيثاراً لنفسه على نفسك!!.

غفر الله لك، وأثابك على ذلك خيراً عظيماً.



المـراجـع:
ـ مسند أحمد، ٥/ ٨٣ و ٢٢٤.
ـ منتخب كنز العمال، ٥/ ١٤٦.
ـ مجمع الزوائد، ٩/ ٣٩٨.

جَـرَّة أبي أيّوبَ

١

غَبَط الأنصار جميعاً خالد بن زيد[١]، فقد نزل عليه رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة، وأقام عنده أشهراً؛ فسعد بقربه، وأصاب من بركته، وتاه فخراً بضيافته.

وقد كان من قصة رسول الله ﷺ في هجرته أنه أقام أياماً في قُباء في بني عمرو بن عوف قبل وصوله إلى المدينة، ثم خرج يقصدها، فاعترضه بنو سالم بن عوف، فقالوا: يا رسول الله، هَلُمَّ إلى العدد والعدّة والقوة؛ انزل بين أظهرنا، فقال رسول الله ﷺ: «خَلُوا سبيلها[٢] فإنها مأمورة»!!

ثم مرَّ ببني بَيَاضة فاعترضوه فقالوا مثل ذلك، فقال: خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة.

ثم مرَّ ببني ساعدة، فقالوا مثل ذلك، فقال: خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة.

ثم مرَّ ببني الحارث بن الخزرج، فقالوا مثل ذلك، فقال لهم مثل ذلك.

---

(١) خالد بن زيد: هو أبو أيوب الأنصاري الخزرجي الصحابي المشهور رضي الله عنه. ومعنى غبط فلان فلاناً: تمنى مثل ما له من النعمة من غير أن يريد زوالها عنه. وفي الحديث: «أقوم مقاماً يغبطني فيه الأولون والآخرون».

(٢) خلّوا سبيلها: يريد ناقته.

ثم مرَّ بأخواله[١] ـ بني عدي بن النجار ـ فقالوا: هَلُمَّ إلينا أخوالك، فقال مثل ذلك.

حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده[٢]، فلما بركت ـ ورسول الله ﷺ عليها لم ينزل ـ التفتت ثم انبعثت، فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يثنيها به، ثم كرّت[٣] إلى مبركها الذي انبعثت منه، فبركت فيه، ثم تحلحلت في مُنَاخها ورزَمت[٤]، ووضعت جِرَانها[٥]، فنزل عنها رسول الله ﷺ.

وجاء أبو أيوب فقال:

يا رسول الله، إنَّ منزلي أقرب المنازل إليك، فأنقل رَحْلك[٦] إليَّ؟

وأجابه النبي ﷺ: «نعم».

فاحتمل أبو أيوب رَحْل رسول الله ﷺ، وسار به مبتهجاً، فوضعه في بيته.

ومشى ﷺ إلى بيت أبي أيوب يحفُّ به أصحابه، واستقبله الرجل أكرم استقبال، وأراد النبي ﷺ أن يجلس، فقال أبو أيوب:

منزلك في العُلْو يا رسول الله، ولقد وضعت الرحل هناك.

لكن النبي ﷺ قال له:

---

(١) كانوا أخواله لأن أم جده عبد المطلب وهي (سلمى بنت عمرو) كانت إحدى نسائهم.
(٢) كان يومها مربدَ تمر، ثم اتخذه النبي مسجداً. والمربد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.
(٣) كرت: رجعت.
(٤) تحلحلت: لصقت بموضعها وأقامت. رزمت: أقامت من الكلال.
(٥) الجران: ما يصيب الأرض من باطن عنقها.
(٦) الرحل: المتاع، وكان متاعاً خفيفاً.

«يا أبا أيوب، إنَّ أرفق بنا وبمن يغشانا[١] أن أكون في سُفْل البيت».

وسكت الرجل، ولم يراجع النبي ﷺ، ثم قام فاحتمل الرَّحْل فجاء به، ثم جاءهم باللبن فشربوه.

وجلس النبي ﷺ وجلس أصحابه حوله والسرور يغمرهم، ورسول الله يحمد الله ويكثر الثناء عليه أن حفظه من أعدائه، فكفَّ أيديهم عنه، وآواه إلى دار هجرته.

وبينا القوم جالسون؛ إذا بشاب حَدَث[٢] يحمل قَصْعة فيها خبز مثرودٌ بلبن[٣]، فيسلِّم، ثم يضعها بين يدي القوم، ويسأله النبي ﷺ عن اسمه فيجيب:

يا رسول الله، أنا زيد بن ثابت، وقد أرسلتني أمي بهذه القصعة إليك.

ويقول النبي ﷺ: «بارك الله فيك»، ثم يدعو أصحابه، فيأكلون جميعاً.



أصبح بيت أبي أيوب أعظم بيوت المدينة شأناً، فهو البيت الذي صار يغشاه سائر أهل المدينة، ويأتونه صباح مساء، فيسلِّمون على رسول الله ﷺ، ويبايعونه على الإسلام، ويستمعون لحديثه، ويتحفونه بهداياهم.

وسعد أبو أيوب بهذا الخير الذي حلّ عليه، وسعدت زوجه، وجعلا يقولان:

---

(١) يغشانا: يأتينا.
(٢) شاب حَدَث: في أول شبابه.
(٣) الثريد: الخبز المفتوت الذي يبل بمرق، ويكون فيه غالباً لحم، وقد يُصنع باللبن ـ وهو: الحليب ـ.

ماذا أَصابنا من الخير والبركة؟!

وأخذا يصنعان لرسول الله ﷺ العَشاء، فيأكل منه، ويردّ لهم فضلةً منه، فكان أبو أيوب وزوجه يأكلان من موضع يده عليه الصلاة والسلام يبتغيان البركة.

بَيْدَ أن أمراً نغّص على الرجل هذه السعادة، وهو سكناه في الغرفة التي فوق غرفة النبي ﷺ، فقد صعب عليه أن يعلو رسول الله، وتحرّج من ذلك كثيراً.. ولكن ماذا يفعل وقد آثر النبي السكنى في السُّفل وأمره هو أن يسكن في العلو؟!.

وأوصى أبو أيوب امرأته قائلاً:

ويحك أم أيوب، إياك أن يحصل منك شيءٌ يؤذي رسول الله، إياك أن يتناثر عليه غبارٌ أو تراب، امشي على رؤوس أصابعك، وأقلّي الحركة ما استطعت؛ فوالله إني لأخشى على رسول الله الذرّ!!

وقالت أم أيوب:

وأنا ـ والله ـ كذلك أخشى عليه الذرّ وما هو أقل منه، ويا ليت رسول الله استجاب لك، فارتفع إلى أعلى وكنا نحن في السفل، فنحن أجدر أن نكون تحته!!

وقال أبو أيوب:

ماذا نفعل؟ فقد أبى علينا رسول الله ذلك!!.

❁ ❁ ❁

مرَّت أيام وأصبح هذا الأمر شُغل أبي أيوب الشاغل وهمّه الحاضر، فقد كان يفكر فيه دائماً لا سيما في الليل، فيمضي من كل ليلة وقتاً وهو يسأل نفسه: كيف تطيب نفساً بالسكنى فوق رسول الله ﷺ؟! ولا ينام حتى تغلبه عيناه.

وفي ليلة من الليالي أرق أبو أيوب، وطار النوم من جفنيه، فرفع ظهره وجلس في مضجعه حتى مضى هزيع من الليل، وانتبهت زوجه، فقالت: ما لك يا أبا أيوب؟ فأجابها بصوت خفيض:

ويحك ـ والله ـ لقد طار النوم من عيوني، وركبني همّ عظيم!!

وقالت له:

لِـمَ، فديتك نفسي؟

وأجاب:

أما تعلمين؟!

كيف نعلو رسول الله ﷺ ونكون بينه وبين الوحي؟! وكيف تطيب نفسي وأنا أتحرك فيتناثر عليه التراب؟!

وقالت الزوجة:

نعم ـ بأبي أنت وأمي ـ والله إن هذا لأمر عظيم!! ولكن ماذا نفعل الآن؟

وأجابها:

قومي من مضجعك، فلا ـ والله ـ لا أنام فوق رأس رسول الله ﷺ.

ثم انتحى زاوية من زوايا الغرفة فجلس فيها، وجلست زوجه في زاوية أخرى، ومكثا على ذلك حتى طلع الفجر!!

وفي الصباح أقبل أبو أيوب على رسول الله ﷺ والهمّ يكسو وجهه، وأثر النعاس ظاهر في محيّاه، فسلَّم عليه ثم بادره قائلاً:

بأبي أنت وأُمي يا رسول الله، ما جعلت الليلة غَمْضاً أنا ولا أُم أيوب!!

وقال النبي ﷺ:

«ومـمَّ ذلك يا أبا أيوب؟».

فأجاب:

ذكرتُ أني على ظهر بيت أنت أسفل مني، فأتحرك فيتناثر عليك التراب، ويؤذيك تحرُّكي، وأنا بينك وبين الوحي!!

يا نبي الله ـ بأبي أنت وأُمي ـ إني لأكره وأُعْظِم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهرْ أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السُّفْل.

لكن النبي ﷺ قال له ثانيةً:

«يا أبا أيوب، إنَّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سفل البيت».

ويسكت أبو أيوب، لكن همّه لم يبرحه، فلا زال يكسو وجهه!!

ويشفق النبي الرحيم ﷺ على صاحبه فيقول له:

«ألا أُعلِّمك كلمات إذا قلتهنَّ بالغداة عشر مرّات وبالعشي عشر مرات؛ أُعطيت بهنَّ عشر حسنات، وكُفِّر بك عنهنّ عشر سيئات، ورفع لك بهنَّ عشر درجات، وكنَّ لك يوم القيامة كعدْل عشرِ محرّرين؟!»[١].

ويجيب أبو أيوب:

نعم يا رسول الله!!

فيقول النبي ﷺ:

«تقول: لا إلّه إلاّ الله، له الملك وله الحمد، لا شريك له».

ويشكر أبو أيوب رسول الله، ويمضي إلى زوجه يخبرها الخبر، فتطيب نفسها وتقول: يا أبا أيوب، الله ورسولُه أعلم، وليس لنا إلاّ أن نسمع ونطيع. ويجيبها زوجها: نعم يا أُم أيّوب، ليس لنا إلاّ السمع والطاعة.

---

(١) أي أن تلك الكلمات تعدل تحرير عشر عبيد من الرقّ.

٣

سكنت نفس أبي أيوب بعض الشيء بتلك الكلمات التي تعلمها من رسول الله ﷺ، وصار إذا قرأها حين يأوي إلى فراشه لا يلبث أن يسري النوم في جفنيه، فيقضي منه حاجته إلى طلوع الفجر.

لكن همّه الدائم بسبب سكناه فوق النبي لم يبرح قلبه، ولم يزاول فكره، فهو لا يزال يسأل نفسه هذا السؤال ويكرره:

كيف أعلو رسول الله؟!

ولا يزال يلقيه على زوجه وهي تلقيه عليه أيضاً، ويتعجبان معاً من حالهما!!

وفي ليلة من الليالي حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد هبَّ أبو أيوب فزعاً من مضجعه وغمز امرأته ـ وكانت نائمة ـ وقال لها:

قومي ويحك، لقد افتضحنا أمام رسول الله، لقد حصل أمر عظيم!!

وهبت أُم أيوب مذعورة وقالت:

ماذا جرى فديتك نفسي؟

فأجاب:

لقد دفعتُ الجرة برجلي ولا أشعر، فانكسرت وأُهرِقَ ماؤها!!

وقام الرجل وزوجه سريعاً إلى قطيفة[١] لهما ـ وما لهما لحاف غيرها ـ فجعلا ينشّفان بها الماء، خوفاً من أن يصل منه شيء إلى رسول الله ﷺ فيؤذيه!!

ولم يبق في أرض الغرفة شيء من الماء فقد امتصته جميعه القطيفة، وجعل أبو أيوب يتحسس بيديه أرض الغرفة المظلمة شبراً شبراً، حتى أيقن أنه لم يبقَ شيء من الماء!!

---

(١) القطيفة: دثار ذو أهداب (وبر) كأهداب الطنافس (السجاد).

ونزل بالرجل وزوجه هَمٌّ أثقل من الجبال، وجلس كل واحد منهما في زاوية من زوايا الغرفة، وجعل أبو أيوب يسأل زوجه ويكرر السؤال بين الحين والآخر:

أَتَرَيْنَ أصاب رسولَ الله شيءٌ يا أم أيوب؟!

وجعلت هي تجيبه:

لست أدري، ولكن واخجلتاه إن حصل هذا!!

ويضرب أبو أيوب كفاً على كفٍ، ويقرع سنه أسفاً لما جرى؛ ويقول:

ليتنا هلكنا من العطش وأنّا لم نأتِ بهذه الجرّة!!

وأخذت تقول هي الأخرى:

ليتنا لم نأتِ بها، وتحمَّلنا ما تحملنا من العطش!!

... وغدا أبو أيوب على رسول الله ﷺ وقد ركبه همٌّ عظيم، ورأى رسول الله ﷺ ما بوجهه، فسأله عما به، فأجاب:

لقد جرى أمر عظيم يا رسول الله، وركبني منه همّ أعظم. وحكى له قصّة الجرة، ثم سأله: ألم ينزل عليك شيءٌ من مائها؟

وضحك رسول الله ﷺ من حديثه، وأخبره أنه لم يصبه شيءٌ من الماء.

وفرح أبو أيوب؛ لكنه أردف قائلاً:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أعلو بعد اليوم سقيفة أنت تحتها!!

وضحك رسول الله ﷺ ثانيةً، وطمع الرجلُ في استجابته، فألحَّ عليه في طلبه، فقبل عليه الصلاة والسلام.

وأسرع أبو أيوب فأنزل متاعه إلى أسفل، ثم رفع متاع رسول الله إلى أعلى، وطابت نفسُه، وشعر كأن همّاً أثقل من جبل أُحدٍ قد انزاح عن

فؤاده، وطفح السرور على وجهه، وابتسم لزوجه وابتسمت له وقال لها:

لقد حسبنا أن انكسار الجرة شرٌّ أصابنا، فإذا به خيرٌ كله أليس كذلك يا أم أيوب؟! فالحمد لله الذي أذهب همّنا، وجلا غمّنا!!

وردّت هي الأخرى:

نعم ـ والله ـ الحمد لله يا أبا أيوب، فوالله لأنا الآن سعيدة سعادة ما شعرت بها من قبل!!

وفرح الزوجان وجعلا يرددان: الحمد لله، الحمد لله.

٤

وفي عشية ليلة من الليالي جلس أبو أيوب وزوجه يأكلان فَضْلة طعام بعث به رسول الله إليهما، ويتتبعان موضع أصابع رسول الله، وقال أبو أيوب لزوجه:

أم أيوب، لقد غَلَبنا إخواننا على طعام رسول الله ﷺ، فهم لا ينفكُّون يرسلون له بقصعات الطعام واللبن صباح ومساء، ولقد خجلنا منه؛ فكأننا نحن ضيوفه، فهو لا يزال يرسل لنا بالطعام كل يوم مما يفضل عنه، ونحن نرسل له من طعامنا كما يرسل له سائر الناس!!

فهلّا سبقتهم كل يوم إلى هذا الفضل، فنكرم رسول الله، ونحظى بدعائه!!

وأجابت الزوجة:

سوف أصنع لرسول الله ﷺ طعاماً يشتهيه كل يوم، ويؤثره على غيره!!

وسُرَّ أبو أيوب لكلامها وقال لها: بارك الله فيكِ، هيَّا افعلي هذا ولا تقصِّري.

وفي مساء غدٍ رفعت أم أيوب لرسول الله ﷺ أكلة زوّقتها واعتنت

بها، وعادت إلى بيتها راضية النفس، مرتاحة الخاطر.

وبعد قليل عاد أبو أيوب إلى بيته، فأخبرته زوجه، بما صنعت، فسُرّ سروراً بالغاً، ثم جلسا معاً ينتظران فَضْلة طعام رسول الله، ليتمتعا بأكلها.

وبينا هما في انتظار ذلك، إذا بهما يَرُوعهما أن الطعام قد رُدَّ إليهما كاملاً، لم تمتد إليه يد رسول الله ﷺ أبداً!!

وصعد أبو أيوب إلى النبي ﷺ فزعاً وقال له:

يا رسول الله ـ بأبي أنت وأمي ـ ردَدتَ عشاءك ولم أرَ فيه موضع يدك؟!

وأجاب عليه الصلاة والسلام:

«إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة[1].

وأنا رجل أُناجَى»[2].

وقال أبو أيوب:

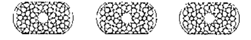
أحرام هو يا رسول الله؟

وأجاب النبي ﷺ:

«لا، ولكني أكرهه!».

وقال أبو أيوب:

فإني أكره ما تكره يا رسول الله، ولك عليَّ ألا أعود إلى أكله!!.



قال الـــراوي:

تِلْكُم بعض أخبار أبي أيوب الأنصاري في محبته لرسول الله، وإنَّ له ولإخوانه لأخباراً أخرى كثيرة، تستحق أن تُروى للناس، لتسعد بالاستماع

(١) يريد بالشجرة: الثوم أو البصل.

(٢) أُناجى: تناجيه الملائكة وتخاطبه.

إليها أرواحهم، وتتَّقد بها عواطفهم، ويزكو بها إيمانهم.

المـراجــع:

ـ صحيح مسلم، ٣/ ١٦٢٤.
ـ مسند أحمد، ٥/ ٤٢٠.
ـ أسد الغابة، ٢/ ٩٤.
ـ سيرة ابن هشام، ١/ ٤٩٨.
ـ كنز العمال، ١/ ٢٩٤.



مَا أحِبُّ أن تُصيبَهُ شوكة

١

أصاب مشركي قريش شيءٌ من الزهو والغرور بعد الذي أوقعوه في أصحاب رسول الله ﷺ يوم أُحد، وصاروا يتطلَّعون إلى أيام أُخَر يوقعون فيها بالمسلمين مثل ما أوقعوه في ذلك اليوم أو أشد.

لكن النبي ﷺ كان لهم بالمرصاد، فأخذ يراقب تحركاتهم وخططهم، ويرسل العيون[1] من أجل ذلك، ليفوِّت على المشركين الوصول إلى مآربهم، وليردَّ كيدهم في نحرهم.

وفي أواخر سنة أربع للهجرة بعث النبي ﷺ عشرة من أصحابه عيوناً، ليتعرفوا له أخبار قريش، وجعل على السرية البطل الشجاع عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري، وأرسل معه في جملة من أرسل: زيد بن الدَّثِنَة، وخُبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق.

وانطلق الرجال العشرة من المدينة المنوَّرة ولا يعلم بخبرهم إلاّ رسول الله ﷺ وأُناس قلائل، وجعلوا يسيرون الليل، ويكمنون النهار لئلا يشعر بهم أحد... كان مقصدهم مكة، ولقد مرّوا على قبائل عديدة ـ وكلها تنصب العداء لهم ـ وهي لا تحسّ بهم، حتى إذا كانوا في ديار هُذَيل، الذين كانوا يقيمون قريباً من مكة، نزلوا سَحَراً قريباً من ماءٍ يقال له «الرّجيع»، فأكلوا تمر عجوة، فسقطت بعض النوى في الأرض وهم

---

(١) العيون: الجواسيس.

لا يشعرون بها، فجاءت امرأة من هذيل ترعى غنماً، فرأت النَّوَى فأنكرت صغرهنَّ وقالت: هذا تمر يثرب، ثم صاحت في قومها: أُتيتم!!

ونفر نحو مائتي رجل من بني لِحْيان من هُذَيل لأصحاب رسول الله ﷺ، فاقتصُّوا[١] آثارهم حتى وجدوهم على ماء الرَّجِيع[٢]، فلم يَرُع القوم وهم في رحالهم إلاّ الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم[٣]، فلما أحسُّوا بهم لجأوا إلى جبل صغير قريب منهم واعتصموا به.

وأحاط بهم الأعداء من كل جانب، وأرادوهم على النزول فلم يفعلوا.

ثم عاد الأعداء إلى ترغيبهم بالنزول وقالوا لهم: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً[٤]، فلم يفعلوا أيضاً.

ونظر أصحاب رسول الله ﷺ إلى أميرهم البطل «عاصم بن ثابت» ليروا ماذا يصنع، فقال لهم:

أما أنا فلا أنزل في ذمة كافر. اللهمّ أخبر عنّا نبيّك!!

وصاح إخوانه: ونحن لا ننزل في ذمة كافر.

ثم شرعوا جميعاً يرمون أعداءهم بالنبل، وعاصمٌ ينشد:

المـوتُ حـقٌّ والحيـاة بـاطـلٌ وكـلُّ مـا قضـى الإلَـهُ نـازلُ

بالمرءِ والمرءُ إليه آيلُ[٥]

واستمر هؤلاء الأبطال الشجعان يرشقون أعداءهم بالنبل، وأعداؤهم

(١) اقتصوا آثارهم: بحثوا عنهم وتتبعوا آثارهم.
(٢) ماء الرجيع: ماءٌ لهذيل بين مكة وعسفان.
(٣) غشوهم: وصلوا إليهم.
(٤) كان الهذليون يرغبون بأسر الصحابة وبيعهم لقريش ليصيبوا مالاً وليتخذوا عندهم يداً.
(٥) آيل: صائر.

يردون عليهم حتى نفد نبل أصحاب رسول الله.. وظن الأعداء أن عاصماً وأصحابه سينزلون إليهم مستأسرين لكنهم لم يفعلوا، وخشوا هم إن صعدوا إليهم من سيوفهم ورماحهم، فرشقوهم بوابل من النبل، وانحطَّ إليهم عاصم وبعض أصحابه يريدون أن ينالوهم بسيوفهم ورماحهم؛ لكنهم صُرعوا بنبل الأعداء، وسقطوا شهداءَ أبراراً، ومات عاصم رحمه الله في سبعة نفر ممن كان معه، وبقي من المسلمين ثلاثة وهم: زيد بن الدَّثِنة، وخُبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، فلم ينزلوا لقتال الأعداء، واعتصموا بالجبل، فخرج إليهم أعداؤهم، فجعلوا يصعدون في الجبل فلم يقدروا عليهم.

وعاد الأعداء يرغِّبون المسلمين بالنزول إليهم ويقولون لهم:
لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألاّ نقتل منكم رجلاً.

وأخيراً خَشَعت[1] أنفس الثلاثة، فلانوا، ورقُّوا، وأعطوا بأيديهم، ونزلوا إلى أعدائهم.

فلما استمكنوا منهم حَلُّوا أوتار قِسيّهم[2]، فربطوا زيداً وخبيباً، ورأى عبد الله بن طارق صنيعهم فامتنع منهم وصاح:
هذا ـ والله ـ أول الغدر، والله لا أصحبكم!!

فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فامتنع وقال:
لي بهؤلاء القتلى أسوة!!

فقتلوه رحمه الله.

وانطلق بنو لِحْيان بالأسيرَيْن: زيدٍ وخبيب، فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هُذَيل كانا بمكة، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بالحارث بن عامر، وابتاع زيداً صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية[3].

---

(١) خشعت نفس فلان: خافت. (٢) القسي: جمع قوس. ووتر القوس: شريطه.
(٣) هو أمية بن خلف، كان من سادات قريش في الجاهلية، ومن طواغيتها في الإسلام، قتل يوم بدر.

٢

وبلغ الخبرُ رسولَ الله ﷺ بما أصاب أصحابه، فحزن عليهم أشدّ الحزن، ودعا لهم، ودعا على من غدروا بهم.

وحزن زيدٌ وخبيب على ما صدر منهما، وأسفا أشدَّ الأسف، وجعلا يلومان نفسيهما، ويقول كل منهما: يا ليتني مِتُّ على ما مات عليه إخواني ولم أُعطِ يدي، وجعلا يستغفران الله تعالى، ويسألانه الشهادة تكفيراً عمّا فعلاه!!

أما مشركو قريش فقد طابت أنفسهم بما حصل لأصحاب رسول الله ﷺ من القتل على يدِ بني لِحْيان، وفرحوا أشدَّ الفرح بالأسيرين، وعقدوا العزم على قتلهما شرّ قتلة؛ ليجعلوا منهما عبرة لكل من تحدِّثه نفسه بمناوأة قريش سيدةِ الحَرَم، وبالخروج على الدين الذي ترعى حرمته وتصون جرثومته[١].

وانتظر المشركون بفارغ الصبر حتى انتهت الأشهر الحُرُم[٢]، فقد مضت بقية أيام ذي القعدة ومضى ذو الحجة والمحرم، وما إن أهلَّ صَفَر حتى نودي في مكة:

يا أهل مكة، إن صاحبي محمد سيقتلان غداً، خارج الحرم، فمن شاء أن يحضر فليفعل!!

وخفقت القلوب فرحاً بهذا النبأ فقد كانت مَوْجدة[٣] قريش عظيمة على رسول الله وأصحابه، لم يشفها ما أصابت منهم يوم أُحد، وكانت أحزانهم عظيمة على قتلاهم ببدر!!

---

(١) جرثومة الشيء: أصله.
(٢) الأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، وكان العرب يعظمونها في الجاهلية ولا يقاتلون فيها.
(٣) الموجدة: الغضب.

وجاء اليوم الموعود، وخرج صفوان بن أمية غدوة بزيد بن الدثنة، يمسك به مولاه «نسطاس»، وخرج زعماء مكة على دوابِّهم، وهُرِع النساء والأولاد والعبيد من كل مكان، وتجمع جَمْع حاشد في التَّنْعِيم[1] على مشارف مكة، وكلهم يتوق لرؤية هذا الصابىء[2] وهو يقتل.

وجيء بزيد إلى وسط الناس، فجعل زعماء مكة يشتمونه وينالون منه ومن رسول الله ﷺ، فأعرض عنهم زيد، وأقبل على ربِّه يذكره بقلبه ولسانه، ويحمده على أن هيأ له هذه الشهادة التي ستمحو خطيئته...

كان فرحه عظيماً، وسروره كبيراً، فهو سيصير إلى الجنة بعد ساعة.. وتذكّر زيد في تلك اللحظات كلمة قالها رسول الله ﷺ بعد استشهاد أصحابه يوم أحد؛ تذكر النبي وهو يقول لأصحابه يومها:

«لما أُصيب إخوانكم يوم أحد؛ جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر، ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من الذهب في ظل العرش!!.

فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم، قالوا:

يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يوهنوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب!!.

فقال الله تعالى:

أنا أبلغهم عنكم.

فأنزل هذه الآيات:

﴿ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم

---

(١) التنعيم: موضع بمكة خارج الحرم على طريق المدينة، يقال له الآن: مسجد عائشة.

(٢) الصابىء: الذي غيَّر دينه.

من خلفهم، ألاّ خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأنّ الله لا يُضيع أجر المؤمنين﴾».

وازداد سرور زيد، وهبَّت عليه نسائم الجنة، فأخذ يستنشق أريجها العطر، حتى ذُهل عما حوله!!

وقبل قتله حاول زعماء مكة أن يطمعوه في الحياة، فقالوا له: إن أنت رجعت عن دينك نجوت من القتل، لكن زيداً أجابهم:

إنه ـ والله ـ أحب إليّ أن أموت ألف موتة، ولا أفعل الذي تذكرون!!

ودهش زعماء مكة من كلمته، وجاءه نسطاس فأخذ بيده، ثم وضعه في مكانٍ، ثم جعلوا يرمونه بالنبل بين رجليه ليفتنوه عن دينه، فما زاده ذلك إلاّ ثباتاً.

وجعل الناس يصيحون: اقتلوه، فما هو بمستجيب لكم!!

وهنا أقبل أبو سفيان بن حرب على زيد وقال له:

أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تُضرب عنقه، وأنك في أهلك؟!

وأجابه زيد بصوت عالٍ سمعه الجميع:

والله ما أحب أن محمّداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي!!

وتعجَّب الناس أشد العجب من هذا الجواب، وقال أبو سفيان لمن حوله:

(ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً، كحبِّ أصحابِ محمدٍ محمداً!!).

ويتقدم نسطاس بسيفه المرهف، ويضرب به عنق زيد، فيخر الرجل صريعاً إلى الأرض، وترتفع روحه الطاهرة إلى عليِّين، ويصيح الجاهلون

ويلغطون، ويضحكون وهم لا يفقهون!!

وينادي منادٍ سمعه الجميع:
أيها الناس، موعدكم عشية هذا اليوم، لتشهدوا مقتل صاحب محمد الآخر: خُبَيب بن عدي.



وتجمع الناس من جديد عشية ذلك اليوم في التنعيم، وجيء بخُبيب بن عدي ليقتل، وصاح عددٌ من زعماء قريش:
والله لا ندعه يموت إلاّ وهو مصلوبٌ، ولَنَدَعَنَّه على خشبته زماناً، حتى يرى الناس أن ليس في القبائل أعزّ من قريش!!

ووافق الجميع على هذا الرأي، وقالوا: إذن نصلبه.

ونُصبت خشبة طويلة في الأرض، واقتيد خبيب لها، فسار واثق الخطا، طَلْق المحيًا[1]، باسمَ الثغر، فهو اليوم الذي ينتظره، ولقد دعا ربه كثيراً أن يرزقه الشهادة.

وقبل أن يرفع على خشبته ناداه زعماء قريش فقالوا:
يا خُبيب، ارجع عن دينك نخلِ سبيلك ولا نمسّك بسوء!!

وأجابهم:
يا قوم، والله إنَّ قتلي في سبيل الله لَقليلٌ، وَلَهُوَ اليوم الذي أنتظره!!

وتعجَّب زعماء قريش من جوابه، ثم جعلوا ينظرون إلى بعضهم والدهشة تكسو وجوههم ولا ينقضي عجبهم!!

وقال لهم خبيب:
دعوني أصلِّ ركعتين.

---

(١) طلق المحيا: مستبشر الوجه.

وأجابوه: لك ذلك. فتوجَّه إلى الكعبة، ورفع يديه مكبِّراً، ثم اطمأن واقفاً وقرأ ما شاء أن يقرأ، ثم ركع ثم سجد، حتى أتم ركعتين، والمشركون يرمقونه بأبصارهم ويعجبون من صنيعه.

وبعد أن أتم صلاته أقبل على المشركين بوجهه وقال لهم:

أما والله، لولا أن تظنُّوا أني إنما طوَّلتُ جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة[١]!!.

ثم أنشد:

وما إنْ أبالي حين أُقتل مسلماً ... على أيِّ شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإلّه وإن يشأ ... يبارِكْ على أوصال شِلْوٍ ممزَّع[٢]

لقد أجمع الأحزاب حولي وألَّبوا[٣] ... قبائلهم واستجمعوا كلّ مجمع

إلى الله أشكو غربتي بعد كربتي ... وما أرسل الأحزاب لي عند مصرعي

وعُلِّق خبيب على الخشبة، وشُدَّ بالحبال الغليظة، وتوجه إلى الله بقلبه، ونظر إلى الناس بوجهه، وقال بصوت عالٍ:

اللهمّ، إنَّا بلَّغنا رسالة رسولك، فبلِّغه الغداة ما يُصنع بنا!!

اللهمَّ أحصِهم عدداً، واقتلهم بِدَداً[٤]، ولا تغادر منهم أحداً!!

ورجفت قلوب القرشيين لهذا الدعاء، واعتقد الكثيرون أنه لا بدَّ أن سيصيبهم، وأمسك أبو سفيان بولده معاوية ـ وكان غلاماً ـ فألقاه إلى

---

(١) قال ابن إسحاق في سيرته: كان خبيب أول من سنّ هاتين الركعتين عند القتل. وقال السهيلي شارح السيرة: وإنما صارت سنّة لأنها فُعلت في زمن النبي ﷺ واستحسنت من صنيعه.

(٢) شلو ممزع: يريد قِطَع جسمه الممزق.

(٣) ألبّوا: جمّعوا.

(٤) بدداً: بكسر الباء: جمع بِدّة، وهي الحصة والنصيب، أي: اقتلهم حصصاً مقسمة لكل واحد حصته ونصيبه. ويروى بالفتح: أي متفرقين في القتل واحداً بعد واحد، من التبديد.

الأرض فرَقاً[١] من دعوة خبيب[٢]!!

وقام عقبة بن الحارث إليه يريد أن يقتله، فصاح به أبو سفيان: دَعْه لي قبل أن تقتله، ونظر أبو سفيان إلى خبيب وقال له:

يا خُبَيب، أنشدك الله، أتحب أن محمداً مكانك!!

وأجابه خبيب بصوت عالٍ سمعه الجميع:

لا والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة يُشاكها في قدمه!![٣]

وضحك السفهاء، وعجب أبو سفيان والملأ من قريش أشدَّ العجب، وقال أبو سفيان لمن حوله:

ألم أقل لكم ما قلت في حبِّ أصحاب محمدٍ له!!

وأمسك عقبة بن الحارث بالحربة، فجعل يطعن بها خبيباً حتى فاضت روحه الطاهرة إلى بارئها.

ويومها، وبينا رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه في مدينته الطيبة، إذا به يأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي، ثم سمعوه يقول:

وعليكما السلام!!

حتى إذا سُرِّي عنه[٤]، ذكر لأصحابه مقتل زيد وخبيب، ودعا لهما، وترحَّم عليهما وقال:

«هذا جبريل يقرئني منهما السلام»!!.

---

(١) فرقاً: خوفاً.
(٢) كانوا يقولون: إن الرجل إذا دعي عليه، فاضطجع لجنبه، زلَّت عنه.
(٣) ذكر ذلك موسى بن عقبة في مغازيه، وهي من أوثق المغازي، هذا وقد تواطأ الصحابيان الشهيدان رضي الله عنهما على هذه الكلمة.
(٤) سري عنه: ذهب عنه ما غشيه من تلقي الوحي.

٤

قال الراوي:

بقي فصل قصير في قصة الحب والفداء هذه لا بد من ذكره. . .

فلقد عاد مشركو قريش إلى مكة واستولى على عامة أهلها السرور والابتهاج، لكنَّ عدداً من عقلائهم تأثروا تأثراً بالغاً بما رأوه من صاحبي رسول الله ﷺ:

سرور بالغ في استقبال الموت!!

تضحية عظيمة من أجل دينهم!!

حُبٌّ لا يوصف لنبيِّهم!!

وتحدث العقلاء بحديث هذين الشهيدين. . وجلست بنتٌ من بنات الحارث بن عامر ـ وكان خُبَيب حبس عندها طيلة الأشهر الحُرُم ـ جلست إلى صويحباتها تحدثهنَّ عن أسيرها فقالت:

ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يوماً ـ وقد اطّلعت عليه من شقِّ الباب ـ يأكل من قِطْف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلّا رزقٌ رزقه الله!!

ولقد قال لي أول ما حبس:

أسألك أن تسقيني العذب، وأن تجنبيني ما ذبح على النُّصُب[1]، وأن تعلميني إذا أرادوا قتلي!!

ولقد رقَّ له قلبي ـ والله ـ وأعظمتُ أمره!!

وقبل أن يقتل بأيام أخبرته، فقال لي: أعيريني موسى[2]، فأعطيته

(١) النصب: حجر كانوا ينصبونه في الجاهلية، ويتخذونه صنماً فيعبدونه، وكانوا يذبحون عنده، والجمع أنصاب.
(٢) الموسى: آلة يحلق بها.

ما طلب، فأغلق عليه بابه، فعرفت أنه يستحدُّ بها[١]، حتى إذا فرغ فتح الباب، وجلس أمامه. وغفلتُ عن صبي لي، فدرج حتى أتاه، فأمسكه ووضعه على فخذه، وحين رأيت الصبي بين يديه شعرت وكأن قلبي نُزِع مني، ففزعت فزعة كبيرة على الولد، وقلت في نفسي: أصاب الرجل ثأره!!

وشعر هو بذلك، فنظر إليَّ وقال:
أتخشينَ أن أقتله؟!

ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى!!

ثم قبَّل الصبي وأطلقه، فذهب رَوْعي، ورُدَّت إليَّ روحي

فلا والله ما رأيت أسيراً قط خيراً منه!!.

قال الراوي:
وعُلِّق خبيب على الأعواد، ورآه الكثيرون من الناس، وشمت به المشركون، وحزن عليه المسلمون لا سيما المستضعفون بمكة، وأحاط المشركون خشبته بعدد من رجالهم يحرسونها لئلا يأتي أحدٌ فينزله.

وحزن رسول الله ﷺ في المدينة المنورة على صاحبه أشدّ الحزن، وقال لأصحابه:
أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟

فقال الزبير بن العوام:
أنا يا رسول الله، وصاحبي المقداد بن عمرو.

... وودَّعهما رسول الله ودعا لهما، ثم انطلقا يسيران الليل ويكمنان النهار، حتى وصلا «التنعيم» حيث علق خبيب، وراعهما أن بالقرب منه

(١) يستحد بها: يحلق عانته، ليلقى ربه طاهراً نظيفاً.

رجالاً كثيرين، لكنهما لم يشعرا لهم بحركة، وتشجع الزبير فأقبل عليهم ليرى حالهم؛ فإذا هم سكارى نائمون.

وأقبل الرجلان على خبيب فأنزلاه من على خشبته، بعد أن بقي مصلوباً أربعين يوماً، ثم حمله الزبير على فرسه وهو رطب لم يتغير منه شيء، ثم سارا!!

وبعد قليل شعر بهما المشركون، فانطلقوا وراءهما... وأحسّ الرجلان بذلك، وأيقنا أن المشركين لا بدّ سيدركونهما، فقذف الزبير بجثة خبيب، واعتقد المشركون أنهم قد أدركوا جثة صاحبهم، فَلَهَوْا عن الزبير وصاحبه، وأقبلوا على المكان الذي ألقيت فيه الجثّة.

وراعهم أنهم لم يجدوا لها أثراً، وجعلوا يتعجبون مما جرى أشد العجب، وحَلَف عدد منهم أنهم رأوها بأعينهم تسقط على الأرض من فوق الفرس، واستولى على المشركين ذهول كبير، ولم يعرفوا حقيقة الأمر.

ويومها علم المسلمون أن الله أكرم جثة صاحبهم، فشقَّ لها الأرض، فابتلعتها وصارت لها قبراً، وكفَّ أيدي المشركين عنها[1]!!

قال الـراوي:

ومضى زيد وخبيب وإخوانهم من شهداء يوم الرجيع إلى ربهم سبحانه، وذَكَر مَنْ ذَكَر من الناس قصة الشهيدين فيما بعد، ونسيها من نسيها!!

بَيْدَ أنَّ كلمتها الخالدة التي عبرت عن أعظم معاني الحب والفداء،

---

(١) هذه رواية السيرة الحلبية في أن الذي أنزل جثة خبيب هما: الزبير والمقداد. وهناك روايات أخرى تذكر أن الذي أنزلها هو عمرو بن أمية الضمري. وكل الروايات مجمعة على أن الأرض ابتلعت جثة خبيب رضي الله عنه حين سقطت على الأرض.

والتي رسمت لنا أصدق صورهما وأشكالهما. . . هذه الكلمة لم ينسها أبداً قرّاء السيرة النبوية، فهم قد تغيب عن أذهانهم قصة استشهادهما، ومجرياتها، إلاّ أنهم يذكرون تلك الكلمة الخالدة التي قالها الرجلان أمام جموع المشركين، ويرددونها دائماً وأبداًً!!.



المـراجــع:

ــ فتح الباري، (كتاب المغازي)، ٨/ ٣٨٢.

ــ سيرة ابن هشام، ٢/ ١٦٩.

ــ البداية والنهاية. ٤/ ٦٣.

ــ السيرة الحلبية، ٣/ ١٥٧.

هكذا إزرة صاحبنا

١

في أخريات السنة السادسة للهجرة، جلس رسول الله ﷺ في مسجده الشريف صبيحة يوم من الأيام يحدِّث أصحابه عن منام جميل رآه. فأخبرهم أنه رأى في المنام أنه وَهُمْ قد دخلوا المسجد الحرام بمكة، وطافوا حول الكعبة المعظَّمة، وحلقوا رؤوسهم وقصّروا!!

وكان وَقْعُ هذا المنام على قلب النبي وأصحابه رائعاً وجميلاً، فقد كانوا يتوقون[1] لرؤية المسجد الحرام والطواف حول البيت المعظَّم؛ كما يتوق العطشان إلى الماء البارد، وكما يتوق الغريب البعيد إلى وطنه وأهله!!

وفرحوا فرحاً شديداً بما حكى لهم رسول الله ﷺ، استبشروا خيراً، وأيقنوا جميعاً أن هذا المنام لا بدَّ أنه سيتحقق، فهو رؤيا رآها رسول الله، وما يراه رسول الله فهو حق لا شك فيه!!.

ولم يلبث الصحابة إلاّ قليلاً حتى صَدَر إليهم أمر رسول الله ﷺ بالتجهز للعمرة، وسَوْقِ الهَدْيِ[2] إلى الكعبة.. وخرج النبي ﷺ بجماعة كبيرة[3] من أصحابه من المدينة المنورة، وساقوا إبل الهدي أمامهم، وقلَّدوها وأشعروها[4]، ليعرف كل من يراهم من العرب أنهم يريدون العمرة.. حتى

(١) يتوقون: يشتاقون.
(٢) الهَدْي: ما يهديه الحجاج والعُمّار إلى البيت الحرام من الإبل والبقر والغنم لتنحر هناك.
(٣) كان عددهم (١٤٠٠) رجلاً.
(٤) قلّدوها: وضعوا القلائد (الأطواق) في أعناقها. أشعروها: شُقُّوا أحد جنبي سنام =

إذا صاروا بُعَيد المدينة بقليل أحرموا بالعمرة، وانطلقت حناجرهم تهتف:

«لَبَّيْك اللَّهمَّ لَبَّيْك. لَبَّيْك لا شريك لك لَبَّيك. إن الحمد والنعمة لك والملك. لا شريك لك».

ومرّ الركب المبارك على قبائل منتشرة في الطريق، فرأت فيه أمارات[١] التُقى والنُّسُك[٢]، والرغبة الخالصة في زيارة البيت وتعظيمه.. وتابع الركب سيره، حتى إذا وصل إلى الحديبية[٣] خلأت هناك ناقة النبي ﷺ «القصواء»[٤].

وصاح الناس:

خلأت القصواء، خلأت القصواء!!

وزجروها لتقوم، لكنها بقيت في مكانها لم تبرحه.

وزجروها ثانية فلم تتزحزح عن موضعها، فعادوا ليقولوا:

خلأت القصواء، خلأت القصواء!!

وعندها توجه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال لهم:

«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل[٥]!! والذي نفسي بيده، لا يسألوني خُطّة يعظمون فيها حُرُمات الله، إلاّ أعطيتهم إياها».

وأقبل، عليه الصلاة والسلام، على ناقته فزجرها، فوثبت، فمشت به

= الجمل أو الناقة حتى يسيل دمها، علامة تعرف بها أنها هَدْي.

(١) أمارات: جمع أمارة، وهي العلامة.

(٢) النسك: الطاعة والعبادة وكل ما يتقرب به إلى الله تعالى.

(٣) الحديبية: قرية قريبة من مكة.

(٤) القصواء: الناقة التي قُطع طرف أذنها، ولم تكن ناقة النبي ﷺ قصواء، وإنما كان هذا لقباً لها. ومعنى خلأت: حَرَنت أي: وقفت ولزمت مكانها وأبت المشي.

(٥) الفيل: هو فيل أبرهة الحبشي الذي جاء يغزو الكعبة في الجاهلية، وقصته معروفة أوضحتها سورة الفيل في القرآن الكريم. والذي حبس الفيل هو الملائكة.

حتى نزل بأقصى الحديبية على ماء قليل، وانتظر هناك ما يقضي به الله بينه وبين مشركي مكة.



أما قريش فقد أخذتها حميَّة الجاهلية، فحمل رجالها السلاح، ونفر شجعانها، ونهض زعماؤها يبغون في الأرض، ويُلْحدون في الحَرَم[١]، وعزموا على مَنْع رسول الله وأصحابه من دخول مكة، ولو كلّفهم ذلك إشعال نار حرب حامية.

لكنّ بعض عقلاء القوم رأوا أن يرسلوا رسولاً إلى النبي ﷺ لينظر حقيقة ما يريده، فأرسلوا له رجلاً من خزاعة يقال له: «بُدَيْل بن وَرْقاء الخزاعي»، فأخبر النبي ﷺ أن قريشاً قد خرجت عن بَكْرة أبيها[٢] تريد أن تصدّه عن مقصده، وأن تقاتله إنْ دخل عليها عَنْوة[٣].

وأجابه النبي ﷺ:

«إنا لم نجيء لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين.

وإن قريشاً قد نَهكَتْهُمُ[٤] الحرب وأضرّت بهم.

فإن شاؤوا مادَدْتهم[٥] مدة؛ ويخلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر[٦]، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فَعَلوا، وإلاّ فقد جَمُّوا[٧].

وإن هم أبَوْا؛ فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد

(١) يلحدون في الحرم: يميلون عن الحق إلى الباطل.
(٢) بكرة أبيها: أي: خرجوا جميعهم.
(٣) عنوة: قَسْراً وقهراً وغلبة.
(٤) نهكتهم الحرب: جهدتهم وغلبتهم وشقّت عليهم.
(٥) ماددتهم: جعلت بيني وبينهم مدة تقف فيها الحرب.
(٦) أظهر: أنتصر على أعدائي، وينتشر ديني.
(٧) جموا: استراحوا.

سالفتي[١]، ولينفذنَّ أمر الله»[٢].

وعاد الرجل إلى قريش، فحدثهم بما سمع وبما رأى، وأثنى على رسول الله ﷺ خيراً، لكنَّ قريشاً أخذتها العزَّة بالإِثم، وأعرضت عن الرجل، بل وسفَّهت رأيه!!

ثم إنهم أرسلوا رجلاً آخر يقال له: «عروة بن مسعود الثقفي» ليرى ماذا يريد رسول الله ﷺ، فجاءه وقال له:

يا محمد، ما هذا الحديث؟!

تدعو إلى ذات الله، ثم جئت قومَك بأوباش الناس[٣]، من تعرف ومن لا تعرف لتقطع أرحامهم، وتستحل دماءهم وأموالهم؟!

وردَّ عليه النبي ﷺ قائلاً:

«إني لم آتِ قومي إلاّ لأصلَ أرحامهم، يبدلُهم الله بدينٍ خيرٍ من دينهم، ومعاشٍ خير من معاشهم».

ثم كلَّمه بنحو ما كلَّم به بُدَيل بن وَرْقاء، وأخبره أنهم جاؤوا معتمرين لا يريدون حرباً.

وقنع عروة بكلام رسول الله، وأدهشه ما رأى من تعظيم أصحابه ومحبتهم له، فرجع يقول لقريش:

أيْ قوم، والله لقد وفدت على الملوك.. وفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ[٤] رأيتُ مَلِكاً يعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمدٍ محمداً!!

---

(١) تنفرد سالفتي: أي: صفحة العنق، وكنّى بانفرادها عن الموت.
(٢) لينفذن أمر الله: وليتمنَّ ما أراده الله.
(٣) الأوباش ـ وتروى «الأوشاب» والمعنى واحد ـ: هي الجموع المختلفة، من قبائل شتى.
(٤) إنْ: أي: (ما).

إذا أمرهم ابتدروا أمره[١]، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه[٢]، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدّون[٣] النظر إليه تعظيماً له.

إنه عرض لكم خُطَّة رُشْدٍ فاقبلوها.

وأعرضت قريش عن عروة بن مسعود، واستخفَّت برأيه.

ثم إنها أرسلت رجلين آخرَين، فعادا بمثل ما عاد به الرجلان السابقان، وأشارا على أهل مكة بأن يمكِّنوا رسول الله وأصحابه من دخول مكة والاعتمار بها؛ لكنهم سفَّهوا رأي هذين الرجلين أيضاً، بل وانصرفوا إلى المستضعفين من المسلمين ممن كانوا هناك، فأوقعوا بهم، واشتد أذاهم لهم!!.



ورأى النبي ﷺ أن يرسل أحد أصحابه رسولاً إلى أهل مكة، يبلِّغهم ما جاء من أجله، ويطوف على المستضعفين من المسلمين فيواسيهم ويقوي من عزيمتهم.

واختار رسول الله ﷺ لهذه المهمة «عثمان بن عفان» فقومه بمكة كثيرون، وهم يمنعونه من بقية أهلها إن أرادوا به شراً، ودعاه عليه الصلاة والسلام فقال له:

«أخبرهم أنَّا لم نأت لقتالٍ، وإنما جئنا عُمّاراً[٤]، وادعهم إلى الإِسلام».

---

(١) ابتدروا أمره: سارعوا لطاعته.
(٢) الوضوء: بفتح الواو: ماء الوضوء.
(٣) ما يحدّون النظر إليه: ما ينظرون إليه نظراً قوياً متصلاً، هيبة له وتعظيماً لأمره ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.
(٤) عماراً: جمع معتمر، وهو الذي يريد العمرة.

وأمره أن يأتي رجالاً بمكة من المؤمنين ونساءً مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشِّرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله جلَّ ثناؤه يوشك أن يظهر دينه، حتى لا يُستخفى فيها بالإيمان، تثبيتاً يثبّتهم.

وانطلق عثمان على ناقته، حتى إذا كان في مشارف مكة رأى جموع قريش الكثيرة، يتقدمهم زعماؤها، فأسرع إليه عدد من المشركين، لكن نفراً من بني أمية سبقوهم، وأحاطوا به، ثم سألوه عن سبب مجيئه، فقال:
جئت أبلِّغ أهل مكة رسالة من رسول الله ﷺ.

وتقدم عثمان يحفُّ به بنو أمية حتى إذا وقف على زعماء مكة قالوا له: أين؟

فقال عثمان:
بعثني رسول الله ﷺ إليكم لأدعوَكم إلى الله عزّ وجلّ وإلى الإسلام، ونخبركم أنا لم نأتِ لقتال أحدٍ، وإنما جئنا عُمَّاراً.

ثم دعاهم إلى الإسلام ورغَّبهم فيه، وحضَّهم على متابعة رسول الله ﷺ.

لكنهم ردُّوا عليه بغلظة وجفاء وقالوا:
قد سمعنا ما تقول فانفذ لحاجتك.

ثم قالوا له:
أخبر صاحبك بأنا غير مُمكِّنيه من دخول مكة علينا.

وقام إلى عثمان عدد من سفهاء القوم، فجعلوا يعبثون به، فغمزوا ناقته، وأمسكوا بثيابه، وأساؤوا له القول!!

وعندها قام أبان بن سعيد بن العاص فأجار ابن عمه عثمان بين الناس، فكفَّ السفهاء عنه، ثم أسرج أبَان فرسه، وأردف عثمان وراءه، وأنشد لعثمان على مسمع من الناس:

أقْبِلْ وأدْبِرْ ولا تَخَفْ أحداً بنو أمية سادةُ الحرمِ

ثم أهوى بسوطه على فرسه فانطلقت تسابق الريح، حتى إذا وصلت مكة، نزل أبَان وتبعه عثمان، وقال أبَان لابن عمه:

اذهب حيث شئت، وكلِّم من شئت، فلن ينالك شيءٌ تكرهه، فقد أجرتك بين الناس!!

ومشى عثمان يريد أن يطوف على المستضعفين من المسلمين، ونظر إليه أبان فأحزنه أن يلبس واحدٌ من بني أمية إزاراً قصيراً لا يبلغ أنصاف ساقيه، فناداه:

قِفْ يا ابن عم.

ثم أقبل عليه يعاتبه:

يا ابن عم ما لي أراك مُتَحَشِّفاً[١]؟.

أَسْبِلْ إزارك كما يسبل قومك[٢]!!.

وأجابه عثمان على التوِّ[٣]:

هكذا إزرة صاحبنا[٤]!!.

وسكت أبان، وانقطع عن الكلام.

ومضى عثمان فطاف على سائر المستضعفين والمستضعفات بمكة، فبلَّغهم ما قاله رسول الله ﷺ، وبشّرهم بقرب ظهور الإسلام واندحار الشرك، وطمأنهم بأن الفرج قريب قد لاحت تباشيره.

وعاد عثمان إلى بيت ابن عمه أبان ـ وكان ينتظره ـ فقال له:

---

(١) المتحشف: اللابس للحشيف، وهو الخَلَق من الثياب.

(٢) أسبل إزارك: أي: دعه يسترخي ويجر على الأرض. وهذه كانت عادة العرب لا سيما كبراؤهم. والإزار: ما يغطي جسم الإنسان من السرّة إلى أسفل.

(٣) على التو: فوراً وسريعاً.

(٤) صاحبنا: أي: رسول الله ﷺ.

قم يا ابن عم فطُفْ بالبيت، فأنت آمن!!

وأجابه عثمان:

ما كنت لأفعل حتى يطوفَ به رسول الله!!

إنا لا نصنع شيئاً حتى يصنع صاحبنا ونتبع أَثره!!

ودهش أبَان لهذا الجواب، فانقطع ثانية عن الكلام، وعجب أشد العجب لشدة حبِّ عثمان لرسول الله ﷺ وعظيم اتِّباعه له!!.

٣

عاد عثمان إلى زعماء قريش، فطاف عليهم، وأخبرهم من جديد أن رسول الله ﷺ لا يريد حربهم، وهو لا يريد إلّا العمرة، وناشدهم الله والرَّحِم أن لا يصدّوا المسلمين، وراوضهم فطالت مراوضته لهم(١)، لكنَّ المشركين ظلوا على موقفهم العنيد، وأصروا على منع المسلمين من دخول مكة.

وتأخر عثمان على رسول الله ﷺ، ومضت عليه ثلاث وهو في مكة، وخشي عليه الصلاة والسلام أن يقع بينه وبين قريش صدام نتيجة لتعنتها، وخشي أن تباغته وأصحابه، فأمر مناديه أن يطوف في المسلمين وينادي:

أيها الناس، البَيْعَة البَيْعَة، نزل روح القدس(٢).

وهبَّ الناس من قيلولتهم، وأسرعوا إلى رسول الله ﷺ ـ وكان قد وقف تحت شجرة ـ لأخذ البيعة وتزاحم الصحابة على رسول الله ﷺ يبايعونه على عدم الفرار؛ وأنه إما الفتح وإما الشهادة، حتى إذا انتهى الناس من بيعتهم، بايع رسول الله ﷺ لعثمان بإحدى يديه على الأخرى.

وبعد إتمام البيعة أقبل بعض الناس على رسول الله ﷺ يقولون:

---

(١) المراوضة: المفاوضة.

(٢) روح القدس: جبريل عليه الصلاة والسلام.

هنيئاً لأبي عبد الله[1]، يطوف بالبيت ونحن ها هنا!!

لكن رسول الله ﷺ أجابهم:

«لو مكث ـ عثمان ـ كذا وكذا سنة؛ ما طاف حتى أطوف!!».

وسكت الناس حين سمعوا هذه الكلمة من رسول الله ﷺ، وكبر عثمان في عيونهم، وزادت مكانته في قلوبهم، وغَبَطوه[2] على ثناء رسول الله عليه وإكباره لشأنه.

وعاد عثمان من مكة، وتلقَّاه رسول الله وأصحابه بالمودة والمحبة، وأخبر عثمان رسول الله ﷺ بما جرى له، فأسف عليه الصلاة والسلام لتعنت قريش وصدِّها عن سبيل الله، وجعل يقلِّب وجهه في السماء، يستعين بالله سبحانه على أمره.

وبينا هو في موقفه لم يبرحه إذا بسُهيل بن عمرو يأتيه موفَداً من قبل مشركي قريش، وحين لمحه رسول الله ﷺ قال:

«سَهُل أمركم!!».

وفاوض سهيلٌ رسولَ الله، وانتهت المفاوضة بصلح الحديبية، وعاد النبي وأصحابه إلى المدينة عامهم هذا، وأحزن ذلك كثيراً من الصحابة، فهم لم يدركوا قيمة هذا الصلح، ونزلت على رسول الله ﷺ وهو في طريق عودته هذه الآيات التي تفصح عن عظيم أهمية هذا الصلح؛ وتسمِّيه فتحاً مبيناً:

﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفرَ لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتمَّ نعمته عليك، ويهديَك صراطاً مستقيماً. وينصرَك الله نصراً عزيزاً﴾.

ورأى المسلمون عن قريب آيات هذا الفتح، وسجل التاريخ في صحائفه قصص أيام مجيدة من أيام الإسلام، وصفحات جهادٍ من جهاد

---

(١) أبو عبد الله: عثمان رضي الله عنه.

(٢) غبطوه: تمنوا مثل ماله من الفضل.

الصحـابـة الكـرام، معطَّـرة بشـذى الفـداء والتضحيـة، والحـب الكبيـر لرسول الله.



المـراجـع:

- الطبقات الكبرى، لابن سعد، ١/ ٤٦١.
- كنز العمال، ١/ ٨٤ و ٥/ ٢٨٨.
- صحيح البخاري، (كتاب المغازي).

لعَلّ خُفًّا يقَع عَلى خُفّ

١

طلع الفجر من يوم عرفة على الحجيج وهم «بمنى»؛ فأدَّوا صلاة الفجر، وجلسوا يذكرون الله تعالى، وينتظرون طلوع الشمس، ليسيروا متوجِّهين إلى الموقف الأعظم في عرفات.

كانت القلوب خفّاقة، والنفوس مشتاقة، والأرواح والهة[١]، والأبصار زائغة[٢]، وكلها تتطلع إلى «ثَبِير»[٣] تريد أن ترى الشمس وقد بزغت من ورائه لتبدأ المسير.

ولاحت للناس خيوطٌ بيضاء من أشعة الشمس، تلتمع من وراء الجبل، فاضطربت قلوبهم، وارتفعت أصواتهم، وأنهضوا رواحلهم[٤]، وعلَت أصواتهم تهتف:

«لَبَّيْك اللَّهمَّ لَبَّيك، لبَّيْكَ لا شريك لك لَبَّيْك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وأقبل «نافعٌ» على مولاه «عبد الله بن عمر» صاحب رسول الله ﷺ، وقال له:

هَيّا يا أبا عبد الرحمن، فقد أوشك الناس أن يسيروا.

---

(١) والهة: تحنُّ إلى الوقوف بعرفات.

(٢) زائغة: مضطربة تنتظر طلوع الشمس.

(٣) ثبير: جبل من جبال مِنى.

(٤) أنهضوا رواحلهم: أقاموها وحركوها للنهوض.

وقال عبد الله:

وقد رأيتَ الشمس على ثبير يا نافع؟.

فأجاب:

لا، إلاّ أنَّ خيوط أشعتها قد لاحت من وراء الجبل.

وقال عبد الله:

دَعْنا حتى تطلع الشمس على ثبير ونراها، فإن رسول الله ﷺ لم يَسِرْ إلى عَرَفة إلاّ بعد ما رأى الشمس على الجبل.

وطلعت الشمس بعد قليل، ورآها عبد الله، فقام عندها، فدعا:

(اللهمَّ إليك توجهتُ، ولوجهك الكريم أردتُ، فاجعل ذنبي مغفوراً، وحجِّي مبروراً، وارحمني ولا تخيِّبني، إنك على كل شيء قدير).

ثم شرع يلبي، وسمع أصحابُه صوتَه، فشرعوا يلبّون بتلبيته، وقال لهم عبد الله:

(أيها الناس، تلقَّفْتُ[1] من رسول الله ﷺ: «لبيك اللهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وزدتُ أنا:

لبيكَ وسَعْدَيك، والخير في يديك، لبيك والرغباء إليك والعمل).

وسار عبد الله وراء الناس، يحفُّ به أصحابه وأكثروا من التلبية، وأخذ بهم على طريق «ضَبٍّ»[2]، وقال لهم:

رأيت رسول الله ـ وقد مشى إلى عرفات ـ قد سلك هذا الطريق، فأنا أسلكه.

... وارتفعت الشمس في كبد السماء، واشتدت حرارتها، وتابع

---

(١) تلقفت: أخذت بسرعة.

(٢) ضب: هو الجبل الذي في أصله مسجد الخَيْف بمِنى.

الموكب المبارك سيره، فمرُّوا بمزدلفة[١]، حتى إذا وصلوا «نَمِرة»[٢] وقفوا هناك ينتظرون الشمس أن تزول[٣]. وأمر عبد الله بن عمر مولاه نافعاً أن ينصب له قبة ففعل، ثم اغتسل من أجل الوقوف بعرفة، وأمر أصحابه بذلك ففعلوا، حتى إذا زالت الشمس صلّى الناس جميعاً وراء إمامهم الظهر ثم العصر جامعاً بينهما، وفرغ الناس من الصلاة، فتوجَّهوا مسرعين جميعاً إلى الموقف بعرفات ليؤدوا ركن الحج الأعظم.

وسعى ابن عمر إلى الصخرات الكبار المفروشة في أسفل جبل الرحمة وسط عرفات، فوقف هناك.

وقال لأصحابه: هنا وقف رسول الله عامَ حجَّ، وقال لنا:
«وقفتُ ههنا، وعرفة كلها موقف».



شاع في الحجيج أن الصحابي الجليل «عبد الله بن عمر» معهم، يؤدي مناسك الحج، فسعى إليه الناس، وتوجهت له القلوب، وتعلَّقت به الأسماع والعيون، وزاحم الناس بعضهم بعضاً على القرب منه، والاستماع إليه، فقد كانوا يعلمون جميعاً أنه من أعلم الصحابة بمناسك الحج، ومن أكثرهم تقوى وصلاحاً، ومن أشدِّهم أسوة برسول الله ﷺ، فالقرب منه غنيمة وأية غنيمة!!.

وسمعه الناس يومها يقول:

(من لم يقف بعرفة من ليلة المزدلفة قبل أن يطلع الفجر، فقد فاته الحج. ومن وقف بعرفة ليلة المزدلفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك الحج).

---

(١) مزدلفة: مكان بين مِنى وعرفات.
(٢) نِمرة: جبل قرب عرفات، ليس منها، فلا يصح الوقوف عليه.
(٣) تزول: زالت الشمس: مالت عن كبد السماء، وذلك أول وقت الظهر.

وسأله رجلٌ: ما أفضل ما نقول في يومنا هذا يا أبا عبد الرحمن؟

فأجابه:

الدعاء... فإن رسول الله ﷺ قال:

«أفضل الدعاء يوم عرفة.

وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إلٓه إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وتقاصف الناس على الرجل[1] يسألونه ويستمعون منه، فطلب إليهم أن ينصرفوا عنه، وأن يشتغلوا بالذكر والدعاء وقراءة القرآن، وحثَّهم على الإكثار من التضرُّع والخشوع، والإلحاح في الدعاء مع تيَقُّن الإجابة.

وأقبل ابن عمر على ربه ـ سبحانه ـ يذكره ويدعوه، ويتضرَّع إليه ويرجوه..

وخشعت نفس الرجل، وشعر بالقرب، فلذّت له المناجاة والدعاء.

وسمعه أصحابه يومها يقول:

(اللهمّ لك الحمد كالذي نقول وخيراً مما نقول.

اللهمّ لك صلاتي، ونُسُكي، ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولك ربِّ تراثي[2].

اللهمّ إني أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر.

اللهمّ إني أعوذ بك من شرِّ ما تهب به الريح).

وأخبر أصحابه أن هذا الدعاء كان من أكثر ما دعا به النبي ﷺ في يوم عرفة.

---

(١) تقاصف الناس عليه: ازدحموا وتدافعوا.

(٢) تراثي: التراث: ما يخلِّفه الرجل لورثته.

وسمعه أصحابه يقول أيضاً:

(اللهمّ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقِنا عذاب النار.

اللهمّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم.

اللهمّ اجْعَلْكَ أحبّ شيء إليّ، وأخشى شيءٍ عندي.

ربِّ بما أنعمت عليّ؛ فلن أكون ظهيراً للمجرمين).

❁ ❁ ❁

كان ابن عمر يدعو الله ويذكره، ويخاطب الناس ويجيبهم، وهو مستقبل القبلة، بارز للشمس، راكبٌ على ناقته، حتى لقد توجَّع له بعض الناس، فكلَّموه في أن يستظل، فقال لهم:

إن رسول الله ﷺ لم يستظل بعرفات، ولقد رأيته بقي راكباً على ناقته في موقفه!!

وبقي أبو عبد الرحمن في موقفه، مقبلاً على الله، خاشعاً ذاكراً متبتلاً، حتى غربت الشمس، وعندها دَفَع[1] وراء الحجيج من عرفات باتجاه المزدلفة، بعد ذلك اليوم العظيم من أيام الله.

وسار إلى يمينه «محمد بن سيرين»[2] ـ وكان قد لزمه في حجه ـ وأكثر ابن عمر وأصحابه من التلبية، وضم إليه زمام ناقته كثيراً، ومشى وأصحابه بسكينة ووقار، وقال لهم:

هكذا فعل رسول الله يوم حج وقال لنا:

«يا أيها الناس عليكم بالسكينة، فإنَّ البرَّ ليس بالإبضاع»[3].

---

(١) دفع: مشى وسار.

(٢) محمد بن سيرين: من كبار التابعين وفقهاء أهل البصرة وعبّادهم، كان يعبِّر الرؤيا، ورأى ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ. مات بالبصرة سنة ١١٠ هـ.

(٣) الإبضاع: الإسراع.

وانتهى موكب الحجيج إلى المضيق دون المأزمين[١]، ونظر أصحاب ابن عمر إليه فرأوه ينيخ ناقته، بينما الناس يتابعون مسيرهم، وحسب أصحابه أنه يريد الصلاة، فأناخوا رواحلهم، يريدون أن يصلُّوا معه، وذهب هو إلى مكان هناك فمكث قليلاً ثم عاد، وتعلَّقت به العيون لترى ماذا يريد أن يصنع، وبَدَت على الوجوه أمارات التعجب، وأقبل ابن سيرين على غلامه الذي كان يمسك راحلته، فقال له:

ماذا يريد أن يفعل أبو عبد الرحمن؟

فأجابه:

إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان، ذهب إلى هناك فقعد، فهو يحب أن يفعل كما فعل رسول الله!!

وقال ابن سيرين:

لله درّه، فلعمري لقد صحبته لأتعلم منه، ولأرى منه بعض هذه الأمور في تتبعه آثار النبي ﷺ، فقد حُدِّثنا عنه أشياء مُعْجِبة!!

ومضى أبو عبد الرحمن يحفُّ به أصحابه حتى إذا وصل المزدلفة صلّى وأصحابه المغرب والعشاء في وقتِ العشاء، ثم بات في مزدلفة.

وفي يوم النحر دَفَع إلى مِنى بعدما أسفر الصبح[٢]، فرمى جمرة العقبة، ثم ذبح الهَدْي، ثم حَلَق، ثم أفاض من مِنى إلى مكة، وطاف بالبيت طواف الإفاضة، ثم رجع فصلَّى الظهر بمنى، ثم أقام بها يومين بعد يوم النحر، ثم أتى مكة يريد وداع البيت والانصراف إلى المدينة.

وسعد صحب ابن عمر بصحبته في تلك الأيام، فقد أفادوا[٣] منه

---

(١) المأزمان: تثنية مأزم، وهو شِعْب ضيق بين جبلين، يفضي آخره إلى بطن عرفة، فيه يدفع الحجاج من عرفة إلى المزدلفة.
(٢) أسفر الصبح: انكشف وأضاء.
(٣) أفادوا: استفادوا.

أشياء كثيرة، ولقد تعلموا منه مناسك الحج، فأقاموه على وجهه الذي عمله به رسول الله ﷺ، فلم يكن أبو عبد الرحمن يعمل عملاً أو يتكلم بكلمة إلاّ ويُتْبِعُ ذلك:

رأيت رسول الله يفعل ذلك. رأيت رسول الله يقول ذلك!!

وإنْ ينسَ أصحابه شيئاً رأوه منه، فلن ينسَوا قصته مع ذلك الرجل في مكة.

فقد جاءه رجل يسأله عن استلام الحجر، فأجابه:
رأيتُ رسول الله ﷺ يستلمه ويقبّله.

فقال الرجل:
أرأيتَ[1] إنْ زُحمتُ؟ أرأيتَ إنْ غُلبتُ؟

ونظر إليه أبو عبد الرحمن نظرة فيها شيءٌ من الغضب وقال له:
اجعل «أرأيتَ» باليمن[2].

رأيتُ رسول الله ﷺ يستلمه ويقبِّله!!

وعجب الناس يومها من شدة متابعة هذا الرجل لرسول الله، وعظيم حرصه على الاقتداء به، ولزومه لسنّته.

٣

انقضت أيام الحج، وبدأ الناس يؤوبون إلى أوطانهم، وجاء محمد بن سيرين إلى نافع مولى ابن عمر فقال له:
يا نافع، أخبرني إذا عزم أبو عبد الرحمن على الرجوع إلى المدينة، فأنا أريد أن أصحبه، فقد رأيت منه أشياء حسنة في حبه رسول الله ﷺ ومتابعته له، أحب أن أزداد منها وأستكثر!!

---

(١) أرأيت: أخبرني.
(٢) اجعل «أرأيت» باليمن: يعني: دَعْ هذه الكلمة، وارمِ بها بعيداً.

... وجاء يوم الرحيل، وقام ابن عمر إلى البيت[١] يودعه، وقال لأصحابه: قوموا بنا نودِّع البيت، فقد أمرنا رسول الله بذلك وقال لنا:
«لا ينفرنَّ أحدكم، حتى يكون آخر عهده بالبيت».

وطاف عبد الله وأصحابه حول الكعبة المعظمة، ثم ذرف دموعاً غزيرة وهو يُلقي النظرات الأخيرة عليها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة.

وصحب محمدُ بن سيرين وجماعة من أهل البصرة ابن عمرَ في رحلته إلى المدينة، فأمضَوا معه أياماً جميلة، رأوا منه فيها العجب العُجاب، من تقواه وطاعته، ومن أخلاقه وحسن سيرته، ثم من شدَّة اتباعه لرسول الله ﷺ وعظيم محبته!!

وبينا القوم في مسيرهم إذا بأبي عبد الرحمن يقف بالقرب من شجرة ثم ينيخ ناقته، ثم ينزل عنها ثم يسعى إلى مكان بعيد ومعه دلوٌ، فيمتاح ماءَ من بئر هناك، ثم يأتي به، فيصبه في أصل تلك الشجرة، ثم عاد فملأ الدلو فصبَّه، وفعل ذلك مراراً!!

وعجب ابن سيرين من صنيع عبد الله وقال لنافع مولاه:
أرى أبا عبد الرحمن قد اهتم بأمر هذه الشجرة كثيراً!!

وأجابه نافع:
إن هذه الشجرة كان النبي ﷺ قد نزل تحتها، فهو يتعهدها فيصب في أصلها الماء لكيلا تيبس!!

وهو لا يدع غيره يفعل ذلك!!

وتابع الركب سيره باتجاه مدينة رسول الله ﷺ، وتوقف أبو عبد الرحمن تحت شجرة أخرى فقال[٢] تحتها، ثم قام، ثم تابع سيره، ثم

(١) البيت: الكعبة المعظمة.
(٢) قال: نام نوم القيلولة ظهراً.

توقف في مواطن عديدة، وصلّى في تلك المواطن أو نام أو اضطجع، وفهم الناس يومها أنَّ رسول الله ﷺ فعل ذلك في تلك المواطن، فهو يفعل كما فعل، وهو يريد أن يتبارك في تلك الأماكن التي مسَّت جسده الشريف ﷺ!!

... تعجب صَحْب ابن عمر من أمور كثيرة مما كان يصنع، لكن أشدّ ما تعجبوا منه في مسيرهم معه أنه جعل يأخذ بزمام ناقته في أماكن عديدة، فيثنيها هنا وهناك، ويبتعد بها عن طريق المدينة، ثم يعود لأصحابه الذين ينتظرونه، فيقولون له:

ماذا يا أبا عبد الرحمن؟ فيجيبهم:

لعلّ خفاً يقع على خفٍّ!!

وفهم الناس أنه يعني خفَّ راحلة النبي ﷺ، فهو يُتْبع ناقته آثار ناقة النبي «القصواء» لتسعدَ روحه، راجياً أن يقع خفُّ ناقته على موضع خفٍّ ناقة النبي عليه الصلاة والسلام!!

وطرب ابن سيرين للّذي رأى وسمع، وقال له:

إي ـ والله ـ يا أبا عبد الرحمن، لعلَّ خفاً يقع على خف!!.

٤

وأخيراً انتهت الرحلة الجميلة الرائعة، وسعد الناس فيها بصحبة هذا المحب الولهان[1]، ورأوا منه أشياء أدهشتهم بالغ الدهشة، فأحبُّوا ابن عمر، وأكبروا شأنه، ونما حب رسول الله ﷺ في قلوبهم، وزاد حنينهم إليه وتعلُّقهم به بعد الّذي رأوا من صاحبه ما رأوا!!

وفي مسجد رسول الله ﷺ جلس يوماً محمد بن سيرين إلى نافع مولى ابن عمر، وإلى عدد من أهل المدينة، فجعل يثني على ابن عمر خيراً،

---

(١) الولهان: الشديد الحب والحنين.

ويغبط أهل المدينة على هذا الرجل الفقيه التقي المؤتسي برسول الله ﷺ، وطلب إليهم مزيداً من الحديث عنه.

وكان في المجلس زيد بن أسلم[١]، فقال:
يا أبا بكر، ما أحسب أن ابن عمر قد فاتته سنة من سنن رسول الله ﷺ أو أمر من أموره!!

ولقد رأيته يوماً يصلِّي محلولة أزراره، فسألته عن ذلك فقال:
رأيت رسول الله ﷺ يفعله!!

وتكلم عبد الله بن قيس بن مَخْرَمة[٢] ـ وكان في مجلس القوم ـ فقال ـ وقد توجه إلى ابن سيرين ـ:
يا أبا بكر، ماذا نحدثك عن ابن عمر، فكل أمره عجب!!

فقد أقبلت يوماً من مسجد بني عمرو بن عوف بقُباء[٣]، على بغلة لي ـ وقد صلَّيت فيه ـ فلقيته ماشياً.

فلما رأيتهُ نزلتُ عن بغلتي ثم قلتُ: اركب أيْ عمّ.

فقال لي:
أي ابن أخي، لو أردتُ أن أركب الدواب لوجدتُّها.

لكني رأيت رسول الله ﷺ يمشي إلى هذا المسجد، حتى يأتي فيصلِّي فيه، فأنا أُحب أن أمشي إليه كما رأيته يمشي!!

وتابع عبد الله بن قيس كلامه فقال:
ولكني ألححتُ عليه في أن يركب، بيد أنه أبى، ومضى على وجهه!!

---

(١) هو زيد بن أسلم، مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، من التابعين الثقات.
(٢) هو عبد الله بن قيس بن مخرمة بن المطلب، القرشي، من التابعين، من عُبّاد أهل المدينة وقرّائهم.
(٣) مسجد قباء: أول مسجد بني في الإسلام، يقع في الجنوب الغربي للمدينة في ضاحيتها.

وظهرت الدهشة على الوجوه، وقال أحد الحضور:
هكذا فلتكنِ المتابعة، وهكذا فليكنِ الحبُّ. ألا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً، وما أغلاه إذا كان متابعة وذماماً[1]!!

ونظر ابن سيرين إلى نافع وقال له:
هاتِ حدثنا يا نافع عن مولاك أبي عبد الرحمن فأنت أدرى الناس به.

وقال نافع:
ماذا أحدثك يا أبا بكر بعد الَّذي رأيتَ وسمعتَ؟!

إنَّ عيني لم ترَ أحداً أتبَعَ لآثاره عليه الصلاة والسلام في منازله من أبي عبد الرحمن!!.

إنه تأتي عليه أحيان في تتبُّعه تلك الآثار لو رآه إنسان لظنّ أنّ به شيئاً، وقال عنه: إنه مجنون!!

ولستَ تراه إلّا مقتدياً برسول الله ﷺ في كل شيءٍ من أمور حياته، يحب ما أحب ويبغض ما أبغض!!

وليس عنده شيء أشد من مخالفته عليه الصلاة والسلام، ولقد مضى عليه زمن وهو مخاصم لولده «عُبَيد الله» من أجل ذلك!!

وقال ابن سيرين: كيف يا نافع؟

فقال الرجل:
حدّث أبو عبد الرحمن يوماً عن النبي ﷺ قوله:
«لا تمنعوا نساءكم المساجد، وبيوتهنَّ خيرٌ لهنّ».

فقال له عبيد الله: بَلَى والله لنمنعهنّ!!

فقال أبو عبد الرحمن:

---

(١) الذمام: العهد.

تسمعني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول ما تقول؟! لا كلّمتك بعد اليوم أبداً[(١)].

وسمع ابن سيرين ما سمع، فقال لنافع:

حَسْبي ما سمعته عن صاحبكم، بارك الله لكم يا أهل المدينة في هذا الرجل الصالح المحب، ومدّ لكم في عمره!!.

ثم قام منصرفاً، وانفضّ المجلس.



المـراجـع:

ـ الترغيب والترهيب، ١/ ٨٢ ـ ٨٣.
ـ حلية الأولياء، ١/ ٣١٠.
ـ مسند أحمد، ٢/ ٣٦ و ٧٦ و ١١٩.
ـ جامع الأصول، ٣/ ١٧٧.

(١) قال الإمام الغزالي في كتابه «الإحياء»: وإنما استجرأ ولد ابن عمر على المخالفة لعلمه بتغير الزمان. وإنما غضب عليه أبوه لإطلاقه بالمخالفة ظاهراً من غير إظهار العذر.

وفي رواية: أنه بقي مخاصماً له حتى مات!!.



محمد علي دولة

٤



وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ

ـ ١ ـ

تعرَّض النبي ﷺ في فترات عديدة من حياته المباركة للاغتيال والهلاك، وحاول أعداؤه الكثيرون من مشركين ومنافقين ويهود أن يقضوا عليه ويرتاحوا من دعوته، وبذلوا في ذلك جهداً كبيراً، وأعدوا خططاً دقيقة، وانتهزوا فرصاً مناسبة، وغامروا مغامرات مثيرة؛ وساعدهم على ذلك أن رسول الله ﷺ كان يعيش بين الناس كواحد منهم، يختلط بهم، ولا يحجبه دونهم حرس ولا جنود، ولا يمنعه منهم حصون ولا سدود!!

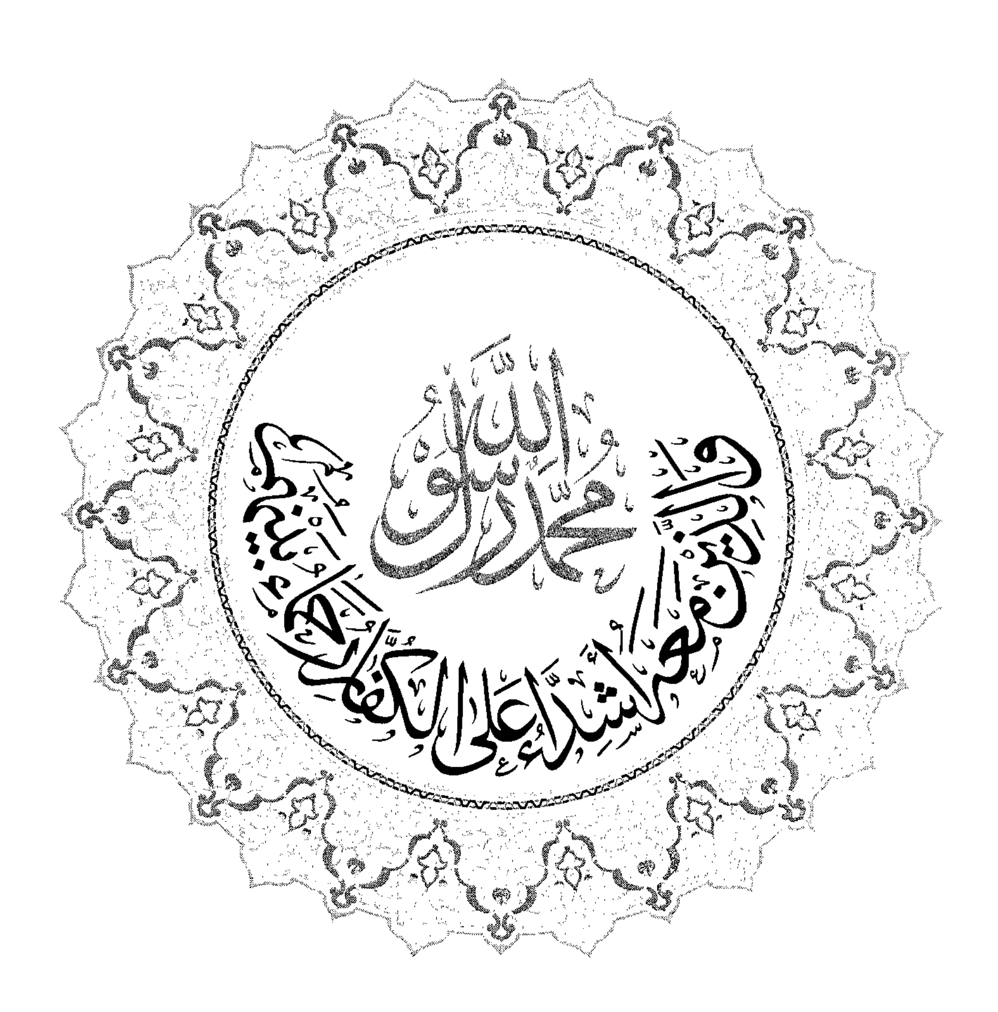
بَيْدَ أن هؤلاء الأعداء كانوا يخفقون في كل مرة ويردهم الله بغيظهم لا ينالون خيراً، فقد كان النبي ﷺ يكلأه ـ سبحانه ـ ويرعاه ويصونه، ويرد عنه كيد الكائدين ومكر الماكرين، ويعصمه من الناس أجمعين.

وفي السيرة النبوية من قصص العصمة هذه أشياء عديدة مثيرة ومدهشة، تزيد المؤمن يقيناً بنبوة رسول الله، وتملأ قلبه إيماناً بقدرة الله، وتزيده شجاعة وتضحية من أجل دينه، فيمضي مجاهداً وهو يردد: «قل لن يصيبنا إلاّ ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون»!!.



١ ـ خيبة أمل أبي جهل.
٢ ـ لا تحزن إن الله معنا.
٣ ـ قبحها الله من سيوف.




محمد رسول الله
والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم

خَيبَة أمَل أبي جَهْل

١

حزن «عمرو بن هشام المخزومي» أشد الحزن من هذا الذي قام يدعو به محمد بن عبد الله بن عبد المطلب في مكة. إنه يدعو بدعوة ما سمعوا بها هم ولا آباؤهم ولا أجدادهم. وإنَّ دعوته إنْ تمَّت لَسوف تحدث انقلاباً عظيماً في «أم القرى»[١] وما حولها، بل في بلاد العرب جميعها، وإنّ ذِكرَه سيكون حديثَ الناس جميعاً، وسوف تطغى شخصيته وزعامته على سائر الشخصيات والزعامات... كيف لا؛ وله ماضٍ مجيد في قبيلته؟! فهو عندهم الصادق الأمين، ذو العقل الراجح والسيرة الحميدة. ثم هو قد نشأ من أكرم أرومة[٢]، ونَسَل من أشرف نَبْعة[٣] وأزكى مغرِس، وساد أجدادُه قريشاً، وكان آخرَهم سيادةً جدُّه عبد المطلب زعيم قريش في زمانه وشيخها الكبير.

كان عمرو بن هشام الذي اشتهر في قريش بكنيته «أبي الحَكَم»[٤] يرنو[٥] إلى أن يكون الرجل الأول في مكة، فقبيلته «بنو مخزوم» من أعظم قبائل قريش: أكثرها مالاً، وأعزها نفراً. ثم هو في مقدمة رجالات هذه القبيلة غِنىً وشجاعة وزعامة، وليس بينه وبين أن يسود قريشاً كلها إلاّ أن

---

(١) أم القرى: مكة المكرمة.
(٢) أكرم أرومة: أكرم أصل.
(٣) نسل من أشرف نبعة: ولد من أصل شريف.
(٤) لكن النبي ﷺ كناه بـ «أبي الجهل» وأجدِرْ به.
(٥) يرنو: يديم النظر.

تموت هذه الطبقة من أشياخ القبائل من أمثال: الوليد بن المغيرة، وأبي أحَيحة سعيد بن العاص، وعتبة بن ربيعة، والعاص بن وائل السهمي، وأبي طالب بن عبد المطلب وغيرهم.

أما أنداده[١] من رجال القبائل فلم يكن يحسب لهم حساباً، وكان يرى في كل واحد منهم عيباً يقعده عن تبوء مركز الزعامة.

فعمر بن الخطاب وإن كان فتىً أرْوَع[٢] طُوَالاً[٣]، شجاعاً، لبيباً، إلاّ أن قبيلته لا قيمة لها، فلا عدد ولا غنىً.

وأبو سفيان صخر بن حرب الأموي وإن كانت قبيلته ذات شأن، إلاّ أنَّ شُحَّه وانصرافه للرحلات في التجارات يشغله عن طلب الزعامة.

وعمرو بن العاص الفتى الداهية شغلته كذلك السياحات والتجارات، ثم هو لا يستطيع طلب الزعامة وأبوه حي.

وخالد بن الوليد وإن كان بطلاً مغواراً، إلاّ أن بطولته لا ترفعه إلى مصافّ الزعماء، فقريش عزيزة الجانب، لا يطمع أحد فيها، فلا حاجة لها بالأبطال المحاربين.

وأبو بكر بن أبي قحافة التَّيْمي وإن كان غنياً مأْلَفاً لقومه[٤]، مُحبباً سهلاً، وعنده علم واسع بنسب قريش وأنساب العرب، إلاّ أن الرجل لا يَتطَلّع إلى الزعامة، ثم هو لا ترشحه قبيلته القليلة العدد لها.

وحمزة بن عبد المطلب وإن كان فتى قريش وأشدها شَكيمة[٥]

(١) الأنداد: جمع نِد: وهو المثيل والنظير.
(٢) أروع: يعجبك حسنه.
(٣) طوالاً: طويلاً.
(٤) مألفاً لقومه: يألفونه.
(٥) الشكيمة: عزة النفس والإباء والأنفة، يقال: فلان شديد الشكيمة: إذا كان شديد النفس أنفاً أبياً، ويقال فلان ذو شكيمة: إذا كان لا ينقاد.

وشهامة؛ إلاّ أنه قليل ذات اليد، وقد شغله القَنْص[١] عن طلب الزعامة.

إن مؤهلات الزعامة الكبرى لم تتجمع لأحد كما تجمعت لأبي الحَكَم، لذا فهو ينتظر أن يكون في يوم من الأيام زعيم مكة الأول.

بَيْدَ أنه قد حدث ما لم يخطر بالبال... قام محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يصرخ في مكة بدعوة تهز القلوب من أعماقها، فاتجهت إليه الأنظار، وتطلَّعت إليه القلوب، وزعزع المقاييس المعتبرة في مكة لمن يرنو للسيادة، وهدد آمال أولئك الرجال الذين يعدُّون أنفسهم ليخلفوا جيل الزعامة السابق، وفي مقدمتهم عمرو بن هشام، فأحزنه ذلك حزناً بالغاً، ورأى فيه خطراً وأي خطر يتهدد آماله وتطلعاته، ويتهدد مركز قبيلته «بني مخزوم» فيقدِّم عليها بني هاشم رهط هذا الذي يقول للناس عن نفسه: إنه نبي أرسله الله بشيراً ونذيراً.

٢

امتلأ قلب أبي الحكم حسداً لهذا الرجل الذي أصبح يشكل خطراً على زعامته وزعامة قبيلته في قريش، وحقد عليه حقداً شديداً، فكان من أوائل المعارضين لدعوة النبي ﷺ، فسخر منها، وتهكّم بصاحبها، ونَعته بالسحر والسَّفَه والجنون!!

وكان أشد ما يغيظه من رسول الله ﷺ أنه لا يني[٢] يدعوه إلى الإسلام وإلى متابعته على دينه، ويلين له العبارة، ويحضُّه ويرغّبه، فلا يزداد هو إلاّ نفوراً وحقداً.

وفي يوم من الأيام خرج أبو الحكم بن هشام من بيته ومعه ضيفٌ له ثَقَفي يقال له «المغيرة بن شعبة»[٣]، ومشيا في حاجة لهما في بعض أزقة

(١) القنص: الصيد.
(٢) لا يني: لا يزال.
(٣) المغيرة بن شعبة: زعيم ثقفي، أسلم فيما بعد وصار من أعيان الصحابة رضي الله =

مكة، وإذا برسول الله ﷺ يَطْلُع عليهما، فوقف وسلّم، وبشَّ لهما ثم قال:

«يا أبا الحكم، هَلُمَّ[1] إلى الله وإلى رسوله، وإلى كتابه، أدعوك إلى الله».

وغضب الزعيم المخزومي، ورُؤي النُكْر في وجهه، وتوجه إلى رسول الله ﷺ قائلاً:

(يا محمد، هل أنت مُنْتَهٍ عن سبِّ آلهتنا؟!

هل تريد إلاّ أن نشهدَ أنك قد بلَّغْتَ، فنحن نشهد أن قد بلَّغْتَ، فوالله لو أني أعلم أنَّ ما تقول حقٌّ لاتبعتك)!!

وترك رسول الله ﷺ الرجلين، وانصرف حزيناً لإعراض الفتى المخزومي عن دعوته، وتابع أبو الحكم وصاحبه مسيرهما، ثم أقبل على المغيرة وقال له:

(والله إني لأعلم أن ما يقول حق، ولكن يمنعني شيء).

وسأله المغيرة ـ وكان قد استشعر دعوة النبي ﷺ ـ: وما هو يا أبا الحكم؟ فأجاب:

(إن بني قُصَيّ[2] قالوا:

فينا الحجابة[3]، فقلنا: نعم!!

ثم قالوا: فينا السِّقاية[4]، فقلنا: نعم!!

= عنهم.

(١) هلمَّ: تعال.

(٢) قصي هو الجد الرابع لرسول الله ﷺ، وهو الذي وضع أسس أمجاد قريش، بعد أن جمع شملها، ووحد صفوفها، وانتزع السيادة لها من خزاعة، فكان قصي: (أول ولد كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة، والسقاية، والرفادة، والندوة، واللواء، فحاز شرف مكة كله). تاريخ الطبري ٢/٢٥٨ ط. دار المعارف بمصر.

(٣) الحجابة: أن تكون مفاتيح الكعبة عنده، فلا يدخلها أحد إلاّ بإذنه.

(٤) السقاية: سقاية الحجيج الذين يفدون إلى مكة في موسم الحج، وهي وظيفة هامة =

ثم قالوا: فينا النّدْوة[١]، فقلنا: نعم!!
ثم قالوا: فينا اللِّواء[٢]، فقلنا: نعم!!
ثم أطعموا وأطعمنا، حتى إذا تحاكَّت الرُّكَب[٣]؛ قالوا: منا نبي!!
والله لا أفعل)!!

وأسفر الرجل الحاقد الحاسد عن خبيئة نفسه، ولم يستطع أن يكتم ذلك عن صاحبه الثقفي، وأدرك المغيرة بن شعبة ما يعتلج في نفس أبي الحكم، وعلم ماذا يصدّه عن دعوة هذا الرجل الكريم، الذي أُعجب به، ومال إليه قلبه، وتأثّر بكلماته.

٣

نَمَت الدعوة الإسلامية، وأخذ عدد رجالها يزداد يوماً بعد يوم، ونما حسد أبي الحكم بن هشام لصاحب الدعوة وازدادت أحقاده عليه، وأخذ يقابل النبي ﷺ بمزيد من السخرية، بل لقد تدرج من السخرية إلى الشتائم، لكن النبي ﷺ كان يعرض عنه، إلاّ أنه ـ ولكثرة ما لقي وأصحابه من سفاهته وأذاه ـ أطلق عليه لقب «أبي جهل» فصار معروفاً به في المسلمين، لا يسمّونه إلاّ به.

وفي يوم من الأيام لقي أبو جهل رسول الله ﷺ عند الصَّفا[٤]، فنظر

= نظراً لقلة المياه في مكة.
(١) الندوة: الاجتماع للمشورة والرأي بدار الندوة التي أسسها قصي، وكانت بمثابة مجلس شورى لقريش.
(٢) اللواء: راية الحرب، وكان قصي يحملها أو يسلمها لمن يختار.
(٣) تحاكت الركب: اصطكّت ببعضها، والمعنى حتى إذا تساوينا في إطعام الطعام مع بني قصي.
(٤) الصفا: مكان مرتفع من جبل أبي قبيس، وهو الآن جزء من المسجد الحرام بمكة، إذا وقف الواقف عليه كان مقابل الحجر الأسود، ومنه يبتدىء السعي بينه وبين المروة.

حواليه فلم يَرَ أحداً، فأقبل على النبي وجعل يشتمه شتائم مقذعة، والنبي معرض عنه لا يجيبه أبداً، بل لقد انصرف عنه وتركه يلغو بسفاهاته.

وسمعت الشتائم مولاة لعبد الله بن جُدْعان[1]، فأشفقت على رسول الله ﷺ، وحزنت على هذا الرجل الكريم الذي لم يطأ ثرى مكة رجل أفضل منه، ولا أجمع لخصال الخير... وتشاء المقادير أن يقدم إلى المسجد الحرام بعد وقت قصير حمزةُ بن عبد المطلب، فأقبل متنكباً قوسه[2] راجعاً من قَنْص له، فنادته المرأة:

يا أبا عُمارة، يا أبا عُمارة.

وأقبل حمزة نحوها يريد أن يعلم ما شأنها، فقالت له بصوت حزين:

(لو رأيتَ ما لقي ابن أخيك محمّد آنفاً من أبي الحكم بن هشام!!

وجده هنا جالساً، فآذاه وسبَّه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه محمد ولم يكلمه).

ودخلتِ الحميَّةُ حمزةَ، فغضب غضباً شديداً، وحزن للَّذي أصاب ابن أخيه الهاشمي من الفتى المخزومي، فمشى ولم يقف على أحد، مُعِدًّاً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به.

ودخل المسجد، فنظر فرآه جالساً في حَلْقة قومه، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه[3] رفع القوس فضربه بها، فشجه شجة منكرة وقال له:

(أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟! فرُدَّ عليَّ إن استطعت!!).

وقام رجالٌ من بني مخزوم إلى حمزة، فقال أبو جهل:

(دَعُوا أبا عمارة! فإني ـ والله ـ قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً).

---

(١) عبد الله بن جدعان: الزعيم التيمي القرشي، وأحد الأجواد المشهورين في الجاهلية أدرك النبي قبل البعثة، وحضر عليه الصلاة والسلام في بيته «حلف الفضول».

(٢) متنكباً قوسه: جعله على منكبه.

(٣) قام على رأسه: وقف إلى جانبه.

وأخزى الله أبا جهل، وأصابته إهانة كبيرة بسبب محمد رسول الله ﷺ، وتحدَّث أهل مكة بما جرى له مع حمزة، فازداد حقده على النبي، ونصب له العداوة أكثر من ذي قبل، وأهمه أن دعوة الإسلام قد عَزَّت بفتى قويٍّ أبيٍّ هو حمزة بن عبد المطلب.

مضت مدة على ذلك العار الذي لحق أبا جهل في المسجد الحرام، وقدم رجل من قبيلة «إراش»[١] بإبلٍ له إلى مكة، فابتاعها منه أبو جهل، ثم مَطَلَهُ بأثمانها[٢] حتى حَرِجَ[٣] صاحبها، فأقبل حتى وقف على نادي قريش[٤] ـ ورسول الله ﷺ جالسٌ في ناحية المسجد ـ فقال:

(يا معشر قريش، مَنْ رجلٌ يعينني على أبي الحكم بن هشام؟ فإني غريب وابن سبيل؛ وقد غلبني على حقي).

ونظر المستهزئون من طغاة قريش فرأوا رسول الله ﷺ، فقالوا للإراشي: أترى ذلك الرجل ـ وأشاروا للنبي ـ اذهب إليه فهو يعينك!!

فأقبل الإراشي حتى وقف على رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقام معه، فلما رآه الملأُ من قريش يقوم، قالوا لرجل ممَّن معهم: اتبعه وانظر ماذا يصنع!!

وخرج رسول الله ﷺ حتى جاء أبا جهل فضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ فأجابه النبي: «محمد، فاخرج إليّ». وسَرَى الرعب في كيان أبي جهل فور سماعه صوت النبي واسمه، وخرج إليه وما في وجهه من رائحة[٥]، قد انتقع لونه[٦]!! فقال له النبي ﷺ:

---

(١) ويقال لهذه القبيلة: «إراشة».
(٢) مطله بأثمانها: تأخر عليه في دفعها مرة بعد أخرى.
(٣) حرج: أصابه الحرج وهو المشقة.
(٤) نادي قريش: مجمع رجال قبائلها.
(٥) من رائحة: من بقية روح، قال السهيلي، فكأن معناه: روح باقية.
(٦) انتقع لونه: مبني للمجهول، أي تغير لونه.

«أعطِ هذا حقَّه».

فأجاب: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الَّذي له!!

فدخل، ثم خرج إليه بحقه فدفعه إليه.

وأقبل الإراشي على ملأ قريش والسرور بادٍ على وجهه، يريد أن يشكرهم على أن دلّوه على من حصّل له حقّه، وبادرهم قائلاً:
(جزاه الله خيراً، فقد ـ والله ـ أخذ لي بحقي!!).

ودهش القوم، ونظر بعضهم إلى بعض، ومضى الإراشي وجاء الرجل الذي بعثوه ليشهد ما يكون من أمر أبي جهل مع رسول الله، فقالوا: ويحك ماذا رأيت؟ فقال:

(رأيت ـ والله ـ عجباً من العجب!! والله ما هو إلّا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه روحه، فقال: أعطِ هذا حقه، فأجابه: نعم، لا تبرح حتى أخرج إليه حقّه، فدخل فخرج إليه بحقه فأعطاه إياه).

وزادت دهشة القوم مما جرى، وقال قائلهم: واللات والعزَّى[1] ما رأينا مثل هذا، ولا سمعنا به، ماذا دَهى أبا الحكم؟!

وإنهم لفي مجلسهم إذا بأبي جهل يقدَم عليهم، وكأنما جاء ليعتذر عما جرى منه، فقالوا: (ويلك، ما لك؟ والله ما رأينا مثل ما صنعته قط!!).

فأجابهم: (ويحكم، والله ما هو إلّا أن ضرب عليّ بابي فسمعت صوته، حتى مُلئت رعباً، ثم خرجت إليه وإنّ فوق رأسي لَفَحْلاً من الإبل ما رأيت مثلَ هامته[2] ولا قَصَرته[3] ولا أنيابه لِفَحْلٍ قط، والله لو أبيت لأكلني!!).

---

(١) اللات والعزى: صنمان من أكبر أصنام العرب وكانوا يحلفون بهما.
(٢) الهامة: الرأس.
(٣) القصرة: أصل العنق.

وضحك القوم وقالوا:
يا أبا الحكم، قد ـ والله ـ غلبك سحره!!.

٤

عزّ على أبي جهلٍ أن يُخزى مرتين بسبب محمد ﷺ، وأن يستمر هو في دعوته يعلن بها بين ظهراني أهل مكة، وينضم إليها رجالٌ ونساء وعبيد وإماء يوماً بعد يوم، فقام يصبّ جام غضبه على أصحاب النبي ﷺ لا سيما المستضعفين منهم، وجعل يغري بهم رجال قريش ويحرضهم عليهم.

(فإذا سمع بالرجل قد أسلم، وله شرف ومَنَعة[١] أنّبه وأخزاه وقال له: تركتَ دين أبيك وهو خيرٌ منك، لنُسفهنَّ حِلمك[٢]، ولنفَيِّلنّ رأيك[٣]، ولنضعنَّ شرفك[٤]!

وإن كان تاجراً قال: والله لنكسدَنَّ تجارتك، ولنهلكنّ مالك!!

وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به).

لكنّ أصحاب رسول الله ﷺ صبروا على البلاء صبراً جميلاً، وهاجر عددٌ منهم إلى بلاد الحبشة، وتحمَّل الجميع في ذات الله تعالى الشيء الكثير... ولقد لقي المستضعفون من الصحابة من طغيان أبي جهل الشيء الكثير، فقد اجتهد في تعذيب امرأة يقال لها «زِنِّيرة» حتى عميت، ثم قال لها:

(إن اللاَّت والعُزّى فعَلَتا بك ما ترَين).

فأجابته: وما تدري اللاَّت والعُزَّى من يعبدهما؟! ولكنَّ هذا أمر من السماء، وربي قادر على أن يردّ بصري.

---

(١) منعة: قوة تمنعه من أعدائه.
(٢) الحلم: العقل.
(٣) نفيلن رأيك: نقبحه ونخطئه.
(٤) نضعن شرفك: نحط من كرامتك ومنزلتك.

ثم إنها أصبحت تلك الليلة وقد ردّ الله بصرها، فقال الطاغية: هذا من سحر محمد، فاشتراها أبو بكر رضي الله عنه فأعتقها.

❁ ❁ ❁

أصيب أبو جهل وغيره من مشركي قريش بخيبة أمل كبيرة، فهم قد حسبوا أن البلاء سيصرف أصحاب النبي ﷺ عن دينهم، فإذا بهم بعد البلاء أشد تمسكًا به. وفكر الطاغية فيمَ يصنع ليريح نفسه وعشيرته وقومه من محمد ودعوته التي حملوا من أجلها هماً أثقل من الجبال.

ورأى هذا السفيه أنه لا بدّ من معالجة هذا الأمر مع محمد نفسه، ولا بدّ من حَمْله على ترك دعوته التي يدعو الناس إليها، فإن لم يفعل فليقتله، وليزح عن طريقه هذا الرجل الذي جاء ليحول بينه وبين ما يصبو إليه من الزعامة، معتمداً في ذلك على غناه وشجاعته ورهطه من «بني مخزوم».

وجعل أبو جهل يكثر من التعرض لرسول الله ﷺ، وهو معرض عنه لا يجيبه على سفاهته، وكان أشد ما يغيظه من النبي ﷺ استعلانه بصلاته عند البيت[١]، لذا جعل وَكْدَه[٢] أن يمنعه من الصلاة في المسجد، وأن يصنع عند قومه يداً بذلك.

وتقدم بادىء الأمر إلى النبي ﷺ قائلاً:

يا محمد، إنَّا لسنا مقرِّين لك بأن تستعلن في صلاتك عند البيت، فاعبد ربك في بيتك، ولا تَعُدْ للصلاة هنا.

وأعرض عنه النبي ﷺ، وعاد يصلِّي عند البيت غير آبهٍ بنهي هذا الطاغية...

---

(١) البيت: الكعبة المعظمة.
(٢) وكده: همه وقصده.

ومرّ أبو جهل مرة فرآه يصلِّي فغضب أشد الغضب، ثم قال له:
(أَلَمْ أنهك أن تصلِّيَ يا محمد؟!
لقد علمتَ ما بها أحدٌ أكثر نادياً مني!!)[1].

وانتهره النبي ﷺ، فانصرف عنه وبه من الغضب ما لا يوصف، وأقبل جبريل الأمين على رسول الله بقوله تعالى: ﴿فليدعُ ناديه، سندعُ الزبانية﴾، وقال جبريل للنبي: «والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب».

أما أبو جهل فقد أخذته العزةُ بالإثم، وبقي مصراً على منع النبي من الصلاة عند الكعبة، ومنّته نفسُه الأماني، وحدّثها في أن يمنعه بالقوة بعد أن لم يمتنع بالوعيد.

وفي يوم من الأيام أقبل عدو الله على المسجد مغضباً مرعداً، وتوجه إلى الملأ من قريش قائلاً:
(إنّ لله عليَّ إن رأيت محمّداً ساجداً أن أطأ على رقبته).

وسُرّ طغاة قريش بما سمعوا، وأثنَوا على أبي جهل خيراً، فلَوَى برأسه عجباً، وتاه فخراً وكِبْراً.

وكان في القوم «العباس بن عبد المطلب» فخشي على ابن أخيه، فأسرع من المسجد ودخل عليه فأخبره الخبر، فغضب النبي ﷺ لتهديد هذا الشقي الذي زيّن له غروره أمراً أكبر منه بكثير، ثم خرج من بيته واتجه إلى المسجد.

وخاف العباس على ابن أخيه، وقال: هذا يوم شر، فشدّ عليه إزاره ثم خرج يتبعه. ودخل النبي ﷺ المسجد، وأخذ مكانه فيه، ثم أخذ يتلو بصوت يسمعه الناس: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خَلَق. خلق الإنسان من عَلَق. اقرأ وربُّك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم﴾.

---

(١) يريد هذا الطاغية أن عشيرته بني مخزوم أكثر عشائر مكة.

ثم تلا عليه الصلاة والسلام بقية الآيات، ورفع بها صوته وكأنه يخاطب بها الناس عامة وأبا جهل خاصة:

﴿كلا إنّ الإنسان ليطغى. أنْ رآه استغنى. إنّ إلى ربك الرُّجعى. أرأيتَ الذي ينهى عبدًا إذا صلَّى. أرأيتَ إنْ كان على الهدى. أو أمر بالتقوى. أرأيت إنْ كذّب وتولّى. ألم يعلم بأنّ الله يرى؟ كلاَّ، لَئِنْ لم ينته لَنَسْفَعَاً بالناصية. ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ. فليدعُ ناديَه. سندعو الزبانية. كلا لا تُطعهُ واسجدْ واقتربْ﴾.

وفهم الناس جميعاً أن الخطاب موجه لأبي جهل، وأدركوا أن النبي ﷺ يتحدَّاه بتلاوته، ويريد تقريعه وتوبيخه!!.

واتجه رجال إليه وقالوا:

يا أبا الحكم، هذا محمد، ألا تسمع ما يقول لك!!

لكن أبا جهل ردّ مكبوتاً مخذولاً:

(ويحكم ألاَ ترون ما أرى، والله لقد سُدّ أفق السماء عليّ!!).

وضحك الملأ من قريش ملء أفواههم وقالوا:

وأيضاً قد ـ والله ـ غلبك بسحره ثانيةً، إنك عجزتَ عما عزمت من منعه من الصلاة بين ظهرانينا!!

وانتفخ غرور الطاغية من جديد ورد: اصبروا عليّ يا معشر قريش، فوالله لأرينكم ما أصنع بمحمد وسحره!!.

***

مضت أيام وأبو جهل سادر في غيِّه، محجوب بجهالاته، لا يفكر بشيء إلاّ بمنع النبي ﷺ من الصلاة في المسجد.

وقام بعد حين في الناس ـ والغضب يكسو وجهه ـ وقال لهم:

(يا معشر قريش، ما بال هذا الصابىء[١] لا زال مستعلناً بصلاته فينا، واللاَّت والعُزّى لئن رأيته يصلِّي لأطأنّ على رقبته، ولأُعَفِّرَنَّ وجهه بالتراب).

ولم يفجأ الناس إلاّ والنبي ﷺ قد قدم المسجد، ثم قام بين الركنين[٢] وجعل يصلي، ورآه أبو جهل فتمعَّر وجهه[٣] وتبين الشرّ في عينيه، وأخذ يتلظّى كأنه أفعى... وفرح الملأ من قريش، وأيقنوا أنه لا بدّ أن سيقع في رسول الله هذه المرة.

وتقدم أبو جهل نحو النبي ﷺ بعد أن رآه يهوي للسجود، ومشى نحوه بخطوات بطيئة، ثم أخذ ينظر عن يمينه وعن شماله وكأنه يحذر أن يُؤتى من أحد جنبيه، وتابع الرجل سيره البطيء، لكنه توقف فجأة، ثم نَكَص[٤] على عقبيه، ووضع يديه على مقدمة رأسه وكأنه يتقي بهما، ثم أسرع مذعوراً، وقد تغيرت ملامح وجهه، وارتعدت فرائصه[٥] وعلا خفقان قلبه!!

وبُهت المشركون لما أصابه، وقالوا له:

ويحك، ماذا دهاك؟؟

وأجابهم وهو يتلعثم بكلماته ولا يكادُ يُبين بها:

(ماذا دهاني، فوالله ما إن اقتربت منه حتى شعرت أن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة).

وصاح المشركون ساخرين:

هذا دَأْبُ[٦] محمد معك يا أبا الحكم، كل مرة يغلبك سحره فخفِّفْ

(١) الصابىء: الذي غيّر دينه.
(٢) الركنان: هما ركن الحجر الأسود والركن اليماني.
(٣) تمعر وجهه: تغير وعلته صفرة.
(٤) نكص: تأخر وتراجع.
(٥) فرائصه: جمع فريصة وهي لحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد.
(٦) الدأب: العادة.

عن نفسك ولا تعدْ لمثلها.

وغضب الطاغية، وكاد يدخل بعضه في بعض من سخرية القوم وصاح فيهم: صبراً يا معشر قريش، فوالَّذي نصبها بَنيَّة[1] لأنتصفنَّ منه، ولأقرنَّ عيونكم.

ويومها رأى بعض أصحاب النبي ﷺ ما أصاب أبا جهل وسمعوا كلمته التي قالها لقريش: (إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأجنحة)، فقصّوا على رسول الله ﷺ ما رأوا وما سمعوا، فقال لهم صلوات الله عليه: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً!!».



صعب على طاغية قريش الأكبر أن يُخزى مراراً أمام رسول الله ﷺ، وأن يعلن أكثر من مرة أنه سيمنعه من الصلاة في المسجد ويحاول ذلك، فيعود مذموماً مخذولاً، ولقد توعده بقومه بني مخزوم، فنزل القرآن يتهدده وإياهم ، فلم يكفه أن ألحق العار بنفسه ، بل لقد أصاب قومَه العارُ بسببه!!

وتحدث الناس في منتديات مكة بمحاولاته الخاسرة، وتندّروا به، وفرح المؤمنون بما أصابه من خزي المرة تلو المرة... كل ذلك وهو لا يطامن من كبريائه، ولا يرعوي عن غيه، ولا يفهم أن رسول الله معصوم منه ومن غيره، بل لقد بلغ به الطغيان مدىً ليس بعده مدى، فقام في سادة قريش مساء يوم يقول لهم:

(يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلاّ ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وسبِّ آلهتنا!!

وإني أعاهد الله لأجلسنّ له غداً بحجر، فإذا سجد في صلاته

---

(١) البنية: الكعبة.

فضختُ[١] به رأسه، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم).

ثم انصرف مغضباً لا يلوي على شيء.

وسُرَّ الملأ من قريش بِوَعيده، وقالوا: دعوه يَنْصُرْ آلهتنا، ويريحنا مما جاءنا به محمد، ولعلَّه يغلبه على سحره هذه المرة.

وانفضّ المجلس، وقام الناس إلى بيوتهم وليس هناك شيء يشغل فكرهم سوى ما اعتزم أبو جهل أن يصنعه غداً... بيد أن واحداً منهم وهو «النَّضْر بن الحارث» ـ وكان من شجعان قريش ووجوهها وشياطينها ـ أشفق على أبي جهل أن يَخزى هذه المرة أيضاً، فسعى إليه في منزله، فطرق بابه، ثم دخل عليه وقال له: يا أبا الحكم دَعْك مما قلته في قومك، ولا تفعل ذلك، ودَعُوا محمداً لي، فهو إنما يأتيكم بأساطير الأولين، وأنا سأحدثكم بأخبار ملوك فارس ورستم واسفنديار، وأنا أحسنُ حديثاً منه!!

ورد عليه أبو جهل: لا واللات والعزّى، سوف لا أدع ما اعتزمت فعله، وسأشفي نفسي ونفوس قومي منه.

وأقبل عليه النضر وقال له: يا أبا الحكم، أنا لك ناصح وعليك شفيق، فوالله لن تصل إلى محمد، فالرجل ممنوع!!

فردّ أبو جهل: بل هو ساحر جاءنا بسحر عظيم.

وقال النضر: بل هو ممنوع، ـ وأنت تعلم ذلك ـ وإنه مُنع مني ومنك، فاسمع يا أبا الحكم ما جرى لي معه:

رأيته من قريب وقد خرج نصف النهار يريد حاجته في حرٍّ شديد، فاتبعته أريد اغتياله، وقلت في نفسي لا أجده أبداً أخْلَى[٢] منه الساعة، ومشى هو حتى أبْعَد، حتى وصل أسفل من «ثنية الحَجُون»[٣] ففرحت

---

(١) فضخت: شققت.

(٢) أخلى: أشد تفرداً ووحدة.

(٣) ثنية الحجون: طريق صاعد في جبل الحجون في مكة.

لذلك وقلت في نفسي: أفرغ من شأنه[١] ولا يراني أحد... وجلس الرجل، واتجهت صوبه أريده، فوالله ما شعرت إلاّ أساود[٢] تَصْطَكّ أنيابها[٣]، ثم تفتح أفواهها وهي تدنو مني، فذُعرت منها ووليت راجعاً، ووالله لو أدركْتني لاقتلعت هامتي.

لكن أبا جهل ـ وقد استولى عليه الصَّلَف والغرور ـ أجابه قائلاً:

هذا بعض سحره، وقد رأيتُه منه مراراً، ولكني هذه المرة سأقضي عليه وعلى سحره!!

وعندها قال له النضر:

والله يا أبا الحكم ما جئتك إلاّ مشفقاً عليك، ناصحاً لك، فأنت عزيز هذا الوادي[٤]، أما وقد رفضت نصحي فافعل ما بدا لك!!.

***

وفي صباح غدٍ أخذ أشراف قريش أماكنهم في الحرم، وقلوبهم تخفق لما سيجري، وجعل يساورهم أمران ويصطرعان في نفوسهم: هل إن أبا الحكم سينقذ قريشاً اليوم مما دهاها من أمر هذا الدين الجديد، أم أنه سيُخزى هذه المرة فتعلو كلمة محمد وتسفل كلمتهم؟!.

وقدم أبو جهل وهو أشد ما يكون غضباً، فسلّم على القوم ثم جلس ولم يكلم أحداً.. كان مضطرب النفس، مشوَّش الفكر، زائغ البصر، سريع الأنفاس، كأن على ظهره حملاً ثقيلاً يريد أن يلقيه.

وأقبل النبي ﷺ، فارتجفت الأفئدة، وعلا خفقانها، وتعلقت العيون بالطاغية المغامر، وصبر هو قليلاً، حتى إذا رأى النبي ﷺ قد شرع في

(١) أفرغ من شأنه: أقتله.
(٢) الأساود: جمع أسود. وهو الحية العظيمة السوداء، وتعرف بالحنش.
(٣) تصطك: يضرب بعضها بعضاً.
(٤) الوادي: مكة.

صلاته ثم هوَى إلى سجوده، حمل حجراً كبيراً بين يديه واتجه به صوبه يريد أن يفضخ به رأسه، واقترب أبو جهل هذه المرة قريباً من النبي ومنَّته نفسه الأماني، وها هو ذا فوق رأس النبي الكريم وهو لا يشعر به، وهمَّ أن يحرك يديه بالحجر الثقيل، لكن يداه يبستا على الحجر، ونظر أمامه، فإذا بفحل من الإبل عظيم يريد أن يقتطع رأسه، بل يريد أن يبتلعه، وذُعر الطاغية ذُعْراً لم يذعره من قبل، ونكص راجعاً منبهتاً، منتقعاً لونه، مرعوباً، قد يبست يداه على الحجر، حتى قذفه في مكان بعيد.

وقام إليه رجال من قريش مشفقين عليه، وأخذهم منظره وأحزنهم حاله، وأحاطوا به، ثم قالوا له:

ما لك يا أبا الحكم، وماذا دهاك؟!

وجلس الطاغية إلى الأرض فقد كانت رجلاه لا تستطيعان حمله، وصمت قليلاً يستعيد أنفاسه، ويهدِّىء من روعه، ويخفِّف من اضطرابه، وتعلقت به العيونُ والآذان تريد أن تسمع ما يقول:

وبعد لأيٍ تكلّم فقال:

(يا قوم قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فَحْل من الإبل، والله ما رأيت مثل هامته ولا قَصَرته ولا أنيابه لِفَحل قط، فهمَّ أن يأكلني.

واللّهِ يا قوم ليس بي طاقة على هذا الرجل، لقد جربتُ نفسي معه مراراً فلم أفلح بواحدة، فدونكم وصاحبكم!!).

***

وساد الصمت الملأ من قريش ولم يجد أحدٌ منهم شيئاً يقوله، ثم قطع عليهم صمتهم واحدٌ منهم حين قال لهم:

قوموا يا معشر قريش وانظروا في أمركم، فوالله لم يُصب أحد من العرب بمثل ما أصبتم به!!

وتفرق الناس إلى بيوتهم مدهوشين محسورين.

وآب أبو الجهل إلى بيته يمضغ المرارة والخزي ويكسوه العار والشنار، فقد خاب أمله مراراً، حتى يئس أن يصل إلى رسول الله، وأعلن ذلك في قومه.

وفرح المؤمنون بما أصاب هذا الطاغية الفاجر، وحدثهم رسول الله أن الله قد منعه منه بكبير الملأ الأعلى وقال لهم يومها:

«ذاك جبريل، ولو دنا منه لأخذه!!».



المراجع:

- صحيحا البخاري ومسلم.
- سنن الترمذي وابن ماجه ومسند أحمد.
- البداية والنهاية، ٣/ ٦٤.
- كنز العمال، ٧/ ١٢٩.
- السيرة الشامية، ٢/ ٤٤٣ و ٤٥١.
- الخصائص الكبرى، ١/ ٣٢.

لا تحـزن إنَّ اللّه مَعَنـا

تمهيـــد:

أجمعت كتب السيرة على أن النبي ﷺ تعرض في الهجرة لمحاولات ثلاث لقتله: محاولة جرت أمام بيته ليلة خرج من مكة، وكان أبطالها فتية من قريش. وأخرى تعرض لها وهو في غار ثور حينما وقف أعداؤه أمام الغار ورأى هو وصاحبه أقدامهم. وثالثة وهو في الطريق إلى المدينة وكان بطلها المغامر التائه: سراقة بن مالك.

وكانت كلها محاولات خطيرة ومخيفة، يُخيِّل للمرء فيها أن الموت قد دنا من رسول الله حتى صار قاب قوسين أو أدنى[1] لكنها أخفقت جميعها وخاب أصحابها، وخرج منها رسول الله سالماً غانماً ترعاه عين الله، وتحوطه عنايته، وتكلأه رعايته[2].

وإلى القارىء قصة هذه المحاولات الخائبة، والمغامرات التائهة، التي لم ينل النبي ﷺ منها شيء يؤذيه؛ بل أكرمه الله فيها بالعصمة، ومنعه بالرعاية، وأعجز فيه المبطلين.

---

(١) قاب قوسين أو أدنى: قدر قوسين أو أقرب. والقوس هو آلة الحرب، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح وبالذراع والباع والخطوة والشبر.
(٢) تكلأه رعايته: تحفظه رعايته.

مع فتية قريش

١

ثلاث عشرة سنة مضت على رسول الله ﷺ وهو يخاطب أهل مكة بدعوته التي جاءهم بها، ويحثهم على حملها، ويرغِّبهم في اعتناقها، بَيْدَ أن معظمهم أعرضوا عنها، بل قاوموها وآذوا النبي وأصحابه، وأنزلوا بهم البلاء المبين، والأذى الجسيم، حتى اضطروا عدداً منهم للهجرة من الوطن والعيش في بلاد الغربة.

ثلاث عشرة سنة مضت وما لانت لرسول الله قَناة[1]، ولا ضعفت له عزيمة، يجابه بدعوته الطغاة، ويتحمل منهم ما يتحمل. سخروا منه، شتموه، قالوا عنه ساحر ومجنون وشاعر. رمَوه بالحجارة، وضعوا على ظهره سَلاَ الجزور[2] وهو يصلي، حاولوا خنقه عند المسجد الحرام، حاول بعض طغاتهم أن يرميه بحجر كبير علي رأسه وهو ساجد... كل ذلك ذهب أدراج الرياح وبقي النبي ﷺ كالطَّود الشامخ[3] يدعو إلى الله على بصيرة من أمره وبيقين وثبات.

لقد أعجز كفارَ قريش أمرُه، وأعضل بهم[4] شأنه، وفشلت سائر محاولاتهم معه... واليوم جاءهم منه ما هو أدهى وأمرّ، إنه استطاع أن

---

(١) ما لانت له قناة: ما ضعف وما تراخى أمام أعدائه.

(٢) السلا: الجلد الرقيق الذي يخرج الولد من بطن أمه ملفوفاً فيه، ويقال له: (الخلاص). والجزور: الناقة.

(٣) الطود: الجبل العظيم الذاهب صُعُداً في الجو.

(٤) أعضل بهم: صعب عليهم أمره.

يكسب لدعوته قبيلاً من العرب له شأنه، وموطناً له وزنه، وإنّ معظم أصحابه هاجروا إلى ذلك الموطن، ولسوف يشكلون خطراً وأي خطر على قريش وتجارتها.

.. أجل لقد تابع محمداً ﷺ على دينه الأوسُ والخزرجُ الذين يسكنون يثرب، وهم قومٌ صُبُرٌ[١] في الحرب، صُدُقٌ[٢] عند اللقاء، أبناء الحروب وأهل الحَلْقة[٣]، ورثوها كابراً عن كابر[٤]. ثم إنهم أعطَوه عهودهم ومواثيقهم على نصرته وحمايته مما يحمون منه نساءهم وأبناءهم، فعزَّ جانبه، وقوي أمره، وأصبح يشكل خطراً أكبر من ذي قبل عليهم.

* * *

... وتداعَى زعماء قريش لاجتماع يعقدونه ليَروا رأيهم فيما جرى... وفي ضحوة يوم من الأيام أخذ السادة الغطاريف[٥] من بطون قريش ينهضون من حَلَقهم حول الكعبة ويُدْلفون[٦] إلى دار الندوة[٧]..

كان أولَ من قدم عتبةُ بن ربيعة وأخوه شيبة، ثم تتابع مجيئهم حتى اجتمع في الدار: أبو سفيان صخر بن حرب، وجبير بن مطعم، والحارث بن عامر بن نوفل، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، وأمية بن خَلَف، ونُبَيه ومنُبِّه ابنا الحجاج السَّهْميان؛ وأناس من حلفاء قريش...

---

(١) صبر: جمع صبور.
(٢) صدق: جمع صدوق.
(٣) الحلقة: السلاح.
(٤) ورثوها كابراً عن كابر: أي: ورثوها عن آبائهم وأجدادهم كبيراً عن كبير.
(٥) السادة الغطاريف: كرام القوم.
(٦) دلف: مشى رويداً وقارب الخطو.
(٧) هي الدار التي بناها لهم قصي - جِدّ النبي الرابع - وانظر الحاشية رقم (٣) من صفحة ١٢ من هذا الكتاب.

وأخذ عتبة بن ربيعة يجيل النظر في الحضور وكأنه يبحث عن شخص معيَّن، ونظر مرةً ثانية وثالثة فلم يجده، فقال:

أين أبو الحكم بن هشام؟

وأجاب النضر بن الحارث: تركته في الحرم يستعدّ للمجيء.

ولم ينته النضر من كلامه حتى دخل أبو جهل عليهم الباب وإلى جانبه شيخ كبير جليل عليه كِساء غليظ، فألقيا التحية ثم جلسا في صدر المجلس.

وتسمّرت عيون القوم في الشيخ الكبير، فمن عساه يكون؟! وكيف يدخل دار الندوة وهو ليس من قريش ولا من حلفائها. إنهم لا يعرفونه!! وصاح الناس:

من هذا الرجل معك يا أبا الحكم؟

فابتدره[1] الشيخُ[2] قائلاً:

(شيخ من أهل نجد[3]، سمع بالذي اتّعَدْتُمْ له، فحضر ليسمع ما تقولون وعسى أن لا يُعْدِمَكم منه رأياً ونصحاً!!).

وأجاب الجميع، أجل، مرحباً بك!!

وتكلم عتبة بن ربيعة ـ وكان أكبر القوم ـ فقال:

يا قوم، إن هذا الرجل[4] قد كان من أمره ما قد علمتم فإنا ـ والله ـ ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتَّبعه من غيرنا، فأجمِعوا فيه رأياً.

---

(١) ابتدر: عاجَل.

(٢) هذا الشيخ هو «إبليس» اللعين، كما في سيرة ابن هشام.

(٣) قال السهيلي ـ شارح السيرة ـ: إنما قال لهم: إني من أهل نجد لأنهم قالوا: لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدي!!.

(٤) يريد النبي ﷺ.

وساد الاجتماعَ اللغطُ، وجعل كل جماعة يتحدثون فيما بينهم، وبدا أن الجميع ينؤون بهمٍّ ثقيل، ومضت فترة ولا يجمع القوم حديث واحد، والشيخ النجدي مطرق رأسه إلى الأرض يفكر ولا يشارك أحداً في الحديث.

ثم قطع اللغَطُ أحدُهم قائلاً:

(احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهَه من الشعراء الذين قبله: زهيراً والنابغة ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم).

وهمّ عدد من الحضور أن يرد على أبي البختري بن هشام صاحب هذا الرأي، لكن الشيخ النجدي سبقهم فقال ـ وقد تعلَّقت به العيون ـ:

(لا والله، ما هذا لكم برأي!!

والله لئن حبستموه كما تقولون، ليخرُجنَّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره).

وهزّ الجميع رؤوسهم إشارةً على موافقتهم الشيخ النجدي على كلامه، وعاد اللَّغَط ثانيةً إلى المجلس ولم يقطعه إلاّ أبو الأسود ربيعة بن عامر حينما قال:

(نُخْرِجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نُبَالي أين ذهب، ولا حيث وقع؛ إذا غاب عنا وفَرَغْنا منه فأصلحنا أمرنا وأُلفتنا كما كانت).

واستاء القوم لهذا الرأي، فكيف يخرجونه، وهم يتخوفون من خروجه إلى مَنْ آمن بدعوته من الأوس والخزرج!! وتكلم الشيخ النجدي ثانيةً فقال:

(لا والله... ما هذا لكم برأي!!

ألم تَرَوا حُسْنَ حديثه، وحلاوة منطقه، وغَلَبته على قلوب الرجال بما يأتي به؟!

والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحلّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. فدبِّروا فيه رأياً غير هذا).

ورُفض الرأي الثاني... ولم يطل الأمر على القوم هذه المرة، فقد بدا أنَّ عند أبي الحكم بن هشام رأياً يريد أن يعرضه، فتطلَّعت إليه الأبصار، وأقبلت عليه الوجوه، وأنصت إليه الشيخ النجدي.

وتكلم أبو جهل فقال:

(والله إنَّ لي فيه لَرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد).

وصاح جميعهم: وما هو يا أبا الحكم؟

فقال:

(رأيي أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً[١]، نسيباً، وسطاً[٢] فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً[٣]، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضُوا منا بالعَقْل[٤]، فعقلناه لهم).

ولم يكد أبو جهل ينهي كلامه حتى صاح الشيخ النجدي:

(القول ما قال الرجل، هذا هو الرأي الذي لا رأي غيره).

---

(١) جليداً: قوياً في نفسه وجسمه.

(٢) وسطاً: أي حسيباً في قومه.

(٣) صارماً: قاطعاً.

(٤) العقل: الديَّة.

وصاح الجميع: هو والله الرأي، ثم تفرقوا وهم مجمعون عليه.



الوقت الآن بُعَيد الزوال[١] بقليل... النبي ﷺ في بيته، أدّى فريضة الظهر وجلس يذكر الله تعالى، ثم ها هو ذا قد أخذه ما كان يأخذه حين يغشاه الوحي... ورأت فاطمة ابنته ما به من الجَهْد، فأدركت أنه يوحَى إليه، فتركت الحجرة وتحولت إلى حجرة أخرى في الدار... ونزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ يخبره بإذن الله له في الهجرة، ويأمره بأن لا يبيت الليلة على فراشه الذي كان يبيت عليه، وكشف له القناع عَمَّا رَصَد له المشركون من كيدٍ ضحوة هذا اليوم في دار الندوة.

وسُرِّي[٢] عن رسول الله سريعاً، وانطلق جبريل، وأقبل النبي ﷺ على ابنته فاطمة، فقرأت في وجهه أنه قد حضره أمر هام جداً لكنها لم تشأ أن تسأله عنه، وطلب عليه السلام منها أن تعطيه شيئاً يتقنَّع به[٣]، فناولته إياه، فوضعه على رأسه يتقي به حرَّ الشمس، ثم انطلق من بيته.

وشُغل بال فاطمة، فجلست تسائل نفسها: إلى أين خرج أبي في مثل هذه الساعة التي لم يكن يخرج فيها، وهل دبّر المشركون له أمراً؟! ماذا جاءه من ربه، وما هو هذا الأمر الهام الذي شغله؟!...

ولم تجدِ الجارية الصغيرة[٤] جواباً لتساؤلاتها، وتمنّت لو أن أمها خديجة بقيت حيّة تواسيه، وثقلت عليها الهموم، وأهاجتها الأحزان، فلجأت إلى الدموع تسلِّي بها نفسها، وتخفف من همها.

كان الوقت حاراً جداً حتى كأن لَفَحات الهواء سعيرُ نارٍ يكوي

---

(١) الزوال: أول وقت الظهر.
(٢) سري عنه: انكشف عنه الوحي.
(٣) تقنع: وضع ثوباً على رأسه.
(٤) الجارية: الفتية من النساء.

الوجوه، وجلس أبو بكر الصدِّيق إلى ابنتيه أسماء وعائشة يحادثهما، وجعلتا تهوِّيان لأبيهما بمهواة من ورق النخيل وهو يقول لهما: ما أرى صنيعكما يغني عني شيئاً، بل ما يزيدني إلاّ حرّاً!!

وقالت أسماء: لماذا تأخرت يا أبت عن اللحاق بإخوانك الذين هاجروا إلى يثرب؟

وأجابها: (تأخرت لقول رسول الله لي: على رِسْلك[1]، فإني أرجو أن يؤذن لي)، فأنا حابس نفسي على رسول الله لأصحبه، وما هاتان الراحلتان اللّتان نعلفهما من ورق السَّمر[2] من أربعة أشهر إلاّ لهذا الأمر.

وقالت أسماء: وهل تطمع يا أبت في الهجرة مع رسول الله؟

وأجابها: إن النبي ﷺ لا يفتأ يقول لي كلما استأذنته في الهجرة: «لا تَعْجَلْ، لعلّ الله يجعل لك صاحباً»، فكيف لا أطمع بذلك يا بنيتي!!

وتهلل وجه أسماء وقالت لأبيها: بلّغك الله مُناك يا أبت، وأسعدك بصحبة نبيه.

وتركت الفتاة أباها وأختها وقامت لحاجة بها، لكنها عادت مسرعة ونادت أباها:

يا أبت، يا أبت، هذا رسول الله متقنِّعاً قد جاءك في ساعة لم يكن يأتي فيها!!

وهبَّ أبو بكر من مجلسه سريعاً، ونظر إلى رسول الله ﷺ مقبلاً فقال: (فداءٌ له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلاّ أمرٌ!!!).

ودخل عليه الصلاة والسلام بيت صاحبه، فاستقبله أحسن استقبال، وأجلسه على سريره.

---

(١) على رسلك: تمهل.
(٢) السمر: نوع من الشجر، ويقال له أيضاً: الخَبَط.

وقال النبي ﷺ لأبي بكر:
«أخْرِجْ مَنْ عندك».

وأجابه الصدِّيق: إنما هم أهلك[١] بأبي أنت يا رسول الله. وما ذاك فداك أبي وأمي؟

فقال النبي ﷺ:
«إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة».

وقال الصدّيق:
(الصحبةَ بأبي أنت وأمي).

فأجابه:
«نعم، الصحبة».

وسالت الدموع من مآقي أبي بكر فرحاً بما سمع، وغشيه من السرور أمر عظيم!!

ونظرت عائشة إلى أختها أسماء وهمست في أذنها:
ما يُبكي أباك يا أسماء؟

فأجابتها: يبكي من الفرح فهو سيهاجر صحبة رسول الله!!

وقالت عائشة: ويبكي الإنسان من الفرح يا أسماء؟

فردَّت الأخت الكبيرة: نعم، أو ما رأيتِ أحداً يفعل ذلك؟

فقالت عائشة:
والله ما شعرتُ قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أباك!!

---

(١) أهلك: أي: عائشة، وقد كان النبي عقد عليها في مكة، أما أسماء فألحقت بالأهل تغليباً. وهذه رواية البخاري، أما رواية ابن إسحاق ففيها: (يا رسول الله إنما هما ابنتاي).

ونظر الصدِّيق في بنتيه وقال لهما:

هيّا، قوما أعدّا لنا جَهاز سفرنا، فقامتا لذلك، وصنعتا سُفْرة[١] في جِراب[٢]، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها[٣]، فربطت به على فم الجراب.

وخلا النبي ﷺ بصاحبه، فأخبره بخبر المشركين وما يعدّونه من المكر به، وأطلعه على ما جاءه من الأمر بأن لا يبيت الليلة في فراشه، ثم أعدَّ معه خطة الخروج من مكة وساعة الانطلاق منها، وبعد ذلك غادر بيت أبي بكر عائداً إلى بيته.

٣

استقبلت فاطمة أباها والحزن يكسو محيّاها[٤]، وقرأ عليه الصلاة والسلام في وجهها ما دار في خَلَدها، فأقبل عليها ومسح بيده الشريفة على وجهها، ثم طلب منها أن تنام الليلة في بيت خالتها «هَالَة»[٥].

وهنا زادت وساوس الفتاة الصغيرة فخاطبت أباها:

وأنت أين ستبيت الليلة يا أبت؟

فأخبرها أنه لن يبيتَ الليلة في بيته.

وسألته بصوت يشوبه النشيج[٦]:

وماذا جرى يا أبت؟

فأخبرها أنه مهاجر إلى الأوس والخزرج صحبة أبي بكر الصدِّيق،

---

(١) السفرة: الزاد.
(٢) الجراب: وعاء من جلد يوضع به الطعام.
(٣) النطاق: حزام أو إزار يشد به الوسط، ومن هنا دُعيت أسماء ذات النطاقين.
(٤) المحيّا: الوجه
(٥) هي: (هالة بنت خويلد) أخت خديجة رضي الله عنهما.
(٦) نشج الباكي نَشْجاً ونشيجاً: تردد البكاء في صدره من غير انتحاب.

وحكى لها ما أجمع عليه قومه من المكر به في هذه الليلة.

وانفجرت فاطمة تبكي، وتنتحب[١]... لكن النبي ﷺ ضمها إليه، وغمرها بحنانه، وقال لها:

«لا تبكِ يا بنيَّة، فإن الله مانع أباك»، وما زال بها حتى هدأت وكفَّت...

وفي المساء ودَّعت أباها بالدموع الغزيرة، ثم انصرفت من بيتها إلى بيت خالتها «هالة» حيث هناك أيضاً أختها «زينب» التي تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع.

وأرسل النبي ﷺ وراء علي بن أبي طالب فجاءه سريعاً، فأخبره الخبر وقال له:

«نَمْ على فراشي، وتَسَجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر؛ فإنه لن يُخْلَص إليك منهم شيءٌ تكرهه».

٤

أقبل الليل برهبته، وساد الظلام مكة، وهدأتِ الرِّجل تماماً، وبدأ الرجال الذين كُلفوا بأن يقوموا بأكبر جريمة وعتها أذن التاريخ ـ لو تمت ـ بدأوا يتسللون من بيوتهم، ويدلفون إلى أمام بيت رسول الله ﷺ حتى اكتمل جمعهم.

كان على رأسهم أبو جهل طاغوت قريش والعدو الأكبر لله ولرسوله، وكان يبدو عليه السرور التام والسعادة القصوى وجعل يقول لأصحابه:

اليوم يبطل سحر محمد.. اليوم تريحون قومكم مما عانوه منه طويلاً، وتنتصرون لآلهتكم وآبائكم وأجدادكم..

ووقف فتيان قريش قريباً من باب بيت النبي، وأخذوا يتناوبون النظر

(١) النحيب: رفع الصوت بالبكاء.

من شقوق الباب بلهفة بالغة وتحرّق شديد. . . عاقدين عزمهم الشديد على أنهم متى رأوه أفاق من نومه وخرج من بيته؛ أن يُهرعوا إليه، ويفاجئوه بالسيوف، فيشرعوها فيه، وينتهوا من أمره!!

وأكثر فتيان قريش من التردد على الباب والنظر منه؛ لكنهم كانوا في كل مرة يعودون فيقولون: ها هو ذا على فراشه تحت برده الحضرمي.

لم ينم زعماء مكة تلك الليلة فهم ينتظرون من يصيح فيهم:
قُتل محمدٌ الليلة، وعندها سوف يفرحون فرحاً ما بعده من فرح. . .
كانت قلوبهم تخفق بهذا الأمل، وكان الطغاة موقنين أنهم سيصلون إليه، لكن السماء كانت تسخر منهم سخرية مريرة، بل كل شيء كان يسخر منهم؛ حتى السيوف المشحوذة التي كانت في أيدي فتيتهم. . . ولو أنها نطقت يومئذٍ لقالت لهم:
لن تصلوا إلى محمد رسول الله.

كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ على أحرٍّ من الجمر، تتلوّى على فراشها تلوِّي السليم[١]، تبكي تارة وتضرع إلى الله بالدعاء تارةً أخرى، وتجتهد في أن تخفي صوتها بالبكاء حتى لا تسمعها خالتها «هالة»، فتسألها عمّا بها فتحرجها!!

وكان أبو بكر الصدِّيق وأهل بيته ـ زوجه أم رومان، وأولاده: أسماء وعائشة وعبد الله ـ ينتظرون رسول الله على مثل جمر الغَضَى[٢]، لم يسكن خفقان قلب أبي بكر ولم يرقأ دمعه[٣] تلك الليلة، فقد شعر بقلق شديد واضطراب ممض.

وفي السموات العُلَى ضجَّ الملأ الأعلى بالدعاء إلى بارئهم ـ سبحانه ـ

---

(١) السليم: الملدوغ.
(٢) الغضى: شجر خشبه من أصلب الخشب وجمره يبقى زماناً طويلاً لا ينطفىء.
(٣) لم يرقأ دمعه: لم ينقطع.

أن يحفظ نبيَّه، ويرد كيد من كاده في نحره.

أما رسول الله فقد أكثر تلك الليلة من الصلاة والذكر والضراعة إلى الله. كان ثابت الجأش[١]، مطمئن القلب، عظيم الثقة بالله تعالى، موقناً أعظم اليقين أنه سيخرج من بين ظهراني هؤلاء القتلة، وسيأخذ الله على أيديهم وأبصارهم وأسماعهم، فلا يصلون إليه بشيء يكرهه.



مضت ساعات من الليل، وأوشك أن ينتصف، وخشي أبو جهل أن يسفر الفجر ولمَّا ينتهوا من مهمتهم، فجعل يذهب ويكثر النظر من شقوق الباب، ثم أمر أصحابه أن يقتربوا من الباب، وقال لهم ـ وقد بدأ النعاس يثقل رؤوسهم ـ: ما هي إلاّ ساعة فيقوم محمد من فراشه ويخرج من بيته، فنفرغ منه.

وجاءت الساعة الرهيبة، فقد آن أوان خروج النبي من بيته، وخفق قلب الكون انتظاراً لما سيجري، وخرج النبي ﷺ من حجرته، وألقى نظرة على ابن عمه الفتى الذي باع لله نفسه، ثم دعا له، وطرق سمعَه صوتُ أبي جهل يقول لأصحابه:

(إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجُعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بُعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم نارٌ تحترقون فيها).

وابتسم النبي عليه الصلاة والسلام لقوله، ثم تقدم خطوات نحو الباب وهو يقول:

«بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله».

وخرج عليه الصلاة والسلام على أعدائه، فأخذ الله ـ سبحانه ـ

---

(١) الجأش: النفس.

سمعَهم وأبصارَهم ودبَّ النعاس فيهم؛ حتى سقطوا على الأرض وأسندوا ظهورهم للحيطان، وأخذ النبي حفنة من تراب في يده ثم أقبل على أبي جهل فقال له: «نعم أنا أقول ذلك. أنت أحدهم»، ثم نثر التراب على رأسه، ثم فعل ذلك بهم جميعاً وهو يتلو قوله تعالى:

﴿يسٓ. والقرآن الحكيم. إنك لمن المرسلين على صراطٍ مستقيم. تنزيلَ العزيز الرحيم. لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم فهم غافلون. لقد حقَّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مُقْمَحون[1]، وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً، فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾.

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام إلى بيت أبي بكر، فتلقَّاه بالبهجة والسرور، وحمد الله على سلامته، ثم انطلق معه من باب صغير في ظهر داره، وغادرا مكة بحفظ الله ورعايته ورسول الله يردد:

«وقل ربِّ أدخلني مُدْخَل صدق وأخرجني مُخْرَج صدق، واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً».

ثم تابعا مسيرتهما الشاقة في الليل البهيم حتى وصلا «غار ثور».

اهتز الكون فرحاً وسروراً بنجاة رسول الله، وضج الملأُ الأعلى حامدين شاكرين، وشعرت فاطمة بنت النبي ﷺ بموجة من الطمأنينة والسكينة، وغشيها بَرْد الراحة، وشاع فيها السرور.. وأدركت الفتاة أن أباها قد عَبَر وادي الهلاك، ترعاه عين الله وتحوطه رعايته.

وأفاق فتية قريش مذعورين فقد أسفر الفجر وأوشكت الشمس أن تشرق، وجعلوا يقولون:... ماذا حصل لنا... غَلَبنا النوم.. غفلنا عن طَلِبتنا.. ماذا جرى لصاحبنا؟! وأسرع أبو جهل إلى الباب ينظر، ثم أقبل

(١) مقمحون: رافعو الرؤوس، غاضُّو الأبصار.

على أصحابه مبتسماً يقول: لا، لا تحزنوا، فها هو ذا لا يزال يغطُّ في نومه تحت برده الأخضر..

وضحك الفتية وداخلهم السرور، وقال أحدهم:
واللات والعزَّى لو قد فاتنا محمد لكنا أخسر الناس وأهون الناس!!

وبعد لأيٍ صاح واحدٌ منهم:
يا أبا الحَكم، لقد أوشكت الشمس أن تطلع، فينكشف أمرنا!

وأجاب كبير الطغاة:
ماذا نعمل؟ نقتحم عليه بيته!! إذن تكون مسبَّة الدهر لنا!!

انتظِروا فعمّا قليل سينهض من فراشه ويدع بيته.

وبينا هم واقفون ـ وقد أخذت الثورة تضطرب في نفوسهم ـ إذا برجل من مشركي مكة يقدم عليهم فأدهشه أمرهم، فسألهم: ما تنتظرون ههنا، فأجاب أبو جهل:

نريد قتل هذا الصابىء الذي قد أدخل علينا ما لم يدخله رجل على قومه!!

وصاح الرجل فيهم ـ وقد رأى النبي منذ الليل يمشي في زقاق من أزقة مكة ولا يعلم من أمره شيئاً ـ:
خيّبكم الله!!

قد ـ والله ـ خرج عليكم محمد من بيته وأنتم غافلون عنه، ثم ما أراه ترك رجلاً منكم إلاّ ووضع على رأسه تراباً، ثم انطلق لحاجته.

أما ترون ما بكم، تلمّسوا رؤوسكم!!

وذعر القوم لكلام الرجل، وجعل كل واحد يمس رأسه فيجد التراب عليه، فيقول: صدقت والله!! وأسرع أبو جهل إلى شقوق الباب ينظر، فعاد يقول للرجل:

بل أنت خيَّبك الله. فها هو ذا محمد تحت برده لا يزال نائماً، أفتريد أن تأتينا بسحر كسحره!!

وضحك الرجل، ثم ولّى وهو يقول:

والله يا قوم ما أرى محمداً إلّا ممنوعاً.

***

ازداد الفتية ذعراً لما سمعوه من الرجل ولما رأوه على رؤوسهم من التراب، وثارت نفوسهم، وهموا أن يقتحموا البيت، لكنّ أبا جهل جعل يسكِّنهم. وبينا هم على هذه الحال، إذا بفتىً منهم كان ينظر من شقوق الباب يهمس فيهم:

يا قوم، لقد نهض، استعدوا، أحكموا القبض على سيوفكم!!

واضطربت النفوس، وأحاط الفتية بالباب، وأشرعوا السيوف، وانتظروا الباب أن يفتح.. بَيْد أن الانتظار قد طال والرجل لمَّا يخرج.. ونظر ذلك الفتى ثانيةً لكنه رأى ما يسوءه هذه المرة، فأقبل على قومه بوجه مغضب وقال بصوتٍ عالٍ:

والله يا قوم، ما هو بمحمد، إنه علي بن أبي طالب!!

وصاح علي من الداخل:

نعم، أنا علي بن أبي طالب فماذا تريدون!!

ثم تقدم ففتح الباب وقال:

أغدراً يا معشر قريش... إنَّ هذا لم يسبقكم به أحدٌ من العرب!!

وفوجىء القوم بما لم يخطر لهم ببال، وأصيبوا بخيبة أمل مريرة، وفارت دماؤهم، واغتاظت نفوسهم.

وقال أبو جهل لعلي:

يا ابن أخي، والله ما إياك نريد، بل نريد هذا الصابىء، فأين هو؟

فأجابه علي:

لقد خرج عليكم من الليل، ومرّ من بين أظهركم، سَلُوا أنفسكم عنه، أفأنا كنت أرصده أم أنتم؟

وزادهم جواب علي غيظاً، وهمّ بعضهم أن يبطش به، لكن أبا جهل منعهم، ثم قال لأصحابه:

دَعُوا ابن أبي طالب وهيَّا انطلقوا وراء محمد، ابحثوا عنه في دور مكة، فلئن غلبكم بسحره في الليل، فإن النهار سيفضحه!!

وصاح الفتية قد ـ والله ـ صَدَقنا الرجل يا أبا الحكم حين قال لنا إنه رأى محمداً خارج بيته، ولكن ـ واللات والعزَّى ـ لن يفوتنا...

ثم انطلَقوا يبحثون عنه، ويصيحون في أهل مكة أن يهبُّوا في طلب غريمهم حتى يجدوه.

❖ ❖ ❖

وبينا كانت مكة تضطرب برجالها المغيظين، وهم يبحثون عن رسول الله، كانت فاطمة ابنته تدلف بخفة من بيت خالتها «هالة» إلى بيتها، وهناك تلقَّاها علي بن أبي طالب مبتسماً وقال:

لا تحزني يا فاطمة، فرسول الله لن يُراع، إنه في ذمة الله، وإن الله معه.. لقد خرج على المشركين ومرّ بين ظهرانيهم، ونثر على رؤوسهم التراب، وهم لا يشعرون!!

وأجابت فاطمة:

الحمد لله يا علي...

اللهمّ خذ عن أبي العيون، وردّ عنه كيد أعدائه، وبلِّغه يثرب آمناً يا رب العالمين.

وقال علي: آمين، اللهمَّ آمين.

أمام الغار

١

في هَجْعة من الليل[١]، وغَفْلة من فتيان مكة الأشدَّاء، نَسَل[٢] رسول الله ﷺ من بيته إلى دار صاحبه الصدِّيق، ثم خرجا معاً من خَوْخة[٣] في ظهر الدار، حتى إذا كانا بظاهر مكة توجه النبي إليها وقال:

«والله إنك لأحب أرض الله إليّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أنَّ أهلك أخرجوني ما خرجت».

وتابع الرجلان مسيرهما والنبي ﷺ يلهج بهذا الدعاء: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئاً. اللهمّ أعِنِّي على هَوْل الدنيا، وبوائق الدهر[٤] ومصائب الليالي والأيام.

اللهمّ اصحبني في سفري، واخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذلِّلني، وعلى صالح خُلُقي فقوِّمْني، وإليك ربِّي فحبِّبني، وإلى الناس فلا تكلني.

ربّ المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكُشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين؛ أن تحلَّ عليّ غضبك، وتُنزل بي سخطك. وأعوذ بك من زوال

---

(١) الهجعة: الطائفة من الليل.

(٢) نسل: أسرع في المشي.

(٣) الخوخة: باب صغير وسط باب كبير.

(٤) البوائق: الغوائل والشرور.

نعمتك، وفَجْأة نقمتك، وتحول عافيتك، وجميع سخطك.

لك العتبى[١] عندي خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلاّ بك».

ومشى النبي ﷺ وصاحبهُ صُعُداً في الجبال، وانتقلا من جبل إلى جبل... كان الطريق شاقاً وعراً، وزاد من صعوبته ظلمة الليل.. ولم يكن شيءٌ مما يلاقيانه يستأثر باهتمام الصدِّيق... أمرٌ واحد شغل باله، هو سلامة رسول الله ﷺ، لذا كان كثيراً ما يسرع في مشيه فيتقدم عنه أو يتأخر عنه، كان يخاف عليه الرَّصدَ والطَّلب[٢] ويريد أن يبذل حياتَه دون حياتِه، ونَفْسه دون نَفْسه!!

وأخيراً وبعد مسيرة ساعات في الليل البهيم وصل النبي ﷺ وصاحبه إلى المكان الذي قصدوه، وصلا إلى «غار ثور» ليمكثا فيه وقتاً ينقطع معه طلب المشركين لهما.

ودخل الصدِّيق الغار وعزم على النبي أن لا يدخل حتى يستبرئه[٣] له...

كان الغار موحشاً، مظلماً، يسوده الصمت الرهيب. وجاب الرجل جنباته، واطمأن إلى أنه خالٍ من الوحوش والهوام، وتلمس أرضه وسقفه بيديه، وسد ثقوبه بالحجارة، وبعدها طلب من النبي ﷺ أن يدخل، فدخل.

وطلع الفجر حينها، فأدَّى النبي وصاحبه الصلاة، ثم وضع عليه الصلاة والسلام رأسه على فخذ الصدِّيق وأخلد إلى النوم بعدما نال منه الجهد شيئاً كبيراً. أما أبو بكر فأسند ظهره إلى حائط الغار. وجعل يغفو لماماً ثم يستيقظ، فقد كان مضطرب الفؤاد، شديد الخوف على النبي ﷺ، يحسب للأعداء ألف حساب.

---

(١) العتبى: الرضى.
(٢) الرصد: المترصد في الطريق. الطلب: الطالب للإنسان ويأتي ـ عادة ـ من خلفه.
(٣) يستبرئه: يطلب براءته من الوحوش والهوام.



جُنَّ جنون قريش للذي جرى، وأفاقت من سكرة آمالها في قتل النبي والاستراحة منه، وصعب عليها جداً أن يفلت من بين أيديها وأن تخفق في سعيها!!

وانطلق المشركون جميعهم يفتشون عن رسول الله، فلم يَدَعُوا بيتاً من بيوت بني هاشم والمطَّلِب، ولا بيتاً من البيوت التي دخلها الإسلام حتى طلبوه فيه، فلم يعثروا عليه.

وجاء أبو جهل إلى بيت أبي بكر ومعه فتية أشدَّاء غِلاظ، فوقفوا على الباب يصيحون، فخرجت إليهم أسماء، فقالوا:

أين أبوك يا ابنة أبي بكر؟

فأجابتهم:

لا أدري أين أبي!!

وغضب أبو جهل لجوابها ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فرفع يده ولطم خدها لطمة طرح منها قُرْطها[١].

وحين لم يجد المشركون رسول الله في بيوت مكة انطلقوا في جبالها ووهادها وشِعابها[٢] وكهوفها، فأخذ كل نَفَر منهم جهة من الجهات وأسرعوا يبحثون فيها عن ضالَّتِهم، وأخذ عدد منهم مداخل مكة والدروب الموصلة إليها فساروا فيها شوطاً بعيداً... بَيْدَ أن الجميع عادوا بعد ساعات بُخَفي حُنَين!!

وعند الزوال من ذلك اليوم الصاخب كان جميع أشراف مكة في الحرم عند حِجْر إسماعيل، وقد بلغ منهم الغَيْظُ مبلغه حتى كادوا أن

(١) القرط: ما يعلَّق بالأذن من حُلْي.
(٢) الشِّعاب: جمع شعب، وهو الطريق بين جبلين.

يتميزوا[١]، وأحاط بهم العشرات بل المئات من الرجال والشبان والغلمان، وكلهم يغلي حفيظة وحَنَقاً[٢]...

كان الجو حاراً جداً يكاد يحرق الناس؛ بَيْدَ أنهم لم يعبأوا بذلك، وأخذ أبو جهل يرغي ويزبد، ثم صاح في الناس:

يا معشر قريش، انظروا ماذا تفعلون، ولا تَدَعوا محمداً يفوتكم، فوالله لئن فاتكم فإنه لسُبّة الدهر وعار الزمان، فأديروا رأيكم، وانصروا آلهتكم، وأعزّوا دينكم ودين آبائكم وأجدادكم.

وتكلم بعده عُقْبة بن أبي مُعَيْط فقال:

يا قوم، أرى أن ترسلوا لأهل المياه[٣] ولِفُتَّاك[٤] القبائل؛ فتجعلوا لهم في محمد وصاحبه دية كل واحد منهما مائة ناقة لمن يأتي بهما حيين أو ميتين.

وصاح الجميع:

نِعْمَ الرأيِ رأيُك يا أبا الوليد!!...

ثم تكلم في الجمع الحاشد «عتبة بن ربيعة» فأنصتوا له، قال الرجل:

يا قوم، أرى أن لا تكفُّوا أنتم أيضاً عن طلب محمد وصاحبه خارج مكة، وأرسلوا في قَافَة العرب[٥] فاستعينوا بهم، واجعلوا لهم جُعْلاً[٦] كذلك الذي جعلتموه لأهل الأمواه والفُتَّاك..

ومالأ الجميع عتبة على رأيه فصوّبوه، واستحسنوه، فعاد للكلام فقال:

---

(١) يتميزوا: يتقطعوا.
(٢) الحفيظة: الغضب، والحنق: أشد الغضب.
(٣) المياه: جمع ماء: وهي الآبار التي تتجمع حولها القبائل في البوادي.
(٤) الفتاك: جمع فاتك، وهو الذي يغتال الناس ويغدر بهم.
(٥) القافة: جمع قائف وهو من يحسن معرفة الأثر وتتبعه، ويعرف شبه الرجل بأبيه وأخيه.
(٦) الجعل: ما يجعل على العمل من أجر.

لينطلق إذن رجالٌ منكم إلى القبائل، وليخبروا الناس بما أجمعنا عليه، وليذهب أُناس قِبَل: «كُرْز بن علقمة الهلالي، وسُراقة بن مالك المدلجي»، فليأتونا بهما، فإنهما من أَمهر العرب قِيَافة، وأتقنهم لها.

وانفضّ الجمع الصاخب، وانطلق رجال من قريش في كل حَدَب وصَوْب يبلِّغون الناس ما جعلوا في رسول الله وصاحبه من الجُعْل العظيم، وذَاع الخبر في الناس، وتحلَّبت له أشداق أهل البوادي وشُطّار القبائل[١]، وأخذوا يلهثون وراء هذه الغنيمة العظيمة!!.

٣

أمضى رسول الله ﷺ وصاحبه نهارهما في الغار، وفي المساء كان الفتى الشجاع الأريب[٢] عبد الله بن أبي بكر عندهما يحمل إليهما أنباء ما جرى في مكة طيلة ذلك اليوم، وبعد وقت أقبل عليهما عامر بن فهيرة يسوق غنماً لأبي بكر، فاحتلبا من لبنها وشربا، ثم انسلّ عبد الله عائداً إلى مكة في جوف الليلة، وتبعه عامر بالغنم يعفِّي[٣] على أقدامه.

وأفاقت مكة صبيحة يومها الثاني هائجة مائجة، وتجمَّع أشرافها في الحرم يتداولون الرأي فيما يفعلون يومهم.. وإنهم لفي حديثهم إذا برجال من قريش يقدَمون عليهم ومعهم «سُراقة بن مالك وكُرز بن علقمة» فسُرَّ بهما الملأُ من قريش، ورحَّب بهما عتبة بن ربيعة، وخاطبهما:

هيَّا يا سراقة ويا كرز، ابحثا لنا عن صاحبنا وأبي بكر، وإن أنتما وجدتماهما فلكما في كل واحد منهما مائة ناقة.

وطابت نفس الرجلين، ودغدغتهما الآمال العِذَاب؛ وقالا للناس:

ابغونا بضعة عشر فتىً أقوياء أشدّاء يكونون معنا.

---

(١) الشُطَّار: جمع شاطر، وهو الخبيث الفاجر.

(٢) الأريب: العاقل الفطن.

(٣) يعفي: يمحو آثارهما.

وخفَّ إليهما الفتيان الذين أرادوهم، وكان أكثرهم ممن كان على باب بيت النبي ليلة أرادوا قتله، وفي مقدمتهم كبير الطغاة: أبو جهل، وحملوا سيوفهم ورماحهم وأقواسهم وهراواتهم[1].

مشى القائفان يتبعهما الفتية الأشداء باتجاه بيت النبي ﷺ ثم انطلقا من هناك والفتية وراءهما، وأتيا دار أبي بكر فدخلاها، ثم خرجا من الخَوْخَة التي في ظهرها، وقالا لمن معهم: من هنا انطلق صاحبكم ورفيقه، ثم تابع الجميع السير في نفس الطريق الذي سلكه النبي وهو يغادر مكة.

خفق قلب أسماء وعائشة ابنتي أبي بكر، وذرفتا الدموع الغزيرة، فقد خافتا من هذين القائفَين الماهرين.. لكن عبد الله نظر إلى أختيه وقال لهما:

لا تخافا على رسول الله وعلى أبيكما، فوالله لئن وصل الجمع إليهما وصاروا قبالتهما، لحسبتُ أن الله عزّ وجلّ يُغشي أبصارهم عنهما فلا يرونهما.

وسعدت البنتان بهذه الكلمة وكفكفتا من دموعهما، وسكنت نفساهما.



تابع الجمع المطارد المسير وراء القائفَين... السيوف بأيديهم تلتمع، والغضب في وجوههم يفور، وسراقة بن مالك يشيع فيهم الأمل الفترة تلو الفترة، وصاحبه يدغدغ أحلامهم ويقول:

إنهما سلكا نفس الطريق الذي نسلكه، كأني أراهما يمشيان أمامي، أكاد أشم رائحتهما... لا، لن يُفْلتا منّا!!

وقطع الرجال الأشداء عدداً من الجبال والوديان، وشقّ عليهم المسير

---

(١) الهراوات: العصي.

في وهج الشمس، وبلغ بهم الجَهْد مبلغه، وكادت أقدامهم تحفَى، ولم يعثروا بعدُ على أي أثر لضالّتهم.

وبعد مسيرة ساعات كلها شقاء وعناء وصلا أسفل جبل يتوسطه جبل آخر، ويعلوه جبل ثالث يقال له جبل ثور، وهنا توقف سراقة وصاحبه، وجعل كل واحد منهما ينظر في الآخر، ويرجو أن يتكلم صاحبه قبله.

وطال صمتهما، وعجب القرشيون منهما، فقال أُبيّ بن خَلَف: ما شأنكما؟ ولماذا وقفتما؟

وأجاب سراقة:

والله لقد اختلط الأمر علينا، وانقطع الأثر ههنا، ولا ندري: أخذ يميناً، أم شمالاً، أم صعد في الجبل!!

وقال أبو جهل: لعلكما قد أصابكما الجهد، فأجلسوا نسترحْ، ثم نستأنف السير. وأجاب الرجلان: لسنا نشكو الجهد، بَيْد أن الأمر اختلط علينا!!

وقال عقبة بن أبي مُعَيْط:

يا قوم، لا بد أن نصعد هذا الجبل فإن فيه غاراً فلعلهما قد اختبئا فيه.

وتقدم أبو جهل وقال للقائفَين: هيا قُصّا لنا الأثر[1].

وأجاباه: انقطع عنا الأثر يا أبا الحكم... ولكن هيا بنا نصعد الجبل.

وبدأ الجميع مسيرتهم الشاقة في صعود الجبال الثلاثة التي يعلو بعضها بعضاً، وما إن انتهَوا إلى القمة العليا وأصبحوا قريبين من الغار حتى أسرع أمية بن خلف ينظر فيه قبلهم.

---

(١) قصا لنا الأثر: تتبَّعاه.

وأحس رسول الله ﷺ بصوت الأعداء وحركتهم ففزع إلى صلاته[١]، وأطال السجود والتضرع إلى الله.

اضطرب الكون من جديد، وارتجف القلم في يد التاريخ وهو يرقب هذه اللحظات الحاسمة المرعبة من تاريخ البشرية. فهل سيقتحم المجرمون هذا الغار الذي استودعته العناية مصير الرسالة الخاتمة، ومستقبل الحضارة المؤمنة!! هل سيصل المجرمون إلى رسول الله ويقتلونه!!

وفي مكة المكرمة شعرت فاطمة بنت رسول الله بغاشية كآبة شديدة رانت على قلبها، فعاودها الحزن الشديد، وانطلقت تذرف الدموع الغزيرة.

وعجَّ الملأ الأعلى في السموات بالدعاء والضراعة إلى الله أن يحفظ نبيَّه، ويُعمي عنه أبصار أعدائه...

أما أبو بكر فإنه حين أحسَّ بسير الأقدام وهي تقترب منهم، ركَّز ناظريه في مقدمة الغار، فلم يَرُعْه إلا العنكبوت يغطي نسيجها فم الغار كله، وإلاّ شجرة نبتت على فم الغار وانتشرت أغصانها على بابه، ثم جاءت حمامتان برّيتان وأقبلتا تدفّان[٢] حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة؛ لكن حزن أبي بكر ظل يزداد، فها هو ذا يسمع صوتاً.. أجل إنه صوت أمية بن خلف!!

ووقف أمية أمام فم الغار وأجال ناظريه في نسيج العنكبوت، فأيقن أن الغار لم يدخله أحد، فصاح في الناس وهم قادمون عليه:

ما أرَبكم في الغار؟ إن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد!!

لكن جَمْع المشركين لم يتوقف عن المسير حتى صار الجميع أمام

---

(١) كان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة، وهناك روايات تؤكد صلاته في الغار عند مقدم الأعداء.

(٢) تدفان: تحركان جناحيهما.

الغار، فلما رأوه قالوا: صدقَ أمية لو دخل محمد وصاحبه ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه!!

وخفق قلب أبي بكر وتلاحقت ضرباته؛ فها هو ذا يرى أقدام الجمع من قريش أمام ناظريه، وها هو ذا يسمع صوت أبي جهل، وعقبة بن أبي معيط، وشيبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وكلهم من ألدّ أعداء رسول الله، وسالت الدموع غزيرة من عينيه، وخشي على رسول الله ﷺ، فأقبل عليه وقد انتهى من صلاته فهمس في أذنه: بأبي أنت وأمي، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا!!

لكن النبي ﷺ ابتسم ابتسامة المطمئن الواثق بربه وقال له بصوت خفيض:

«يا أبا بكر، لا تحزن... إن الله معنا».

وأحسّ الصدّيق بالسكينة تغشى فؤاده، فهدأ اضطرابه، واطمأنت نفسه، وسكن حَزنَه، وبدأ خوفه يتلاشى.

❊ ❊ ❊

انحدر المشركون من رأس الجبل بالخيبة والمرارة، فقد أعمى الله أبصارهم عن نبيه وصاحبه، وقد صاروا منهما قاب قوسين أو أدنى، وعادوا بعد جهد مرير إلى مكة والخزي يجلل وجوههم. أما القائفان، فلم يهبطا مكة، بل انحدر كل واحد منهما من الجبال إلى قبيلته، وتواريا عن الناس بعد هذا الفشل الذريع.

وفي مكة المكرمة شعرت فاطمة بنت رسول الله بأن غاشية الحزن قد تلاشت عن فؤادها فعادت إليها طمأنينتها... وأسرع عبد الله بن أبي بكر عشية ذلك اليوم من الغار إلى بيته، وزفَّ إلى أختيه البشرى بخيبة المشركين، فبرق وجه البنتين بهجةً وحبوراً... واهتز الكون من جديد فرحاً وسروراً، وضج الملأ الأعلى في السموات حمداً وشكوراً.

ولا تسل عن سعادة أبي بكر، فليس إلى وصفها من سبيل، فقد انزاحت عن فؤاده هموم أثقل من الجبال، فقام يصلي شكراً لله على نجاة رسول الله.

وبعد صلاته أقبل على النبي يقول له: ألا ترى يا رسول الله إلى عظيم صنع الله لك، ألا ترى إلى الشجرة والحمام والعنكبوت!!

وتبسم رسول الله، وحمد الله، ثم قال:

«يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما!!».

مع المغامر التائه

١

عاد سراقة بن مالك إلى قومه بني مُدْلج خائباً حزيناً، فقد فاتته جائزة ثمينة، ثم إنه قد أزعجته كثيراً تلك الكلمات القوارص التي سمعها من عدد من أفراد قبيلته، بعضها سخرية، وبعضها شماتة، وبعضها إثارة حفيظة؛ إلاّ أن أمله لم ينقطع تماماً من الفوز بجائزة قريش الكبيرة، فهو فارس بني مدلج، وبطلهم الكرار، والشجاع الذي يركب الأهوال ليل نهار. وهو رجل البيداء، والقائف الذي لا يكاد يخيب في طلب ضالّة!!

وجعل سراقة يغدو ويروح، يتنسَّم الأخبار[1]، ويقصّ الآثار، ويرصد الطرق.

أما رسول الله ﷺ فبعد أن مضى على مقامه ثلاثة أيام في الغار، وبعد أن اطمأنّ إلى أن الطلب قد كفَّ عنه، وأن قريشاً قد يئست من العثور عليه، وباتت تمضغ المرارة والأسى.. بعد أن اطمأنّ إلى هذا كله خرج وصاحبه من الغار في جوف الليل يستأنفان رحلتهما الصعبة، وجاءهما دليلهما «عبد الله بن أريقط» بالراحلتين، فركب النبي ﷺ إحداهما، وركب أبو بكر الأخرى، وأردف وراءه «عامر بن فُهيرة» وتقدم الدليل يرود لهم الطريق.



(١) يتنسم الأخبار: يتلطف في التماسها.

سَرَى الركب المبارك في ظلام الليل: النبي، وصاحبه، وعامر، واتجه بهم الدليل جهة الساحل، ومشى بهم في طرق غير مألوفة، فجعلوا يرتفعون تارةً وينخفضون أخرى، ويمشون في أرض وعرة مرة وفي أرض سهلة لينة مرةً أخرى.

ودعا النبي ﷺ في بداية مسيرهم أن يأخذ الله عنهم العيون وأمّن صاحبه على دعائه، وأكثر عليه الصلاة والسلام من ذكر الله، والتجأ إليه ـ سبحانه ـ يطلب حمايته ويرجو عونه.

كان الدليل يتقدم الركب المبارك، وقد حثَّ راحلته، فانطلقت به كأسرع ما يكون، وحثّ النبي ﷺ وصاحبه راحلتيهما وأسرعا في المسير لئلا يتخلّفا عنه.. وخفّت الإبل في سيرها، ونشطتِ الأبدان في سُراها، فقد داعبتها نسمات لطيفات نديّات من نسائم الليل، وتلألأت النجوم في السماء تسبِّح بحمد خالقها وتمجده، فأكثر النبي ﷺ من النظر إليها، وجعل يقلِّب وجهه في السماء، وطابت له المناجاة والضراعة.



تابع الركب سُراه طيلة ساعات الليل ومنذ أن خرجوا من الغار... لم يتوقفوا ولم يستريحوا. وطلعت عليهم الشمس وهم يسيرون خلف الدليل الخِرِّيت[١]، واستمروا على ذلك حتى قام قائم الظهيرة[٢]، فتوقفوا عند ذلك ليستريحوا طائفة من الوقت.

ونظر أبو بكر حواليه يبحث عن ظل يأوون إليه، فرأى صخرة عالية، فاتجه إليها، فإذا عندها بقية ظل، فسوّى المكان بيديه، ثم فرش فروة كانت معه، ثم دعا رسول الله ﷺ ليضطجع.

---

(١) الدليل الخريت: الماهر بالهداية.
(٢) قام قائم الظهيرة: أصبح الوقت نصف النهار، وسمي قائماً لأن الظل لا يظهر سيره، فكأنه قائم، أي: واقف.

. . . كان التعب قد أخذ مأخذه من النبي ﷺ، وأحب الصدِّيق أن ينال[١] قسطاً من الراحة، فلما نام سُرَّ لرقاده، وجلس إلى جانبه يكلؤه، لكنه بعد قليل خشي أن يكون أحدٌ من الطلب قد لحق بهم أو رآهم، فهبّ من مكانه فزعاً ينظر هنا وهناك، فإذا به يرى راعي غنم من بعيد يتجه نحو الصخرة، فأقبل عليه يريد أن يشغله، وقال له:

لمن أنت يا غلام؟

فذكر له اسم رجل من قريش، فعرفه.

فقال أبو بكر:

هل في غنمك من لبن؟

فأجاب: نعم. ثم أقبل على شاة فحلبها في إداوة[٢] على فمها خرقة كان الصدِّيق قد أعطاه إياها، فتجمع شيء من حليب. فحمله أبو بكر ثم أتى به رسولَ الله ﷺ، فوافاه وقد استيقظ، فقال له:

اشرب يا رسول الله، فشرب، ثم قال له: اشرب، فشرب، حتى رضي أبو بكر. . وتنفس عندها الصُّعَداء، وبرق وجهه سروراً بما ناله رسول الله ﷺ من نوم ولبن!!

وبعد هذه الاستراحة القليلة قال عليه الصلاة والسلام:

«هل آن الرحيل»، فأجابه صاحبه: نعم، فقاموا وارتحلوا وراء دليلهم الذي كان يتقدمهم.

❁ ❁ ❁

جُنّ جنون رجال البوادي وشطّارها وفتّاكها؛ فقد ذاع في القبائل وأهل المياه خبر الجُعْل الذي جعلته قريش في رسول الله ﷺ وصاحبه، وسال لعاب الكثيرين منهم لهذه الجائزة، فقاموا يجرون وراءها، وجعلوا

(١) أي: النبي ﷺ.

(٢) الإداوة: وعاء من جلد.

يرصدون الطرق، ويتنسَّمون الأخبار، ويجرون وراء كل أسْوِدة[١]؛ لكنَّهم لم يحصلوا على شيء، فقد سُدَّت الطرق أمامهم، وعُمِّيت الأخبار عنهم، وحاروا في أمرهم!!

وتابع رسول الله ﷺ مسيره باتجاه المدينة مع صاحبه الصدِّيق ورفيقهما عامر بن فهيرة، وجعل الدليل يجوز بهم أماكن قلَّما يطرقها طارق.. إنهم الآن يجوزون أرضاً مستوية صلبة من أرض قُدَيد[٢]، ويقتربون من الساحل مرة ويبتعدون عنه أخرى، لقد مضى على مسيرهم يوم وليلة، فهم قد سَرَوا معظم ليلتهم، وها هي ذي ساعات يومهم أوشكت أن تتصرَّم[٣].

إنهم يرتحلون وهم آمنون مطمئنون، لا يحس بهم أحد، ولا يروعهم شيء، نفوسهم مطمئنة، وثقتهم بالله عظيمة، وآمالهم بالوصول إلى المدينة عريضة.



نحن الآن في نادي بني مُدْلج، وقد اجتمع رجال من القبيلة ضحوةً يتجاذبون أطراف الأحاديث، وقدم على القوم سراقة بن مالك فحياهم ثم أخذ مكانه في صدر المجلس.

وبادره أحدهم قائلاً:

ما وراءك يا أبا سفيان، ألم تعثر بَعْدُ على صاحب قريش؟!

وردّ سراقة:

دعنا منه، فوالله إنّ أمره لعجب!!

---

(١) أسودة: جمع سواد وهو الشخص.
(٢) اسم موضع قرب مكة.
(٣) تتصرم: تنقضي.

وضحك القوم، واستأنفوا حديثهم.

ومضت ساعة ثم أقبل رجل مدلجي على قومه، فلما رأى سراقة قال له:

يا سراقة إني قد رأيت آنفاً أَسْوِدَة بالساحل أراها[1] محمداً وأصحابه.

واعتقد سراقة في الحال أنهم هم، فهو قد رصد جميع الطرقات التي تؤدي إلى المدينة وبالغ في ذلك، وكان على يقين بأن القوم لم يتجاوزوا قُديداً بعدُ، لكنه ـ خشية أن يفطن أحدٌ من قومه للأمر فيشاركه في جائزة قريش ـ أومأ للرجل بعينيه أنِ اسكت، ثم قال له:

إنك رأيت فلاناً وفلاناً، وقد رأيناهم ينطلقون يبتغون ضالّة لهم.

وأجاب الرجل: لعلَّه. ثم سكت.

وارتفع وجيب[2] قلب سراقة، وجهد في إخفاء ذلك عن قومه، ولبث قليلاً ثم قام إلى بيته وهو يمنِّي نفسه الأماني بالوصول إلى الجائزة التي فاتته.

وفي الحال أمر جارية له أن تقبض على زمام فرسه ثم تخرجها له وتنتظره بها وراء أكمة، ففعلتْ، ولبس هو لأمته[3]، وتنكبّ قوسه، وأخذ رمحه، ثم خرج من ظهر بيته، وجعل زجَّ الرمح[4] إلى الأرض، وأخذ يخطُّ به عليها خشية أن يظهر بريقه، فيراه قومه، فيفطنوا له فيتبعوه ويشاركوه في غنيمته.

---

(١) أراها: أظنها.
(٢) وَجَب القلب: خفق واضطرب ورجف.
(٣) اللأمة: أداة الحرب كلها من درع وبيضة ومغفر وسيف وغيره.
(٤) الزج: الحديدة التي في أسفل الرمح.

ركب سراقة الفرس، وأرخى لها العنان، فانطلقت تعدو به سريعة، ولاح له الركب من بعيد، فأيقن أنهم هم، فابتهجت نفسه، وسال لعابه، وخاطب نفسه:

إنَّ جهدك يا سراقة لم يضع سدىً، وها أنت ذا تفوز بجائزة قريش، ولسوف يسوقون لك مائة ناقة، فتصبح أغنى رجل في قومك، وتجتمع لك السيادة كاملة!!

ولم يفجأ الرجل وهو في غمرة أحلامه وآماله إلاّ فرسه تعثر به، فتهوي إلى الأرض، ويسقط هو عن ظهرها سقطة آلمت جسمه.. وفزع سراقة إلى كنانته، فاستخرج منها الأزلام فاستسقم بها[1]:

أضرُّهم أم لا؟

فراعه خروج القدح الذي يكره، وأمسكه بيده ينظر فيه ويقرأ: لا يضره!!

وثارت نفس الفارس المغامر على الأزلام، وخاطب نفسه:

ويحك يا سراقة، كيف تدع مائة ناقة وقد أصبحت في متناول يدك؟!

وأعرض الرجل عن الأزلام وعزم على معصيتها، فركب فرسه ثانيةً وأسرع بها وراء النبي وصاحبه، فجرت به مسرعة هذه المرة حتى أصبحت قريباً منهما، حتى لقد سمع قراءة النبي ﷺ!!

وراع أبا بكر منظر هذا الفارس الجسور وهو يتجه إليهما شارعاً رمحه، وخفق قلبه، والتفت إلى النبي قائلاً:

يا رسول الله، أُتينا!!

وأجابه النبي وهو ينظر أمامه لا يلتفت ولا يعبأ بشيء:

---

(١) كان المشركون في الجاهلية إذا أراد أحدهم أمراً هاماً ضرب بالأزلام وهي (القِداح) ـ وهي تشبه الأقلام الخشبية ـ وكان قد كتب على بعضها: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، وترك الثالث بلا كتابة، فإذا خرج قدح «أمرني ربي» مضى لشأنه، وإن خرج الآخر أمسك، وإن خرج الثالث عاد إلى الاستقسام.

«لا تحزن إن الله معنا».

وجعل أبو بكر يكثر من الالتفات وراءه، وراعه أن سراقة قد أخذ يقترب شيئاً فشيئاً، بل إنه قد أصبح منهما على بعد رمحين، وأحسَّ أن قلبه قد طار شَعاعاً[١] خشية على النبي ﷺ، وذرفت عيناه، ونادى ثانيةً:

يا رسول الله، إنه سراقة بن مالك، وإنه قد أدركنا!!

ورفع النبي ﷺ يديه ودَعَا:

«اللهمّ اكفناه بما شئت».

واستجيب الدعاء فوراً.. وساخت يدا فرس سراقة في الأرض الصلبة حتى بلغت الركبتين، فوثب الرجل عنها، وجعل يزجرها، وما زال بها حتى نهضت ولم تكد، وجعلت تحمحم له وكأنها تستغيث به!!

ونظر الرجل فإذا بدخان كالإعصار[٢] ينبعث من المكان الذي ساخت فيه قدما الفرس، ثم يسطع في السماء، فرعب رعباً شديداً، ففزع إلى كنانته ثانيةً يستسقم، فخرج الذي يكره!!

وأيقن سراقة أنه مغامر تائه، وأن الرجل الذي يطلبه ممنوع، وأن أمره سيظهر، وأن الذي قطع عنه أثره في جبل ثَوْر هو الذي يحول بينه وبينه الآن، فنادى بأعلى صوته:

(يا قوم، أنا سراقة بن مالك بن جعشم، انظروني أكلمكم، فوالله لا يأتيكم مني شيءٌ تكرهونه.. وأنا لكم نافع غير ضار.. وإني لا أدري لعل الحي[٣] فزعوا لركوبي، وأنا راجع ورادهم عنكم).

ووقف الركب المبارك، ومشى إليهم سراقة حتى إذا وقف عليهم قال:

---

(١) متفرقـاً.

(٢) الأعصار: ريح مع غبار.

(٣) أي: بنو مدلج.

يا محمد، قد علمت أن ما أصابني من عملك، وأيقنت أنك ممنوع، وأن أمرك ظاهر. ولك عليّ لأعمينَّ على مَنْ ورائي، وهذه كنانتي فخذ سهماً منها، فإنك ستمر على إبلي وغلماني بمكان كذا وكذا، فخذ منها حاجتك.

فرد النبي ﷺ:

«لا حاجة لنا في إبلك، ولكن أخْفِ عنَّا».

وأجاب سراقة:

والله لأردنَّ عنكما الطلب، ولكن لي حاجة أرجو أن أنالها.

أريد منك يا محمد كتاباً يكون آية بيني وبينك.

وأمر النبي ﷺ عامر بن فهيرة فكتب له كتاباً في رقعة من أدَم[1]، فحمله سراقة ثم عاد أدراجه.

ومضى رسول الله متجهاً إلى دار هجرته، وتنفَّس أبو بكر الصعداء، وقال:

الحمد لله الذي كفانا سراقة، فلقد ـ والله ـ خفته عليك يا رسول الله، فإنه شيطان من شياطين البوادي، وفارس من أشدَّ فرسانها!!

واتجه النبي ﷺ إلى أبي بكر بوجه مشرق كأنه البدر ليلة التمّ وقال له:

«يا أبا بكر، إن الله معنا».

ونجا رسول الله ﷺ من هذه المحاولة الرهيبة، وتحول الفارس الذي جرى وراءه يريد قتله من عدو إلى صديق، ومن مبغض إلى محب، وسجَّل التاريخ قصته المثيرة، وقال في نهايتها:

(ما أعجب أمر سراقة!!

---

(١) أدم: جلد.

أصبح أول النهار جاهداً على محمد رسول الله، وأمسى آخره حارساً له)!!.

٣

عاد سراقة إلى قومه، فإذا به يجدهم قد أحسّوا بصنيعه، ففزع عدد منهم وراءه يريدون أن يشاركوه في غنيمته، فجعل كلما رأى راكباً يقول له:

ارجع فقد كفيت هذا الوجه، إني لم أرَ أحداً فيه.

ومضت أيام رصد فيها سراقة طريق الساحل، وردَّ كل طلب جرى وراء المهاجر العظيم وصاحبه.. ووصل النبي ﷺ إلى يثرب واستقبله أهلها أعظم استقبال، وذاع أمر وصوله إليها ونجاته من أعدائه، وبلغ النبأ سراقة ففرح فرحاً عظيماً، ورأى أن يبوح بالسرِّ الذي طَوَى عليه صدره أياماً، فحدّث قومه بما جرى له مع رسول الله ﷺ، وكيف امتنع عليه، فعجب الناس أشد العجب، وجعلوا يرددون:

إنَّ الرجل ممنوع!!

ووصلت قصة سراقة إلى مكة، وانتشرت في نواديها، وتحدَّث بها الناس..

وبلغت أبا جهل فغضب أشد الغضب لما سمع، وجعل يسفِّه سراقة وينسب إليه الكذب والخَرَق[1].

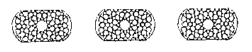
ثم إنه خشي أن يؤثر كلامه في قومه بني مدلج، فيسلم عدد منهم بسبب ما يسمعون من سيدهم ورئيسهم سراقة، لذا كتب إليهم:

بني مُدْلجٍ إني أخاف سفيهكم ... سراقةَ مُستغوٍ لِنَصْر محمدِ
عليكم به ألا يفرِّق جمعكم ... فيصبح شتى بعد عزٍّ وسؤدد

(١) الخرق: الحمق.

وبلغ الشعر سراقة فأرسل إلى أبي جهل يجيبه:

أبا حَكَم واللَّهِ لو كنتَ شاهداً ... لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه
علمتَ ولم تشكُكْ بأنَّ محمداً ... رسولٌ ببرهان فمن ذا يقاومه
عليكَ بكَفِّ القومِ عنه فإنني ... أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمرٍ يود الناس فيِه بأسرهم ... بأن جميعَ الناس طُرّاً تسالمه



المراجع:

- صحيح البخاري: باب هجرة النبي وأصحابه إلى المدينة.
- صحيح مسلم: باب حديث الهجرة.
- مسند أحمد: مسند البراء بن عازب.
- البداية والنهاية: باب هجرة رسول الله.
- سيرة ابن هشام: حديث الهجرة.

قَبَّحهــا اللّه مِن سُيُوف!!

فاجعــة عظيمــة

١

صعب على أهل مكة تصديق ذلك النبأ المفجع الذي جاءهم به «الحَيْسُمان بن عبد الله الخُزاعي». حسبوا الرجل مجنوناً يَهْرِف بما لا يعرف، ويهذي[1] هذيان الحمقى!!.

انهزمت قريش أمام محمد وأصحابه.. قُتل الكثيرون من صناديدها.. أُسر الكثيرون.. لم تدم المعركة أكثر من نصف نهار!!

ما أبعد هذا الخبر عن التصديق، لكن الرجل يؤكده، ويقرع به الأسماع!!

كان الحيسمان أول من وصل مكة من فلولِ قريش، وها هم أولاء اجتمعوا حوله يسألونه:

ما وراءك؟

فيجيب:

قُتل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأمية ابن خَلَف، وزَمَعة بن الأسود، ونُبَيه ومنبِّه ابنا الحجاج، وأبو البَخْتري ابن

---

(١) هذي فلان: تكلم بغير معقول لمرض أو غيره.

هشام، وآخرون من أشراف الناس، وأسر ناس، وانهزم الباقون!!.

وقع الخبر على الناس وقوع الصاعقة، وشكّ في صدقه كثيرون، وسعى رجال إلى صفوان بن أمية ـ وكان قاعداً في الحِجْر[١] ـ فقالوا:
ألا تسمع ما يقول هذا؟

فقال: بلى؛ ولكن الرجل مجنون لا يعقل!!

وتساءلوا: كيف تقول هذا لرجل من أشراف الناس!!

وأجاب صفوان:
إن يَعْقل فاسألوه عني.

وسعى الرجال إلى الحيسمان فقالوا:
أخبرنا: ما فعل صفوان بن أمية؟

فأجاب:
ها هو ذاك جالساً في الحِجْر، ولقد رأيت أباه وأخاه حين قُتلا!!

وصكَّت[٢] هذه الكلمة سمع صفوان، فقام يجر رجليه جراً، ثم مشى إلى بيته وهو لا يكاد يبصر ما أمامه، ودهش الناس دهشة ما بعدها من دهشة، وصاروا ما بين مصدِّق ومكذِّب وموقن ومرتاب!!.

٢

انتشر نبأ الفاجعة الذي جاء به الحيسمان في مكة، فاهتزت له القلوب، وطاشت منه العقول[٣]، واسودّت بسببه الوجوه.

---

(١) مكان محاط بحائط مستدير إلى جانب الكعبة الشمالي، وأصله من الكعبة، ويقال: إن فيه قبر هاجر أم إسماعيل عليه السّلام.
(٢) صكت: طرقت سمعه بقوة.
(٣) طاشت العقول: خفَّت وتشتَّت.

وأقبل «أبو لهب»[١] إلى المسجد يجرُّ رجليه يريد أن يتأكد من الخبر، حتى إذا وصل رأى المسجد يموج بالناس، وكلهم حيارَى مَذْهُوشون، فلما سمع من الناس ما سمع كَبَته[٢] الله وأخزاه، ولم تعد رجلاه تطيقان أن تحملاه، فمشى حتى جلس على جانب حجرة عند بئر زمزم، كان فيها «أبو رافع» غلام العباس بن عبد المطلب يعمل الأقداح وينحتها، وعنده سيدته أم الفضل زوج العباس[٣].

وبينا الناس يهوجون ويموجون إذا بصائح يصيح:

هذا أبو سفيان بن الحارث قد قدم.

فوقف أبو لهب وصاح:

أقبل يا ابن أخي فعندك ـ لعمري ـ الخبر.

وأقبل أبو سفيان على عمه، فوقف عليه والناس قيام من كل جانب.

وبادره أبو لهب قائلاً:

يا ابن أخي، أخبرني كيف كان أمر الناس؟

وأجاب أبو سفيان:

والله ما هو إلاّ أن لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا[٤]، يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا!!

وايْمُ الله، مع ذلك ما لمتُ الناس، لَقِينا رجالاً بيضاً، على خيل

---

(١) هو عبد العزى بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، وأحد أربعة أعمام للنبي أدركوا الإسلام، فآمن اثنان منهما وهما: حمزة والعباس. ومات على الشرك اثنان وهما: أبو طالب وأبو لهب.

(٢) كبته: أذله.

(٣) أبو رافع هذا أصبح فيما بعد مولى لرسول الله ﷺ وعرف بهذا، وكان قد أسلم مبكراً هو وأم الفضل زوج العباس، وأخفيا إسلامهما.

(٤) منحناهم أكتافنا: انهزمنا أمامهم.

بلْق[١] بين السماء والأرض، والله ما تُليق شيئاً[٢]، ولا يقوم لها شيء!![٣]

وسمع أبو رافع مولى العباس ـ وهو داخل الحجرة ـ كلام أبي سفيان، فأخذته عزة الإيمان، فرفع طُنُبَ الحجرة[٤] بيده، ثم أقبل على القوم برأسه وقال:

تلك والله الملائكة!!.

وثار ثائر أبي لهب، فرفع يده ولطم أبا رافع لطمة شديدة، فوثب أبو رافع يريد أن يثأر لنفسه، فما كان من أبي لهب إلاّ أن حمله وضرب به الأرض، ثم برك عليه يضربه.

وحزنت أم الفضل على مولاها الضعيف، وأغضبها صنيع هذا الطاغية الكفور بهذا الفتى المؤمن، فقامت إلى عمود من عُمِد الحجرة، فأخذته، فضربته به ضربة فلَعت[٥] في رأسه شجّة منكرة، ثم صاحت فيه:

استضعفته أن غاب عنه سيّده[٦]؟!

فقام أبو لهب مولّياً ذليلاً ثم هلك بعد أيام[٧].

وانفضّ الناس عن الحجرة وقد اسودّت وجوههم أكثر من ذي قبل، فقد تأكدوا من خبر الهزيمة المفجع، وأيقنوا أن قريشاً قد أصيبت في بدر بأعظم مصاب!!.

---

(١) بُلْق فيها سواد وبياض.
(٢) ما تليق شيئاً: ما تبقي شيئاً.
(٣) لا يقوم لها شيء: لا يستطيع أن يقف أمامها شيء.
(٤) طنب الحجرة: طرفها. وكانت الحجرة من القماش.
(٥) فلعت: شقت.
(٦) كان العباس وقتها في جيش المشركين، خرج معهم يداريهم، ووقع أسيراً بيد المسلمين.
(٧) تذكر كتب السيرة أنه ما عاش بعدها إلاّ سبع ليالٍ، حتى رماه الله بالعَدَسة ـ وهي قرحة قاتلة كالطاعون ـ فهلك بها.

٣

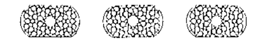
رجعت فلولُ قريش من بدر إلى مكة بعد أن بعثرتهم الهزيمة الساحقة، وهاموا على وجوههم في أودية تهامة وشعابها أياماً، وتركوا هناك سبعين من ساداتهم صرعى في ساحة بدر، وسبعين آخرين أسرى في أيدي المسلمين. . وأقبل أهل مكة على المنهزمين فأشبعوهم سخرية وذماً، وأوسعوهم تهكماً ولوماً.

ولا تسل عن حزن مكة على رجالها الذين هلكوا، كان حزناً عظيماً؛ حتى لقد بكاهم الكبار والصغار، والرجال والنساء، وأنكر الجميع قلوبهم لهذا المصاب.

وناحت النسوة على القتلى، فتحولت مكة كلها إلى مأتم، ولم يبقَ بيت إلاّ وفيه نائحة ترن بصوتها الحزين ليل نهار، فتشيع الأسَى في القلوب، وتستمطر الدموع من العيون!!

ولم تكتف هند بنت عتبة[١] بأن جمعت أقاربها وجيرانها وجعلنَ ينحنَ، بل استأجرت نسوة من خارج مكة فشاركنها في النواح، وحين لامها الناس أجابت:

إنَّ أحداً لم يُصب بمصابي. . قتل أبي وابني، وأخي وعمي[٢]!!



ناحت جميع قبائل مكة على القتلى: بنو أمية بن عبد شمس، وبنو ربيعة بن عبد شمس، وبنو مخزوم، وبنو نوفل، وبنو أسد، وبنو عبد

(١) هي زوجة أبي سفيان صخر بن حرب وأم معاوية.
(٢) أبوها: هو عتبة بن ربيعة، وابنها: حنظلة بن أبي سفيان، وأخوها: الوليد بن عتبة، وعمها: شيبة بن ربيعة.

الدار، وبنو تَيْم بن مرة، وبنو سَهْم، وبنو عامر، وبنو جُمح، وغيرهم.

وبكت الأمهات والزوجات والأخوات قتلاهن بكاءً حاراً، وذَرَفْنَ الدموع السوافح.

لكن عقلاء القوم فطنوا إلى أن هذا النواح يضرُّ بهم أمام أعدائهم المسلمين وأمام العرب أجمعين، فقال قائلهم:

يا قوم، كفُّوا النساء عن النواح، ويكفيكم ما كان منه، لا تفعلوه بعد اليوم، فيبلغَ محمداً وأصحابَه فيشمتوا بكم!!

ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا[1] بهم، حتى لا يشتد عليكم محمد وأصحابه في الفداء.

وقام الرجال في بيوتهم يمنعون النساء من النواح، فاستجبنَ على مَضض، وجَعَلْن يبكين من غير نواح، ويسفحنَ الدموع من غير عويل.

***

اشتد الأمر الذي سرى في مكة بمنع النواح على «الأسود بن المطلب» فقد كانت أحزانه تضطرم في فؤاده تكاد تمزقه، وعظم على هذا الشيخ الأعمى أن يصاب بأولاده الثلاثة: زَمَعة، وعقيل، والحارث؛ ثم لا ينفِّس عن فجيعته بهم بالبكاء والنحيب!!

وفي جوف ليلة من الليالي، وبينا هو ساهر قد منعه الحزن من الرُّقاد[2]، إذا به يسمع نائحة تنوح، فقال لغلام له:

انظر هل أُحلّ النَّحب[3]، هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلِّي أبكي على أبي حكيمة[4]، فإن جوفي قد احترق!!

---

(١) تستأنوا بهم: تؤخروا فداءهم.
(٢) الرقاد: النوم.
(٣) النحب والنحيب: رفع الصوت بالبكاء.
(٤) أبو حكيمة: هو ابنه زَمَعَة.

وخرج الغلام ينظر، ثم رجع يقول لسيده:

إنما هي امرأة تبكي على بعيرٍ لها قد أضلَّته[١]!!

وزادت أحزان الشيخ الأعمى، وفاض الشعر على لسانه، فأنشد:

أتبكـــي أنْ يضــلَّ لهـــا بَعيـــرٌ ... ويمنعُهـــا مـــن النـــوم السُّهـــودُ[٢]

فــلا تبكــي علــى بَكْــرٍ[٣] ولكــن ... علــى بَــدْر تقــاصَــرَتِ الجــدودُ[٤]

علــى بــدر سَــرَاة[٥] بنــي هُصَيْــص ... ومخـــزومٍ ورَهْــط أبــي الــوليــد[٦]

وبكِّـــي إن بكيـــت علـــى عقيـــلٍ ... وبكِّـــي حـــارثــاً أســـدَ الأســـودِ

وبكِّيهـــم ولا تَسَمـــي[٧] جميعـــاً ... ومـــا لأبـــي حكيمـــة مـــن نـــديـــدِ[٨]

ألا قـــد ســـاد بعـــدهـــم رجـــال ... ولـــولا يـــومُ بـــدرٍ لـــم يســـودوا

٤

جلس المطّلب بن أبي وَدَاعة السهمي إلى أمه «أروى بنت الحارث ابن عبد المطلب» عشية يوم من الأيام، وجعل يكفكف من دموعها، ويطلب منها أن تكف عن البكاء، فهو ينتظر أن تسمح قريش في الذهاب إلى المسلمين لافتداء الأسرى، وعندها سيكون أول ذاهبٍ في افتداء أبيه «أبي وَدَاعة».

بَيْد أن أمه قالت له بحزم:

كلا، واللات والعزَّى سوف لا أنفك باكية أو تسارع فتأتي بأبيك.

---

(١) أضلته: ضاعَ منها.

(٢) السهود: الأرق.

(٣) البكر: الفتى من الإبل.

(٤) الجدود: الحظوظ.

(٥) السراة: أشراف الناس.

(٦) بنو هصيص وبنو مخزوم من قبائل قريش. وأبو الوليد هو عتبة بن ربيعة.

(٧) ولا تسمي: أي لا تسأمي، نقل حركة الهمزة ثم حذفها.

(٨) نديد: مثيل.

وحين رأى المطَّلب من أمه هذا العزم والتصميم جلس يفكر فيم يفعل، وسأل نفسه:

إلى متى أبقي أبي في يد أعدائه، وأنا رجل مليء، وهذه أمي لا ينتهي حزنها!!

وصح عزم المطّلب أخيراً على الذهاب في فداء أبيه، فانسل من مكة في ليلة من الليالي ولا يشعر به أحد؛ حتى إذا قدم المدينة افتدى أباه بأربعة آلاف درهم ثم عاد به.

وعلم الملأ من قريش بصنيعه فجاؤوا يعاتبونه في إسراعه في دفع الفداء فأجابهم:

«ما كنت لأدع أبي أسيراً».

❁ ❁ ❁

فرح أكثر أهل مكة بما عمله المطَّلب بن أبي وداعة، ولم يغضب لعمله سوى وجوه القوم، وأسرع الناس بعده في الذهاب إلى المدينة المنورة يفتدون أسراهم، ويبذلون المال سخياً في ذلك.

وعاد إلى مكة من الأسر «سهيل بن عمرو» و «العباس بن عبد المطلب» و «أبو العاص بن الربيع» و «أبو عزيز بن عمير» و «عقيل بن أبي طالب» و «السائب بن عُبيد» و «نوفل بن الحارث» وغيرهم كثير.

ولم يبق في أيدي المسلمين إلاّ رجال قليل أبطأ أهلوهم في افتدائهم، وكان منهم «عمرو بن أبي سفيان» فقالت قريش لأبي سفيان:

افدِ عمْراً ابنك!!

فأجاب:

أيجتمع عليَّ دمي ومالي، قتلوا حنظلة وأفدي عَمْراً!!

دعوه في أيديهم يمسكوه ما بدا لهم!!.



عاد أكثر الأسرى إلى قومهم لكن أحزان قريش ما خفَّت وما هدأت، فقد كانت مصيبتها فادحة، خسرت عصبة من زعمائها الكبار ورؤوس الناس، وخسرت كرامتها، فكيف تذهب أحزانها!!

وأخذ الغضب يغلي في النفوس كغلي المِرجَل، وقام رجال في القوم يوغرون الصدور على رسول الله وأصحابه، ويعدّون العدّة للأخذ بالثأر، وحلف أبو سفيان أن لا يغسل رأسه من جنابة أو يثأر من المسلمين، وطلب من قومه أن يجعلوا مال تجارتهم التي جاءت من الشام من قريب والتي كان على رأسها، طلب منهم أن يجعلوا هذا المال لصالح المعركة المقبلة مع المسلمين، ففعلوا.

مؤامرة على رسول اللّه

١

خرج عُمير بن وَهْب من بيته في وقت مبكِّر واتجه إلى الحرم، فطاف حول الكعبة، ثم جلس في الحِجْر.. كان واجماً، ساهراً، مثقلاً بالأحزان والهموم، لا ينظر إلى بعيد، بل يرمي بطَرْفه إلى الأرض أمامه.

وإنه لفي جلوسه إذا بابن عمه «صفوان بن أمية» يقدَم إلى الحرم، فيطوف حول الكعبة، ثم يأتي إلى الحِجْر، فيحييه ثم يجلس إلى جنبه.

ونظر كل واحد منهما في وجه الآخر فقرأ ما يعتمل في نفسه من أحزان، وسأل صفوان عُميراً:

أراك قد بكّرت في حضورك إلى الحرم يا أبا أمية، فما دعاك لذلك؟

وأجاب عمير:

الذي دعاك أنت للتبكير يا أبا وَهْب!!

وافتعل صفوان ابتسامة متكلّفة وقال لعمير:

نَشَدْتُك لتُخْبِرَنّي!!

وأجاب عمير:

لا شيء، سوى أنَّ صاحبتي[١] أكثرت عليَّ في شأن ابنها وَهْب، وعزمت عليَّ أن أذهب في فدائه إلى المسلمين وأعود به، ووالله إنَّ الموت لأهونُ عليَّ من الذهاب إلى محمد وأصحابه ودفع مالي إليهم!!

---

(١) صاحبتي: زوجتي.

وقال صفوان:

افعل يا ابن عم، ولا تَدَع ابنك في أيدي أعدائه، ولا تجعل لقرشي مقالاً على بني جُمَح، فلم يبقَ في أيدي المسلمين سوى ابنك في عدد قليل من الأسارى.

وأجاب عمير:

سوف أفعل.



طلعت الشمس وبدأ أهل مكة يغدون إلى الحرم ويطوفون حول الكعبة، ثم يسعى كل رجل إلى حلقة قومه فيجلس فيها.

ومضى وقت طويل وصفوان وعمير ساكتان لا يتكلمان، وجعل كل واحد منهما ينفث الآهات العميقة، ويتسلَّى بالنظر بين الفترة والأخرى إلى أولئك الرجال الذين يطوفون حول الكعبة، وبالنظر إلى تلك الحَلَق التي تناثرت في الجهة الشمالية للكعبة مما يلي الحِجْر.

وقطع صفوان الصمت وأنشد:

كأن لم يكن بين الحَجُون إلى الصفا ... أنيسٌ ولم يَسْمُر بمكة سامرُ[1]

(١) الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. والسَّمر: الحديث في الليل.
وهذا البيت تمثَّل به صفوان، وهو ليس له، وإنما هو لعمرو بن الحارث الجرهمي، وقد قاله في جملة أبيات يتشوَّق بها إلى مكة لما أجلَتهم عنها خزاعة في سالف الدهر، وها أنا ذا أسوق هذه الأبيات لما بينها وبين هذا الموقف من قصتنا من صلة. قال عمرو بن الحارث:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يَسْمر بمكة سامرُ
بلى نحن كنَّا أهلَها فأبادنا ... صُروف الليالي والجُدود العواثرُ
فأخرجنا منها المليك بقدرةٍ ... كذلك يا لَلناس تجري المقادرُ
فصرنا أحاديثاً وكنَّا بغبطةٍ ... كذلك عضَّتنا السنون الغوابر
وبدَّلنا كعبٌ بها دارَ غربةٍ ... بها الذئب يعوي والعدو المكاشرُ =

ثم نظر إلى عمير وقال:
أسف وألف أسف على السادة البهاليل من قريش!![1].

أقفرت منهم الربوع، وفقدتهم النوادي، واستوحش بغيابهم الحرم!!.

كانوا ملء السمع والبصر، وبهجة العين والنظر، ومبعث السعادة والسرور، فسُقياً لذكراهم ما أعطرها، وواهاً لمصيبتنا فيهم ما أقساها!!.

آهِ يا عمير من غيابهم عنَّا، وبعدهم منَّا.

آهِ عليك يا أمية بن خلف، ويا علي بن أمية، ويا عتبة بن ربيعة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا وليد بن عتبة، ويا أبا الحكم بن هشام، ويا عقبة ابن أبي معيط، ويا نضر بن الحارث، ويا أبا البختري بن هشام!!

آهِ عليكم جميعاً وعلى إخوانكم الذين غيبتهم الرموس[2]، وطوى ذكراهم الردى، وخلّفوا في قلوبنا الحزن والأسى!!.

لقد أظلمت ربوع مكة بعدكم، فما فيها شيء إلاّ وهو أسود عابس، وكنتم بهجتها وزينتها ومبعث نورها!!.

❁ ❁ ❁

أراد صفوان متابعة كلامه الذي كان يصدر منه وكأنه زفرات ينفثها قلبه، لكنَّ عميراً وضع يده على فيه، وقال له:
نَشَدْتك يا ابن عم إلاّ سكتّ، فوالله لقد قطَّعتْ كلماتُك أوصال قلبي، وأدمت جوانحي، وأهاجت شجني!!.

دَعْنا نسمع ما يقول ضِرَار بن الخطاب في نَديٍّ بني مخزوم.

= فسحت دموع العين تجري لبلدةٍ بها حَرَم أمنٌ وفيها المشاعر

(١) البهاليل: جمع بُهلول: السيد الجامع لصفات الخير.
(٢) الرموس: جمع رمس، وهو القبر.

ونظر صفوان فإذا ضرار قائم في بني مخزوم ينشدهم:

ألاَ مَنْ لَعِينٍ باتتِ الليلَ لم تنمْ ... تراقب نجماً في سوادٍ من الظُّلَمْ
كأن قَذًى فيها وليس بها قذىً ... سوى عَبْرةٍ من جائلِ الدمع تنسجم[١]
فبلِّغْ قريشاً أنّ خيرَ نديِّها ... وأكرم من يمشي بساقٍ على قدم[٢]
ثوى يوم بدرٍ رَهْن خَوْصاءِ رَهنُها ... كريم المساعي غيرُ وَغْدٍ ولا بَرَمْ[٣]
فآليتُ لا تنفك عيني بعَبْرة ... على هالكٍ بعد الرئيس أبي الحَكَمْ[٤]
على هالك أشجَى لُؤَيَّ بن غالب ... أتته المنايا يوم بدرٍ فلم يَرِمْ[٥]
ترى كِسَر الخَطِّيِّ في نحرِ مُهْرِهِ ... لَدَى بائنٍ من لحمه بينها خِذَمْ[٦]
وما كانَ لَيْثٌ ساكنٌ بَطْن بِيشة ... لدى غَلَلٍ يجري ببطحاءَ في أجمْ[٧]
بأجرأ منه حين تختلف القنا ... وتُدْعَى نَزالِ في القَماقِمة البُهَم[٨]
فلا تجزعوا آلَ المغيرة واصبروا ... عليه ومن يجزع عليه فلم يُلَمْ[٩]
وجِدُّوا فإنّ الموت مكرمةٌ لهم ... وما بعده في آخر العيش من نَدَمْ

---

(١) القذى: ما يسقط في العين. تنسجم: تنصب.
(٢) الندي: المجلس.
(٣) ثوى: أقام. الخوصاء (هنا): البئر الضيقة. والوغد: الدنيء من القوم، والبرم: البخيل.
(٤) آليت: أقسمت. أبو الحكم: هو أبو جهل لعنه الله وأخزاه ـ وقد فعل ـ والأبيات في رثائه.
(٥) أشجى: أحزن، من الشجو: وهو الحزن. لم يرم: لم يبرح. ولؤي بن غالب: جدّ جاهلي من قريش كان التقدم في قريش لبنيه وبني بيته.
(٦) الخطي: الرماح والخذم (بالخاء) أو بالجيم: قطع اللحم.
(٧) بيشة: موضع تنسب إليه الأسود. والغلل: الماء الجاري في أصول الشجر. والأجم: جمع أجمة: الشجر الملتف، وهي موضع الأسود.
(٨) القماقمة: السادة الكرماء، واحدهم: قمقام. والبهم: الشجعان، الواحد: بهمة.
(٩) لم يلم: مَنْ رواه بكسر اللام، فمعناه: لم يأت بما يلام عليه، ومن رواه بفتح اللام، فمعناه: لم يعاتب، من اللوم، وهو العتاب.

وقـد قلـتُ إن الـريـحَ طيبـةٌ لكـم ... وعِزُّ المقام غيرَ شكٌّ لذي فَهَمْ[١]

وحين انتهى ضرار من إلقاء أبياته أثنى عليه سائر بني مخزوم، وقال له الحارث بن هشام ـ أخو أبي جهل ـ: وَصَلَتْك رَحِم، وجُزيت خيراً.

ثم قام الحارث في قومه ينشدهم بعض ما قاله في رثاء أخيه، وصفوان وعمير يُلْقِيان إليه السمع:

ألاَ يَـا لَهْـفَ نفسـي بعـد عَمْـروٍ[٢] ... وهـل يُغْنـي التلهُّـف مـن قتيـلِ
يُخبِّــرنــي المخبِّــرُ أنْ عَمْــراً ... أمـام القَـوْم فـي جَفْـر مُحيـلِ[٣]
فقِـدْمـاً كنـتُ أحسَـب ذاك حقـاً ... وأنـت لِمَـا تَقَـدَّمُ غيـرُ فيـلِ[٤]
وكنــتُ بنعمــةٍ مــا دمــتَ حيــاً ... فقـد خُلِّفـتُ فـي دَرج المَسيـلِ[٥]
كــأنــي حيــن أمســي لا أراهُ ... ضعيـف العَقْـد ذو هَـمٍّ طـويـلِ[٦]
علـى عمـروٍ إذا أمسيـت يـومـاً ... وطَـرْفٍ مـن تـذكُّـره كليـلِ[٧]

* * *

كان صفوان بن أمية يصيخ بسَمعه إلى الحارث بن هشام ومن قبله إلى ضرار بن الخطاب، حتى إذا انتهيا نفث من صدره آهةً حرّى، وقال:

واحرّ قلباه لمن يسمعني أبياتاً في والدي «أميّة» سيد الحرم!!.

ونظر إليه عمير نظرة المتعجب وقال:

---

(١) يريد: «بطيب الريح» النصر. قال تعالى: ﴿وتذهب ريحكم﴾.
(٢) عمرو: هو أبو جهل واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي.
(٣) الجفر: البئر التي لا بناء لها. المحيل: القديم المتغير.
(٤) غير فيل: أي غير فاسد الرأي، يقال: رجل فيل الرأي، وفالُ الرأي، وفائل الرأي: إذا كان غير حسن الرأي.
(٥) تركته «بدرج المسيل» موطن الذل والقهر، يقال: تركته درج المسيل، إذا تركته بدار مذلة، وهو حيث لا يقدر على الامتناع.
(٦) العقد (هنا): العزم والرأي.
(٧) الطرف: العين. الكليل: الضعيف

أوّاهْ أبا وَهْب، ألم تسمع ما قاله «شداد بن الأسود» في قومنا الذي واراهم قليب بدر، وفي أبيك خاصة؟!.

وأجاب صفوان:

لا والله ما سمعت من ذلك شيئاً.

وقال عمير:

فاسمع إذاً، ثم جعل ينشد:

تحيِّي بالسلامة أمُّ بَكْرٍ ... وهل لي بعد قومي مِنْ سلام

فماذا بالقَلِيبِ قليبِ بَدْرٍ ... من القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرام[1]

وماذا بالقَلِيبِ قليبِ بَدْرٍ ... من الشِّيزَى تكَلَّلُ بالسَّنام[2]

وكم لكِ بالطَّوِيِّ طَوِيِّ بَدْرٍ ... من الحَوْمات والنَّعَم المُسام[3]

وكم لكِ بالطَّوِيِّ طَوِيِّ بَدْرٍ ... من الغايات والدُّسُع العظام[4]

وأصحاب الكريم أبي علي ... أخي الكأس الكريمة والنِّدام[5]

وإنكِ لو رأيتِ أبا عقيلٍ ... وأصحاب الثَّنِيَّة من نَعام[6]

إذاً لظِلْلتِ من وَجْدٍ عليهم ... كأمِّ السَّقْب جائلةِ المَرام[7]

يخبِّرنا الرسول بأنْ سنحيا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وَهَامِ[8]

---

(١) القليب: البئر الذي ألقى المسلمون فيه قتلى المشركين يوم بدر والقينات: الجواري المغنيات. والشَّرب بفتح الشين المشددة: جماعة القوم الذين يشربون الخمر.

(٢) الشيزى: جفان تصنع من خشب، وإنما أراد أصحابها الذين يطعمون عليها، والسنام شحم ظهر البعير.

(٣) الطوي: البئر المطوية بالحجارة، والحومات: جمع حومة: وهي القطعة من الإبل. المسام: المرسل في المرعى، يقال: أسام إبله: إذا أرسلها ترعى دون راع.

(٤) الدسع (هنا): العطايا.

(٥) أبو علي: أمية بن خلف الجمحي، والد صفوان. والندام: جمع نديم: الذي يجلس معك ويشاركك في الشراب.

(٦) أبو عقيل: زمعة بن الأسود. والثنية الطريق الصاعد في الجبل. والنعام: اسم موضع.

(٧) الوجد: الحزن. والسقب: ولد الناقة حين تضعه.

(٨) الأصداء: جمع صدى، وهي بقية الميت في قبره، وهي أيضاً طائر، يقولون هو =

وسُرَّ صفوان لما سمع، وقال:

جزى الله خيراً شدَّاد بن الأسود، ووصَلَتْه رَحِم، فقد ـ والله ـ أزاح عن قلبي بعض حَزَني، وقال في أبي بعض ما يستحق!!.

٣

ارتفعت الشمس كثيراً وامتد الضحى وصفوان وعمير لا يزالان جالسين بجوار الكعبة، يتحدثان تارة، وينظران في الناس تارةً أخرى، ويستمعان إلى الأشعار التي تلقى في نوادي الحرم تارةً ثالثة.

وجعل صفوان يصيخ سمعه لكل منشد ويعجبه ما يسمع، أما عمير فقد غلبه همُّه، فقال لصاحبه:

دَعْنا أبا وهب، فوالله لو أنشد الشعراء ألوف الأبيات في سادتنا الَّذين رُزِئنا[1] بهم يوم بدر لما وفَّوْهم بعض حقهم، ولما خفف ذلك من أحزاننا عليهم!!.

وقال صفوان:

صدقت ـ والله ـ يا أبا أمية، ما أعظم مصابنا في قومنا الَّذين هلكوا، وما أمرّ البقاء بعدهم!!

ألا فقبَّح الله العيش بعد قتلى بدر، وسقى أجداثاً[2] ضمَّها ذلك الرَّبْع!!.

وقال عمير:

أجل ـ والله ـ ما في العيش خيرٌ بعدهم!!.

= ذَكَر البوم. والهام: جمع هامة، وهو طائر تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل إذا قتل فيصيح: اسقوني، اسقوني، فلا يزال يصيح كذلك، حتى يؤخذ بثأره، فحينئذٍ يسكت. والبيت الآخر يعبر خير تعبير عن إنكار العرب المشركين للبعث بعد الموت، واستغرابهم هذا الأمر.

(١) رزئنا: أصبنا.

(٢) أجداثاً: جمع جَدَث: القبر.

ثم تنهَّد تنهيدة طويلة، وتابع كلامه:

والله لولا دَيْنٌ عليَّ لا أجد له قضاءً، وعيالٌ لا أدَعُ لهم شيئاً، لَرَحَلْتُ إلى محمد فقتلته، إنْ ملأتُ عيني منه، فإنَّ لي عنده علّة أعتلُّ بها عليه، أقول:

قدمتُ من أجل ابني هذا الأسير.

وفرح صفوان بكلمة عمير، فما سمع بعد مصاب بدر كلمة أشهى على قلبه منها. وقال له:

عليَّ دَيْنُك، أنا أقضيه عنك، وأنت تعلم أني أكثر أهل مكة مالاً[١].

وعيالُك أسوة عيالي في النفقة، أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيءٌ فأعجز عنهم.

وقال عمير:

وتفعل هذا يا أبا وَهْب؟!

فأجاب صفوان:

نعم واللاَّت والعزَّى.

وقال عمير:

فأنا ذاهب إذاً إلى محمد فجر غَدٍ أقتله وأريحكم منه.

ومع ذلك فأنا أرجو يا أبا وهب أن أقتله وأرجع إليك سالماً.

وتعجَّب صفوان وقال:

كيف، وأصحاب محمد يفتدونه بأنفسهم وآبائهم وأمهاتهم وأولادهم، ويحبونه حباً لم نسمع بمثله؟

فأجاب عمير:

---

(١) قال أبو عبيدة: «إن صفوان قنطر في الجاهلية، وقنطر أبوه»، أي: ملك كل منهما قنطاراً من ذهب.

يا ابن عم، أنا رجل جَوَاد[١] لا أُلحق.. شديد الساعد، جيد الحديدة.

آتيه فأغتره[٢]، ثم أضربه بالسيف، ثم ألحق بالجبل، ولا يلحقني أحد.

وقال صفوان:

والله إنْ فعلتَ ذلك يا أبا وَهْب وعدتَ سالماً لأبذلنَّ لك المال سخياً ولأعطينَّك عطاءً جزيلاً.

وقال عمير:

جزيت خيراً يا ابن عم، يكفيني إنْ فعلت ذلك أنّي أشفي نفسي ونفوس قومي، وأنّي أكون قد ثأرت لهم من هذا الذي أدخل على قومه ما لم يدخل أحد من العرب على قومه، وأصابهم بسببه ما لم يُصب قوماً آخرين.

ولكن يا ابن عم! دَعْ هذا الأمر بيني وبينك، لا تُطلعْ عليه أحداً، ولا تحدِّث به إلاّ نفسك، حتى يتم لي ما أريد، فأنا ماضٍ فيه، فإما أن أهلك دونه وأدع عيالي لك، وإما أن أفوز وأثأر لقومي.

وقال صفوان:

إنَّ لك عليّ أن لا أبوح بهذا السر أبداً فامض لما أردت، رافقتك السلامة، وكان النُّجْح حليفك.

ثم قام الرجلان، فغادرا الحِجْر، وسعى كل واحد في سبيله، بعد أن مكرا برسول الله مكراً خبيثاً، وتعاقدا على اغتياله وفجيعة المسلمين به.

---

(١) جواد: سريع الركض.
(٢) أغتره: أطلب غفلته.

٤

غادر عُمير بن وَهْب الحرم إلى بيته، وعمد إلى سيفه فشحذه شحذاً قوياً، ثم سقاه السمَّ الناقع، ثم هيأ راحلة سفره، وأخبر زوجته أنه مرتحل غداً إلى يثرب ليفدي ابنه ويأتي به، وأمرها أن تُعدَّ له زاد هذه الرحلة، ففعلت.

وفي فجر اليوم التالي كان صفوان على موعد مع عمير في الحرم، وطافا حول الكعبة، ووقف عمير أمام الأصنام يتمسح بها ويلتمس عونها، وأطال الوقوف أمام باب الكعبة وخاطب «هُبَل»[1] الّذي بداخلها، وكذلك وقف طويلاً أمام إساف ونائلة[2] عند بئر زمزم، ثم أقبل على ابن عمه يوصيه بأهله وأولاده من بعده خيراً ووعده صفوان كل خير، ثم إنهما ودّع كل منهما الآخر، فتعانقا وذرفا الدموع، ثم ركب عمير راحلته ومضى.

أما صفوان فقد أقبل على الأصنام يقول لها في ضراعة ولهفة:
أيتها الآلهة كوني مع عمير، وانصريه على أعدائه، وردِّيه لنا سالماً.



أمضى عمير في مسيره إلى يثرب بضعة أيام، وكان كلما اقترب من مقصده حميت نيران أحقاده، وتأجج الغضب في نفسه، وقويت عزيمته على تنفيذ جريمته.

كان حديثه لنفسه خلال تلك الأيام حديثاً واحداً يعيده ويكرره ولا يمله.. كان يقول في نفسه:
سوف أثأر لقريش: لأبطالها الذين قتلوا، لنسائها اللاتي ترمَّلْنَ، لأمهاتها اللاتي ثكلنَ، لكرامتها التي أُهينت، لمنزلتها التي تضعضعت،

---

(١) صنم كان في جوف الكعبة وكانت قريش تعظمه كثيراً وتستقسم بالأزلام عنده.
(٢) إساف ونائلة: صنمان كانت قريش تعظمهما وكانوا ينحرون ويذبحون عندهما.

لآلهتها التي شتمت، لدينها الذي عِيب، لآبائها الذين سُفِّهوا!!.

سوف أثأر للعرب أجمعين من هذا الذي جاء يفتنهم عما كان يعبد آباؤهم الأولون، ويفسد أمرهم.

سوف أبطل سحر محمد، وأكشف زيف أمره، وأدع أصحابه ينوحون عليه كما ناحت نساء مكة على رجالها!!.

ولسوف أعمل عملاً لا يزال قومي والعرب جميعاً يذكرونني به.. وما عليَّ أن أموت وقد تركت لنفسي ذكراً خالداً في الناس.. إنه لا بد من الموت فلأمتْ إذاً وأنا تنوشني السيوف والرماح، قبل أن أموت موتة كموتة عبد العزّى بن عبد المطلب[1].

لا.. سوف أقتل لهم صاحبهم وأعود إلى مكة سالماً، وأمسح عارضَيّ[2] أمام الكعبة.. سوف أُري الأوس والخزرج الّذين ناصبونا العداء وآووا صاحبنا أي فتىً عمير بن وَهْب، سوف أعجزهم أن يلحقوا به، وليفعلوا بعد ذلك بابني وهب ما شاؤوا.

٥

أدى المسلمون صلاة الفجر خلف رسول الله ﷺ وجلسوا يذكرون الله تعالى، حتى إذا طلعت الشمس انصرف منهم من انصرف، وبقي في المسجد مع النبي من بقي.

ووقف جماعة من الصحابة أمام المسجد، وجعلوا يذكرون يوم بدر، ويتحدثون عما أكرمهم الله به من النصر المبين، وعما أنزله بأعدائهم من الخزي المهين، وحدثهم عمر بن الخطاب عن الملأ من قريش الّذين صرعهم الله في بدر وما كان يلقاه رسول الله ﷺ منهم.

---

(١) هو أبو لهب. وتقدم أنه مات كمداً وحسرة بعد بدر، وأن الله رماه بالعَدَسة.
(٢) العارضان: صفحتا الوجه.

وكان في القوم عبد الله بن مسعود فقال:

تلك دعوة رسول الله عليهم يا أبا حفص، لقد سمعته يدعو عليهم في المسجد الحرام في مكة بعد أن وضعوا على ظهره سَلاَ الجزور ويقول:

«اللهمّ عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعَيط... فوالَّذي بعث محمداً بالحق، لقد رأيت الَّذين سمّى صرعى يوم بدر، ثم سُحبوا إلى القليب».

وحمد الجميع الله تعالى، وعلا السرور وجوههم، وتوجه أحدهم إلى حسان بن ثابت وقال:

هل قلت شيئاً جديداً في يوم بدر يا أبا الوليد؟

وأجاب حسان: نعم.

ثم شرع ينشد والقوم يصيخون إليه السمع:

عرفتُ ديار زينبَ بالكثيب ... كخطِّ الوَحْيِ في الوَرَق القشيبِ[1]

تداوَلُها الرياحُ وكلُّ جَوْنٍ ... من الوَسْميِّ منهمرٍ سكوب[2]

فأمسى رسمُها خَلَقاً وأمست ... يباباً بعد ساكنها الحبيب[3]

فدَعْ عنك التذكُّرَ كلَّ يومٍ ... ورُدَّ حرارة الصدر الكئيبِ

وخبِّر بالَّذي لا عيبَ فيه ... بصدقٍ غيرِ إخبار الكذوبِ

بما صنع المليكُ غداةَ بَدْرٍ ... لنا في المشركين من النصيبِ

غداة كأن جمعَهم حِراءٌ ... بدَت أركانه جُنْحَ الغروبِ[4]

فلاقيناهُمُ منّا بجمع ... كأسدِ الغاب مُرْدانٍ وشيبِ[5]

(١) الكثيب: الرمل المجتمع. القشيب: الأبيض.
(٢) الوسمي: مطر الخريف، والجون من السحاب ما كان أبيض أو أسود، فهو من الأضداد.
(٣) يبابا: قفراً.
(٤) حراء: جبل بمكة. جنح الغروب: حين تميل الشمس للغروب.
(٥) مردان: جمع أمرد، وهو من لم يظهر الشعر في وجهه.

أمــــام محمــــــد قــــــد وازروه على الأعـداء فـي لفْـح الحـروبِ[١]
بــأيـديهــم صــوارمُ مُــرْهفــاتٌ وكـل مجـرَّب خـاظـي الكعـوبِ[٢]
بنــو الأوس الغطــارفُ وازَرَتْهــا بنـو النجـار فـي الـديـن الصليـبِ[٣]
فغــادرنــا أبــا جهــلٍ صــريعــاً وعتبـةَ قـد تـركنـا بـالجَبـوبِ[٤]
وشيبــةَ قــد تــركنــا فــي رجــالٍ ذوي حســبٍ إذا نُسبــوا حسيــبِ
ينــاديهـــم رســـولُ الله لمَّـــا قـذفنـاهـم كبـاكـبَ فـي القليـبِ[٥]
ألــم تجـدوا كــلامـي كــان حقــاً وأمــر الله يـــأخـــذ بـــالقلـــوبِ
فمــا نطقــوا ولــو نطقــوا لقــالــوا صــدقــتَ وكنــتَ ذا رأي مصيــبِ

وحين انتهى حسان أثنى عليه الجميع قائلين:
لأفضَّ الله فاك يا أبا الوليد!!.

٦

بدأت معالم يثرب تلوح للمغامر الفاتك عُمير بن وَهْب فها هو ذا جبل أُحد يقف شامخاً يملأ الفضاء أمامه، وها هي ذي الجبال الصغيرة المتناثرة حول المدينة قد أطلت برؤوسها، وها هي ذي أشجار النخيل بدأت تظهر لناظريه.

وغمز عمير ناقته يحثها على الإسراع في المسير، حتى يدخل يثرب مع صباح هذا اليوم الجديد، وقال في نفسه:
إن هذا اليوم سوف يكون يوماً مشهوداً، وسوف يكتب لي فيه التاريخ ذكراً خالداً، ومأثرة لا تنسى!!.

---

(١) وازروه: أعانوه. لفح الحروب: نارها.
(٢) الصوارم المرهفات: السيوف القاطعة. الخاظي: المكتنز. الكعوب: عقد القناة.
(٣) الغطارف: السادة، واحدهم: غطريف. وحذفت الياء من الغطاريف لإقامة وزن الشعر. الصليب: الشديد.
(٤) الجبوب: وجه الأرض.
(٥) كباكب: جماعات.

وأجال عمير ناظريه في جبال يثرب يريد أن يختار لنفسه جبلاً يهرب إليه بعد أن يرتكب جريمته، واستقر رأيه أخيراً أن يتجه إلى جبل أُحد.. لكنه وبعد قليل غيَّر هذا الرأي، وعزم على أن يلتجيء إلى يهود بني قَيْنقاع الَّذين يسكنون وسط المدينة، فإنهم سوف لن يتأخروا عن إخفائه وكتمان أمره، فهم يحملون من الغيظ على محمد مثلما يحمل هو، وقد أحسُّوا بعد هزيمة قريش في بدر وكأنهم وُتِرُوا، حتى إذا خفَّ عنه الطلب، خرج من مكمنه وقدم مكة!!.

⁂

وصل عمير يثرب وها هو ذا يمشي في طرقاتها وهو يتمنى ألا يراه مهاجريٌّ، وسأل عن رسول الله فأُخبر أنه في المسجد، فاتجه إليه والشمس بعدُ لمَّا ترتفع إلاّ قليلاً.

وفوجىء عمير بجماعة من الصحابة قريباً من باب المسجد وفيهم عمر بن الخطاب، فقال في نفسه:

يا لَصباح السُّوء.. لكنه أردف: وإنْ، فوالله لسوف أفعل ما قدمتُ من أجله ولو كان فيه هلاكي.

وإنه ليقترب من المسجد ويمر بجانب جماعة الصحابة إذا به يسمع حسان بن ثابت يقول وهو ينشد إخوانه قصيده:

يُنـاديهـم رسـول الله لمّـا ... قـذفنـاهـم كبـاكـبَ فـي القليـب
ألـم تجـدوا كـلامـي كـان حقـاً ... وأمـرُ الله يـأخـذ بـالقلـوبِ
فمـا نطقـوا، ولـو نطقـوا لقـالـوا ... صـدقـتَ وكنـتَ ذا رأي مصيـب

فقال في نفسه:

أما واللاّت والعزَّى، لسوف أفجعنَّكم بهذا الذي تسمونه «رسول الله» في هذا الصباح.

وحانت التفاتة من عمر بن الخطاب، فرآه ينيخ راحلته، على باب المسجد متوشحاً السيف ففزع وقال لإخوانه:

هذا الكلب عدوّ الله عمير بن وهب!!.

والله ما جاء إلاّ لشرّ، وهو الذي حرّش بيننا[١]، وحَزَنا[٢] للقوم يوم بدر.

ثم أسرع فدخل على رسول الله ﷺ وقال:

يا نبي الله، هذا عدوُّ الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، وهو الغادر الفاجر، يا رسول الله لا تأمنه على شيء.

وقال النبي ﷺ:

«أدخلْه عليّ».

ثم التفت إلى إخوانه الّذين يجلسون إليه وقال لهم:

«إنه يريد غدراً والله حائل بينه وبين ذلك».



وخرج عمر إلى إخوانه فقال لهم:

ادخلوا على رسول الله، فاجلسوا عنده، وأطيفوا حوله، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون!!.

ثم توجه إلى عمير فقال له:

تعال معي إلى رسول الله يا عدو الله.

ودخل عمر المسجد وتبعه عمير، وعمر ممسك بحمالة سيفه في عنقه وقد لبّبه بها.

ووقع نظر عمير على رسول الله، فارتجف قلبه، وهابه هيبة عظيمة، حتى كأنه لم يره من قبل!!.

وقال النبي ﷺ:

---

(١) حرش: أفسد، وكان عمير هو الّذي أنشب القتال يوم بدر.
(٢) الحزر: تقدير العدد تخميناً.

«أرسله يا عمر، أُدْنُ يا عمير».

ودنا عمير وقال:

انعموا صباحاً.

فرد عليه النبي ﷺ:

«قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام؛ تحية أهل الجنة!!.

ما أقدمك يا عمير؟».

فأجاب:

قدمت في أسيري، ففادونا فيه، فإنكم الأهل والعشيرة.

فقال رسول الله ﷺ:

«فما بال السيف في عنقك؟!».

فأجاب:

قبّحها الله من سيوف!!.

وهل أغنَت عنا من شيء يوم بدر، إنما نسيته حين نزلت!!

وحدَّثت عميراً نفسه أن يغامر ويهجم بالسيف على رسول الله، لكنه شعر بِخَوَر ما شعر به في حياته، ورأى أن يده لا تستطيع حراكاً، فتعجب من أمره.

وقرأ عليه السلام ما يدور في خلده، فأراد أن يصرفه عن وساوسه وقال له ثانيةً:

«أصدقني ما أقدمك».

فأجاب:

قدمت في أسيري.

واضطربت نفس عمير، وشعر وكأنه أحيط به!!

ولم يتركه النبي ﷺ في اضطرابه طويلاً بل فاجأه قائلاً:
«فما شرطتَ لصفوان بن أمية في الحِجْر؟».

وفزع عمير فزعاً شديداً وقال: ما شرطتُ له شيئاً!!.

فقال النبي ﷺ: «بل تحمَّلْتَ له بقتلي على أن يعول بنيك، ويقضي دَيْنك، والله حائل بيني وبينك».

ودهش عمير دهشة بالغة، وانكشفت الحجب الكثيفة عن روحه، وأشرق الإيمان في قلبه فصاح:
أشهد أن لا إلّه إلا الله، وأشهد أنك رسول الله!!

يا رسول الله، كنا نكذبك بالوحي وبما يأتيك من السماء، وإنَّ هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحِجْر لم يحضره أحد.

فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلاّ الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق!!.



فرح النبي ﷺ بإسلام عمير وقال لإخوانه:
فقِّهوا أخاكم في دينه، وأقرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

وفرح الصحابة جميعاً بإسلام الرجل، وعجبوا من قصته، وزاد يقينهم في رسول الله ﷺ، وكان أشدهم فرحاً عمر بن الخطاب، فقال لعمير:
اجلس يا عمير نؤانسك، فجلس إليه وتلطّف له عمر وبشَّ في وجهه.

ثم قال لإخوانه فيما بعد: والَّذي نفسي بيده لخنزير كان أحب إليّ من عمير حين طلع، ولهو اليوم أحب إليَّ من بعض ولدي.

ثم إن عميراً أقام أياماً في المدينة يجلس إلى رسول الله ﷺ، فتأنس به روحه، ويتعلم منه، وقوي إيمانه، وعظم يقينه، وتحولت أحقاده كلها

إلى الشرك وأهله، فقال للنبي ﷺ:

يا رسول الله، قد كنت جاهداً ما استطعت على إطفاء نور الله، والحمد لله الَّذي هداني وأنقذني من الهلكة، فأذنْ لي يا رسول الله فألحقَ بقريش فأدعوَهم إلى الله تعالى وإلى الإسلام؛ لعل الله أن يهديهم ويستنقذهم من الهلكة.

وأذن له النبي ﷺ، فودعه عمير وطلب منه أن يدعو له.

٨

أكثر صفوان بن أمية في الأيام الأخيرة من الطواف على حَلَق قريش في الحرم وتبشيرها بأمر سوف يسرها.. كان يقول لهم:

أبشروا بوقعة تأتيكم في أيام تنسيكم وقعة بدر!!.

ثم لا يزيد على ذلك.. فيسألونه، فيقول لهم: سوف تعلمون!!.

وطال انتظار صفوان، وطال سؤاله الركبان عن عمير، وأخيراً وصله خبره وأنه أسلم، فكان أسوأ خبر سمعه بعد خبر مقتل أبيه، بل كان يوازيه!!.

وحلف صفوان ألا يكلم عميراً ولا ينفعه بشيء أبداً.

وعاد عمير إلى مكة بالإسلام، وأعلنه في الناس ودعاهم إليه. وعجب الناس كلهم من هذا الذي كان شيطاناً من شياطين الجاهلية، ومن أشد الناس على محمد وأصحابه، عجبوا منه يصبح وليّاً له يدعو بدعوته وينصر دينه.

ثم إنهم عجبوا عجباً أشد حينما علموا بما تعاقد عليه وصفوان وقالوا:

ذهب مغامراً بحياته ليقتله، فعاد مؤمناً به مصدقاً له!!

وطالت دهشة قريش من قصة عمير، وبقي أمره وكأنه لغز يحيرهم؛

حتى جاء الوقت الذي كشف فيه عمير عن سره، ويومها قصَّ عليهم قصته مع رسول الله ثم قال لهم:

يا قوم، والله لقد طالت جهالتنا، وامتد عنادنا، وحسبنا الرجل كواحد منا!!.

لقد انكشفت الأمور أمام ناظريَّ، وظهر لي أن محمداً رسول ببرهان من الله.. وأن الله مانعه من البشر أجمعين، ومظهرُ أمره في العالمين!!.

المـراجـــع:

ـ الاستيعاب، وأسد الغابة، والإصابة، وطبقات ابن سعد (ترجمة عمير).

ـ مجمع الزوائد ٨/ ٢٨٦.

ـ سيرة ابن هشام ١/ ٦٦١.



محمد علي دولة

٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ

ـ ٢ ـ

تعرض النبي ﷺ في فترات عديدة من حياته المباركة للاغتيال والهلاك، وحاول أعداؤه الكثيرون من مشركين ومنافقين ويهود أن يقضوا عليه ويرتاحوا من دعوته، وبذلوا في ذلك جهداً كبيراً، وأعدّوا خططاً دقيقة، وانتهزوا فرصاً مناسبة، وغامروا مغامرات مثيرة؛ وساعدهم على ذلك أن رسول الله ﷺ كان يعيش بين الناس كواحد منهم، يختلط بهم؛ ولا يحجبه عنهم حرس ولا جنود، ولا يمنعه منهم حصون ولا سدود!!

بَيْدَ أن هؤلاء الأعداء كانوا يخفقون في كل مرة ويردّهم الله بغيظهم لا ينالون خيراً، فقد كان النبي ﷺ يكلؤه الله ـ سبحانه ـ ويرعاه ويصونه، ويردّ عنه كيد الكائدين ومكر الماكرين، ويعصمه من الناس أجمعين.

وفي السيرة النبوية من قصص العصمة هذه أشياء عديدة ومثيرة ومدهشة، تزيد المؤمن يقيناً بنبوّة رسول الله، وتملأ قلبه إيماناً بقدرة الله، وتزيده شجاعة وتضحية من أجل دينه، فيمضي مجاهداً وهو يردّد: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون!».

وقد قصصنا على القارىء الكريم في الجزء الرابع من هذه السلسلة قَصَصاً في محاولات المشركين للإيقاع بالنبي ﷺ، وفي هذا الجزء الخامس من السلسلة سيجد القارىء قَصَصاً أبطاله يهود، وسيجد أنَّ مَكْرَ هؤلاء لا يقل أبداً عن مكر أولئك إن لم يزد عليه، وصدق الله العظيم، فهو القائل في كتابه: ﴿لتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾.

١ ـ اليهود يحاولون اغتيال النبي ﷺ.

٢ ـ الشاة المسمومة.

اليهُود يحاولون اغتيَال النّبيّ ﷺ

١

شَرِق اليهود بهجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وأصابهم من ذلك همٌّ عظيم لا سيما أحبارهم، فقد تبين لهم أنَّ هذا الرجل هو النبي الَّذي بشَّرت به كتبهم، وأنَّ أوصاف النبي المنتظر كلها مجتمعة فيه، ولكن كيف يؤمنون به وهو من العرب الأميّين وليس من بني إسرائيل!!

وأدرك هؤلاء أن كلمة الأوس والخزرج لا بدّ ستجتمع عليه، ولا بدّ أنَّ مسلسل الحروب ونزيف الدماء بين هذين الحيَّين سينتهي بإيمانهم بدعوته، وسوف يصبحون جميعاً يداً واحدة على أعدائهم، وبذلك تفوت على يهود مصالح كثيرة، ويفقدون منافع هامة.

ثم إن هذا النبي سوف يحرم اليهود ـ عموماً ـ وأحبارهم ـ خصوصاً ـ من تلك الوجاهة التي لهم عند العرب بسبب ما عندهم من علم وكتاب، لا بل سوف يكشف لأتباعه الكثير من زيف هؤلاء القوم، وتحريفهم لكلام الله، وتلاعبهم بشريعة التوراة!!.

وكان أشد أحْبَار يهود فَرَقاً[1] من هجرة النبي ﷺ حُيَـيُّ بن أخطب كبير أحْبَار بني النضير وصاحب زعامتهم الَّذي كانوا ينعتونه بسيد البادي والحاضر، فما إنْ وصل عليه الصلاة والسلام إلى قُباء في ضاحية المدينة

(١) الفرَق: الخوف.

وأقام في بني عمرو بن عوف؛ حتى سعى إليه يريد أن يكتشف أمره ويمتحن جوهره.

ففي غداة مبكرة أخذ حيي أجمل زينته، ثم وضع عليه حُلَّة فُقَّاحية[١] رائعة، وتعطر بأحسن العطر، وانتعل في رجليه نعلين جديدين، ثم أرسل وراء أخيه أبي ياسر الحَبر ـ وكان أصغر منه ـ حتى إذا حضر قال له: هيًّا انطلق معي إلى قُباء لنرى هذا الوافد الذي يزعم أنه نبي.

غدا الحَبْران من منزلهما في ديار بني النضير مُغَلِّسَين[٢]، فلم تطلع عليهما الشمس حتى كانا في بني عمرو بن عوف في قُباء، وقصدا منزل «كلثوم بن الهدم» حيث نزل رسول الله ﷺ، وقبل أن يدخلا أوصى حيي أخاه قائلاً: لا تتكلم أنت بشيء ودعني أنا أُكلمه وأُحاوره.

وأوى الزعيم اليهودي إلى البيت فرحب به صاحبه، وقدَّمه للنبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله، هذا حُيي بن أخطب حَبْر بني النضير من يهود وسيدهم، وهذا أخوه أبو ياسر.

وبشّ لهما النبي ﷺ، ورحَّب بهما، وأقبل عليهما بوجهه.

وتكلم حيي فقال:

ما أنت يا محمد؟

فأجاب:

«أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليَّ الكتاب».

ثم ذكر لهما الإسلام، وتلا عليهما القرآن، ودعاهما إلى أن يسبقوا سائر يهود إلى الإيمان به، وأخبرهما أنه هو النبي الَّذي بشَّر به موسى

(١) حلّة فقاحية: لونها يضرب إلى الحمرة كلون الورد حين تفتحه.
(٢) مغلِّسَين: الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

وعيسى وسائر أنبيائهم، وهو الذي ذُكر في كتبهم.

وهنا قال حيـي:

ما تقول يا محمد في موسى وعيسى؟

فأخبره عليه الصلاة والسلام أنهما نبيّان كريمان سبقاه، وأخَوان صالحان نزلت عليهما رسالة من الله.

وامتعض حيـي من ثنائه ﷺ على «عيسى» لكنه تكلَّف الابتسامة، وتابع أسئلته وجعل يتوجّه بها إلى النبي وهو يجيبه عن كل ما يسأل وكأنه يقرأ ذلك من كتاب منشور أمامه.

كان النبي عليه الصلاة والسلام يتكلم وحيـي يصيخ بسمعه إليه ويتفرَّس فيه، ويطيل النظر في وجهه وعينيه وسائر ما يبدو من جسمه، حتى إذا قام ﷺ لبعض حاجته ركّز ناظريه عليه، وجعل يرقب قامته ومشيه وسائر حركاته في ذهابه ومجيئه، واستمر على ذلك طيلة جلوسه إليه.



أطال الحَبْر اليهودي الجلوس مع النبي ﷺ، فقد مكث معه من صباح ذلك اليوم حتى العصر، ولم يدع سؤالاً إلا سأله عنه، ولم يدع أمراً يجول في خاطره إلا عرف رأيه فيه، واستمع إلى منطقه، وعلم حقيقة دعوته، ورأى من حفاوة أصحابه به ما أدهشه، وأخيراً نهض قائماً مستأذناً بالانصراف، ثم ودّع النبي ومن معه، وقفل راجعاً هو وأخوه.

أقبل الأَخوان على ديار بني النضير كالَّين، كَسْلانَين، ساقطَين، يمشيان الهوينَى، فلم يصلا حتى كانا مع غروب الشمس، واتجه حيـي إلى منزله، ومشى أخوه وراءه، وأقبلت صفية[1] بنت حيـي ـ وكانت جارية

---

(١) أصبحت صفية هذه بعد فتح خيبر زوجة لرسول الله ﷺ ومن أمهات المؤمنين، وأكرمها الله بالإسلام، في حين هلك أبوها بأسياف المسلمين وهو أشد ما يكون عداء للإسلام.

صغيرة ـ على أبيها وعمها اللّذان كانا يحبانها أكثر من سائر أولادهما، فهشَّت لهما وتعلقت بهما رجاء أن يأخذها أحدهما على عادتهما، ولكن واحداً منهما لم يفعل!!

وسقط حييّ على الأرض، وأسند ظهره إلى الحائط، ومدّ رجليه، وجعل يطلق أنفاساً طويلة ينتزعها من أعماقه.

كان الحَبْر مغموماً، ينوء بهموم كأنها الجبال مما رآه وسمعه سائر يومه في قباء، ورأى أخوه الصغير ما به، فلم يشأ أن يسأله عنه طيلة الطريق، حتى إذا وصلا البيت وجلسا توجه أبو ياسر إليه قائلاً:

ـ أهُوَ هُوَ؟

نعم والله!!

ـ أتعرفه وتثبته؟

نعم!!

ـ إذن فما في نفسك منه؟

عداوته والله ما بقيت!!.

وفي عشية ذلك اليوم اجتمع في بيت حَبْر بني النضير وزعيمهم عدد من رجالات هذا الحيّ من يهود كان في مقدمتهم:

أبو ياسر بن أخطب وجُدَيّ بن أخطب أخَوا حييّ، وسلاّم بن مِشْكم، وكِنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق، وسلاّم بن أبي الحُقَيق، والربيع بن الربيع بن أبي الحُقيق، وعمرو بن جحّاش، وكعب بن الأشرف، والحجاج بن عمرو، وكَرْدم بن قيس.

وتوجه الجميع إلى حييّ يسألونه عن خبر زيارته لقُباء وعما سمعه من محمد رسول الله، وعن رأيه فيه.

وتنفس الرجل الصُّعَداء، وأقبل على أصحابه بوجه مشحون بالغم وقال لهم:

وإلّه يهود لقد جاءنا شرٌّ عظيم!!

فها هو ذا النبي الذي بشَّر به أنبياؤنا قد بُعث من غيرنا، وإلاّ نؤمن به فسيكون لنا معه ملاحم!!

وصاح كعب بن الأشرف:

لا والتوراة، لا نؤمن لنبي لا يكون من بني إسرائيل.

وتوجه سلاّم بن أبي الحُقَيق إلى حييّ وقال له:

أبا فِنْحاص، أوَ قد تثبتَّ من صفات هذا الرجل؟

فأجاب:

نعم والله، إنه النبي الموصوف في كتبنا، والذي استفتح به قومنا زماناً!!

وأطلق سلاّم من صدره آهة عميقة وقال:

واحسرتاه، لقد خرجت النبوّة من بني إسرائيل، وصارت إلى هؤلاء الأميين الجاهلين!!

ووجم الجميع مما سمعوا، وساد الصمت سائر الحجرة، وعلا الحزن جميع الوجوه، لكن حُيَيّاً أراد أن يقوّي من عزيمة قومه، فخاطبهم قائلاً:

لا تحزنوا يا قوم، ولا يهولنّكم أمر هذا الرجل، فوالله لأفسدنَّ عليه أمره في يثرب، حتى أُخرجه منها، أو لأكيدنّه بالعرب أجمعين، ووالله لأعادينّه ما بقيت!!

وصاح الجميع:

نحن معك وعلى رأيك أبا فِنْحاص، سوف نعاديه، ونكيد له، وسيكون بنو النضير جميعاً أشدّ يهود عداءً له، ومكراً به، حتى يحكم الله بيننا وبينه[1]!!.

---

(1) لا يستغرب مثل هذا الكلام من اليهود، فهم قوم مغرورون يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه!!.

٢

أصبح رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة سيدها الأول، وصاحب الكلمة المسموعة فيها، فقد قدمها وقد افترق مَلأُ الأوس والخزرج، وقُتل سَرَاتهم في يوم «بُعاث»[1]، فجمعهم الله عليه، وألّف بين قلوبهم به، فأحبّوه، وتنافسوا في طاعته، وتبارَوا في نصرة دعوته.

وكان من حسن تدبيره عليه الصلاة والسلام أول مقدمه المدينة أن كتب كتاباً بين المسلمين واليهود، وادع فيه يهود[2]، وعاهدهم، وشرط لهم أن يكونوا آمنين على دينهم وأموالهم ودمائهم، واشترط عليهم أن لا يحدثوا حَدَثاً ولا يأووا مُحْدِثاً، وأن يكونوا مع المسلمين يداً على من دَهِم يثرب أو حارب أهلها، وأن ينفقوا مع المؤمنين ما داموا محاربين، وجعل الاحتكام فيما يكون بين أهل هذا الكتاب من خلاف إلى الله وإلى محمد رسول الله.

بَيْدَ أن اليهود أعلنوا عن موافقتهم الظاهرية على هذا الكتاب، وقبولهم بما جاء به، لكنهم أَخفَوا في نفوسهم ما يناقضه، بل ما يأتي عليه ويجعله أثراً بعد عين.

فمنذ اليوم الأول الذي حلّ فيه رسول الله ﷺ مدينته الطيبة واجهه اليهود بحرب باردة عنيفة، كانوا يُسِرّونها أحياناً ويظهرونها أحياناً، وكان قوامها: التكذيب والسخرية، والشتم، والطعن في الإسلام وفي آي الكتاب، وانتقاد النبي ﷺ وانتقاد تصرفاته، والدخول في الإسلام نفاقاً، وتشجيع بعض العرب على النفاق، وإلقاء أسئلة التعنّت، وعرض عروض الفتنة، وتذكير الأوس والخزرج بأيامهم في الجاهلية، ومحاولتهم الإيقاع بينهم.

---

(١) كان يوم بُعاث آخر الأيام الحربية بين الأوس والخزرج، وقد حصل قبل الهجرة بحوالي خمس سنوات وأوشك القوم أن يتفانوا فيه. والسراة: السادة.
(٢) وادَعَ يهود: أي سالمهم على ترك الحرب والأذى.

كان عبد الله بن سلام خيرَ أحْبَار يهود وأتقاهم لله تعالى، وكان حَبْراً عالِماً، فلما سمع برسول الله ﷺ رجع إلى كتاب التوراة وإلى سائر كتبه، فتأكد من صفته واسمه وزمانه وعلامات نبوّته، وأسرَّ ذلك في نفسه ولم يتكلم به لأحد من قومه بني قينقاع، حتى إذا قدم النبي ﷺ المدينة وأقام يسيراً في بني عمرو بن عوف في قباء جاءه الخبر عنه وهو في رأس نخلة له يعمل فيها، فلما سمع بمقدمه كبَّر، فقالت له عمّته ـ وكانت جالسة تحته ـ:

خيَّبك الله، والله لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران قادماً ما زدتَ!!

فقال لها:

أَيْ عمة، هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعث بما بُعث به.

فقالت:

أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنّا نُخَبَّر أنه يبعث مع نَفَس الساعة[١]؟

فأجابها:

نعم.

فقالت:

فذاك إذاً.

وترك عبد الله بن سلام نخلته، وراح عشية إلى قباء، فلقي رسول الله ﷺ، وأسلم، ثم رجع إلى أهل بيته فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وكتم ذلك عن قومه.

وبعد مدة يسيرة جاء هذا الحَبْر المؤمن إلى رسول الله ﷺ وقال له:

يا رسول الله، إنّ يهود قوم بُهْتٌ[٢]، وإني أحبّ أن تدخلني في

---

(١) أي قبل الساعة بقليل وقريباً منها، ولا يكون بينه وبينها نبوّة أخرى.

(٢) قوم بهت: يكذبون ويفترون.

بعض بيوتك وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إنْ علموا به بهتوني وعابوني!!

وأرسل رسول الله ﷺ وراء يهود، وغيَّب عبد الله بن سلام عنهم، فكلَّمهم ساعة، ثم قال لهم:

أي رجل الحصين(١) بن سَلَام فيكم؟

فقالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبْرنا وعالِمنا!!

ولم ينته كلامهم في مديحه حتى فاجأهم عبد الله خارجاً من بيت النبي ﷺ وقال لهم:

يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه لرسول الله، وأؤمن به وأُصدِّقه وأعرفه!!

وجنّ جنون اليهود لهذه المفاجأة المذهلة فصاحوا جميعاً:

كذبت!!

ثم وقعوا فيه، وأشبعوه شتماً وتنقيصاً وثلباً، ثم قاموا فخرجوا مغضبين.

وأقبل عبد الله على رسول الله ﷺ يقول له:

ألم أُخبرك يا رسول الله إنهم قوم بُهْت، أهل غدر وكذب وفجور!!.



غضب اليهود لإسلام عبد الله بن سلام وتواصَوا فيما بينهم أن يشتدوا في تكذيبهم لرسول الله ﷺ وصدِّ الناس عن دينه، والسخرية منه ومن أصحابه وممَّا يتنزل عليه من ربه.

---

(١) الحصين: هو اسم عبد الله بن سلام قبل أن يسلم فلما أسلم سمَّاه رسول الله ﷺ عبد الله.

وكان ممّن أسلم نفاقاً «زيد بن اللُّصيت» فكان لا يدع فرصة إلا ويغمز فيها من رسول الله ﷺ في جماعته من المنافقين. وفي يوم من الأيام ضلَّت ناقة النبي ﷺ، فقال هذا اليهودي المنافق:

(يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته!).

وبلغت النبيَّ كلمته فقال عليه الصلاة والسلام:

(والله ما أعلم إلا ما علّمني الله، وقد دلّني الله عليها، فهي في هذا الشِّعْب قد حبستها شجرة بزمامها».

فذهب رجال من المسلمين فوجدوها كذلك!!

ومشى أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه يوماً إلى ديار بني قينقاع في حاجة له، ودخل على يهودَ بَيْتَ المدراس[١]، فوجد منهم ناساً قد اجتمعوا على حَبْر منهم يقال له «فِنْحاص» ومعه حَبْر آخر يقال له «أشْيَع» وتوجه أبو بكر إلى فنحاص فقال له:

ويحك يا فنحاص، اتَّق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أنّ محمداً لرسول الله، قد جاءكم بالحقّ من عنده، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل.

لكن الحبر الكفور أجاب أبا بكر ساخراً:

(والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنه إلينا لفقير!!

وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء وما هو عنَّا بغني، ولو كان غنياً ما استقرضَنا أموالنا كما يزعم صاحبكم[٢].

ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنّا غنياً ما أعطانا الربا).

وغضب أبو بكر غضباً شديداً وقال لفنحاص:

والَّذي نفسي بيده، لولا العهد الَّذي بيننا وبينكم لضربتُ رأسك أيْ

---

(١) بيت المدراس: هو البيت الذي يتدارس فيه اليهود دينهم.
(٢) يريد بذلك قوله تعالى: ﴿من ذا الَّذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له﴾.

عدوَّ الله، ثم خرج حتى جاء رسول الله فحكى له ما جرى، لكن فنحاصاً جحد كلامه وأنكر أنه قاله، بَيْدَ أن القرآن الكريم نزل يكذِّبه ويصدِّق أبا بكر، فقد أنزل الله على نبيّه قوله:

﴿لقد سمع الله قول الَّذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقَتْلَهم الأنبياء بغير حق، ونقول ذوقوا عذاب الحريق﴾.

* * *

تواصَى أحْبَار يهود فيما بينهم بأن يكثروا من إلقاء الأسئلة على رسول الله ﷺ يتعنَّتونه بها[1]، وأن يعرضوا عليه عروضاً يفتنونه بها ويزيغونه عن الحق، يريدون بذلك إخراجه، وإضعاف شأنه وتهوين أمره.

وفي صباح يوم من الأيام مشى «رافع بن حُريملة» و«وَهْب بن زيد» ـ وكان الأول من أحْبَار بني قينقاع، والثاني من أحْبَار بني قريظة ـ إلى رسول الله ﷺ فقالا له: (يا محمد، ائتنا بكتاب تنزِّله علينا من السماء نقرؤه، وفجِّر لنا أنهاراً؛ نتَّبعْكَ ونصدقك).

ولم يعبأ النبي ﷺ بمطلبهما، وأدرك قصدهما، وتذكر ما كان طلبه منه كفار قريش في مكة، ورأى أن القوم يجرون على سُنَن أولئك في الجحود والتعنت!!

ومرةً أخرى عاد الحَبْر الجاحد «رافع بن حُريملة» إلى النبي ﷺ يقول له:

يا محمد، إن كنت رسولاً من الله كما تقول؛ فقل لله، فليكلمنا حتى نسمع كلامه!!

وتذكر صلوات الله عليه ما جرى لأخيه موسى حينما طلب منه السبعون المختارون من بني إسرائيل الَّذين ذهبوا معه إلى الطور للاعتذار عن عبادة قومهم العجل، حتى إذا وصلوا الجبل، وتجلَّى الغمام فوقه،

---

(١) يتعنتونه بها: يشقّون عليه بها.

وناجى موسى ربَّه؛ قالوا لنبيِّهم:

﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾!!

ومرةً ثالثة اجتمع من أحْبَار يهود: كعب بن أسد، وابن صلوبا، وعبد الله بن صوريا، وغيرهم، فقال بعضهم لبعض:

اذهبوا بنا إلى محمد لعلّنا نفتنه عن دينه فإنما هو بشر.

وقدم الأحْبَار على النبي ﷺ وقالوا له:

يا محمد، إنك قد عرفت أنَّا أحْبَار يهود وأشرافهم وسادتهم، وأنّا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا، وأنَّ بيننا وبين قومنا خصومة؛ أفنحاكمهم إليك فتقضي لنا عليهم، ونؤمن بك ونصدقك؟

لكنّ النبي ﷺ ما كان منه إلا أن رفض هذا العرض الخبيث، وأبى إلا أن يحكم بينهم بالحق إذا تحاكموا إليه، ونزل القرآن يثبِّت موقفه عليه الصلاة والسلام ويقول له:

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتَّبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولّوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحُكم الجاهلية يبغون؟! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾.

* * *

كان «شاس بن قيس» شيخاً مسناً قد سقط حاجباه على عينيه، وانحنى ظهره، وابيض شعر رأسه ولحيته، وكان حَبْراً يهودياً عظيم الكفر، شديد الضِّغْن على المسلمين، شديد الحسد لهم، وكان يرى أن أجدَى شيء في صدِّ الناس عن رسول الله ﷺ هو الإيقاع بين الأوس والخزرج وتذكيرهم بما كان بينهم في الجاهلية حتى يحتربوا، فكان يسعى في ذلك دائماً فلا يفلح.

بَيْدَ أنه مرّ يوماً على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من إلفتهم

وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال:

قد اجتمع مَلأُ بني قَيْلة[١] بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار.

ثم أمر فتىً شاباً من يهود فقال له:

اعمِدْ إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعاث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار.

وذهب الفتى اليهودي وعمل ما أشار عليه ذلك الشيخ الخبيث، وفي ساعة غفلة عن كيد يهود تكلم الأوس والخزرج وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان منهم، وقال أحدهما لصاحبه:

إن شئتم رددناها الآن جَذَعة[٢].

وعندها غضب الفريقان جميعاً وقالوا:

قد فعلنا، موعدكم الظاهرة[٣]، السلاحَ السلاحَ.

وخرج القوم بأسلحتهم إلى الحرَّة يريدون أن يقتتلوا وأن يعيدوها جاهلية جَهْلاء، لكنَّ رسول الله ﷺ تداركهم، فأسرع إليهم في جماعة من أصحابه وقال لهم:

«يا معشر المسلمين، اللَّهَ اللَّهَ، أبدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألَّف به بين قلوبكم!!».

وأدرك القوم أنها نَزْغَة[٤] من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا،

---

(١) بنو قيلة: هم الأوس والخزرج، وقيلة أمهم القديمة.
(٢) رددناها جذعة: أي رددنا الآخر إلى أوله وعدنا إلى أيام العداوة والحروب.
(٣) الظاهرة: الحرّة وتقع خارج المدينة.
(٤) النزغة: الإفساد بين الناس.

وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، وقد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس.

٣

مضت أشهر على الحرب الباردة التي شنَّها يهود على رسول الله ﷺ وعلى دعوته وأصحابه، والتي كان قوامها: التكذيب والسخرية والشتم، وإلقاء الأسئلة تعنتاً، وطلب الخوارق تعجيزاً، والدخول في الإسلام نفاقاً. ولم يألُ اليهود جهداً في هذه الحروب المعلنة، بل أفرغوا كل طاقاتهم، وبذلوا سائر جهدهم، واشترك في ذلك أحْبَارهم وعامّتهم، وكان لأحْبَارهم الدور الأكبر في هذه الحرب الخسيسة.

أما رسول الله ﷺ فقد صبر على أذاهم، وتحمل منهم الشيء الكثير، وكان موقناً بأن سنَّة الله ستجري عليهم كما جرت على أسلافهم، وأن الله سيخزيهم على يديه إن هم أوغلوا في سفاهتهم، وقد صرَّح له القرآن بهذه الحقيقة في قوله تعالى:

﴿كنتم خير أمة أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهَون عن المنكر، وتؤمنون بالله، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم؛ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضرّوكم إلا أذى؛ وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضُربت عليهم الذلّةُ أينما ثُقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس، وباؤوا بغضب من الله، وضُربت عليهم المسكنةُ؛ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق، ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون﴾.

ومع ذلك فلم يكفَّ صلوات الله عليه عن دعائهم إلى الإسلام، وترغيبهم به، وتذكيرهم بأيام الله، وإقامة الحجة عليهم كلما أرادوا أن يحاجُّوه، على الرغم من صدودهم وإعراضهم على الدوام.

جاءه عليه الصلاة والسلام نفرٌ من أحْبَارهم فقالوا:
يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهنّ، فإن فعلت ذلك اتَّبعناك وصدّقناك وآمنا بك.

فقال لهم رسول الله ﷺ:
«عليكم بذلك عهد الله وميثاقه لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقُنَّني؟».

فقالوا: نعم.

فقال لهم: «فاسألوا عمّا بدا لكم».

قالوا: فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه؛ وإنما النُّطْفة[1] من الرجل؟

فقال لهم رسول الله ﷺ:
«أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل[2]، هل تعلمون أن نطفةَ الرجل بيضاءُ غليظة، ونطفة المرأة صفراءُ رقيقة، فأيّتهما علَتْ صاحبتَها كان له الشبهُ؟».

وأجاب الأحْبَار:
اللهمَّ نعم!!.

ثم قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟

فقال لهم:
«أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أن نوم الَّذي تزعمون أني لستُ به تنام عينه وقلبه يقظان؟».

فقالوا:
اللهمَّ نعم!!

---

(١) النطفة: ماء الرجل (المني).
(٢) إسرائيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وهو الوالد المباشر لجميع بني إسرائيل.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«فكذلك نومي، تنام عيني وقلبي يقظان».

وقال الأَحْبار:

فأخبرنا عمّا حرَّم إسرائيل على نفسه؟

فأجابهم عليه الصلاة والسلام:

«أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها، فحرّم على نفسه أحبّ الطعام والشراب إليه شكراً لله، فحرَّم على نفسه لحوم الإبل وألبانها؟».

وأجاب الأَحْبَار:

اللهمَّ نعم!!

ثمّ تقدموا إليه بالسؤال الرابع فقالوا:

فأخبرنا عن الروح؟

فقال رسول الله ﷺ:

«أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمونه جبريل، وهو الذي يأتيني؟».

فقالوا:

اللهمَّ نعم!!

بَيْدَ أنهم أردفوا كلامهم قائلين:

ولكنه ـ يا محمد ـ لنا عدوٌّ، وهو ملَكٌ، وإنما يأتي بالشدّة وبسفك الدماء، ولولا ذلك لاتَّبعناك!!

وهكذا انتهى ذلك الاجتماع والحوار، وأُجيب فيه الأَحْبَار عن سائر أسئلتهم، إلا أنهم ـ وكما هو دأبهم ـ نسوا العهد الذي قطعوه للنبي ﷺ أن

يتبعوه إن هو أجابهم على أسئلتهم، وزاغوا عن الحقّ، وأبطلوا ما ألزموا به أنفسهم بحجّة أن جبريل عدوهم!!

لكن آيات القرآن الكريم تنزَّلت تبيِّن موقفهم ذاك وتفضحهم، وتكشف عمّا استقر في جبلَّتهم من نبذ للعهود، وتقول عنهم:

﴿قل من كان عدواً لجبريلَ فإنه نزَّله على قلبك بإذن الله مُصَدِّقاً لما بين يديه وهدىً وبشرى للمؤمنين. من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال[1] فإنَّ الله عدوٌّ للكافرين. ولقد أنزل إليك آيات بيِّنات وما يكفر بها إلا الفاسقون. أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم، بل أكثرهم لا يؤمنون. ولما جاءهم رسولٌ من عند الله مُصدِّقٌ لما معهم نبذ فريق من الَّذين أُوتوا الكتابَ كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾.

❊ ❊ ❊

انطلقت دعوة الإسلام في المدينة المنورة تشقّ طريقها غير عابئة بصنيع يهود ومن انضاف إليهم من منافقي العرب من الأوس والخزرج، وأقبل المهاجرون والأنصار على رسول الله ﷺ يتعلمون منه، ويقتبسون من هديه، ويبذلون بين يديه الغالي والرخيص، ويُرونه من ضروب الحب والفداء والطاعة ما لم يروِ التاريخ له مثيلاً!!

وجاء رمضان من السنة الثانية للهجرة وحصلت فيه معركة بدر، وكان يوماً من أيام الله، أعزَّ الله فيه دينه، ونصر وليّه، وأخزى أعداءَه، وردّهم خائبين خاسرين.

وذهل يهود المدينة لنتيجة المعركة، وغاظهم ما أسفرت عنه من النصر المُبين للمسلمين، والخزي المهين للمشركين، فحزنوا لذلك حزناً شديداً، وطفحت قلوبهم بالمرارة والألم، واحترقت أكبادهم من الغيظ والحنق... كيف وقد كانوا يأملون أن يصفِّي جيش المشركين الَّذي يقوده

(١) ميكال: هو ميكائيل المَلَك.

أبو جهل الحساب مع المسلمين، وأن يريحهم من هذا الخطر الداهم الَّذي حلّ بين ظهرانيهم؛ فإذا بالآمال تتلاشى، وإذا بالظنون تخيب، وتنجلي المعركة عما لا يشتهي يهود ولا يحبون!!.

كان يهود بني قينقاع يسكنون بجوار المسلمين في المدينة المنورة ويختلطون بهم، وكانوا أهلَ عدة وسلاح ونجدة؛ إلى جانب ما كانوا عليه من غنىً. وقد غاظهم جداً انتصار المسلمين يوم بدر، فبدت منهم بوادر السوء، وتكلموا بما يغيظ المسلمين، وأعربوا عن أحزانهم لِمَا أصاب المشركين.

وأراد رسول الله ﷺ أن يُسدي لهم النصيحة، وأن يلتزموا بالعهد الَّذي بينهم وبين المسلمين، فسعى إليهم في سوقهم وقال لهم:

«يا معشر يهود، احذروا من الله مثلَ ما نزل بقريش من النِّقمة وأسلموا، فإنكم قد عرفتم أني نبيٌّ مُرسَل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم».

لكن يهود ركبهم الغرور، وغلبهم حقدهم، فقالوا للنبي ﷺ:

يا محمد لا يغرنَّك من نفسك أنك قتلتَ نفراً من قريش كانوا أغماراً[1] لا يعرفون القتال!!

إنك لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس، وأنك لم تلقَ مثلنا!!

وانصرف رسول الله ﷺ عنهم بعد أن علم أنهم ماضون في غَوايتهم، ونزل عليه القرآن يبشِّره بقرب نهايتهم ويقول له:

﴿قل للَّذين كفروا ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المهاد. قد كان لكم آية في فئتين التقتا[2]؛ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة،

---

(١) الأغمار: جمع غمر: وهو مَنْ لم يجرب الأمور.
(٢) آية: عبرة. والفئتان هما: المسلمون، والمشركون.

يرونهم مِثْلَيهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء، إنَّ في ذلك لعبرةً لأُولي الأبصار﴾.

ولم تمهل الأيامُ بني قينقاع طويلاً، فقد ركبوا رؤوسهم، وأشعلوا نار الحرب بينهم وبين المسلمين بمحاولتهم الاعتداء، على امرأة مسلمة. فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن أصدر أمره بحصارهم، فحاصرهم المسلمون فأوَوا إلى حصونهم خائفين مرعوبين، وبعد حصار قصير خضعوا لأمر رسول الله ونزلوا على حكمه، فطردوا من المدينة، وغنم المسلمون مساكنهم، وارتاحوا من شرورهم.

❁ ❁ ❁

صعب على كعب بن الأشرف تصديق ذلك النبأ الَّذي حمله «عبد الله بن رواحة» لأهل العالية من سكان المدينة بانتصار المسلمين، وذُهِل وهو يسمع عبد الله يعدِّد قتلى المشركين، وقال لمن حوله من يهود:

أحـقٌّ هذا!!

أترون محمداً قد قتل هؤلاء الَّذين يسمِّي هذا الرجل، فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس!!

والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها!!

وجاء الخبر اليقين لعدوِّ الله بما ساءه، وتيقن أنَّ سادة قريش قد صُرعوا بأسياف المسلمين يوم بدر، فحزن لذلك حزناً شديداً، ثم خرج من المدينة حتى قدم مكة، وجعل يحرّض على رسول الله ﷺ، وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب[١] من قريش، الَّذين أُصيبوا ببدر.

وبعد أن ملأ هذا العدو اللدود قلوب أهل مكة حفيظة[٢] على

---

(١) القليب: بئر في بدر أمر النبي بأن تلقى فيه جثث قتلى المشركين.
(٢) حفيظة: غيظاً.

المسلمين؛ عاد إلى المدينة فجعل يشبِّب[١] بنساء المسلمين حتى آذاهن.

ورأى النبي ﷺ أن يرتاح من هذا العدو، فهو شاب مغرور، وغني طاغٍ، وحاقد موتور، لا تجدي معه نصيحة، ولا ينتفع بموعظة.

وأخطر عليه الصلاة والسلام أصحابه بما يريد فقال لهم:

«من لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله!!».

وانتدب جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ لقتل هذا العدو الفاجر، فلم تمضِ أيام حتى بيَّتوه في بيته، وقتلوه خارج قصره، ثم جاؤوا برأسه إلى رسول الله ﷺ فرمَوه بين يديه، فقال لهم: «أفلحتِ الوجوه»، فأجابوه: (ووجهك يا رسول الله).

***

حزن يهود بني النضير لمقتل كعب بن الأشرف، وكان أشدهم حزناً عليه «حيي بن أخطب» فجزع لقتله، ونعاه إلى سائر يهود الحجاز، وأقسم ليأخذنَّ بثأره.

ثم إنَّ حيياً أرسل وراء أَحْبَار بني النضير وأشرافهم، فاجتمع عنده منهم عدد كبير، فقام فيهم فقال:

يا معشر يهود، قد ـ والله ـ غَشِينا شرٌّ داهم، وأحاق بنا خطر عظيم، فها هو ذا محمد ـ بعدما أوقع في قومه ما أوقع يوم بدر ـ قد طمع فينا، فأخرج إخواننا بني قينقاع وهم أهل عدّة وسلاح ونجدة، ثم امتدت يده إلينا فقتل رجلاً من أهل عزّنا وشرفنا، ولا والله أصبحنا ما نأمنه على أنفسنا، فلقد اجتمع عليه أمر الأوس والخزرج، وأصبحت كلمتهم واحدة، وهم لا يصدرون إلا عن أمره، وإذا أمرهم أمراً سارعوا إليه.

فانظروا في أمركم قبل أن يحلَّ بكم ما حلَّ بإخوانكم، وكونوا على

---

(١) يشبب: يتغزل بهن ويذكر محاسنهن.

حذر من عدوكم، وأوقعوا به قبل أن يوقع بكم.

وساد الصمت قليلاً بعد كلمة حيّـي، ثم قطعه أبو رافع سلاَّم بن أبي الحقيق الذي توجه إلى حيـيّ وقال له:

يا أبا فنحاص، أنت فأَشِرْ علينا، فأمرنا تبعٌ لك.

فقال حيـي:

بل أنتم قولوا أسمع لرأيكم.

فقال كَرْدم بن قيس:

والله يا معشر يهود ما لنا طاقة بحرب محمد وأصحابه، فهلمُّوا فلنجمع له الجموع منّا ومن إخواننا قريظة ومن أهل البوادي، ولنستعن عليه بقريش.

لكن حيياً ردَّ عليه قائلاً:

إنَّ هذا أَمرٌ بعيد يحتاج إلى وقت طويل، انظروا في أمرٍ أقرب من هذا.

وصمت الجميع طويلاً، وبدا أن أحداً منهم ليس عنده ما يقوله، ثم أقبلوا بوجوههم على حيـيّ ينتظرون ما عنده من الرأي.

وعاد سلاَّم بن أبي الحقيق فقال له:

تكلم أنت يا أبا فنحاص، ومُرْنا بما تحب.

وأخيراً تكلم الحَبْر الألدّ فقال:

يا معشر يهود، لقد جادلتم محمداً طويلاً فأسكتكم، ولقد سألتموه عن أمور كثيرة فأجابكم، ولقد سخرتم منه ومن أصحابه ومما يتنزل عليه فما أجدى ذلك شيئاً عليكم!!

والله يا قوم ليس هناك أمر أقرب ولا أرشد من قتل محمد.

وتابع حيـيّ قائلاً:

وإنّا إن قتلناه وتحصنّا في ديارنا، وأرسلنا وراء قريش نخبرها بذلك؛ سارعت إلى عوننا وقَدِمتْ إلينا تنجدنا، فنكون جميعاً على أصحابه فنستأصلهم، وينتهي بذلك أمرهم، وحينئذٍ ننجو مما يتهددنا، ونعود إلى سابق عزّنا.

وظهر السرور على وجوه الملأ من يهود لهذا الرأي الذي أبداه زعيمهم، وأشرق وجه كردم بن قيس لما سمع وقال لحييّ؛
رأيك ـ والله ـ رأيٌ يا أبا فنحاص، ولكن كيف نقتل محمداً؟!

فأجابه:
نرسل إليه: أن اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك، ويشتمل أصحابنا على الخناجر، حتى إذا خرج إلينا واستدرجناه بحديثنا طعنّاه وأصحابه بخناجرنا، ثم التجأنا إلى حصوننا حتى تنجدنا قريش!!

وصاح الجميع:
نِعْمَ هذا الرأي يا أبا فنحاص، فوالله ما زلنا نتعرَّف منك الرشاد والسداد منذ سِدْتَنا وأصبحتَ صاحب كلمتنا!!

لكن واحداً منهم هو «سلّام بن مشكم» اعترض عليهم قائلاً:
لا تفعلوا يا قوم، فوالله لئن فعلتم هذا الأمر ليأتينَّ محمداً الخبرُ من السماء فيوقع بكم.

وغضب الجميع لكلمة سلّام وزجروه قائلين:
دعنا منك يا سلاَّم، فإنّا إن لم نفعل هذا يضعف أمرنا، وتذهب ريحنا[1]، ويصيبنا ما أصاب إخواننا!!

وسكت سلّام على مضض، وأحكم الملأ من يهود المكيدة، ورسموا خطة الغدر، ثم تفرقوا عليها.



(١) ريحنا: قوتنا.

وفي الصباح أرسل بنو النضير إلى رسول الله ﷺ يقولون له:
(اخرج إلينا في ثلاثة من أصحابك، ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتبعناك).

وساورت النبيَّ ﷺ الشكوكُ من مطلب اليهود، ثم التفت إلى أصحابه وأخبرهم أنه يشم رائحة الغدر مما يقترحونه عليه!!

وأدرك الصحابة أنَّ في الأمر مكيدة فقالوا:
لا تفعل يا رسول الله، فهم ـ والله ـ أهل غدر وخيانة، وما نأمنهم عليك!!

ولم يبرح النبي ﷺ مكانه حتى جاءه رجل من الأنصار يقول له:
يا رسول الله، لا تذهب إلى يهود؛ فقد جاءني خبرُ صدقٍ أنهم يريدون قتلك ومن معك، وأنهم اشتملوا لذلك على الخناجر!!

وتيقن عليه الصلاة والسلام من صدق ما ساوره حين جاءه رسولهم. وأراد أن يتركهم في حَيْرة من أمرهم، فلم يشأ أن يجيبهم بشيء، بل تركهم حيارى لا يدرون ما يفعلون.

❊ ❊ ❊

انتظر اليهود خروج النبي ﷺ إليهم انتظاراً طويلاً، ومضت أيام على ذلك حتى لقد يئسوا من خروجه، وباتوا في حَيْرة من أمرهم، وجعلوا يتساءلون:

أوَقد نَمَا أحدٌ منهم بالخبر إلى محمدٍ عما اعتزموا فعله؟

أم أنَّ الوحي جاءه به؟

أم أنه لم يجرؤ على القدوم عليهم؟

ولم يصل القوم إلى جواب يشفي صدورهم، لكنهم اغتاظوا من صنيع النبي ﷺ غيظاً كبيراً، حتى لقد قال أحدهم:

لقد نجا ـ والله ـ محمدٌ ممّا كِدْنا له!!

فردّ عليه سلّام بن مشكم:

بل ـ والله ـ لقد جاءه الخبر من السماء بذلك!!

وغضب حيـيّ بن أخطب لكلمة سلّام، ونظر إليه وعيناه ترسلان الشرر ثم قال له:

أراك يا سلّام أصبحت وليّاً لمحمد، حتى لكأنك واحد من أصحابه، تصدّق بكل ما يخبر به من أموره!!

والله لئن نجا مني هذه المرة سوف لا ينجو في المرة الثانية، ولسوف أنصب له المكايد حتى أصرعه!!

ولم يشأ سلّام أن يردّ شيئاً على زعيم بني النضير، بل اكتفى بابتسامة مريرة ساخرة، ثم تولى وهو يقول في نفسه:

يا ويح قومي، كم رأوا من العِبَر فلم يعتبروا!! ألنا طاقة بحرب الله ورسله؟!

أنُبادي الله وأنبياءه بالعداوة؟!

ثم انطلق وهو يضرب كفّاً على كفٍّ!!.



مضى عام على يوم بدر العظيم وكلمة المسلمين تعلو يوماً بعد يوم، ودعوة الإسلام تغزو القلوب، ويقبل عليها الناس من كل حدب وصوب.

وشاءت إرادة الله أن يبلو المسلمين بالشدّة والآلام بعدما ابتلاهم بالنصر والظفر، فكان يوم أُحُد، وكانت الغلبة فيه للمسلمين بادىء الأمر، لكن عدداً من الرماة خالفوا أمر رسول الله ﷺ وطمعوا في الغنائم، فأخذ المشركون المسلمين على غرّة، وزُلزل المسلمون زلزالاً شديداً، فاستشهد

عددٌ منهم بعد بلاء عظيم، وانهزم عدد آخر، وثبت مع رسول الله جماعة من أصحابه حتى انتهت الحرب.

وفي مساء ذلك اليوم العصيب عاد المسلمون إلى مدينتهم مثقلين بجراحاتهم؛ وقد خلّفوا في سفح ذلك الجبل الأشم سبعين من خيرة شهدائهم، كان على رأسهم حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، ومصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر، وعاد عليه الصلاة والسلام بوَفْرَة من الجروح والآلام، فقد كُسرت رباعيته، وشُج في وجهه، وكُلِمتْ[1] شفته السفلى، ودخلت حلقتان من حلق المغفر[2] في وجنته.

ولا تَسَلْ عن شماتة يهود بما أصاب النبي ﷺ وأصحابه، فقد أظهروا السرور، وأعلنوا بالسخرية، ونفّسوا عن أحقادهم، وأطلقوا لألسنتهم العنان تقول ما تشاء، وأخذوا يردّدون:

(لو كان نبيّاً ما ظهروا عليه، ولا أُصيب منه ما أُصيب، لكنه طالب مُلْك تكون الدولة[3] له وعليه).

❁ ❁ ❁

أقبلت السنة الرابعة للهجرة والمسلمون لمّا يداووا جراحاتهم في «أُحد» وطمع بهم أكثر من عدو؛ طمع بهم القرشيون، واليهود، والمنافقون، والأعراب الجفاة الغلاظ الّذين يَهُون عليهم فعل كل قبيح تنفيساً عن أحقادهم.

لكن النبي ﷺ كان للجميع بالمرصاد، فأخذ يراقب تحركاتهم وخططهم، ويرسل العيون[4] قِبَلهم؛ ليفوّت عليهم الوصول إلى مآربهم، وليردّ كيدهم في نحرهم.

---

(١) كلمت: جرحت.
(٢) المغفر: هو ما يلبسه المقاتل على رأسه من الزرد.
(٣) الدولة: الغلبة.
(٤) العيون: الجواسيس.

وفي شهر صفر أرسل النبي ﷺ عشرة من أصحابه عيوناً ليتعرفوا له أخبار قريش، وجعل عليهم البطل الشجاع «عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح» وأوصاهم وحذَّرهم.

وانطلق أصحاب النبي من المدينة وأخذوا يسيرون في الليل ويكمنون في النهار، لكنَّهم حينما اقتربوا من قبيلة «هُذَيل» أحسَّ بهم القوم وهم على ماء يقال له «الرَّجيع»، فنفر لهم مائتان من بني لِحيان من هُذَيل، فاقتصُّوا آثارهم حتى لحقوا بهم، فلم يَرُعِ القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غَشُوهم ... وقاتل أصحاب رسول الله ﷺ قتال الأبطال، فاستشهد ثمانية منهم، وأسر اثنان، فأخذهما المشركون وباعوهما بمكة، ثم لم يلبث أهل مكة أن قتلوهما واحتفلوا بمصرعهما[1].



حزن المسلمون لمصرع شهدائهم في يوم الرجيع، وكان وقع المصيبة فيهم كبيراً؛ ولكنَّهم ما دَرُوا أنَّ الأيام كانت تخبىء لهم مصيبة أشد، ومحنة أقوى، فبعد أيام من إرساله عليه الصلاة والسلام أصحابه عيناً على قريش جاءه زعيم من بني عامر يقال له «أبو براء عامر بن مالك» ويلقب بـ «ملاعب الأسنّة» فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، واقترح هو على النبي أن يرسل طائفة من أصحابه ينشرون الدعوة في قبائل نجد.

كان هذا الزعيم يرى ببعيد نظره أن أمر الإسلام في إقبال، فقدم على النبي ﷺ يريد أن يكون له يدٌ عنده، فعرض عليه ما عرض، وحين أبدى النبي ﷺ تخوفه من أهل نجد قال له:

---

(١) راجع قصة يوم الرجيع واستشهاد هذين البطلين في الصفحة (٢٤٩) وما بعدها من الجزء الثالث من هذه السلسلة. تحت عنوان: «ما أحب أن تصيبه شوكة».

أنا لهم جار[١].

وخرج الدعاة من المدينة المنورة وكانوا سبعين من القرَّاء الفقهاء الأخيار، على رأسهم «المنذر بن عمرو»؛ حتى إذا وصلوا إلى «بئر معونة» بعثوا أحدهم وهو «حَرَام بن مِلْحان» بكتاب النبي ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلم ينظر هذا العدو الغادر في الكتاب، وأشار لأحد أتباعه فغدر بصاحب النبي، فما شعر إلا وطعنة نجلاء تخترق ظهره وتنفذ من صدره.

ثم مضى عامر في غدره فاستصرخ قومه على المسلمين فلم يستجيبوا وقالوا: لا نخفر جوار أبي براء[٢]، فاستصرخ هذا الغادر عليهم قبائل: رِعْل، وذَكْوان، وعُصيّة، فاستجابوا له، فهجم بهم على الدعاة الآخرين، وهُرِع هؤلاء إلى سلاحهم، لكن القوم أحاطوا بهم من كل جانب، وبقي أصحاب النبي ﷺ يقاتلون حتى صُرعوا جميعاً رضي الله عنهم.

ولم ينج من القتل سوى عمرو بن أمية الضَّمري ورجل من الأنصار؛ فقد كانا يرعيان إبل القوم، ولم يعلما بمصاب أصحابهما إلا حينما رأيا الطير تحوم حول العسكر، فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، وأقبل الأنصاري على المشركين فقاتلهم حتى صرع رضي الله عنه، وأُخذ عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مُضَر أطلقه عامر بن الطفيل، وجزَّ ناصيته[٣]، وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت على أمه.

عاد عمرو بن أمية بنبأ المصاب الأليم، وفي الطريق أوى إلى ظل فنزل فيه، ثم أوى إليه رجلان من بني عامر كان معهما من رسول الله ﷺ عَقْد وجوار لم يعلم به عمرو. فلما رأى أنهما من بني عامر أمهلهما حتى إذا ناما قام فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بعض ثأر المسلمين من قومهما الغادرين.

---

(١) أنا لهم جار: أمنعهم من أعدائهم وأُحافظ عليهم.
(٢) أي: لا ننقض عهده. ومن الجدير بالذكر أن هذا الغادر هو ابن أخي أبي براء.
(٣) الناصية: مقدم شعر الرأس. ومعنى جزَّ: قصّ.

ووصل عمرو المدينة، وروى للمسلمين خبر الفاجعة، فارتاعوا، وحزنوا كثيراً على إخوانهم، وكان أشدّهم حزناً رسول الله ﷺ، فنعاهم لإخوانهم وقال لهم:

«إن أصحابكم أُصيبوا، وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنَّا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنّا!!».

ثم لبث عليه السلام شهراً يقنت بالدعاء على قاتليهم.

ومع ما أصابه عليه الصلاة والسلام من الحزن على أصحابه، فإنه حينما أخبره عمرو بن أميّة بما صنعه مع العامرِيَّيْن ساءه ذلك الصنيع وقال له:

«لقد قتلتَ قتيلين، لأدِيَنَّهما»[1]!!.

٥

أُصيب المسلمون بنكبتين كبيرتين متواليتين، فقد أُصيبوا أولاً في يوم أُحُد واستشهد سبعون منهم، ثم أُصيبوا ثانياً وبعد أقل من أربعة أشهر في يومي الرجيع وبئر معونة، وصُرِع لهم غدراً ثمانون رجلاً من خِيارهم، فزلزلت مكانتهم، وقويت شوكة عدوهم، وفرح بذلك أعداؤهم وطمعوا بهم.

وكان اليهود أشدّ الأعداء فرحاً بما أصاب المسلمين، وظنوا أن هذا بداية النهاية، فازدادت مطامعهم بهم، ونشطوا في كيدهم، وتطلعوا إلى خطة تعصف بهم وتديل دولتهم.

أما حيـي بن أخطب ـ طاغوتهم وكبير مجرميهم ـ فقد قوي أمله من جديد في التخلص من النبي عليه الصلاة والسلام، وبات يفكر صباح مساء في خطة يتوصل بها إلى غايته، فقد كان يرى أن قتله عليه السلام هو أقرب طريق وأيسره للقضاء على الإسلام والمسلمين.

---

(١) لأدينهما: لأدفعن ديتهما.

وكثرت اجتماعات هذا الطاغية مع الملأ من قومه، وتداول معهم الرأي، واستمع إليهم، وأفاد مما عندهم، وقال لهم يوماً:

أما والله لأكيدنَّ محمداً مكيدة ما سمع الناس بمثلها، ولأفاجئنَّ يهود خاصة والعرب عامّة بمهلكه ، وليعلمنَّ الناس أيّ رجل حُيـيّ بن أخطب!!.

❁ ❁ ❁

تلقَّى عليه الصلاة والسلام مصيبته في إخوانه بالصبر الجميل والعزاء الحسن، ولم يشغله المصاب بهم عن أعداء الإسلام، فقد بات يتوقع منهم جرأة أشد على المسلمين وطمعاً أكبر، وكان أشدّ ما يحذره غدرُ يهود وخياناتهم، ودسائسهم ومؤامراتهم.

ورأى عليه الصلاة والسلام أن يمتحنهم ويستدرجهم ليبلو نواياهم، فعزم على أن يذهب إلى بني النضير في رهط من إخوانه ويستعين بهم في دفع ديّة العامريَّيْن اللَّذين قتلهما عمرو بن أميّة الضمري خطأ؛ لا سيما وأنّ بينهم وبين بني عامر حلفاً وموالاة.

وفي يوم سبتٍ من شهر ربيع الأول خرج عليه الصلاة والسلام من المدينة ومعه طائفة من أصحابه وهم: أبو بكر الصدِّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن معاذ، وأُسيد بن حضير، وسعد بن عبادة، فأدركوا الظهر في قُباء فصلَّوا هناك، ثم تابعوا مسيرهم حتى وصلوا ديار بني النضير.

وذَهل هؤلاء لمقدم النبي ﷺ عليهم في هذا الرهط من أصحابه.. كان الأمر مفاجأة ما توقعوها، فلقد طلبوا إليه من قبل أن يجيئهم في ثلاثة رهط فلم يفعل؛ ثم ها هو ذا يجيئهم في تسعة من خيرة أصحابه!!

وهُرع جدّيُّ بن أخطب إلى أخيه حُيـيّ وقال له:

قم أبا فنحاص، فها قد جاءك محمد في جماعة من أصحابه، ومكّنك من نفسه!!

ولم يصدِّق حُييّ الخبر وقال لأخيه:

أحقٌّ ما تقول؟!

فأجاب:

بلى وإلّه يهود، إنهم الآن يجلسون بجوار بيت عمرو بن جحّاش، وقد أرسلوا وراءك ووراء قومك يريدونكم.

ونهض حُييّ مسرعاً فوضع عليه حلّته، ثم قال لأخيه: اذهب وراء الملأ من قومك فادعهم لي قبل أن يأتوا محمداً وأصحابه، فمضى جدّي في وجهه على عَجَل، وما هي إلا ساعة حتى حضر إلى بيت حُييّ زعماء بني النضير، فقال لهم:

ما ترون في الأمر الذي جاء به محمد إلينا؟

فأجابوا: لا ندري!!

فقال لهم:

وأنا لا أدري، ولكن ـ والله ـ قد جاءتنا ساعة جَدٍّ[١] ما نحلم بها مدى العمر، فإياكم أن تضيع عليكم وتذهب منكم، ولكن هيا بنا الآن نسعى إلى محمد لنرى ماذا يريد!!.

***

أقبل زعماء يهود على رسول الله ﷺ يتقدمهم حُييّ بن أخطب، فرحبوا به، وأظهروا له السرور بمقدمه عليهم، ثم سألوه عن سبب مجيئه إليهم، فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أنه يريد أن يعينوه في ديّة العامريين من حلفائهم، وأنه قدم لهذا.

---

(١) الجدّ: الحظ.

وأجاب زعماء يهود:

نعم يا أبا القاسم، نُعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه.

قد آن لك ـ يا أبا القاسم ـ أن تزورنا وأن تأتينا.

اجلس تأكل الطعام، وترجع بحاجتك.

ونقوم نحن فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا به.

ترك الملأ من يهود رسول الله ﷺ وأصحابه وقد جلسوا على الأرض وأسندوا ظهورهم لجدار بيت من بيوتهم، وعادوا سريعاً إلى منزل حُييّ بن أخطب، وبادرهم هو قائلاً:

يا معشر يهود، هذه ساعة الدهر وفرصة العمر التي طالما انتظرناها؛ إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحال منفرداً ليس معه أحد من أصحابه إلا رهطٌ قليل!!

فقوموا فاطرحوا عليه صخرة فاقتلوه، ولا ترون بعده شراً أبداً.

وصاح الجميع:

نعم يا أبا فنحاص هي والله ساعة العمر، والرجل أقرب ما يكون الآن منّا، فهيّا فلنقتله ولنسترح منه.

وسأل واحد منهم:

وماذا نفعل بأصحابه؟

فأجاب حييّ:

نأخذهم أسارى إلى مكة، فنبيعهم من قريش.

ومرة ثانيةً اعترض سلاّم بن مِشْكَمْ على قومه قائلاً:

يا قوم، لا تفعلوا، فوالله ليخبَرنّ بما هممتم به، وإنه لنقضٌ للعهد الّذي بيننا وبينه!!

فصاح به الجميع:

اسكت يا سلاّم، ودعنا من العهود والعقود، فوالله لئن لم نفعل هذا الأمر لنأسفنَّ عليه أبد الدهر!!

وتكلم الرجل ثانيةً فقال:

يا قوم، أطيعوني هذه المرة وخالفوني الدهر!!

والله لئن فعلتم ليخبَرَنَّ بأنّا قد غدرنا به، وإنَّ هذا نقض للعهد الَّذي بيننا وبينه!!

وصاح الملأ من يهود بصاحبهم ثانيةً قائلين:

دعنا يا سلاّم من نصائحك، إنك رجل قد غلب عليك جبنُك، تريدنا أن نذلَّ لمحمد وأصحابه أبد الدهر!!

وسكت الرجل على مضـض بعد أن عجز عن منع قومه من المضي في غدرهم.

وقال حُيـيّ لمن حوله:

مَنْ رجل يقوم فيلقي على محمد صخرة؟

فانتدب عمرو بن جحَّاش وقال:

أنا لذلك.

فأجابوه:

أنت ـ والله ـ لذلك، وإنه الآن يجلس بجانب جدارك، فقم وأرِحنا منه!!.

❁ ❁ ❁

أقرّ الملأ من يهود رأي زعيمهم حُيـيّ بن أخطب في قتل النبي ﷺ، ثم جلسوا يحكمون الخطة ويرسمون خطوات المؤامرة.

وأمر حُيـيّ نفراً منهم أن يسعَوا إلى رسول الله وأصحابه فيتناوبوا

الجلوس معهم، ويُشعِروهم أنَّ قومهم يهيئون لهم المال ويعدّون الطعام.

ثم أمر ثلاثة من الشبان أن يقوموا مع عمرو بن جحاش، فيعالجوا معه رفع صخرة عظيمة إلى سطح بيته، ثم يتولى هو طرحها على النبي ﷺ.

شُغل اليهود بمؤامرتهم وفرحوا بها، وجعل الملأ منهم يترددون على بيت حُيـيّ فيطلعونه على ما يجري من الأمور، ويسألونه رأيه.

وفرح هذا المجرم الخبيث بصنيعه فرحاً كبيراً، إلا أن فرحه كان يخالطه شيءٌ من الحذر والخوف، فضربات قلبه تتصاعد، واضطرابه يزداد، وهو ينتظر بقلق الساعة الحاسمة التي يخبر فيها بمصرع النبي عليه السلام.

❁ ❁ ❁

مضى اليهود في غيِّهم سادرين، وأقبل الشبان على الصخرة يحملونها إلى بيت عمرو بن جحّاش، وظن القوم أنهم سيصلون إلى أملهم العزيز بعد وقت قصير، وأنهم سيفعلون أمراً يحمدهم عليه العرب وسائر يهود.

كانت السماء تضحك لسفاهة هؤلاء وغرورهم، وتعجبُ من بلاهتهم وتعاستهم، وكان رجلان من يهود عندهما شيءٌ من البصيرة يجلسان في تلك الساعة الرهيبة يتناجيان. وقال سلام بن مشكم لصاحبه كنانة بن صوريا:

أترى أنَّ قومنا سيوقعون بمحمد الساعة؟

وأجابه كنانة:

لا وربّ موسى وهارون، إنّ الرجل ممنوع محفوظ، لقد عجز أهل مكة عن قتله بعدما حسبوا أنهم وصلوا إليه، فقد خرج من بين ظهرانيهم وهم يحيطون بداره ونثر على رؤوسهم التراب وهم لا يشعرون، ولقد لحقه قومه وبأيديهم السيوف إلى الغار الذي اختبأ فيه، فأعمى الله أبصارهم عنه ورجعوا خائبين بعد أن وقفوا فوق رأسه، ولقد اقترب منه سراقة بن مالك يريد قتله حتى صار منه قاب قوسين أو أدنى، فساخت قوائم فرسه في

الأرض، ومنعه الله منه، فأنّى لنا أن نخلص نحن إليه!!.

***

عالج عمرو بن جحّاش وأصحابه الصخرة الغليظة، واستطاعوا أن يرفعوها إلى سطح البيت الذي يجلس النبي ﷺ بجانبه، واقتربوا بها إلى حافة السطح، وانتظر المجرم الإشارة من يهود ليقوم بجريمته... بيّدَ أنهم فوجئوا جميعاً بنهوض النبي ﷺ سريعاً في اللحظات الحاسمة، واتجاهه إلى مكان بعيد وكأنه يريد قضاء حاجته!!

لم يشعر أحدٌ بما جرى في تلك اللحظات الرهيبة، ولم يرَ أحد جبريل عليه السلام وهو يهبط على رسول الله ويقول له:

إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك!!

ثم يطلب منه أن يغادر المكان فوراً.

ومضى رسول الله ﷺ في مسيره حتى لم تعد الأبصار تراه، ثم تابع المسير حتى وصل إلى قباء، ثم توجه منها إلى المدينة فدخلها.

***

شعر الصحابة أن النبي قد تأخر عنهم طويلاً، فأخذوا يتطلعون هنا وهناك، وأخذوا يتساءلون عن شأنه وعمّا جرى له، وأخيراً أيقنوا أنه لن يعود إليهم، وأنه ما تركهم إلا لأمر جرى!!

وتململ اليهود، وشعروا بحراجة موقفهم، وأُشير للمجرم الَّذي يعلو السطح أن لا يفعل شيئاً، ثم سعى ساعٍ إلى حُيـيّ بن أخطب ليخبره بما جرى.

وارتاع كبير المجرمين من هذا النبأ، وقال للرجل الَّذي أخبره:

ويحكم، كيف مضى من بين أظهركم وأنتم لا تشعرون؟!

فأجابه:

والله لم يشعر بنهوضه وذهابه أحدٌ حتى أصحابه.

وقال حُيـيّ:
وما فعل عَمْروٌ بالصخرة؟

فأجاب:
ما إن اقترب بها إلى حافة السطح يريد أن يطرحها عليه حتى نهض قائماً!!

وذعر حُيـيّ وجعل يقول لمن حوله:
أترونه يعود، أم أنه أحسَّ بمكيدتنا؟!

وأجابه مَنْ حوله:
والله لا ندري!!

وفي تلك الأثناء قدم يهودي من المدينة، فرأى قومه مجتمعين فسألهم عن ذلك فأخبروه، فقال لهم:
ويحكم، والله لقد تركت محمداً وهو يدخل يثرب.

وسُقط في أيدي يهود[1]. وجعل حُيـيّ يضرب كفّاً على كف، ويتحسر على ما فاته من قتل النبي ﷺ.

وهنا وقف كنانة بن صوريا وقال لهم:
هل تدرون لِـمَ قام محمد؟

فقالوا:
والله لا ندري، ولا تدري أنت!!

فقال كنانة:
والله لقد أُخبِر بما هممتم به من الغدر، فلا تخدعوا أنفسكم!!
ووالله إنه لرسول الله، فآمنوا به واقبلوا منه.

---

(١) سقط في أيديهم: ندموا.

بَيْدَ أنهم جميعاً صاحوا في وجهه وأسكتوه وسفَّهوه.

وتركهم كنانة ثم مضى وهو يقول:
ويحكم، أما آن لكم بعد أن ترشدوا وترعووا عن غيّكم!!.

❁ ❁ ❁

أسرع حُيـيّ بن أخطب بعد ذلك النبأ المؤلف الَّذي بلغه إلى أصحاب رسول الله ﷺ، حتى إذا وصل إليهم جعل يبدي أسفه الشديد لذهابه عليه السلام قبل أن يرجع بحاجته وقال لهم:
لقد عجَّل أبو القاسم!!
كنّا نريد أن نقرّيه[1] ونقضي حاجته!!

ولم يردّ أصحاب النبي ﷺ على حُيـيّ شيئاً بل انصرفوا عنه وتركوه وجماعته والحسرة تأكل قلوبهم، وأقبلوا إلى المدينة المنورة حتى إذا وصلوا أسرعوا إلى النبي يريدون أن يعلموا خبر ما جرى، فلما رأوه قالوا:
يا رسول الله، قمت من بيننا ولم نشعر!!

فقال لهم:
«همَّت يهود بالغدر، فأخبرني الله بذلك فقمت».

ثم أخبرهم صلوات الله عليه بخبر المؤامرة كما حكاها له جبريل، فعجبوا من خيانة هؤلاء الأعداء، وحمدوا الله على سلامة النبي ﷺ.

❁ ❁ ❁

رأى عليه الصلاة والسلام أن الفرصة قد حانت لتأديب هؤلاء الغادرين، ومجازاتهم على ما همُّوا به من الخيانة، فأرسل إليهم محمد بن مسلمة بالكتاب التالي:

اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها؛ وقد هممتم بما هممتم به من

---

(١) القِرى: ما يقدم للضيف.

الغدر.

وقد أجلتكم عشراً، فمن رُؤي بعد ذلك ضُربت عنقه.

وسُقط في أيدي يهود، وعلموا أنَّ مكيدتهم قد انكشفت، وأنهم قد افتضحوا أمام المسلمين، فلم يجرؤوا على تكذيب هذا الأمر، ولم يجدوا جواباً يردّون به سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة:

يا محمد، ما كنّا نرى أن يأتي بهذا الخبر رجل مثلك.

فأجابهم:

لقد تغيرت القلوب!!

ثم قالوا له:

أخبر صاحبك أننا سنتحمل ونرحل في الأجل الّذي حدّده.

* * *

أخذ اليهود يتجهزون للخروج، فأحضروا إبلاً لهم كانت في أماكن بعيدة، واكتروا من قبيلة أشجع إبلاً أخرى؛ بَيْدَ أن رئيس المنافقين في المدينة ـ وقد أحزنه خروجهم ـ أرسل إليهم يطلب منهم أن لا يخرجوا ويَعدُهم ويمنّيهم، فطمع حُيـيّ بن أخطب بذلك، وأرسل أخاه جدّي إلى النبي يقول له:

إنّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك.

وحين وصل الخبر للنبي صاح بأعلى صوته:

«الله أكبر، حاربت يهود!!».

وكبّر المسلمون لتكبيره، وباتوا ينتظرون مضي الأيام العشرة.

* * *

مضت أيام الإنذار الموجّه ليهود ولمّا يخرج هؤلاء! فقد أطمعهم وعد المنافقين لهم، وأصدر النبي عليه الصلاة والسلام أمره إلى أصحابه

بمحاصرتهم، فذهبوا إليهم وحصروهم، فالتجأ هؤلاء إلى حصونهم يمتنعون بها، ويأملون أن يأتيهم العون من المنافقين ومن يهود قريظة.

لكن الأيام مضت، والحصار قد اشتد، والرعب قد غزا القلوب، ولم يرَ اليهود من أحدٍ عوناً.

وأخيراً نزلوا على حكم رسول الله صاغرين، وكان الحكم يقضي أن يخرجوا ولهم دماؤهم وما حملت الإبل إلا السلاح.

وحمل اليهود ما استطاعوا حمله وأقبلوا على بيوتهم يُخْرِبونها بأيديهم، حتى لا ينتفع بها المسلمون، ثم انطلقوا على ستمائة بعير، وغادروا المدينة مطرودين مخذولين، جزاء فسادهم وخيانتهم.

وفرح الصحابة بما أوقع الله في عدوهم، وحمدوا الله على نجاة نبيّهم من غدر يهود، وسجل القرآن الكريم قصتهم مع رسول الله وعصمة الله له منهم في سورة من سور القرآن، ليتلوها المسلمون إلى قيام الساعة، وليعلموا فضل الله على نبيّهم وعليهم، وليعرفوا أيّ عدوٍّ هم اليهود!!

وتلا المسلمون ولا يزالون يتلون قوله تعالى في سورة المائدة:
﴿يا أيُّها الذين آمنوا، اذكروا نعمة الله عليكم إذْ هَمَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم، واتقوا الله، وعلى الله فَلْيتوكل المؤمنون﴾.



المـراجـع:

ـ صحيح البخاري، (باب قتل كعب بن الأشرف).
ـ سُنن أبي داود، (بابٌ في خبر بني النضير).
ـ سيرة ابن هشام، ١/٥١٨ و ٢/ ١٩٠.
ـ تفسير الطبري، (تفسير الآية: ١١ من سورة المائدة).
ـ سيرة زيني دحلان، ١/ ٢٦٠.
ـ حياة الصحابة، ١/٥٧٩.



الشّاة المسمُومَة

١

طال انتظار يهود بني النضير لبعثة خاتم الأنبياء، ذلك النبي الَّذي وصفته كتبهم بأحلى وصف؛ حتى باتوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ومضت عليهم وعلى إخوانهم بني قريظة وبني قينقاع قرون وهم يقطنون يثرب في انتظار هذا النبي؛ بعدما هاجروا إليها من بلاد فلسطين بعد أن طردهم الرومان منها بُعيد المسيح بقليل.

بيْد أنهم وبعد بَعْثة هذا النبي وهجرته إلى يثرب كانوا أول كافر به، ونصبوا له العداء الشديد، وانتهى بهم الأمر إلى أن حاولوا اغتياله بإلقاء صخرة عليه وهو في ديارهم، لكن الله عصمه منهم، وردّ كيدهم في نحرهم، ومكَّن لنبيّه منهم، فأصدر أمره بطردهم من يثرب بعد أن عاشوا فيها دهراً طويلاً.

وخرج يهود بني النضير من ديارهم مَغيظين مُحنقين، ورأوا أن يُظهِروا التجلُّد لِحرِّ هذه المصيبة، فحملوا نساءهم وأولادهم وأمتعتهم على ستمائة بعير، وجعلوا يمرون قطاراً في إثر قطار، وظهر النساء في الهوادج وعليهن الحرير والديباج وقُطُف الخزّ الخضر والحمر وحُليُّ الذهب، ثم شقّوا سوق المدينة المنورة ومرّوا وهم يضربون بالدفوف ويزمرون بالمزامير!!

ومشى في مؤخرة الركب الملأ من يهود وهم يلبسون أثمن الحلل وأبهاها ويَعْلون الإبل التي أخذت زينتها.. كان يتوسطهم حُيـيّ بن أخطب

وعن يمينه أبو رافع سلام بن أبي الحُقَيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق في ملأ من يهود، وعن يساره جُديّ بن أخطب أخوه وكردم بن قيس في ملأ آخر، وكان يمشي وراءه سلاّم بن مِشْكَم وإلى جانبه أبو ياسر بن أخطب في رجال آخرين.

وساق حييّ بين يديه جملاً يحمل ثروة طائلة من الحليّ، فيها: أسورة الذهب، ودَمَالج الذهب، وخَلاخيل الذهب، وأَقْرِطة من ذهب، ونَظْمٌ من جَوْهر وزُمُرُّذ، وخواتم ذهب، وفتخ بجزع ظفار مُجزّع بالذهب[1]، وكانت لا تتزوج امرأة ذات جاه في الحجاز إلا استأجرت بعض هذا الحليّ!!

وساق أبو رافع سلاّم بن أبي الحُقَيق بين يديه جلد ثور مملوءاً ذهباً وفضة، وجعل كلما مرّ بجماعة من المسلمين، يضرب عليه بكفه ويقول:

هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنّا تركنا نخلاً ففي خيبر النخل!!.

***

كان صوت ضرب الدفوف يعلو على كل صوت، فقد اجتهد شباب يهود في إيقاع الضربات القويات المنتظمات التي تستجلب الأسماع، وعلا صوت المزامير أيضاً حتى كاد ينسي هذا الركب التعيس مصيبته، بيد أنه كان هناك رجلان يسيران وكأنهما لا يسمعان شيئاً من هذه الموسيقى الصاخبة لكثرة ما غشيهما من الغيظ... أجل لم يشغل حييّ بن أخطب وأبا رافع الّذي يسير إلى جنبه شَيءٌ من هذه الأنغام، وجعل الرجلان يقتربان من بعضهما ويتناجيان ما بين فترة وأخرى، حتى إذا غادر الركب المدينة، التفت حُييّ فنظر إليها نظرة أسىً عميق، ثم التفت إلى صاحبه وقال له:

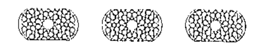
---

(١) الفتخ: جمع فتخة، وهي حلقة تلبس في الإصبع كالخاتم. وظفار: مدينة باليمن قريبة من صنعاء. والجزع: خرز يماني كريم فيه بياض وسواد مقطع.

والله يا أبا رافع لا أزال عدواً لمحمد ما بقيت، ولسوف أكيده بقريش وقبائل العرب حتى أستأصله وأصحابه من يثرب، ونعود إليها أعزَّة كراماً.

ورد عليه أبو رافع:

افعل ما حلا لك يا أبا فنحاص، ولسوف تجدني نصيراً لك في كل أمر ومُعيناً لك في كل شأن، ولقد علمتَ أني تاجر أهل الحجاز، وأكثر أهل هذه البلاد غنىً، فخذ من مالي ما شئت، وأنفقه على حرب محمد ودينه.



كان سلاّم بن مِشْكم يمشي خلف حُيـيّ بن أخطب مطرقاً رأسه إلى الأرض يكاد لا يرسل نظره إلى شيء حوله.. كان حزيناً، واجماً، مَغيظاً، قد عقدت المصيبة لسانه عن الكلام حتى لم يعد يقدر على الكلمة الواحدة ينطق بها.

والتفت إليه أبو ياسر بن أخطب الذي كان يسير إلى جنبه وقال له:

لا بأس عليك أبا عمرو، فما حلَّ بنا اليوم هو نفس ما حلّ بأسلافنا منذ الزمان الأول، فليكن لنا فيهم عزاء.

وحرّكت كلمة ابن أخطب سلاّماً، وأهاجت فيه الرغبة في الكلام، فالتفت إلى صاحبه وقال له:

والله يا أبا ياسر ما حلّت بنا هذه المصيبة إلا بسبب أخيك حُيـيّ، فقد بادَى هذا الرجل بالعداء حتى همَّ بقتله فأطلعه الله على ذلك، ولقد بذلتُ له ولقومي النصيحة وقلت له: إن هذا العمل نقض للعهد الّذي بيننا وبينه، وكنت على يقين بأنه سيُخبر بمكيدتنا، لكن أخاك سفَّه رأيـي ونسبني إلى الجبن، وجرَّ على قومه هذه الفاجعة العظيمة!!

وهنا تنهَّد أبو ياسر تنهُّدَة عميقة، وارتسم على وجهه أسىً بليغ، وقال لسلاّم:

نعم يا أبا عمرو؛ إنَّ كل ما أصابنا كان بسبب أخي، ولقد نصحتهُ أنا قبل غيري فما سمع لنصيحتي؛ ولا زلت أذكر يا أبا عمرو غداة سَعينا إلى محمد أنا وحُييّ حينما قدم قباء قبل غيرنا من يهود، وجلسنا إليه طيلة يومنا وسمعنا منه، حتى إذا رجعنا إلى منازلنا عشية ذلك اليوم قلت له:

أهو هو؟ فأجاب: نعم!!

ثم قلت: أتعرفه وتثبته؟ فأجاب: نعم!!

ثم سألته أخيراً: فما في نفسك منه؟ فأجاب: عداوته والله ما بقيت!!

وتعجبت يومها من جوابه وقلت له:

أي أخي، أطعني وتعالَ نتبع هذا الرجل ولا نخالفه، فإنه جاءنا بالَّذي كنَّا ننتظره، فأجاب:

لا والله لا أتبعه أبداً، ولا أطيعك فيه!!

وقلت له:

يا ابن أمي، أطعني في هذا الأمر، واعصني فيما شئت ولا تهلك نفسك وقومك، فأجاب:

ولا والله لا أطيعك أبداً!!

وبادَى محمداً بعداوته واتبعه قومنا على ذلك، وحصل لنا بسببه هذه المصيبة.

صدقت يا أبا عمرو فوالله إنَّ ما أصابنا كان بسببه، ولكن قل لي: هل نستطيع أنا وأنت أن نغلب نفوسنا، ونقهر حسدنا، ونتبع هذا الرجل؟

وأجاب سلّام:

والله ليس إلى هذا من سبيل!!

فإنّ حسدنا لهذا الرجل ولقومه قد غلبنا على اتباعه، بيْد أني كنت أريد أن نوادعه، فنأمن على أنفسنا وأموالنا!!

وأراد سلاّم متابعة حديثه، لكن أبا ياسر قطع عليه حديثه وقال:

وحتى هذا والله لسنا بقادرين عليه، فإن الفساد قد غلب علينا، وإن نقمة الله تلاحقنا، وما ندري ـ والله ـ ماذا سيحلّ بنا!!.

٢

أوى عدد كبير من يهود بني النضير إلى إخوانهم في خيبر فنزلوها، وكان أبرز من نزلها سادة بني النضير وعلى رأسهم حُيـيّ بن أخطب وآل أبي الحُقَيق، وقد نزل هؤلاء في حصن القموص، ولم يلبث هذا الحصن أن أصبح بعد قليل قطب الرحىٰ في هذه المدينة الحصينة، ولم يلبث سادة بني النضير أن أصبحوا سادة لخيبر أيضاً، فعلَت كلمتهم، وعظم شأنهم، وغدوا في رأس من يوجه شؤون هذا البلد، وانصرف معظم يهود بني النضير إلى أعمالهم، فاشترى بعضهم النخل، وعمل بعضهم في التجارة، وقامت قائمة تجارة أبي رافع من جديد، فمشت إبله الموقرة بالبضائع تجوب الأماكن ما بين الحجاز والشام، وسال المال بين يديه، ولَهَا بعض الشيء عن مصيبته.

أما حُيـيّ بن أخطب فلم يهنأ له عيش في خيبر، ولم تسكن ثورة نفسه ولا قلقها. شيء واحد كان يشغل باله، ويفكر فيه ليل نهار، وهو: كيف يكيد لمحمد رسول الله مكيدة يستأصله بها من يثرب؟

كان هذا هو همّه ودأبه منذ أن غادر يثرب وحلَّ في خيبر، وهو رأيه الّذي كان قاله لأبي رافع ساعة خروجهما من يثرب، وهو أنه لا بدّ من تحزيب الأحزاب على رسول الله، وأنه لا سبيل إلى الظهور عليه إلا عن هذا الطريق.

* * *

كان الحارث بن عوف المرِّي أحد فرسان الجاهلية وساداتها، وقد

شكر له العرب جميعاً صنيعه الجميل هو وخارجة بن سنان حين حملا دماء القوم[١] الَّذين قُتلوا في الحرب الطويلة التي سالت فيها الدماء أنهاراً: حرب داحس والغبراء التي كانت بين بني عبس وذبيان.

وكان الحارث هذا صديقاً لأبي رافع سلاّم بن أبي الحقيق، فلما علم بخروجه من يثرب حزن لذلك، ثم سعى إليه في خيبر ليواسيه عمّا حلّ به، وليعرض عليه عونه على حرب محمد رسول الله ﷺ.

وفي خيبر جلس الحارث إلى جنب صديقه أبي رافع في عِلِّيَّة له على فراش وثير، وجلس معهما نفرٌ من اليهود فسَمَروا إلى ساعة متأخرة من الليل، وواسَى الحارث صديقه وأعرب له عن حزنه لما حلَّ به وبقومه، وشكره أبو رافع على ذلك وقال له:

وصَلَتْك رَحِم يا أبا عوف، ولا زلت أهلاً لكل مكرمة.

وانفضّ الناس من بيت أبي رافع، ورجعوا إلى بيوتهم، ولم يبقَ سوى الرجلين، فأخذا يتناجيان في هدأة الليل، وحَلا لهما الحديث.

وقال الحارث لسلاّم:

أخبرني يا أبا رافع، كيف خرجتم من دياركم وكنتم في مَنَعة وقوة؟.

وأجابه صاحبه:

أردنا أن نغدر بالرجل فسلّطه الله علينا، ومَنْ له طاقة بحرب الله ورُسُله؟

ووجم الحارث للَّذي سمع فقال:

ماذا تقول يا أبا رافع؟

وأجاب سلاّم:

أقول: إنّا معشرَ يهود حسدنا محمداً على النبوّة حيث خرجت من بني إسرائيل!!

---

(١) حملا دماء القوم: دفعا ديّات القتلى.

وإنه لمرسل، ويهود لا تطاوعني على هذا!!
ولنا منه ذبحان: واحد بيثرب، وآخر بخيبر!!

وسأل الحارث صاحبه:
يملك الأرض؟

فأجاب:
نعم والتوراة التي أنزلت على موسى، وما أحبّ أن تعلم يهود بقولي فيه!!

وقال الحارث:
وما قول صاحبك حُيـيّ بن أخطب فيه؟

فأجاب:
كما أقول أنا، يشهد له بالنبوّة، لكنه رصد له العداء ما بقي حيّاً!!

وقال الحارث:
ولماذا إذاً تُوافق قومك في عداوته، وتكيد له؟

فأجاب:
أنا واحد من قومي، أخشى فراقهم، ولا يسعني إلا أن أبذل ما لي نصرةً لهم.

وقال الحارث:
ولماذا لا تؤثر الحقَّ وتتبع محمداً يا أبا رافع؟

فأجاب:
إن نفسي لا تطاوعني أن أتبع نبياً من غير قومنا!!

وتعجب الحارث مما سمع في ليلته من صديقه وقال له:
إن أمركم عجيب والله يا معشر يهود، كيف تكذبون محمداً وتُعادونه وأنتم تعلمون صدقه، والله لو كنّا نحن العرب نعلم نبوّته لما كذّبناه!!

وأجاب أبو رافع:

لا تعجب يا أبا عوف، فهذا خلقنا معشر يهود، ورثناه عن سلفنا!!

وصمت الرجلان برهة قصيرة، ثم قطع أبو رافع الصمت وقال لضيفه:

دعنا الآن من حديث محمد يا أبا عوف، وهيّا قم إلى فراشك فقد طال الليلةَ سهرُنا!!

وقال صاحبه:

صدقت لقد أطلنا السهر الليلة؛ وها هو ذا الليل قد أرخى سدوله، والنجوم قد غارت في كبد السماء.

ثم قام كل واحد إلى فراشه فاندسَّ فيه، وأويا إلى نوم عميق.

كان كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق من أعزّ فتيان بني النضير وأعلاهم شأناً، وقد فاق سائر أقرانه في جملة أمور: فهو فتى طُوَال جميل أرْوَع، قد فتن النساءَ حسنهُ وجماله، وزانه عقل راجح وقوة وفروسية، ثم هو أحد أثرياء قومه، واحد من تلك الأسرة الكريمة: أسرة آل أبي الحقيق.

ولقد تمنّت كل فتاة في خيبر أن يكون حظَّها من الرجال، وأن تكون له زوجة، أما هو فلم يكن يفكر إلا في فتاة واحدة تكون قرينة عمره، ولم يشغل فكره بغيرها، وكانت تِلْكم الفتاة هي صفية بنت حُيـيّ بن أخطب التي لم يكن يرى أن فتاة تفوقها في جمالها وشرفها وعلوّ شأنها.

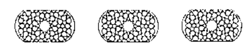
وتقدم كنانة إلى أبيها حُيـيّ فخطبها منه، فردّ عليه حُيـيّ:

والله ما مثلك يردّ يا كنانة، وليس لها أهلٌ غيرك، وهي لك، ولكني قد آليت[1] ألّا أفرح بأمر حتى أنتقم من محمد. فهيّا كن معي حرباً عليه

(١) آليت: حلفت.

حتى نستأصله من يثرب، ويومها سأزفّك على صفية، وسيكون لك ولها يوم مشهود ما سمع به ولا رأى مثله عرب ولا يهود!!

وفرح كنانة باستجابة حييّ له، ووعده بأن يكون نصير صدق له في حربه لمحمد رسول الله، وعاد إلى بيته وهو يمنّي نفسه الأماني بهذا اليوم المشهود الَّذي سيكون له ولابنة حُييّ.



أصبحت خيبر بعد هجرة يهود بني النضير إليها وكراً مخيفاً من أوكار التآمر على الإسلام والمسلمين، ولم يمضِ سوى أربعة أشهر على هجرة هؤلاء الشياطين إليها حتى أتمّ كبير مجرميهم مخطط التآمر الرهيب الَّذي أوحى به إليه خبثه ومكره وعداوته.

وكان هذا المخطط يقضي بأن يتم تجميع أشد أعداء الإسلام في جيش واحد وتحت قيادة واحدة وفي عدد وافر، ثم اقتحام يثرب بهذا الجيش اللجب في وقت محدّد وإبادة خضراء المسلمين بها.

وكان هذا المخطط الخبيث المحكم كافياً لأن يسارع كل أعداء الإسلام للمشاركة فيه؛ رجاء أن يصلوا إلى أعزّ أمانيهم في القضاء على الإسلام والمسلمين، لكن اليهود ـ زيادة في المكر ـ قرروا أن يمنحوا لِمن يدخل معهم في هذا الحلف الشيطاني كل ما تنتجه واحة خيبر من الحبوب والثمار لمدة سنة واحدة بعد نجاحهم في استئصال المسلمين، هذا إلى جانب ما سيدفعه اليهود من نفقات باهظة في سبيل إنجاح مهمة غزو المدينة.

وبعد أن تمّت موافقة جميع يهود بني النضير وخيبر على مخطط حُييّ، وبعد أن وعد آل أبي الحقيق حيياً أن يبذلوا حرّ مالهم لإنجاح هذا المخطط؛ انطلق هذا العدو الألدّ على رأس وفد كان من رجاله: أبو رافع سلاّم بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وهَوْذة بن قيس

الوائلي، حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وقالوا:

إنّا سنكون معكم عليه حتى نستأصله.

وهنا سأل مشركوا مكة وفد يهود فقالوا:

يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

ولم يتورع اليهود عن الإدلاء بأفجر شهادة سجلها التاريخ فقالوا:

بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحق منه!!

وسُرّ القرشيون بما سمعوا، وعقدوا حلفاً مع اليهود على أن يخرجوا بجيشهم ويكونوا في مشارف يثرب في وقت محدد لا يتأخرون عنه.

ثم خرج هذا الوفد الخبيث من مكة فقدم على غطفان، وعقدوا معهم حلفاً كالَّذي عقدوه مع قريش، وطلبوا منهم أن يكونوا في يثرب في الوقت الذي حددوه معها.

***

نحن الآن في شهر شوّال من السنة الخامسة للهجرة. المدينة المنورة يحيط بها سيل كبير من الأعداء تجاوز عدده العشرة آلاف رجل، قد تحزبوا أحزاباً وجاؤوها ليستأصلوا أهلها وليقضوا على هذا الَّذي الذي أصبح لها بمثابة الروح من الجسد.

كان على رأس هذه الأحزاب قائد قريش أبو سفيان بن حرب وإلى جانبه قادة قبائل غطفان، وكان هناك قائد أخطر شأناً من هؤلاء جميعاً، يعمل في الظلام ويدير الأمور في الخفاء؛ ذلكم هو حُييّ بن أخطب في جماعة من أعوانه اليهود.

وكان أمل حُييّ من قادة هذه الأحزاب كبيراً في تحقيق هدفهم في

أسرع وقت، فما هو إلا أن يحيطوا بالمدينة من كل جانب، ثم يقتحموها ويعملوا السيوف في أهلها، وينتهوا من أمرهم في يوم أو بعض يوم.

وفوجىء المشركون بما لم يخطر لهم على بال؛ فوجئوا بالخندق الَّذي حفره المسلمون ليحولوا دون اقتحام الأحزاب مدينتهم.. وشلّ الخندقُ حركتهم، فمضت عليهم أيام وهم لا يقدرون على شيء إلا ما كان من مناوشتهم للمسلمين بالنبال؛ وإن كان قد اشتد في بعض الأيام حتى شُغل المسلمون عن صلاتهم طيلة ذلك اليوم.

واتجهت أنظار القادة إلى حُيـيّ لينقذ الموقف، وطمأن هذا الطاغية الكفور أصحابه إلى أنَّ زمام الأمور لا يزال بأيديهم، وإلى أنه سيؤلّب يهود بني قريظة على المسلمين، وسيحملهم على نقض عهدهم معهم والانضمام إلى الأحزاب.

وسعى هذا الطاغية في جنح الليل إلى صاحبه كعب بن أسد زعيم بني قريظة فما زال به حتى حمله على نقض عهده مع المسلمين، ثم طلب منه أن يعدّ قومه لخوض معركة فاصلة مع المسلمين إلى جانب قريش وغطفان.

وبلغ المسلمين خبر نقض يهود قريظة العهد فاشتد عليهم الأمر، وزلزلوا زلزالاً شديداً، وقوي أمل المشركين في اقتحام المدينة واستباحة بيضتها[١].

لكن الله ـ سبحانه ـ كان لأعداء المسلمين بالمرصاد، فأبطل مكرهم، وحلّ عقدهم، وفرّق كلمتهم، واستطاع نُعَيم بن مسعود الأشجعي ـ وكان قد أسلم في ذلك الوقت ووضع مع رسول الله مخططاً لإفساد ما بين الأحزاب ـ استطاع أن يفسد ما بين يهود قريظة من جهة، وبين قريش وغطفان من جهة أخرى، حتى باتوا على أسوأ ما يكون من سوء الظن واتهام بعضهم بعضاً.

---

(١) بيضتها: حوزتها وقوتها.

ومضى قريب من الشهر على محاصرة الأحزاب للمسلمين بدون جدوى، وأيقنت هذه الأحزاب أخيراً أنها غير مستطيعة اقتحام المدينة، فلم يكن منها إلا أن ارتدّت إلى بلادها خائبة حزينة لم تنل خيراً، وسلَّم الله عباده المؤمنين، وخرجوا من هذه المحنة القاسية منتصرين ظافرين.

كان غدر بني قريظة أشد ما لقيه المسلمون من محنة في أيام الأحزاب، فقد كانت خيانة هؤلاء للمسلمين هي الأمل الوحيد للأحزاب حتى لا تفشل وترجع بخفَّيْ حنين، وكان هؤلاء اليهود يشكلون خطراً على نساء المسلمين وذراريهم الـذين جمعوهم في بعض الحصون مما يليهم... لذا كان لا بدّ من تأديب هؤلاء الغادرين الَّذين تجاوز غدرهم كل ما صنعه يهود من قبل!!

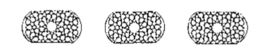
وجاء الأمر السماوي إلى النبي يحمله جبريل عليه السلام بألاّ يضع المسلمون السلاح حتى يُصَفُّوا الحساب مع بني قريظة، ومشى إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه وأحاط بهم إحاطة السِّوار بالمِعصم، ومضت أيام على حصارهم، فاشتد عليهم الضيق، ودبّ الله الرعب في قلوبهم، فما كان منهم أخيراً إلا أن ارتضوا أن يَحْكُم فيهم سعد بن معاذ سيد الأوس من الأنصار وحليفهم في الجاهلية.

وجيء بسعد الجريح إلى ساحة القضاء، ووقف بين المسلمين وبين اليهود، وظن بعض الناس أن سعداً ستأخذه الرأفة في أعداء الله الَّذين بيّتوا بالأمس الموت الزؤام للمسلمين، وظن اليهود أن حليفهم في الجاهلية سيرأف بهم؛ لكن سعداً خيب ظن هؤلاء وهؤلاء.. وأصدر الرجل المؤمن حكمه العادل المنصف، ونادى بأعلى صوته:

إني أحكم أن تُقتل المقاتلة، وتُسبى النساء والذرية، وتقسم الأموال.

وأيّد عليه الصلاة والسلام حكم سعد وقال له:

«لقد حكمتَ فيهم بحكم الله»!!.



استُنْزِل اليهود من حصونهم، وسيقوا منها وقد جمعت أيديهم إلى أعناقهم، ثم حُبسوا في بعض دور المدينة، ثم جيء بهم أرسالاً إلى خنادق حفرها المسلمون، وأقبل عليهم المسلمون يضربون أعناقهم فوجاً بعد فوج، ويوردونهم إلى أمهم الهاوية(١)، جزاء غدرهم، وعاقبة خيانتهم.

وجيء بكبير المجرمين وبرأس الأعداء حُيـيّ بن أخطب(٢)، وعليه حلّته الفقّاحية الشهيرة التي كان يبرز فيها للناس، وقد شقّها عليه من كل ناحية قدرَ أنملة لئلا يُسلبها، جيء به مجموعةً يداه إلى عنقه بحبل، فلما رآه النبي ﷺ قال له:

«ألم يمكّن الله منك؟».

وتحركت بغضاء الرجل، وثار حقده الكمين، وقال للنبي ﷺ:

أما ـ والله ـ ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل الله يُخذل.

ثم صاح فيمن وراءه من الأفواج اليهودية:

أيّها الناس، إنه لا بأس بأمر الله، كتابٌ وقَدَر ومَلْحَمةٌ كتبها الله على بني إسرائيل.

ثم قُدِّم فضربت عنقه، وتخلص المسلمون من شروره.



انفضّت الأحزاب عن مدينة رسول الله ﷺ خائبة حزينة، وعزّ أمر

(١) الهاوية: النار.

(٢) كان حُييّ قد وعد بني قريظة أن يدخل معهم حصونهم ويصيبه ما أصابهم، إن رجعت الأحزاب وتركتهم، وقد وفى بوعده، فأمكن الله منه وذاق عاقبة كيده لله ولرسوله.

الإسلام والمسلمين، وضعفت شوكة قريش وغطفان، وانقلب المخطط اليهودي الرهيب الذي صُنع في خيبر على رؤوس صانعيه، وهلك المدبِّر الأول له.

وكان أشدّ الناس خسارة في غزوة الأحزاب يهود، فقد أُعدمت آخر قبيلة منهم كانت تقطن يثرب، وطهرت المدينة منهم، وتلاشت آمال بني النضير بالرجوع إليها بعد خيبة زعيمهم في مسعاه وهلاكه.

وحزنت خيبر حزناً كبيراً على ما أصاب حُيـيّ بن أخطب وبني قريظة، وقامت فيها المآتم، وبكى الرجال والنساء، وكان أشد الناس حزناً على حُيـيّ أبو رافع سلّام بن أبي الحقيق، فنعاه لسائر يهود الحجاز، وجلس في قصره هو وسائر آل أبي الحقيق يتقبّلون التعازي فيه، وصاروا يدعون الناس للأخذ بثأره.

وحمي للثأر زعماء خيبر وأبطالها الشجعان من أمثال: أسير بن رزام، والحارث أبو زينب، وابناه: مَرْحب، وياسر وغيرهم؛ فدعَوا هم أيضاً إلى الاستعداد لقتال المسلمين والإيقاع بهم، وشاركهم في ذلك سائر الناس، حتى أصبحت خيبر كلها تفور بالحقد على المسلمين وتتوق لقتالهم.



سعد المسلمون بانتصارهم على الأحزاب، وفرحوا باندحار أعدائهم وخيبة آمالهم، وشعروا بالأمان بعد تطهير المدينة من اليهود الغادرين، وأصبحت هذه المدينة الطيبة خالصة لهم، يتجولون في سائر نواحيها، ويجوبون أطرافها، من غير أن يتجسس عليهم أحد أو يرصد حركاتهم ويبلِّغها عدوهم.

وكان هناك أملٌ غالٍ يتردد في قلوب عدد من أصحاب رسول الله من الخزرج بقتل عدوِّ الله أبي رافع سلام بن أبي الحقيق؛ كما قتل إخوانهم الأوس من قبل كعب بن الأشرف، ولقد قوي هذا الأمل الآن بعدما أصبح

أبو رافع أبرز زعماء يهود، وبعدما اشتد كيده للمسلمين، وكان أحد الَّذين حزّبوا الأحزاب عليهم.

وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أن هذين الحيَّين من الأنصار: الأوس والخزرج، كانا يتصاولان[1] مع رسول الله ﷺ تصاول الفَحْلَين، لا تصنع الأوس شيئاً فيه غَنَاء[2] عن رسول الله إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذا فضلاً علينا عند رسول الله، فلا ينتهون حتى يوقعوا مثله، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك!!

واستأذن خمسة من أبطال الخزرج رسول الله ﷺ في قتل أبي رافع، فأذن لهم وأمّر عليهم عبد الله بن عَتِيك، ثم ودّعهم ودَعَا لهم.

انطلق الأبطال إلى خيبر، فساروا إليها أياماً حتى وصلوها عند غروب الشمس، والناس يسوقون سَرْحهم فيدخلونه إلى الحصون، والبوّابون على أبواب الحصون يغلقونها كلما انتهى دخول الناس إلى حصن منها.

ووقف أصحاب رسول الله ﷺ قريباً من حصن القموص حيث ينزل أبو رافع، وقال لهم عبد الله بن عتيك أميرهم:

اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومُتلطِّف للبواب لعلّي أدخل.

وأقبل عبد الله حتى دنا من الباب ثم تقنَّع بثوبه[3] كأنه يقضي حاجة، ودخل سائر الناس غيره، فهتف به البواب:

يا هذا، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أُريد أن أُغلق الباب.

ودخل عبد الله، ثم سعى في زقاق من أزقة الحصن، ثم وقف ينظر إلى البواب أين يضع المفاتيح، حتى إذا رآه أين وضعها أوى إلى خَرِبة فكَمَن فيها ساعة من زمان، ثم ذهب إلى باب الحصن ففتحه بالمفاتيح، ثم

---

(١) يتصاولان؛ إذا فعل أحدهما شيئاً فعل الآخر مثله.

(٢) غناء: منفعة.

(٣) تقنع بالثوب: وضعه على رأسه.

اتجه إلى قصر أبي رافع فإذا به يرى الأنوار تتلألأ فيه والقوم عنده يسمرون في علاليَّ له[١].

فجعل يذهب ثم يعود، حتى إذا ذهب من عند أبي رافع أهلُ سَمَره وأطفئت الأنوار، صعد إلى قصره، فجعل كلما فتح باباً أغلق عليه من الداخل حتى إذا أحسَّ الخدم بوجوده سارع إلى قتله قبل أن يصلوا إليه.

وانتهى عبد الله إلى غرفة نوم أبي رافع، فإذا الظلام يسودها ولا يدري أين هو منها، فنادى:

أبا رافع!

فأجابه:

من هذا؟

فأهوى عبد الله بالسيف نحو الصوت وضربه وهو دَهِش، لكنه لم يصبه، وصاح أبو رافع.

فخرج عبد الله من البيت ومكث قليلاً، ثم دخل وقال ـ وقد غيّر صوته ـ:

ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

فأجابه:

لِأُمِّكَ الويلُ إنَّ رجلاً في البيت ضربني قَبْلُ بالسيف.

وأسرع عبد الله فضربه بالسيف ضربة بالغة، فانفجر دمه وجعل يئن، فقام إليه عبد الله ووضع حدَّ السيف في بطنه حتى أنفذه من ظهره، وأيقن أنه قد قتله.

وسارع عبد الله إلى الخروج وجعل يفتح الأبواب باباً باباً؛ حتى إذا انتهى إلى باب القصر سقط إلى الأرض وهو ينزل على الدرج، فوقع

---

(١) العلالي: جمع علِّية: الغرفة تعلو الغرفة. والسمر: الحديث في الليل.

وأُصيبت ساقه، فعصبها بعمامته ثم انطلق، فجلس قريباً من الباب، وقال:
لا أخرج الليلة حتى أطمئن تماماً إلى أني قتلته.

ومضت ساعات ثقيلة على عبد الله وعلى إخوانه الَّذين كانوا ينتظرونه، وبينا هو ينتظر الخبر بلهفة، إذا بصائح يصيح بغَلَس:
أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز.

وتلقى ابن عتيك هذه الكلمة بالسرور البالغ، فانطلق إلى أصحابه مبشّراً وقال:
النجاءَ، فقد قتل الله أبا رافع.

وعاد الأبطال إلى المدينة المنورة، وحدّثوا رسول الله بما كان، فقال لهم:
«أفلحت الوجوه!!».

وأجابوه:
أفلح وجهك يا رسول الله.

ثم مسح على رجل عبد الله، فقام لا يشتكي منها شيئاً.



أدرك سَلاَّم بن مشكم بعد هزيمة الأحزاب ومصرع بني قريظة وحيي بن أخطب وأبي رافع أن قومه يُوضِعون في غير شيء[1]، وأنّ أمر محمد سيظهر، وأنّ دينه سيعلو على كل دين، لذا عزم على أن ينصرف إلى خاصّة نفسه، فينشط تجارته من جديد، ويثمِّر ماله الَّذي تناقص، لا سيما وأنّ تجارة أبي رافع قد ركدت بعد موته، وأمن من منافسته.

لكن أمراً آخر كان سلاّم يتطلع إليه قبل كل شيء، ويتمنى لو يفرغ منه ألا وهو الزواج من امرأة شريفة من نساء خيبر؛ ليصهر إلى أهلها،

(١) يوضعون: يسرعون ويبادرون.

ويكسب مودّتهم، وتعلو منزلته في نفوسهم.

ووجد الرجل ضالّته في زينب بنت الحارث، فهي فتاة قَومِها جمالاً وشرفاً ورفعةً، ثم إن أباها الحارث وأخويها: مرحب وياسر أبطال خيبر، فتقدّم من صديقه مرحب وطلب منه أخته، فوافق هذا على طلبه، ولم يمض غير قليل حتى زُفَّت زينب إلى زوجها سلاّم في حفل بهيج اشترك فيه عدد كبير من يهود خيبر وبني النضير.

وأوت العروس إلى زوجها، فوجدت فيه فتى عاقلاً لبيباً، بعيد النظر، كريم العشرة، كريم المودّة، فأحبته ومنحته كامل ودادها.

وكان أهم ما أفادته زينب من هذا الزوج أنه قد غيَّر من نظرتها بعض الشيء إلى محمد رسول الله، وأقنعها أنَّ على يهود أن يكفُّوا عن عدائه، وإلاَّ فسوف يكونون في كل مرة خاسرين، فهو نبي مؤيد من الله، بل هو خاتم النبيين الَّذين أكثرت كتبهم من ذكره وذكرت العديد من أوصافه وشمائله.

ولم يمضِ على هذه الفتاة اليهودية إلاَّ وقت قصير حتى باتت تشارك زوجها في معظم رأيه فيما يجب على يهود أن يتخذوه حيال هذا الرجل، بل أخذت تعلن رأيها أمام صديقاتها فيه، وتناقشهن وتردّ عليهن بقوة، مما جعل بعض النفوس تجد[1] عليها وتشمئز منها.

* * *

أُصيب كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق بخيبة أمل مريرة بعد هزيمة الأحزاب ومقتل حُيـيّ بن أخطب، ثم ازدادت خيبة أمله بمقتل كبير آل أبي الحقيق: أبي رافع، فقد كان يمنِّي نفسه بأن يُزفَّ إلى صفية بنت حُييّ في يثرب في حفل ما شهدته بلاد العرب، بيّد أن الآمال قد تلاشت، والمصائب قد كثرت، ولم يبقَ أمامه إلا أن يبني بعروسه بدون ما إظهار

(١) تجد: تغضب.

فرح ولا سرور، وزُفَّت صفية إلى كنانة، وحزن سائر يهود يثرب على هذه الفتاة الشريفة الرائعة الحسن ألاَّ يكون لها عرسٌ بهيج وحفل كريم، وجاءت زينب بنت الحارث ـ زوج سلاّم بن مشكم ـ على استحياء تهنىء صديقتها صفية، وسألتها عن زوجها، فأجابت:

وجدته ـ والله ـ خيرَ زوج، أكرمه عشرة وأهنأه عيشاً، ولقد وعدني أنْ لا يهنأ له عيش، ولا تطيب له نفس أو يثأر لأبي وقومي من محمدٍ.

ونظرت زينب إلى صفية نظرة دهشة واستغراب وقالت لها:

صفية، أيتها الصديقة العزيزة، بالله عليك كُفِّي زوجك عن هذا الأمر، فإنه غير مستطيعه وليس بمدركه، وقولي له: لِيصرفْ جهده في غير هذا الأمر، وليوفّر لك ما تستحقينه من سعادة وهناءة.

وتعجبت صفية من كلام صديقتها، وقالت لها:

أنت يا بنت الحارث ويا أخت مرحب وياسر تقولين هذا؟!

وأجابت زينب:

نعم أنا أقول هذا.

لقد أخبرني زوجي سلاّم بن مشكم أن الرجل هو النبي الّذي كنّا ننتظره، والّذي كنّا نبشِّر بمبعثه، وأنّ قومك بني النضير يقرّون بذلك، لكنهم عادَوه حسداً وعناداً. فسلّطه الله عليهم!!

وأصابت صفيةَ دهشةٌ بالغةٌ مما سمعته من صديقتها وقالت لها:

ويحك يا زينب، وماذا قال لك أيضاً؟

فأجابت:

أخبرني أنه نصح أباك حين أمر قومه بأن يلقوا على محمد الصخرة بألاّ يفعل، وقال له: والله ليُخبرنّ بذلك، فما كان غير قليل، حتى أُخبر بصنيعهم، فقام من ساعته ونجا من الموت من غير أن يشعر بذلك أحد!!

وغلبت الدهشة على صفية، فصمتت طويلاً، ثم قالت لصاحبتها:

والله إنَّ ما ذكرته حق يا زينب، وأشهد لَسمعت عمي أبا ياسر يقول لأبي غداة هاجر محمد إلى يثرب ـ وكانا قد زاراه وسمعا منه ـ:

أهو هو؟ فأجابه: نعم.

فسأله ثانيةً:

أتعرفه وتثبته؟ فأجابه: نعم.

ثم سأله أخيراً:

فما في نفسك منه؟ فأجابه: عداوته والله ما بقيت!!

ولكن يا زينب أوَ تريديننا أن نتَّبع نبياً من هؤلاء الأميّين؛ ونحن الّذين مشت فينا النبوّة دهراً طويلاً؟!

وردّت زينب:

وما حيلتنا إنْ كان الله قد سلبنا هذه النعمة؟!

أليس من الأحسن لنا أن نهدأ ونسكن لئلا يصيبنا بأس من الله؟!

وهزَّت صفية رأسها وجعلت تقول:

نعم والله، نعم والله!!.



كان لا بدّ من فتح خيبر وكسر شوكة يهود بها حتى يطمئن المسلمون إلى أنهم لن يُؤتوا من جهة الشمال، وحتى يتفرغوا لأهل مكة عدو الدعوة الأكبر، وما دام اليهود على قوتهم الكبيرة في هذه المدينة الحصينة فسوف تهب رياح السّموم على المسلمين كما حصل منهم يوم الأحزاب؛ بل إنَّ أخباراً وصلتْ للمدينة تفيد بأن يهود يفكرون بغزو أهلها في عُقر دارهم!!

ورأى عليه الصلاة والسلام أنَّ الفرصة مواتية بعد صلح الحديبية للمسير إلى يهود، فأمر الصحابة بالتهيؤ لهذا المسير وعيَّن لهم المقصد، وشاع في المدينة أنَّ النبي ﷺ سائر إلى خيبر فحزن مَنْ بها من بقايا يهود،

وجعلوا يثبِّطون هِمَم المسلمين ويخوِّفونهم، ويقولون:

ما أمنع ـ والله ـ خيبر منكم!!

لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالَها لرجعتم قبل أن تصلوا إليها. حصون شامخات في ذُرَى الجبال، والماء فيها واتن[١]!!.

إنَّ بخيبر لألفَ دارع؛ ما كانت أسدٌ وغَطَفان يمتنعون من العرب قاطبة إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر؟!

وجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب رسول الله ﷺ؛ لكن الصحابة كانوا يردّون عليهم بقوة ويقولون:

إنَّ الله وعدَها نبيّه أن يغنّمه إياها[٢]، ولا بدَّ أنَّ وعد الله كائن!!

وشقّ على هؤلاء اليهود الَّذين كانوا موادعين للمسلمين تجهز أصحاب النبي لفتح خيبر، وعرفوا أنَّهم إذا دخلوها أهلك الله أهلها كما أهلك بني قينقاع والنَّضِير وقُريظة، وجعل كل يهودي له حقّ على مسلم يطالبه به ويشدِّد عليه.

وكان لأبي الشّحم اليهودي على عبد الله بن أبي حَدْرَد خمسة دراهم، فلزمه، فقال: أجِّلْني، فإني أرجو أن أقدم عليك فأقضيَك حقَّك إن شاء الله، فإنّ الله عزّ وجلّ قد وعد نبيَّه خيبر أن يغنِّمه إياها.

فقال أبو الشحم ـ حسداً وبغياً ـ:

---

(١) واتن: دائم غير منقطع.

(٢) يريدون ما نزل على رسول الله ﷺ منصرفه من الحديبية وهو قوله تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً. ومغانم كثيرة تأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً. وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها، فعجّل لكم هذه وكفّ أيدي الناس عنكم. ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً﴾. فالمراد بالفتح القريب: فتح خيبر، والمراد بالغنائم الكثيرة: مغانمها. والمراد بقوله تعالى: ﴿فعجَّل لكم هذه﴾ مغانم خيبر التي أصابها المسلمون بعد مدة قصيرة من صلح الحديبية.

تَحسَب أنّ قتال خيبر مثل ما تلقَونه من الأعراب؟!
فيها ـ والتوراة ـ عشرة آلاف مقاتل!!

فقال ابن أبي حَدْرد:
أيْ عدوّ الله، تخوِّفنا بعدوِّنا وأنت في ذمتنا وجوارنا؟
والله لأرفعنّك إلى رسول الله!!

وذهب عبد الله بن أبي حدرد إلى النبي فحكى له ما قاله اليهودي، لكنَّ النبي لم يردّ عليه شيئاً، وجعل يحرّك شفتيه بشيء لم يُسمع.. وبينا ابن أبي حدرد في حضرة النبي ﷺ إذ أقبل أبو الشحم فقال:

يا أبا القاسم، هذا قد ظلمني وحبسني حقي، فقال عليه الصلاة والسلام:
«أعطه حقه».

فذهب فأعطاه!!.

عَلا شأن كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق بعد مهلك حُيـيّ بن أخطب وأبي رافع، وبعد انصراف سَلّام بن مشكم لتجارته، فأصبح سيد يهود بني النضير بل أصبح سيد يهود خيبر كلِّهم وملكهم، فهو أكثرهم مالاً، وأنبلهم شرفاً ومَحْتِداً، وأعظمهم جاهاً وسيادة.

وقد سعد كنانة بزواجه من صفية بنت حُيـيّ، وأصاب بسببها جاهاً فوق جاهه، وسعدت هي به أيضاً، فخفّت أحزانها على أبيها، وأخذت تتطلع إلى مستقبل باسم مع هذا الزوج الفتى النبيل الذي ساد قومه؛ لكنَّ شيئاً قد حدث جعل حياتها تتبدل، فغاضت سعادتها، وتلاشت آمالها، واكفهرت الدنيا في وجهها.

ذلك أن صفية بينا كانت نائمة ذات ليلة من الليال إذا بها ترى القمر في كبد السماء، يبعث بأشعته الفضية في أنحاء الكون، وقد تجلَّى في

صورة من الجمال لم تكن رأته فيها من قبل، فأدهشها جماله وبهاؤه، وراحت تمتع ناظريها فيه، وبينا هي على هذه الحال إذا بها تراه يزول من مكانه، ثم يسعى إليها فيسقط في حجرها!!

وأفاقت صفية صباحاً من نومها وقد ارتسمت صورة منامها في ذهنها ما تبرحه، فسعَت إلى كنانة تقصُّ عليه منامها، فما كان منه إلا أن لطمها على وجهها لطمة قوية فاحشة اخضرَّ منها وجهها، ثم قال لها والغضب يثور في وجهه:

ما هذا إلاّ أنك تمنَّين ملك الحجاز محمداً!!

ثم جعل يسيء عشرتها، ويتبرم بها، ويكثر من النَّيْل منها.

أما صفية فقد انطوت على نفسها حزينة كئيبة، وتمنت لو أنها لم ترَ هذا المنام، ولم تحدِّث به زوجها.

* * *

انطلق رسول الله ﷺ بأصحابه قِبَل خيبر بعد أنْ دَعا الله ـ سبحانه ـ أن يأخذ عنه العيون، وجدَّ المسلمون في مسيرهم ليبلغوا عدوهم قبل أن يفطن لهم، وجعل الحُدَاة[1] يحدون للإبل حتى تسرع في المسير، وعَلاَ في ليلة من الليالي صوت عامر بن الأكوع بحداء رائع جميل؛ أصاخت له الأسماع، وطربت له القلوب، وتردده صداه يشقُّ سكون الليل:

تـاللّـهِ لـولا اللّـه مـا اهتـدينـا ... ولا تصـدّقنـا ولا صلّينـا

ونحـن عـن فضلـك مـا استغنينـا ... فثبِّـتِ الأقـدام إنْ لاقينـا

وأنـزلـنْ سكينـةً علينـا ... إنّـا إذا صِيـحَ بنـا أتينـا

وبـالصيـاح عـوّلـوا علينـا ... وإنْ أرادوا فتنـةً أبينـا

وسمع النبي ﷺ حداء عامر فسرَّه ذلك، فسأل:

«من هذا السائق؟».

(١) الحداة: جمع حادي. وهو الّذي يغني للإبل كي تنشط في سيرها.

فقالوا: عامر بن الأكوع.

فقال: «غفر لك ربك».

ونادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له:
«يا نبيّ الله، لولا ما متعتنا بعامر».

وأيقن الجميع أنَّ عامراً لا بدّ سيموت شهيداً، فالرسول ﷺ ما قال هذه الكلمة لأحد إلا استشهد!!

وفي صبيحة يوم من الأيام فتح اليهود أبواب حصونهم، وخرجوا بدوابّهم، ومساحيهم ومكاتلهم يريدون الذهاب إلى بساتينهم، فلم يفجأهم إلا المسلمون يحصرونهم، فصاحوا:
محمد والخميس، محمد والخميس[1]!!

ثم ارتدوا إلى حصونهم مذعورين.

ووقف عليه الصلاة والسلام على مشارف هذه البلدة ذات القلاع الحصينة ودعا:
«اللهمّ ربّ السموات وما أَظلَلْن، وربّ الأرضين وما أقلَلْن، وربّ الشياطين وما أضلَلْن، وربّ الرياح وما أذرين، فإنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها».

ثم صاح:
«الله أكبر هلكت خيبر؛ إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين»!!.

***

ابتدأت المعارك القوية من أول يوم وصل فيه المسلمون إلى خيبر، وكان اليهود قد جمعوا المقاتلة في بعض الحصون، وجمعوا الأموال

(١) الخميس: الجيش.

والذرية في حصون أخرى، وابتدأ عليه السلام بحصن «النَطَاة» فقاتل أهلَه قتالاً شديداً حتى جاء الليل، فدخل اليهود حصنهم وآب المسلمون إلى معسكرهم، وقام الحراس على أبواب المعسكر يحرسونهم من غدر يهود.

ودارت المعارك لاهبة على مدى عدة أيام حول هذا الحصن، وزاد من هولها أنَّ الوقت كان صائفاً حارّاً، وبدت من أصحاب رسول الله ﷺ بطولات فائقة، وقاتل محمود بن مسلمة في أحد تلك الأيام قتالاً شديداً حتى انكفأ اليهود إلى حصنهم في الظهيرة، فسعى محمود إلى حصن ناعم القريب يريد أن يستظل بفيئه، فما كان من «مَرْحَب» اليهودي إلا أن رمى عليه رحىً فهشمت البيضة[١]، وسقطت جلدة جبينه عن وجهه، وندرت عينه[٢]، فجيء به إلى رسول الله ﷺ، فردّ الجلدة كما كانت، وعصبها بثوب؛ لكن محموداً لم يلبث أن استشهد رضي الله عنه.

وحزن المسلمون لما أصاب ابن مسلمة، فازدادت بطولاتهم واشتد قتالهم ليهود، فما كان من هؤلاء حتى تركوا حصنهم هاربين ولجأوا إلى حصن «ناعم» القريب، فدخل المسلمون هذا الحصن، وغنموا منه سلاحاً كان في جملته منجنيق نصبوه على ما بقي من حصون يهود وقاتلوهم به.



قاد النبي ﷺ أصحابه إلى المعارك عدة أيام وفتح الله عليهم أول حصن من حصون يهود، فتحولوا إلى حصن ناعم يقدمهم رسول الله على فرس يقال له «الظَّرِب» وعليه درعان ومغفر وبَيْضة، وفي يده قناة وترس.

وكان يهود قد جمعوا أكبر قوة مقاتلة في هذا الحصن، وحشدوا فيه أبرز قادتهم وأبطالهم . . بيْد أن النبي ﷺ لم يستطع أن يقود أصحابه للقتال في معارك هذا الحصن، فقد أخذته عليه الصلاة والسلام

---

(١) البيضة: الخوذة من حديد توضع على الرأس.

(٢) ندرت عينه: خرجت.

الشقيقة[١] أخذاً شديداً حتى ألزمته معسكر المسلمين، وحتى لم يستطع الخروج للناس اليوم أو اليومين!!

ودفع عليه السلام لواءه لرجل من المهاجرين فقاتل بأصحابه قتال الأبطال لكنه رجع في آخر النهار ولم يفتتح عليه، وفي اليوم التالي دفعه لرجل آخر من المهاجرين فلم يفتح عليه أيضاً.

ثم إن النبي ﷺ دفع اللواء لرجل من الأنصار، فرجع من يومه ولم يفتح عليه، وفي اليوم التالي وقف عليه الصلاة والسلام أمام أصحابه يحثّهم على الجهاد ويرغبهم بالجنة ثم أمر الأنصاري أن يتقدم بأصحابه، فتقدم.

وسالت كتائب يهود من حصن ناعم أمام «الحارث أبو زينب» يهذّ[٢] الناس هذّاً، وقاتل المسلمون اليهود قتالاً شديداً حتى دخلوا وراءهم الحصن، بَيْدَ أنهم لم يلبثوا أن انكشفوا عنه حتى وصلوا قريباً من النبي، فأمسى عليه الصلاة والسلام مهموماً، ثم إنه خرج على أصحابه وقال لهم:

«لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله، يفتح الله على يديه».

ثم نادى:

«أبشر يا محمد بن مسلمة غداً ـ إن شاء الله تعالى ـ يُقتل قاتل أخيك وتولِّي عادية يهود»[٣].

***

بات أصحاب النبي ﷺ ليلتهم يفكرون فيم يُعطى الراية غداً، وكلهم تمنى أن يكون صاحبها.. وجاء الغد، وأخذ المسلمون عدّتهم ومكثوا ينتظرون مَن سيقودهم إلى المعركة في هذا اليوم.

---

(١) الشقيقة: نوع من صداع يعرض في مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه.
(٢) يهذ: يسرع القطع.
(٣) العادية: أول من يعدو للقتال.

وناد النبي ﷺ:
«أين علي بن أبي طالب؟».

فقيل له: هو ـ يا رسول الله ـ أرمد يشتكي عينيه!!.

فأرسل وراءه، فجاءه علي فقال:
والله ـ يا رسول الله ـ ما أُبصر سهلاً ولا جبلاً!!

فقال له:

«افتح عينيك»، ففتحهما، فتفل فيهما ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع. ثم دفع إليه اللواء ودعا له ولمن معه بالنصر وقال له:
«انفذْ على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإِسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله تعالى، فوالله لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من أن يكن لك حُمْر النَّعَم»[1].

وسار علي بأصحابه حتى كان في مواجهة يهود، وخرج الحارث أبو زينب يقدم يهود، وهجم على المسلمين وأخذ يعمل فيهم سيفه حتى جالوا جولة[2]، وثبت علي ثم قصد للحارث فاضطربا ضربات فقتله علي، وانهزم يهود إلى الحصن.

وبعد قليل خرج ابنه مرحبٌ من الحصن كالفحل الصؤول[3] يخطر بسيفه، ويدعو للبراز وهو يرتجز:

قد علمت خيبرُ أنِّي مرَحبُ شاكي السلاح بطل مجرّبُ[4]
إذا الحروب أقبلت تلَهَّبُ

وبرز له عامر بن الأكوع وهو يقول:

---

(١) حمر النعم: الإبل الحمراء وهي خيرها.
(٢) جالوا: انهزموا.
(٣) الفحل الصؤول: الذي يواثب الناس ليأكلهم.
(٤) شاكي السلاح: تام السلاح.

قد علمت خيبر أني عامر   شاكي السلاح بطلٌ مغامر

واختلف الرجلان ضربتين، فوقع سيف مرحب في ترس عامر، فجعل عامر يريد أن يضربه من أسفله، فرجع سيفه على نفسه، فقطع أكحله[1]، ثم كانت في هذه الضربة نفسه!!

وأخذ مرحب يدعو للبراز من جديد ويدلّ بقوته على المسلمين ويرتجز:

قد علمتْ خيبرُ أني مَرْحبُ   شاكي السلاح بَطَلٌ مجربُ
إذا الحروبُ أقبلتْ تَلَهّبُ

وبرز له علي بن أبي طالب وهو يرتجز:

أنا الذي سمّتْني أمي حَيْدَرَهْ[2]   كَلَيْثِ غاباتٍ كريه المنظرهْ
أوفيهم بالصاعِ كَيْل السَّنْدَرَهْ[3]

وحمي العراك بين الرجلين، وبدَا أن بطل يهود جعل يتراجع أمام بطل المسلمين، ثم إنَّ علياً ضرب مرحباً ضربة فلقت رأسه، فسقط على الأرض صريعاً، فاحتزّ علي رأسه وأرسله للنبي ﷺ، وكبّر المسلمون تكبيرة عظيمة أغاظوا بها يهود.

وغضب لمرحب أخوه ياسر، فبرز للمسلمين وهو أشد ما يكون غيظاً، وجعل يقول:

هل من مبارز، هل من مبارز؟

فبرز له الزبير بن العوَّام فلم يلبث اليهوديُّ قليلاً بين يدي الزبير حتى جندله[4]، وأقبل المسلمون على أعدائهم فكشفوهم عن ساحة المعركة،

---

(١) الأكحل: عرق في وسط الذراع غزير الدم، يكثر فصده.
(٢) حيدرة: اسم للأسد، وكان علي رضي الله عنه قد سمي أسداً في أول ولادته.
(٣) السندرة: مكيال واسع. والمعنى: أقتل الأعداء قتلاً واسعاً ذريعاً.
(٤) جندله: صرعه.

وجروا وراءهم يضربونهم في أقفائهم، وأعجزوهم أن يدخلوا الحصن، ففروا إلى الحصون القريبة.

وسعى ساع من اليهود إلى سلاّم بن مشكم ـ وكان داخل الحصن مريضاً ـ فأخبره بما جرى، فحزن لمصرع أصهاره من أبطال يهود: «الحارث، ومرحب، وياسر»[١] وتمنى يومها لو كان صحيح البدن، قويّ الجسم، قد فارقه الوَعْك الَّذي لزمه منذ أيام، إذن لقام وقاتل المسلمين.

وعجَّل الرجل ليخرج من الحصن قبل أن تنوشه رماح المسلمين، ولكنهم كانوا قد دخلوا الحصن وأخذوا في كل نواحيه، وصاح صائح من الأنصار:

هذا عدو الله سلاّم بن مشكم من سادة بني النضير.

فما كان أسرع أنْ أُشرعت فيه السيوف، فسقط على الأرض مضرجاً بدمائه، وأخذ يجود بنفسه، وسمعه الناس يومها يقول:

لعن الله حُيـيّ بن أخطب، فوالله ما أصابنا ما أصابنا إلا بسببه، وما جرَّ على يهود هذا البلاء إلا هو. كم نصحت له أن يسالم محمداً حتى نأمنه، فما زال يعاديه ويكيد له حتى هلكنا جميعاً بسببه!! فما كان أشأمه على قومه، وما كان أتعس يهود حين مشت وراءه!!.

* * *

أصابت معاركُ حصن النطاة ومصرع أبطاله اليهودَ في مقاتلهم، فزلزلت أقدامهم، ورعبوا من المسلمين رعباً شديداً، وأوَوا إلى حصونهم يحتمون بها.

ومشى المسلمون إلى بقية الحصون يفتحونها، وكانوا قد أصابهم جوع شديد ونفدت مؤونتهم، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ يشكون له ما أصابهم وقالوا:

---

(١) تبين لي من تتبع المصادر أن الحارث هذا هو والد زينب زوجة سلام. أما ياسر ومرحب، فإما أن يكونا ابنيه، أو لا، إذا كانت زينب أختهما لأمهما.

يا رسول الله، أصبحنا نشكو الجوع والضعف، فادعُ الله لنا.

ورفع عليه الصلاة والسلام يديه إلى السماء ودعا:

«اللهمّ إنك قد عرفتَ حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأنْ ليس بيدي ما أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها غَنَاءً، وأكثرها طعاماً».

ودفع عليه الصلاة والسلام لواءه إلى الحُباب بن المنذر، وندب الناس للجهاد، فساروا وراء أميرهم، فقاتل اليهودَ أشد القتال، فانهزموا أمامه وأغلقوا باب الحصن عليهم، لكن المسلمين ألجؤوهم للخروج، فخرجوا وقاتلوا أشدّ القتال، ثم هُزموا هذه المرة.

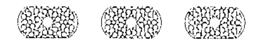
واقتحم المسلمون الحصن يقتلون ويأسرون، ووجدوا فيه من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودَك[1] كثيراً، فنادى منادي النبي ﷺ:

كلوا واعلفوا ولا تحتملوا.

وأخذ المسلمون من ذلك الحصن طعامهم وعَلَف دوابهم، ووجدوا فيه بزّاً في عشرين عِكْماً[2] محزومة من متاع اليمن، ووجدوا خوابي سَكَر[3]، فأمر النبي بالسَّكر فكسر في خوابيه، ووجدوا آنية من نحاس وفخّار كانت يهود تأكل فيها وتشرب، فقال عليه السلام:

«اغسلوها، واطبخوا، وكلوا فيها، واشربوا».

وأخرجوا منها غنماً وبقراً وحُمُراً، وآلة الحرب، ومنجنيقاً، ودبابات، وعُدَّة، وخمسمائة قطيفة.



أخذ رسول الله ﷺ يتقدم ويأخذ الحصون حصناً بعد حصن، وخشي

(١) الودك: الشحم.

(٢) العكم: ثوب يبسط ويوضع فيه المتاع ويشد عليه ويحزم. وهو المعروف بـ (البقجة).

(٣) السكر: ما يسكر من الخمر.

كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق على كنز حُيـيّ بن أخطب وأموال آل أبي الحقيق ـ وكانت قد صارت إليه ـ فقام ليلاً إلى خَرِبة، فحفر بها، ثم جاء بتلك الأموال ودفنها في الأرض، ثم سوّى التراب عليها.

وحُوصر حصن القموص: حصن آل أبي الحقيق، وارتجف قلب كنانة بن الربيع، وزلزل سائر يهود الّذين كانوا فيه والّذين فرّوا إليه من الحصون التي فتحت، وبعد أيام من الحصار فتح الله على المسلمين هذا الحصن، فدخلوه وغنموا ما فيه، وسبَى المسلمون فيه عدداً كبيراً من النساء، وكان من السبيات صفية بنت حُيـيّ، فاصطفاها عليه الصلاة والسلام لنفسه، وطيّب خاطرها وضمها إلى أمهات المؤمنين، وأكرمها بعد ذل، ورفعها بعد هوان.

وجيء بكنانة بن الربيع إلى النبي وقد اسودّ وجهه مما لحقه من الهزيمة والخيبة، وسأله النبي عن كنز حُيـيّ وبني النضير، فأجاب:

يا أبا القاسم أنفقناه في حربنا فلم يبقَ منه شيء، وأكّد الأيْمان!!

فقال النبي ﷺ:

«العهد قريب والمال أكثر من ذلك»!!

فقال كنانة:

أذهبته الحروب والنفقات يا أبا القاسم.

فقال عليه السلام:

«أرأيتَ إنْ وجدناه عندك أأقتلك»؟

فأجابه:

نعم.

وخلّى النبي ﷺ سبيله، لكنه كان في شك من صدقه، فدعا ربّه أن يكشف له أمره.

ولم يلبث عليه السلام إلاّ قليلاً حتى جاءه سَعْيَة بن سلاّم بن أبي الحقيق يفضح له أمر كنانة ويخبره أنه دفن المال في الخَرِبة، فأمر النبي بالخربة فنُبِشَت واستُخرج منها الكنز العظيم، وجيء باليهودي الماكر إلى النبي فدفعه إلى الزبير بن العوّام، وأمره أن يعذبه حتى يستخرج كل ما عنده مما كتمه، ففعل، وأخبر كنانة عن جميع أمواله، وأخرجها للمسلمين، ثم قُدم فضربت عنقه جزاء خيانته.



فُتحت سائر حصون خيبر ولم يبقَ أمام المسلمين سوى حِصنَي: الوطيح والسلالم، وتجمع سائر يهود في هذين الحصنين، ولم يبقَ لهم من زعمائهم الكبار أحد، وحاصرهم عليه الصلاة والسلام حتى أيقنوا بالهلكة، فسألوه أن يسيِّرهم وأن يحقن دماءهم، فرضي بذلك، ففتحت أبواب الحصنَيْن، ودخلهما المسلمون وغنموا ما فيهما، وتم له بهما فتح هذه المدينة بتمامها.

وجاء اليهود إلى النبي ﷺ يقولون:

يا محمد، دعنا في هذه الأرض نصلحها ونقم عليها، ولنا الشطر من كل زرع ونخيل وشيء.

وأرى عليه السلام أنَّ هذا أصلح لأصحابه ولدعوته، فقبل من يهود وأعطاهم الَّذي طلبوا وقال لهم:

«نقركم على ذلك ما شئنا».

لم يكن أحد من العرب واليهود يصدِّق أن خيبر ذات الحصون المنيعة، والرجال الأشداء، والأبطال الشجعان، والتي ارتبطت بحلف دفاعي متين مع قبيلة عربية كبيرة هي قبيلة غطفان؛ لم يكن أحدٌ من العرب

يصدِّق أنها ستفتح على محمد رسول الله!!

بل إنَّ كثيراً منهم ذهبتْ بهم أوهامُهم إلى أنَّ هذه المعركة هي بداية النهاية لأمر المسلمين، وأخذوا يراهنون غيرهم على نتيجتها وأنها ستكون لصالح يهود.

وبينا كان أهل مكة يتشوقون إلى خبر يسرّهم في أمر خيبر، كان الحجاج بن عِلاط السُّلَمي ـ وكان قد أسلم من قريب ـ يتقدم إلى رسول الله قائلاً:

يا رسول الله، إنَّ لي بمكة مالاً عند زوجتي أُم شيبة أخت بني عبد الدار، ومالاً متفرقاً في تجار أهل مكة فأْذَنْ لي أن أذهب فآخذ مالي.

فأذن له النبي ﷺ.

لكن الحجّاج عاد فقال: إنه لا بدّ ـ يا رسول الله ـ من أن أقول شيئاً؟

وأجابه النبي ﷺ: «قل ما شئت».

وركب الحجّاج ناقته إلى مكة، فإذا رجالٌ من أهلها قد خرجوا يتحسّسون الأخبار من الركبان، ويتشوَّقون إلى معرفة ما جرى في خيبر قرية الحجاز ريفاً ومَنعةً ورجالاً.

ورأى المكيّون الحجَّاج، فصاحوا ـ ولم يكونوا علموا بإسلامه ـ: الحجاج بن عِلاط، عنده والله الخبر!!

ثم أسرعوا إليه وقالوا:

أخبرنا يا حجاج، فإنه قد بلغنا أنَّ محمداً قد سار إلى خيبر وهي بلد يهود وريف الحجاز؟

وأجاب: قد بلغني ذلك، وعندي من الخبر ما يسرّكم!!

واقترب المكيّون من ناقته، والتصقوا بجانبيها، وأرهفوا أسماعهم لما سيقول.

وتكلم هو فقال:

هُزم صاحبكم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قطّ، وقتل أصحابه قتلاً لم تسمعوا بمثله قطّ، وأسر محمداً أسراً، وقالت يهود: لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بما أصاب من رجالهم!!

وسُرَّ المكيّون بهذا النبأ غاية السرور، وأسرعوا إلى مكّة يبشّرون أهلها ويقولون: قد جاءكم الخبر!!

وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقدَم به عليكم فيُقتل بين أظهركم!!

وقدم الحجاج مكة فاستقبله أهلها أحسن استقبال، فقال لهم:

أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي، فإني أُريد أن أقدم خيبر فأُصيب من فَلِّ محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى ما هنالك.

وأسرع أهل مكة فجمعوا له ماله وأعانوه على غرمائه، حتى لم يبقَ له شيء هناك، ثم سعى إلى زوجته فقال لها:

أعطني مالي، فلعلِّي ألحق بخيبر فأُصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني التجار، فأعطته ماله.

وسمع العباس بن عبد المطلب بما أخبر به الحجاج أهل مكة، فسعى إليه مهموماً حزيناً حتى وقف إلى جنبه في خيمة من خيم التجار فقال له:

يا حجاج، ما هذا الذي جئت به؟

فأجابه: وهل عندك حفظ لما أخبرك به؟

فقال العباس: نعم.

فقال الحجاج: استأخرْ حتى ألقاك على خَلاء، فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرفْ حتى أفرغ.

وفرغ الحجاج من جمع كل شيء كان له بمكة وأجمع الخروج منها، وسعى إلى العباس بن عبد المطلب يخبره بحقيقة ما جرى ويطمئنه، وقال له:

احفظ عليّ حديثي ـ يا أبا الفضل ـ فإني أخشى الطلب ثلاثاً، ثم قل ما شئت.

يا أبا الفضل، إني ـ والله ـ تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم(١)، وقد افتتح خيبر وغنم ما فيها وصارت له ولأصحابه!!.

ولم يصدِّق العباس أُذُنَيْه، فقال لصاحبه: ما تقول يا حجّاج؟

فأجابه: إي ـ والله ـ فاكتم عنّي، ولقد أسلمتُ وما جئتُ إلا لآخذ مالي خوفاً أن أُغلب عليه، فإذا مضت ثلاثٌ فأظهِرْ أمرك، فهو والله على ما تحب.

ومضت أيام ثلاث، وخرج العباس من بيته وقد لبس حُلَّة فاخرة وتخلّق(٢) وأخذ عصاه، ثم سعى إلى الكعبة فطاف بها وعيون أهل مكة ترمقه وتعجب من صنيعه.

وتقدم إليه رجالٌ فقالوا:

يا أبا الفضل، هذا ـ والله ـ التجلُّد لِحَرِّ المصيبة!!

وابتسم العباس ابتسامة ساخرة، وقال لهم:

كلا، والله الذي حلفتم به، لقد افتتح محمد خيبر ونزل عروساً على بنت ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها، وأصبحت له ولأصحابه!!

وذُعِر أهل مكة من قول العباس وقالوا: من جاءك بهذا الخبر؟!

فأجاب: الذي جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلماً، وأخذ أمواله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه!!

ومضت أيام قليلة، وجاء أهلَ مكة الخبر اليقين، وتأكدوا من قول العباس، وعرفوا أنَّ الحجاج قد خدعهم، فجعلوا يقولون:

---

(١) يريد حُيَيَّ بن أخطب، والد صفية رضي الله عنها.
(٢) تخلّق: وضع الخَلوق، وهو نوع من الطيب.

يا لَعبادِ الله، انفلَت عدو الله، أما ـ والله ـ لو علمنا لكان لنا وله شأن!!.

انكسرت شوكة يهود بفتح خيبر، وذلّ أهلها ذلّة كبيرة، ورَجوا رسول الله ﷺ أن يقرّهم في أرضهم على أنّ لهم نصف الغلال، فأقرّهم واشترط عليهم أن يخرجوا متى أراد.

وجلست زينب بنت الحارث وبها من الهمّ ما لا يوصف.. كانت حزينة منكسرة، فقد قُتل في معارك خيبر أبوها وأخواها وزوجها سلّام بن مشكم، وبكتهم بدموع غزيرة، وناحت عليهم نوحاً طويلاً.

وقالت زينب في نفسها:

أما ـ والله ـ لأنتقم من نفسي من محمد، فلقد فجعني فجيعة لم تفجعها امرأة في خيبر، فإن كان نبياً كما كان يحدّثني زوجي سلّام مَنَعه الله مني، وإلا فسوف أُصيب منه بعض ثأري.

وفكرت زينب كيف تنتقم، وهداها تفكيرها إلى أن تشوي شاة ثم تسمُّها ثم تسعى إلى صديقتها صفية بنت حُييّ، فتستشفع بها للوصول إلى محمد رسول الله، وتقدم له هذه الشاة على أنها هدية، فيأكل منها فيستبين أمرُه لها.

وخرجت زينب إلى رجال قومها فأعلمتهم بما اعتزمت أن تصنعه، فقالوا لها: وتفعلين ذلك؟! فأجابت: نعم والله. فقالوا: هيّا افعلي لعلّنا نستريح منه، فقد نكبَنا والله نكبة العمر!!

وسألتهم زينب:

ولكن أين ترون أن أكثر من السمّ؟

فأجابوها: أكثري منه في الذراع، فإنّا قد بلَغنا أن محمداً يحبّ الذراع. وقالت زينب: نعم سأفعل.

وفي مساء يوم من الأيام حملت زينب بنت الحارث شاة مشوية قد دسَّت فيها سمّاً كثيراً، ثم انطلقت بها إلى رَحْل رسول الله ﷺ، فاستقبلتها هناك صديقتها صفية، فبادرتها زينب قائلة ـ تريد خديعتها ـ:

أما ـ والله ـ لقد تأكد لي صدق ما كان يخبرني به سلّام زوجي عن محمد، ولكن واأسفاه ليت سلاّماً كان آمن به قبل أن يموت، وها أنا ذا قد جئت بهدية إلى محمد أتودّد بها إليه.

وأقبل رسول الله ﷺ إلى رحله بعد أن صلى المغرب بأصحابه فوجد زينب تنتظره، فبادرته قائلة:

يا أبا القاسم، هدية أهديتها لك.

ثم قدّمت الشاة وانصرفت.

ودعا النبي ﷺ من حضر من أصحابه إلى الطعام فجلسوا، وتناول هو الذراع فمضغ منه شيئاً فلم يسغه، فلفظه وتناول بِشْر بن البراء عظماً فمضغ منه هو الآخر، لكنه أحسَّ أنَّ فيه شيئاً فأراد أن يلفظه، بَيْدَ أنه كره أن ينغِّص على رسول الله أكله فأساغه، وحمل عدد من الصحابة الطعام بأيديهم يريدون أن يأكلوا، لكن رسول الله صاح فيهم:

«أمسكوا فإنها مسمومة!.

إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم»!!

وأمسك النبي وأصحابه عن الطعام، وسرى السم في جسم بشر بن البراء فتحول لونه في الحال، وأيقن النبي أن اليهودية تريد أن تقتله، فأرسل وراءها فجيء بها، حتى إذا مثلت بين يديه نظر إليها نظرة غاضبة وقال لها:

«أسَمَمْتِ هذه الشاة؟»

فأجابت: من أخبرك؟

فقال: «أخبرتني هذه الذراع التي في يدي!!».

وأدركت اليهودية أن سرّها قد انكشف لرسول الله وأن الله قد عصمه منها، فقالت: نعم.

فقال لها: «وما حملك على ما صنعت»؟

فأجابت: قتلتَ أبي وزوجي وأخويّ، ونِلتَ من قومي ما نلت، فقلت: إن كان نبيّاً فسيطلعه الله، وإن كان مَلِكاً استرحنا منه.

ونظر النبي ﷺ إليها وقال لها:
«ما كان الله ليسلّطك عليّ»!!

وردّت زينب:
نعم ـ والله ـ ما كان الله ليسلطني عليك، ولقد استبان لي الآن أنك صادق، وأنا أشهدك ومن حضر أني على دينك، وأن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله!!.

* * *

وبينا كان يهود خيبر ينتظرون متلهفين من يقول لهم: إن محمداً قد مات الليلة مسموماً من شاة زينب؛ إذ بواحد من أصحاب رسول الله يأتيهم فيقول لهم: أجيبوا رسول الله.

وسُقط في أيدي يهود، ولم يجدوا بدّاً من الإجابة، فانطلقوا إلى النبي؛ حتى إذا جاؤوه قال لهم:
«إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيّ»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال: «مَن أبوكم»؟

فقالوا: أبونا فلان.

فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«كذبتم أبوكم فلان»[1].

فقالوا: صدقت وبررت.

قال: «فهل أنتم صادقيّ في شيء إن سألتكم عنه»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال لهم: «مَنْ أهل النار»؟

فقالوا: نكون فيها زماناً ثم تخلفوننا فيها.

فقال لهم: «اخسئوا فيها[2]؛ والله لن نخلفكم فيها أبداً»!!

ثم قال لهم: «هل أنتم صادقيّ عن شيء إن سألتكم عنه»؟

فقالوا: نعم.

فقال: «أجعلتم في هذه الشاة سمّاً»؟

فقالوا: نعم.

فقال: «فما حملكم على ذلك»؟

فقالوا: أردنا إن كنت كذاباً أن نستريح منك، وإن كنت نبيّاً لم يضرّك.

وصاح من حضر من المسلمين:
كيف وجدتم يا أعداء الله!

وانصرف يهود مخذولين مقبوحين، وردّ الله كيدهم في نحورهم، ونجّى رسوله من شرورهم!!.



(١) أي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.
(٢) اخسئوا فيها: اسكنوا سكون ذلّة وَهَوان.

ملاحظة:

اختلف العلماء في نهاية زينب التي سمّت الشاة، فقال بعضهم: عفا عنها رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: بل قتلها رسول الله ﷺ ببشر بن البراء بعد أن مات مسموماً، وهذا القول هو الراجح.



المراجع:

- صحيح البخاري، (باب إذا غدر المشركون بالمسلمين).
- صحيح مسلم، (باب غزوة خيبر).
- فتح الباري، ٩/ ٣٧.
- البداية والنهاية، ٤/ ١٨١.
- مغازي الواقدي، ٢/ ٦٣٣.
- سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٢٨.



محمد علي دولة

٦

مُغيث وبَريرة

١

أحبّ أبو أحمد بن جحش ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ عبدَه مُغيثاً وأعجب به، فقد كان عبداً أميناً صادقاً، ينشط في خدمة سيده ويجلب له النفع الكثير. ثم إنه سرعان ما استجاب له حينما دعاه ليؤمن بالله ورسوله، فآمن وصدّق، وعَبَد الله في يقين.

وشعر مغيث بمكانته عند سيده، وأدرك كبير منزلته عنده، فطلب منه أن يزوجه، فأجابه أبو أحمد:

نعم يا مغيث، لكن دَعْنا الآن نهاجر إلى رسول الله ﷺ، وهناك في يثرب سوف أُزوِّجك بمن تحب إن شاء الله تعالى.

وخرج أبو أحمد من مكة مهاجراً إلى المدينة، وجعل ينشد في طريقه:

ولمّا رأتني أمُّ أحمد غادياً ... بذمَّة من أخشى بغيبٍ وأرهبُ
تقول فإمّا كنتَ لا بدَّ فاعلاً ... فيمِّمْ بنا البلدان ولْتَنْأ يَثْربُ
فقلتُ لها: بل يثرب اليوم وجْهُنا ... وما يشأِ الرحمنُ فالعبدُ يركبُ
إلى الله وجهي والرسولِ ومن يُقم ... إلى الله يوماً وجهَه لا يُخيبُ

وكانت تلك الأبيات وغيرها تطرب مغيثاً، فتحمله على أن يستعيدها

من سيده، ويستنشده إيّاها مراراً وهم في طريقهم الطويل إلى دار الهجرة.

* * *

وفي يثرب وبعد أن استقر بهم المقام أعاد مغيث الطلب على سيده بأن يزوجه، فما كان من أبي أحمد إلا أن قال له: فتش لك عن زوجة في إماء المدينة وأخبرني كي أُزوِّجك إياها.

وانطلق مغيث يبحث في دور المدينة وأحيائها، وأخيراً عَلِق قلبه بجارية جميلة كانت في بيت من بيوت الأنصار يقال لها: «بَرِيرة»، فعاد إلى سيده مسرعاً يقول له:

قد وجدتها يا سيدي، إنها «بَرِيرة» وإنها في بيت آل فلان من الأنصار.

ومشى أبو أحمد إلى أهل بريرة[1]، وكلَّمهم في شأنها، فرضوا بتزويجها لمغيث، لكن بَريرة لم يعجبها هذا الزوج، وأخبرت مولاتها أنها لا تريده، ثم استعبرت باكية، فرقَّت لها مولاتها وقالت لأبي أحمد: أما نحن فقد رضينا، لكن بَريرة لم ترضَ بصاحبكم، فدَعْنا أياماً نراودها على هذا الأمر فعسى أن تستجيب لنا.

* * *

وحزن مغيث أنْ لم ترضَ به بَريرة زوجاً، واغتمّ لذلك كثيراً، وجعل يقول لسيده:

يا سيدي إنك امرؤ لبيبٌ شاعر، لك لسان وقلب[2]؛ فارجع إليهم فعسى أن تستميل قلب هذه الجارية، فوالله إن قلبي قد هويها، وما أرغب بزوجة سواها.

وأشفق أبو أحمد على صاحبه وتردد على الأنصار مراراً، وراودهم

---

(١) أهلها: أي: سادتها ومالكوها.
(٢) قلب: عقل ورشد.

عن فتاتهم، وأخيراً استطاع أن ينتزع من الجارية رضاها الظاهري بالزواج من مغيث، ثم عاد سريعاً ليزفّ إليه هذه البشرى الغالية.



تزوج مغيث من بَريرة وسعد بقربها سعادة كبيرة؛ أما هي فقد سُقط في يدها، ورأت أنها خُدعت عن نفسها، وأنها أوت إلى زوج لا تجد له في قلبها ميلاً ولا عطفاً، فانطوت على نفسها تجترّ أحزانها وآلامها، وجعلت تندب حظها وتقول:

والله ما أردتُه ولا رغبتُ به؛ ولكن ما حيلتي والقدر غالب!!

كانت أحزان بَريرة عظيمة، لكن الله ـ سبحانه ـ هيأ لها ما تخفف به عن تلك الأحزان، فقد فُتح لها باب أكرم بيت من بيوت النبي ﷺ، فجعلت تأوي إليه وتأنس به.

لقد فتح لها باب حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها، فأخذت تأوي إليها وتخدمها.. وحُبِّبت بَريرة إلى عائشة، فجعلت تحسن استقبالها، وتبشّ في وجهها.

ورغب الأنصار أن تخدم جاريتهم زوج النبي ﷺ، ورغب مغيث بذلك أيضاً، ولم يجد فيه غضاضة، فقد كان محبّاً لله ورسوله، راغباً في كل ما يدخل السرور على قلب رسول الله ﷺ.

ونمت المودّة بين عائشة وبَريرة على الأيام، وجعلت الأخيرة تفضي لعائشة بمكنونات فؤادها، فحدّثتها عمّا تجده في قلبها تجاه مغيث، وقالت لها: والله لقد أكرهني أهلي على الزواج منه، وما أجد له في قلبي ميلاً، وما أدري ماذا أصنع!!

لكن عائشة طلبت إليها أن تسكن إلى زوجها، وترضى بما قُدِّر لها، وقالت لها فيما قالت:

يا بريرة اتقي الله واصبري على زوجك فإنه رجل صالح، وعسى الله أن يذهب همّك، وأن يرزقك محبة زوجك.

❁ ❁ ❁

وأكثرت بريرة الشكوى، وأعادت عليها عائشة نصائحها مرات عديدة في أن تركن إلى زوجها، وتبادله مودة بمودّة، وترضى بما قسم الله لها، وحاولت بريرة أن تستجيب لنصح السيدة العظيمة، ووطّنت نفسها على أن تحاول فتح قلبها لهذا الزوج الَّذي يحبّها كثيراً، وأن تبذل جهدها في أن تستسيغ عشرته، وتتشرب مودّته.

ومضى عليها وقت وهي تُجهِد نفسها في هذه المحاولة؛ لكنها أخفقت ورأت أنَّ قلبها لم يعلق شيئاً من المودّة لهذا الزوج الهائم بها، وأن مرور الزمان لا يزيدها إلا جفاءً له ورغبة منه.

وكلّمت بَريرة عائشة في زوجها من جديد، وقالت لها:

والله يا أم المؤمنين إن قلبي يبغض مغيثاً ولقد جهدت أن أُصيب شيئاً من مودّته فما استطعت وما أدري ما أنا صانعة بحياتي معه!!

وأجابتها عائشة هذه المرة:

اصبري يا بَريرة، فلعلّ الله يحدث لك من أمرك فرجاً.

٣

اشتدت الأمور على مغيث، وملأت الأحزان قلبه فقد كان يبذل لزوجته المودّة العظيمة وتقابله هي بالجفاء الكبير.. ورأى أن يستعين بسيده أبي أحمد على زوجه، فكلّم هذا بَريرة فلم تلن له أبداً، ولجأ مغيث إلى الأنصار يستعين بهم أيضاً على مولاتهم، لكن هؤلاء لم يهتموا بأمره كما أحبّ؛ فلم يحظ منهم بطائل.

ورأت أُم أحمد ـ مولاة مغيث ـ ما به من الحزن فأرادت أن تُريحه من أحزانه فقالت له:

ما لك يا مغيث! أراك قد أهمّك شأن بَريرة كثيراً!! النساء سواها كثير!!

فأجابها:

لا والله يا مولاتي، ليست لي رغبة عنها، ولا ميل إلى سواها!!

وقالت مولاته:

اصبر إذن حتى تضع لك ما في بطنها، وعندما ترزق بالولد منك لسوف يتغير قلبها نحوك، ولسوف تميل إليك شيئاً فشيئاً.

وفرح مغيث بما سمع، وجعلت نفسه تمنّي الأماني.

أما بَريرة فلم يزدها مرور الأيام والليالي إلا كراهية لهذا الزوج المحب، بل لقد نمت كراهيته في قلبها حينما رُزقت منه الأولاد، وتمنّت ألّا تكون قد ولدت له أي ولد، وحينما أقبلت عليها عائشة تزورها في نفاسها وتبارك لها في مولودها الأخير، بكت أمامها بكاءً حارّاً حتى لقد أشفقت عليها عائشة ورقّت لها رقة شديدة، وقالت لها:

هل لك يا بَريرة أن تشتري نفسك من أهلك؛ فإنك إذا ما فعلتِ ذلك هان عليك أمرك وملكت نفسك، وإذا شئت فارقت زوجك.

وتنهّدت بَريرة من أعماقها، وأطلقت آهة حرّى، وقالت:

قد عرضت عليهم مراراً أن يهبوني حريتي فلم يقبلوا، حتى كأنه ليس في الدنيا أمة تصلح لأمورهم سواي.

ولكني سأصبر على أمر الله حتى يُذهِب الله عنّي همّي وغمّي.

٤

مضت عدة سنوات على زواج مغيث من بَريرة، ولم تزد تلك السنوات الزوجةَ إلا بُعداً عن زوجها.. كانت تراودها بعض الآمال في أن تنفرج كربتها، فلم تيأس، ولم يخلُ قلبها من أمل يخفق فيه بين الحين والآخر.

وأخيراً أقبل اليوم الذي كانت تنتظره، وفوجئت بَريرة من أهلها يقولون لها ذات يوم:

قد رضينا أن نهبك نفسك يا بَريرة وتدفعي لنا كذا وكذا في تسع سنين.

وتلقت الجارية هذا النبأ بسرور بالغ، وهرعت إلى السيدة عائشة تخبرها قائلة:

(يا أُم المؤمنين، إن أهلي كاتبوني[١] على تسع أواقٍ في تسع سنين، في كل سنة أوقية، فأعينيني).

إنه اليوم الذي أنتظره يا أُم عبد الله، فرِّجي همّي فرَّج الله همّك.

وضحكت السيدة عائشة وقالت لها:

أبشري يا بَريرة فأنا والله أُريد في هذه الأيام أن أتقرب إلى الله بعتق رقبة، وليس أحبّ إليّ في الوجود من أن أعتقك وأُريحك من همومك.

تعالَي يا بَريرة وخذي هذا المال فزِني لأهلك تسع أواقٍ، ثم ادفعيها لهم دفعة واحدة واملكي نفسك.

***

لم تكد بَريرة تصدق أنها قد ملكت ثمن حريتها، فحملت المال إلى أهلها فصبَّته بين أيديهم صبّة واحدة، ثم عادت والدنيا لا تسعها من

(١) الكتابة أن يتفق العبد مع سيده على مال يؤديه إليه أقساطاً، فإذا أدّاه صار حرّاً.

السرور، وأقبلت على السيدة تشكرها وتثني عليها أطيب الثناء، وتقول لها:

لسوف أطلب من رسول الله ﷺ أن يفرِّق بيني وبين مغيث، فأنا قد أصبحت حرّة وهو لا يزال عبدٌ.

الحمد لله يا أُم المؤمنين، لقد فرّج عني همّي وكشف غمّي، ولقد وجدت الصبر شيئاً عظيماً!!.

❁ ❁ ❁

وفي مساء هذا اليوم أقبلت بَريرة على حجرة عائشة، فاستأذنت على رسول الله ﷺ فأذن لها، فسلمت ثم قالت:

يا رسول الله، إني أُريد أن تفرّق بيني وبين زوجي مغيث فقد أصبحت حرّة، وأنا لا أطيق البقاء معه، وسَلْ أم عبد الله عائشة تخبرك كيف حالي معه.

وابتسم النبي لقول بَريرة، ووعدها أن يستجيب لما طلبته منه، وأن يريحها مما تعانيه.

٥

فرَّق النبي ﷺ بين مغيث وزوجه بَريرة، وأرسل إليه يعلمه بذلك، فصعق مغيث لما سمع، وركبه من الحزن ما لا يوصف، وضاقت عليه الأرض على وسعها، وأحسّ وكأنه قد فقد روحه التي بين جنبيه.

وأخذ هذا العبد الولهان يجري وراء بريرة في المدينة من مكان إلى مكان، ويلين لها الكلام، ويستميلها بأجمل الحديث، وجعلت هي لا تصغي أبداً لحديثه، وتعرض عنه إعراضاً تاماً.

وتشفَّع مغيث إلى بَريرة بجميع من يعرف، وأرسل إليها الرجال والنساء؛ لكن ذلك لم يُجْدِه شيئاً.

وعاد هو يستشفع لها بدموعه السخية وجعل يطوف خلفها في سكك

المدينة يبكي ودموعه تسيل على لحيته؛ لكنها كانت تعرض عنه ولا تأبه لدموعه وبكائه!!

وكان كل من يرى مغيثاً يجري وراء بريرة وهو يبكي ويستعطفها، يرقّ له، ويحزن لحاله، ولقد كان ممّن حزن له النبي ﷺ، ففي يوم من الأيام وبينا رسول الله يمشي في سوق المدينة وإلى جانبه عمّه العباس إذا بمغيث يتبع بَريرة باكياً يتوسل إليها أن تعود إليه.

وعجب صلوات الله وسلامه عليه مما رأى، والتفت إلى عمّه العباس قائلاً:

«يا عباس، ألا تعجب من حب مغيثٍ بَريرة، ومن بغض بَريرة مغيثاً»؟!

وأجاب العباس:

نعم والَّذي بعثك بالحق، إن أمرهما لعجيب!!

والتفت مغيث فرأى النبي ﷺ، فأقبل عليه وقال له:

يا رسول الله نشدتك الله أن تشفع لي عند بَريرة.

وحزن النبي ﷺ لحاله وأرسل وراء بَريرة، فأقبلت عليه فقال لها:

«يا بريرة، اتقي الله، فإنه زوجك وأبو ولدك، لو راجعتهِ».

ونظرت بريرة إلى النبي ﷺ ـ وقد عرتها سحابة من الحزن ـ وقالت له:

يا رسول الله، تأمرني؟

وأجاب عليه السلام:

«لا.. إنما أنا أشفع».

وسُرِّي عن بريرة حزنها الذي ألمَّ بها في الحال وقالت للنبي:

إذن (فلا حاجة لي فيه. وما أحبّ أن أكون معه وأنَّ لي كذا وكذا).

٦

تِلكم هي قصة بريرة مع زوجها مغيث.

أحبها كثيراً، وأبغضته كثيراً!!

صبرت على عشرته طويلاً، وعاشت تتوق ليوم فراقه.

وأخيراً جاء هذا اليوم، ففرّق بينهما رسول الله، فشعرت وكأنها خرجت من جحيم؛ لكن كلمة من رسول الله ﷺ كادت تقضي على جميع آمالها، وتهدر جميع ما تحمَّلته من زوجها، وتجعلها تعود إلى شقائها راضية مرضية طاعة لله ولرسوله.

فحين قال لها النبي ﷺ:

«لو راجعتِه».

وطَّنت نفسها على أن تذعن له تمام الإذعان إن كان يريد الأمر الحتم، لكنها حينما استوضحته علمت أنه شافع لا آمر، وعندها أجابته بأدب رفيع وذكاء بليغ وقالت:

(لا حاجة لي فيه)[١].



ومن حق بريرة عليك ـ أيها القارىء الكريم ـ أن تعلم أن لها شأناً غير شأن الحب والبغض، وغير شأن الطاعة الخالصة لله ولرسوله.

من حقّها عليك أن تعلم أنها كانت مؤمنة عاقلة جريئة صادقة، لا تقول إلا حقاً مهما كلفها ذلك.

فحين سألها رسول الله ﷺ ـ يوم الإفك ـ عن عائشة، أجابته:

---

(١) يظهر أدبها وذكاؤها في هذا الجواب من حيث إنها لم تردّ به الشفاعة.

لا والله، ما علمت عليها عيباً، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل عجينها.

وانتهرها يومئذٍ بعض أصحاب النبي وقال لها:
أصدقي رسول الله.

فقالت:
سبحان الله! والله ما علمت عليها إلا كما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر[1]!!

ثم التفتت إلى النبي ﷺ وقالت:
يا رسول الله، والله لَعائشة أطيب من الذهب، ولئن كانت صنعت ما قال الناس ليخبرنَّك الله!!

وعجب الناس يومها من كلامها وفهمها عجباً كبيراً!!.

❁ ❁ ❁

ومن حقّها عليك أيضاً أن تعلم أنها كانت عالمة محدِّثة فقيهة، ذات فِراسة.

فقد رُوي عن عبد الملك بن مروان ـ أبي الملوك من بني أمية ـ أنه قال:
كنت أُجالس بريرة بالمدينة، فكانت تقول لي:
يا عبد الملك إني أرى فيك خصالاً، وإنك لخليق أن تلي هذا الأمر، فإن وليته فاحذر الدماء، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«إن الرجل لَيُدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها بملء محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق».

❁ ❁ ❁

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري:
أي: كما لا يعلم الصائغ من الذهب الأحمر إلا الخلوص من العيب، فكذلك أنا لا أعلم منها إلا الخلوص من العيب.

المـراجــع:

ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ١١/ ٣٢٨.
ـ صحيح مسلم: ٢/ ١١٤١.
ـ جامع الأصول، لابن الأثير، ٧/ ٦١٥.
ـ الإصابة للحافظ ابن حجر: ٦/ ١٩٦ و ٧/ ٥٣٥.
ـ أسد الغابة: ٥/ ٢٤٣ و ٧/ ٣٩.

الرّجل الّذي أضاع الفرصة الذهبيّة

١

ارتفع ذكر شرحبيل بن الأعور في قبيلته بني الضِّبَاب بن عامر، وفي قومه بني عامر بن صعصعة ارتفاعاً كبيراً، بل ما زال ذكره يعلو ويرتفع حتى عرف في جميع بلاد الحجاز، وبات اسمه واحداً من الأسماء التي تذكر في سادات العرب جميعاً.

كان اسمه الَّذي سمّاه به أبواه «شرحبيل» لكن قلة من الناس كانوا يعرفونه به.. كان معظم الناس ينادونه: «ذا الجوشن» وقد اشتهر بهذا اللقب حتى طغى على اسمه، وأصبح الناس لا يعرفونه إلا به، وكان هو يفخر بهذا اللقب، فهو يدلّ على مكانته عند أكبر ملوك زمانه: «كسرى» ملك بلاد فارس.

لقد وفد شرحبيل على كسرى فأكرمه هذا وأهداه، وكان في جملة ما أهداه له درع سابغة رائعة لم يرَ العرب لها مثيلاً، لبسها شرحبيل وعاد بها من إيوان كسرى، ورآها عليه الكثيرون من العرب فأُعجبوا بها، وجعلوا ينادونه «ذو الجوشن»[1].

وحقٌّ لشرحبيل هذا أن ينال هذه الشهرة في دنيا العرب، فقد كان فارساً شجاعاً، وبطلاً مغواراً، وسيداً نبيلاً.

---

(١) الجوشن: الدرع.

وكان إلى جانب ذلك شاعراً مطبوعاً مُجيداً، يحسن الشعر، ويرويه الناس عنه، وقد وقف شعره على الفخر بنفسه، والإشادة بمجده، وكان من شعره الَّذي يفخر فيه قوله:

منعتُ الحجاز وأعراضه ... وفرَّت هوازن عني فرارا
وأعددتُ للحرب وثّابة ... وأجردَ نَهْداً يصيد الحمارا[1]
وفضفاضةً مثل مَوْر السرا ... ب ينكسر السهم عنها انكسارا[2]

وحين قتل أنس بن مدرك الخثعمي ـ أبو سفيان ـ أخاه الصُّمَيل، انتقم لأخيه أشد الانتقام وأرسل أشعاره مُرْغية مزبدة يهدد بها أعداءه ويفخر بنفسه، وكان فيما قال لهم:

وقالوا كسرنا بالصُّميل جناحَه ... فأصبح شيخاً عِزّه قد تضعضعا
كذبتم وبيتِ الله لا تبلغونني ... ولم يَكُ قومي قوم سَوْء فأجزعا
فيا راكباً إمّا عرضتَ فبَلِّغا ... قبائل عَوْهَى والعُمور وألمعا[3]
فمَن مبلغٌ عني قبائل خَثْعَم ... ومَذْحِجِ هل أُخبرتم الشأن أجمعا
بأن قد تركنا الحيَّ حيَّ ابن مُدْرِكٍ ... أحاديث طَسْم والمنازل بَلْقعا[4]
جزينا أبا سفيان صاعاً بصاعه ... بما كان أجرى في الحروب وأوضعا



كان ذو الجوشن الضِّبابي سيداً نبيلاً، وكان يقدِّر النبلاء من الرجال، ويعجب بهم، ويتقصَّى أخبارهم.

---

(١) الوثابة: الفرس السريعة الجري. الأجرد: الفرس القصير الشعر. النهد: الذي ينهض للأعداء ويصمد في القتال. الحمار: حمار الوحش.
(٢) الفضفاضة: الدرع الواسعة. مثل مَوْر السراب: أي: تضطرب وتتحرك كما يتحرك السراب.
(٣) عَوْهى والعمور وألمع: أسماء لقبائل عربية.
(٤) طسم: من القبائل العربية البائدة والتي كانت حديث الناس، وكل من هلك وباد يشبه بها. بلقع: قفر.

ومن يوم أن سمع باسم النبي محمد ﷺ جعل يسأل الناس عن أخباره، وأخذ يرقب ما يجري بينه وبين قومه ويتابع الأحداث عن كَثَب.

كان معجباً بشجاعة رسول الله ﷺ إذ وقف كالطود الشامخ في مكة عاصمة العرب، يصرخ في الناس جميعاً:
(أيها الناس، قولوا لا إلّه إلاّ الله تفلحوا).

ويدعوهم إلى أن يَدَعوا دين الآباء والأجداد، ويتركوا اللاّت والعُزَّى، وإساف ونائلة، ومناة وهُبَل، وغيرها من الأصنام.

ولقد أعجبته أيضاً بطولات أصحابه حينما تحملوا ما تحملوا من أجل دينهم الجديد، حتى لقد هجروا أوطانهم لذلك!!

ولم يكن ذو الجوشن بالرجل الّذي يحقّر قريشاً ورجالاتها، بل كانت لهم في نفسه منزلة، فهم عنده ملوك العرب وسادة الناس، لذا فالمعركة التي تدور بينهم وبين محمد معركة ذات شأن كبير، ومن يكتب له الغلبة أخيراً فهو البطل الَّذي يجب أن يعظم أمره عنده أكثر من صاحبه.



وحينما هاجر رسول الله من مكة المكرمة وخرج منها وحيداً إلا من صاحبه الصدِّيق؛ أدرك ذو الجوشن أن حدَّة الصراع قد التهبت، وأن كِلا الفريقين قد كسب شوطاً في المعركة بحسب منظوره، وأن الأيام الحاسمة لا بدّ آتية، فما عليه إلا أن ينتظر.

وحدث ما لم يكن بحسبان أحد... جرت معركة بدر، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً، وخُذل فيها المشركون من قريش خذلاناً مبيناً... صُرع زعماؤهم وأُسر سَرَاتهم، وانهزم معظمهم.

ودوّى في دنيا العرب أن محمداً ﷺ قد انتصر بأصحابه القلائل من

المهاجرين والأنصار على جيش قريش الَّذي كان يفوقهم كثيراً في العدد والعدّة.

وارتفع شأن المسلمين في أعين الناس، وأُصيبت قريش في كرامتها بمصاب كبير، فلم تعد تلك القبيلة التي لا يقدر أحد أن ينال منها، ولا يجرؤ أحدٌ أن يُنازلها.

وسمع ذو الجوشن بالنبأ العظيم، فأعظم النبي محمداً ﷺ على هذا النصر الَّذي أحرزه، وازداد اعتقاده بأن الصراع بين الفريقين قد اتجه اتجاهاً خطيراً ومخيفاً، وبأن أحدهما لا بدّ قاضٍ على الآخر في نهاية الأمر؛ لكن لمن ستكون الدائرة؟

هذا هو الأمر الَّذي لم يستطع الرجل أن يتنبأ به، لذا آثر التربص مع المتربصين. لكنه وهو البطل الشجاع الَّذي تطربه البطولات أحبّ أن يفد على رسول الله ﷺ فيهنئه بهذا النصر، ويزرع عنده معروفاً يرجو أن يكافئه عليه في مستقبل الأيام.



ونادى ذو الجوشن ابنه شَمِراً فجر يوم من الأيام وقال له:

أسرج لي القرحاء[1]، واقتدْ لي ابنها، فإني أُريد أن أذهب إلى محمد في يثرب فأهديه هذا المهر.

وجاء شمر بالقرحاء وابنها إلى أبيه، وعلا ذو الجوشن متن فرسه، ثم انطلقت تعدو به شطر رسول الله.

وفي يثرب دخل الرجل على رسول الله مسجده، فسلّم ثم جلس، ورحب به النبي ترحيباً يليق به، وأجلسه إلى جنبه، وأقبل عليه بوجهه وبشَّ له.

(١) القرحاء: اسم لفرس ذي الجوشن.

وهناك ـ وفي حضرة عدد من الصحابة ـ جرى هذا الحوار الطريف بين الرجلين:

ذو الجوشن:

يا محمد، قد جئتك بابن القرحاء لتتخذه.

رسول الله:

«لا حاجة لي فيه، وإن أردت أن أقيضك به المختارة من دروع بدر فَعَلْتُ»[١].

ذو الجوشن:

ما كنت لأقيضه اليوم بغرَّة[٢]!!

رسول الله:

«إذن لا حاجة لي فيه».

❁ ❁ ❁

وسكت رسول الله ﷺ برهة ثم أقبل على الزعيم العامري يتابع محاورته:

«يا ذا الجوشن، ألا تُسْلِم فتكون من أول أهل هذا الأمر؟»

ذو الجوشن:

لا.

رسول الله:

«ما يمنعك من ذلك؟»

ذو الجوشن:

(١) لا حاجة لي فيه: قال هذا النبي ﷺ لأنه كان لا يقبل هدية مشرك. أقيضك: أُبادلك.

(٢) غرة: النفيس من كل شيء. ويريد: ما كنت لأقيضَه بالشيء النفيس المرغوب فيه.

رأيت قومك قد كذّبوك، وأخرجوك، وقاتلوك، فانظر ماذا تصنع: فإن ظهرتَ عليهم آمنتُ بك واتبعتك، وإن ظهروا عليك لم أتبعك.

رسول الله:

«فكيف بلغك عن مصارعهم ببدر؟!».

ذو الجوشن:

قد بلغني!!

رسول الله:

«فأنّى يُهدى بك؟[1]».

ذو الجوشن:

إن تغلب على الكعبة وتقطنها

رسول الله:

«**لعلك إن عشت ترى**»!!.

***

أنهى رسول الله ﷺ حواره مع الرجل بعد أن أدرك أنه ـ بالإضافة إلى ما سمع عن بطولته ونبله ـ سياسي نهّاز للفرص، وأنه لم تحن بعد الساعة التي لا خيار له فيها إلا أن يعتنق الإسلام ويدين به.

وعلى عادته صلوات الله عليه في إكرامه كل من كان يفد عليه لا سيما سادة الناس؛ نادى بلالاً:

«يا بلال، خذ حقيبة الرجل فزوده من العجوة».

وأخذ بلال الحقيبة وملأها من العجوة، ثم جاءه بها فحملها ذو الجوشن، ثم ودع رسولَ الله وانطلق يريد الرجوع إلى أهله، حتى إذا كان غير بعيد عن النبي ﷺ سمعه يقول لأصحابه:

(١) أنّى يهدى بك: متى تهتدي إلى الحق؟

«أما إنه من خير فرسان بني عامر».

فكان لهذه الكلمة أجمل الوقع في نفسه وأحلاه.



عاد العامري إلى قومه بالغَوْر وأخذ ينتظر لمن ستكون الغلبة:
لمحمد رسول الله ﷺ وصحبه أنصار الإسلام.

أم لمُشرِكي مكة، حماة دين العرب، وسَدَنَة بيتهم العظيم؟

ومضت سنوات والصراع على أشده بين الفريقين:
حدث يوم أُحد فرجحت كفة قريش.
ثم جاء يوم الخندق فرجحت كفة المسلمين.

وكان يوم الحديبية، فظن الناس أنه لقريش.

ودخل المسلمون مكة في العام الَّذي يلي صلح الحديبية، وطافوا حول الكعبة، فكان يوماً خالداً من أيامهم.

وبدا لمن يرقب الأحداث أن الحرب سِجال بين الفريقين، لكن قلّة من الناس أدركت أن الله عزّ وجلّ قد فتح لرسوله بصلح الحديبية فتحاً مبيناً، فقد فُتحت السُّبل أمام الإِسلام، وانطلقت الدعوة تغزو القلوب في شتى أنحاء الجزيرة من غير أن تجد من يصدّها، فدخل في تلك الفترة أُلوف الناس في هذا الدين من غير صليل سيوف ولا قعقعة رماح.



وجاء رمضان من عام ثمانية للهجرة، وتمّ للمسلمين أمر عظيم عاشوا سنوات عديدة يحلمون به..

لقد فتح الله على رسوله مكة المكرمة، وانتهت مقاومة أهلها للإسلام، ودخل معظمهم بل كلهم في الإسلام، وأذلّ الله الشرك بعد أن

عُمِّر زماناً في بلاد العرب، فتكسرت الأصنام، وارتفع نداء التوحيد، وأصبح البيت الحرام بيتاً لله وحده.

وطار في العرب أن محمداً ﷺ دخل مكة فاتحاً، وأن قريشاً قد اتبعته على دينه، فكان خبراً لم يسمع العرب بمثله في تاريخهم الطويل.

وهرع رجل من بني عامر إلى الزعيم المتربص، إلى ذي الجوشن الضبابي، ورآه الزعيم العامري من بعيد، وأدرك أنه يحمل نبأ عظيماً فأسرع إليه يقول له:

ويحك ما فعل الناس؟

وأجاب الرجل:

والله لقد غلب محمد على الكعبة وقطنها!!

وصاح ذو الجوشن:

هَبِلَتني أمي[1]!!

ثم جعل يضرب كفّاً على كفّ ويقول:

ماذا عملتُ، كيف غاب عني رُشدي؟!

واحسرتاه!! لقد ضاعت الفرصة!! لقد أخطأت!!

والله لو أسلمت يومئذٍ، ثم سألته الحيرة لأَقْطَعَنيها.

لقد كان موقناً بظهوره!!

وحين قلت له يومها: إن تغلب على الكعبة وتقطنها اتبعتك على دينك؛ قال لي:

«لعلّك إن عشت ترى»!!

ولقد صدّق الله يقينه، ورأيت ظهوره، وفاتني حظي.

---

(١) هبلتني: فقدتني.

ولكن لئن فاتتني الدنيا، فلسوف لا أدع الآخرة تفوتني.

فأنا أشهد أن لا إلّه إلاّ الله وأن محمداً رسول الله. وها أنا ذا مسرعٌ إلى محمد لأُبايعه على الإسلام.



المراجع:

- مجمع الزوائد: ٦/ ١٦٢.
- مسند أحمد: ٤/ ٦٧.
- الاستيعاب: ٢/ ٤٦٨.
- أسد الغابة: ٢/ ١٧١.
- الإصابة: ٢/ ٤١٠.
- حياة الصحابة: ١/ ١٠٥.
- سُنن أبي داود: ٣/ ٢٢٣.
- ذخائر المواريث: ١/ ٢٠٤.



مصرع طاغية

١

شبّ كعب بن الأشرف في أكناف أخواله من يهود بني النَّضِير، وكان قد فقد والده وهو طفل صغير، وكان من قصة والده «الأشرف» أنه كان أحد بني نَبْهان من طَيّء، ثم إنه أصاب دماً في قومه، فهرب منهم وأوى إلى يهود بني النَّضير في يَثْرب فحالفوه، ثم لم يلبث أن شَرُف فيهم، ثم اغتنى غنىً فاحشاً، فتزوج امرأة من أشرف بيوتاتهم هي «عقيلة بنت أبي الحُقَيق» النَّضرية، وكان يُتَمثل بجمالها وشرفها في قومها، ولقد حسده على الزواج بها جميع شباب يهود، وتمنى كل واحد منهم لو كانت «عقيلة» من نصيبه.

ولئن حُرم كعب حنان الوالد ورعايته وهو في سنواته الأولى، فإنه وجد في والدته ما أنساه أن يذكر والده وأن يشعر بذل اليُتْم وهَوانه وضَيْعته.

ولقد حدبت عقيلة على ابنها حَدَباً عظيماً، ورعته رعاية تامة، ونشَّأته على أحسن صفات الفتوّة والسيادة، وأمَلَت أن يسودَ قومها. ولقد امتنعت عن الزواج بأي رجل من قومها حتى ترى أن ابنها قد بلغ شَرْخ الشباب، واستقلّ بنفسه.

ولم تنس عقيلة أن ترضع ابنها ـ وهي تلقمه ثديها ـ لَبَان اليهودية، وفخر الانتساب للنبي «هارون» عليه السلام، فنشأ يهودياً قُحّاً، لا يعرف له ديناً غير اليهودية، ولا يعرف له نسباً غير الانتساب لبني إسرائيل، يحب

قومه ويدين بهواهم، ويرى فيهم أنهم أهل العلم والكتاب، وأرباب الديانة والهداية، وأهل القدوة والزعامة.

وبلغ كعب العشرين، وإنه ليتجاوز الآن سنوات ما بعد العشرين، وقد شبَّ شباباً رائعاً قلّ أن يضارعه فيه شباب قومه... كان رجلاً طويلاً، جسيماً، ذا بطن وهامة، تام الجسم، جميل الثياب، حسن الهندام، طيب الرائحة، واسع الغنى، ثَقِف اللسان، يقول الشعر ويرويه، ذا رأي وعقل، حتى لقد صار من أهل الرأي عند يهود وهو لا يزال في مَيْعة شبابه.

ولم تشأ الأقدار أن تتم فرحة عقيلة بنت أبي الحقيق بابنها كعب ـ وكانت تتمنى يوم تراه وقد زُفَّ إلى فتاة يهودية تضاهيه في شرفه وحِلْيته ـ فلقد وافاها أجلُها المحتوم وهي تنتظر تلك الأمنية الغالية، فحزن كعب عليها حزناً عظيماً، وفقد فيها قلباً يخفق بحبّ غامر، وحنان كبير، وأحسّ يوم فقدها بفقد أبيه أيضاً... أحسّ يومها باليُتْم وهو الشاب القوي الغني الفتي، واعتصر قلبَه الألمُ، وداخلته مرارات كثيرة، وأحزان ممضّة.

لكنّ كعباً خشي أن تقعده الأحزان عن السعي في طريق المجد الّذي اختطّه لنفسه، فقام من جديد بعزيمة صلبة، واتجه إلى تجارته ينمِّيها، وإلى ماله الكثير يضيف إليه كل يوم شيئاً جديداً.

٢

كان يهود يثربَ من أحسن يهود الحجاز حالاً.. غنىً كبيراً، وتجارة رابحة، وحقولاً ومزارع واسعة، وأمناً وراحة بال، وفوق هذا مكانة اجتماعية عالية، فقد كانوا عند عرب يثرب أهلَ الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عند الأميين؛ فكانوا يعرفون لهم مكانتهم، ويحفظون لهم

تفوقهم عليهم، وكانت المرأة التي لا يلد لها ذكر تنذر إن هي رزقت بالولد الذكر هوّدته، ولقد غدا نتيجة لهذا عدد من الأولاد في يثرب يهوداً وهم من صلب أبوين عربيين!!

وكان يهود يثرب يستفيدون أيما فائدة من العداوة القديمة التي قامت بين حيي الأوس والخزرج في يثرب، فكان كلما طُفئت نار العداوة يشعلونها، وربما انضم كل فريق منهم في الظاهر إلى فريق من العرب، لكنهم في الحقيقة كانوا يحققون لأنفسهم ربحاً عظيماً بهذه الحروب الدائمة بين عرب يثرب، وكان أخشى ما يخشونه أن ينتظم أمر هؤلاء، وتتوحد كلمتهم، ويصيرون جميعاً على من عاداهم.

وبينا يهود يثرب في أنعم حال، إذا بأمر عظيم يهجم عليهم ويقتحم عليهم مدينتهم اقتحاماً وهم لا يشعرون، لقد حدث أمر هائل في يثرب.. لقد دخلها دين جديد ينافس اليهودية، بل ويعلو عليها علواً كبيراً، وها هو ذا نبي هذا الدين محمد رسول الله ﷺ يهاجر إلى هذه البلدة بعد أن أصبح معظم أهلها على دينه، وأصبحوا أنصاراً له وأعواناً. وحلَّ فيها محلَّ السيد الأول، والرئيس المعظَّم.

❁ ❁ ❁

وسُقط في أيدي يهود، وطاشت أحلامهم، وضاقوا ذرعاً بهذا الوافد الجديد، وامتلأ قلوبهم غيظاً ومرارة لمقدمه، وحقدوا عليه حقداً كبيراً، لا سيما وقد أيقنوا أنه النبي الحق المنتظر الَّذي بشّرت به كتبهم... لقد أعلن هذه الحقيقة كبير زعمائهم وأحْبَارهم حُيَيّ بن أخطب، ولقد اعترف للنبي بصدق نبوّته عبد الله بن صُورْيا كبير أَحْبَار بني قُريظة، ثم ها هو ذا حَبْر بني قَيْنُقاع الكبير عبد الله بن سلام يدخل في الدين الجديد راغباً راضياً، ويعيب على قومه ألاَّ يدخلوا في هذا الدين.

وسخط يهود على رسول الله سخطاً كبيراً، واعتملت قلوبهم بعداوة

شديدة له، وضاقوا به ضيقاً عظيماً، ولكن ما عساهم أن يفعلوا وقد تبعه أكثر أهل يثرب، وأحبّوه، وبذلوا له طاعتهم وأموالهم بل وأنفسهم؟!

وزاد من سخط يهود أن النبي ﷺ كتب بين أهل يثرب كتاباً دعاهم فيه إلى الاشتراك جميعاً في دفع الأعداء عن هذه المدينة، وإلى أن يحترم كل فريق دين الفريق الآخر، وإلى أن لا يخون فريق فريقاً آخر، ولا يعتدي عليه، ولا يؤوي عدوه، ولا يعينه عليه، وأنّ على الجميع أن ينصح بعضهم بعضاً.

ولقد اضطر زعماء يهود جميعاً للتوقيع على هذا الكتاب عن قومهم، وكان مما جاء فيه:

(إن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، إلا من ظلم وأثِم فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه وأهله.

وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن النصر للمظلوم.

وأنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من دَهم يَثْرب.

وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم.

وأن من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جارٌ لمن برّ واتقى).

وسُقط في أيدي يهود ثانيةً، وأحسّوا أنهم قد أعطَوا محمداً ﷺ من العهود والمواثيق ما يستطيع به أن يدينهم كلما أرادوا به كيداً، أو أوقعوا به أذى، وأنه يستطيع بموجب هذا الكتاب أن يوقع بهم العقوبات على عدوانهم وأذاهم.

---

(١) يوتغ: يهلك.

وفي جمع حاشد في دار حُيـيّ بن أخطب ثارت ثائرة كعب بن الأشرف ـ وكان أشبّ الحاضرين ـ وخاطب زعماء يهود:

كيف خدعكم محمد عن أنفسكم، وأين غابت عنكم أحلامكم، حتى رضيتم أن يكتب لكم كتاباً يقيِّدكم به في بلدكم؛ وأنتم أهل البلد وهو غريب عنها لاجىء إليها، جاء ليذهب بعزّكم العتيد، ويقوِّض مجدكم التليد، ويحطّ من شأن دينكم بما يدعو إليه من دين جديد!!

وأجابه جُدّيّ بن أخطب:

وأين كان رشدك أنت يا كعب، ألم تخطَّ على الصحيفة بيدك، وتذعن لمحمد كما أذعن له الآخرون؟!

وغضب كعب وأراد أن يردّ على جُديّ، لكن حُيـيّ بن أخطب ناشده أن يكفّ عن المهاترة، واتجه إلى الحضور قائلاً:

يا قوم، تعلمون أن محمداً هو النبي المنتظر، ولقد عرفتُ ذلك فيه وتثبتُّ منه، ولكن ليس له في نفسي ـ والله ـ إلا العداوة ما بقيت، وما تفعل صحيفة بيننا وبينه خُطَّ عليها كلام!!

وتهلّل وجه كعب لكلمة حُيـيّ الأخيرة، وأثنى عليه خيراً، لكنه استدرك قائلاً:

ولكن يا أبا فِنْحاص لا تقل عن محمد إنه نبي... إن هذا يفسد علينا ضعفاء قومنا، وأنا والله لستُ بمقرٍّ بهذه النبوَّة، ولن أصدقه بها!!.

٣

نَصَب كعب بن الأشرف العداوة لرسول الله ﷺ كأشد ما تكون العداوة، وجعل يعيبه في مجالس قومه عيباً شديداً، حتى لقد نصحه بعض عقلائهم فقالوا له: لا تجهر يا أبا سعيد بهذه العداوة الشديدة، ودعنا نمكر بمحمد في الخفاء.

وكان أشد ما يغيظه أن يعترف حَبْر من الأَحْبَار بنبوّة محمدﷺ، فحين جاءه أَحْبَار يهود يسألونه الصلة ـ وكان قد عوَّدهم عليها كل سنة ـ قال لهم:

ما عندكم من أمر هذا الرجل؟

فقالوا:

هو الَّذي كنّا ننتظر، ما أنكرنا من نعوته شيئاً!!

حين سمع كعب منهم هذا غضب غضباً شديداً، وأشاح بوجهه عنهم، ثم قال لهم وهو مولٍّ عنهم:

ارجعوا إلى أهليكم، فإن الحقوق في مالي كثير.

ورجع الأَحْبَار خائبين، لكنهم فطنوا إلى خطئهم، وأدركوا أن الرجل لا يرضيه أن يقال في محمد إنه نبيّ، وأنه لا يسألهم عنه سؤال من يريد الجواب، إنما يريد منهم موقفاً يوافق هواه، ويرضي نفسه الساخطة على هذا النبي.

وعاد الأَحْبَار بعد أيام إلى كعب فقالوا له:

إنّا أعجلنا فيما أخبرناك به أولاً، ولما استنبأنا عَلِمنا أنّا غلطنا، وليس هو المنتظر!!

وسرّ كعب بما سمع ثانيةً من الأَحْبار سروراً كبيراً، وقام إلى خزائنه فوصلهم وأجزل العطاء لهم.

***

وأخذت عداوة كعب لرسول الله تزداد يوماً بعد يوم، وصار يؤذي النبي وأصحابه بلسانه، فيعيبهم، ويسخر منهم، بل ويشتمهم ويهجوهم بشعره، وكان بعض هذا الكلام يصل إلى رسول الله فيصفح عنه، ويأمر أصحابه بالصبر، ويتلو عليهم قول الله تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم، ولَتَسْمَعُنّ مِن الَّذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الَّذين أشركوا أذىً كثيراً، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

***

وصار كعب يفِد إلى رسول الله ﷺ في أحْبَار يهود فيسألونه ويتعنَّتونه، وكان هو من أشدّهم تعنُّتاً وجراءة..

وفد عليه بعد صرف القبلة إلى الكعبة في جماعة من رجال يهود وأحْبَارهم، فجلسوا إليه وحدّثوه، ثم تكلم كعب فقال:

يا محمد، ما ولّاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملّة إبراهيم ودينه؟

ثم استأنف حديثه قائلاً:

ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك!!

وأدرك النبي ﷺ يومها أن هذا اليهودي الماكر ما جاء في جماعته إلا من أجل أن يؤذيه ويفتنه، ثم لم يلبث إلا قليلاً حتى نزل عليه قوله عزّ وجلّ:

﴿سيقول السفهاء من الناس: ما ولّاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل: لله المشرق والمغرب، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾... إلى قوله تعالى: ﴿وإن الَّذين أُوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عمّا يعملون، ولئن أتيت الَّذين أُوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك، وما أنت بتابع قبلتهم، وما بعضهم بتابع قبلة بعض، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين﴾.

***

وتوجه كعب إلى الَّذين يعرفهم من أصحاب رسول الله ﷺ، وإلى من

كان بينه وبينهم صلة في الجاهلية، فجعل يحاول أن يوغر صدورهم على رسول الله، وأخذ يطلب منهم أن لا يبذلوا له أموالهم، ودأب يخوِّفهم الفقر ويقول لهم:

إني لكم ناصح، وعليكم مشفق، فلا تنفقوا أموالكم، فإني أخشى عليكم الفقر في ذهابها، ولا تُسارعوا في النفقة، فإنكم لا تدرون عَلامَ يكون.

بَيْدَ أن آيات القرآن نزلت تفضح مكر هذا العدو، وتبطل كيده، وتمسح من قلوب الصحابة ما كان يعلق بها من كيد هذا العدو الشانىء وكيد أصحابه.

وتلا رسول الله ﷺ على أصحابه قوله تعالى في كعب وأمثاله:

﴿الَّذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون ما آتاهم الله من فضله، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾.

٤

كان كعب بن الأشرف فتىً يَهُودُ جَمالاً، وسؤدداً، وها هو ذا الآن قد بلغ مبلغ كَمَلَة الرجال، ووصل إلى المنزلة العليا في قومه.. كان يلبس أجمل الثياب وأثمنها، وكان يدهّن بالمسك الفتيت والعنبر حتى يتبلَّد في صدغيه، وكانت كل فتاة يهودية تودّ لو يقترن بها فتسعد به.

ولقد ابتنى لنفسه حصناً في ظاهر ديار بني النضير أصبح مضرب المثل في مناعته وكثرة غرفه وجمال بنائه واتساع رَحْبته.

فلقد بناه على هضبة عالية، وأحاطه بسور عالٍ من الجدران السميكة، وجعل له ثمانية أبراج من الحجارة الضخمة، وجعل له باباً واحدا في جهة الغرب، فإذا ما دخل الداخل إليه وجد رحبة واسعة مربعة ووجد عشرة من الغرف قد ملأت ثلاثَ جهات من القَصر، ثم يجد سلَّماً حجرياً

قد حفر له في الأرض، وهو يؤدِّي إلى بئر حفرت في الجهة الجنوبية من القصر ملاصقة له، ويستقي أهل القصر من هذا البئر، فإذا ما هوجموا قام رجلان على برج قائم على البئر يحرسون من يستقي الماء.

ولقد تحدث كل يهود عن جمال قصر كعب، وجعلوا يزورونه ويطوّفون بجنباته ويعجبون لروعته، أما النساء فجعلن يَنْفَسن على مَنْ ستكون صاحبة الحظ السعيد، فتكون زوجاً لكعب، وتسكن هذا القصر.

وفي زيارة لسلاَّم بن مِشْكَم ونفر من يهود بني النضير لقصر كعب قال سلام لكعب:

قد آن لك يا أبا سعيد أن تتزوج وتتخذ لك عقيلة من قومك تؤنسك في هذا القصر الجميل، وتزرع البهجة والسرور في جنباته.

وأجابه كعب ـ وقد علاه الغضب ـ:

كيف أتزوج وقد أصابنا ما أصابنا.. واهاً لكم يا معشر يهود.. كأنكم لا تشعرون بهذا الخطر العظيم الَّذي داهمكم في عقر داركم، وكيف تطيب لنا حياة ومحمد إلى جوارنا قد اجتمعت له القلوب، وتوحدت عليه الكلمة؟

وقال سَلاّم:

لا يهمَّنك شأنه يا أبا سعيد، فلقد نصبتْ له قريش العداء، وها هي ذي قد خرجت إليه بجيش كبير لتلقنه درساً لن ينساه.. إنه قد تجرأ على اعتراض تجارتها، وقد نفرت لذلك عن بكرة أبيها.

وسُرَّ كعب بما سمع وقال:

أجل، والله لسوف يلقن أبو الحكم بن هشام وغيره من سادات قريش محمداً درس العمر، ولسوف تأتينا البشائر عمّا قريب بقتله وقتل أصحابه، وعندها سوف نطمئن ونستريح.

واهتبلها سلاَّم بن مِشْكَم فرصةً وقال:

هيّا إذن اختر لك زوجة من قومك وابْنِ بها، ودعنا نفرح بك، ونسعد بزفافك، وعسى أن تتصل أفراحنا فتأتينا البشائر بظهور قريش على محمد، وقتلها له ولأصحابه، فقد سمعنا أنها خرجت في جيش كبير تحمي تجارتها وتذود عن كرامتها.

وتكلم من في المجلس مؤيداً كلام سَلاَّم بن مِشْكَم، وعاد سلام إلى الكلام فقال:

هذه رغبة قومك جميعاً، فاستجب لهذه الرغبة يا أبا سعيد، ودعنا نزفك ومحمد بعيدٌ عن يثرب.

***

وقامت الأفراح في ديار بني النَّضير، واحتفلوا جميعاً بعرس سيد كبير من ساداتهم، وزفُّوا لكعب عروسه «زينب» من آل أبي الحقيق ـ أسرة أمه ـ وأوت زينب إلى قصرها الفخم، وإلى زوجها الشاب الرائع الشباب، الثري الكبير الثراء، الزعيم الشاعر.

وسعد كلٌّ من الزوجين بصاحبه، وسكنت نفسه إليها، وتطلع كلٌّ منهما إلى حياة زوجية هانئة في ظل هذا القصر الجميل، وفي بحبوحة هذا المال الوفير، في ربوع يثرب الغنّاء.

٥

كان كعب يقضي أحلى أيام عمره في أحضان زوجته الجميلة زينب، وكان يرنو إلى أن يعيش معها عمراً مديداً حافلاً بالسعادة والبهجة، وأن ينجب منها الأولاد النجباء، وكان أحلى ما يراوده من الآمال يومها أن يُبَشَّر بمصرع رسول الله وأصحابه في اللقاء المرتقب مع قريش.

وخيَّب الله ظن كعب بن الأشرف وكلٍّ يهود يثرب، فقد نصر الله

دينه، وأعزّ جنده، وأظهر نبيّه، وهزم قريشاً شرَّ هزيمة بعد أن صُرع ساداتها الكبار وعظماؤها المشهورون.

وأرسل رسول الله زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بشيرَين بالنصر إلى المدينة، فقاما فيها شدّ الضحى[1] يبشران، وانصرف عبد الله بن روّاحة إلى أهل العالية يصرخ فيهم:

يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ، وقَتْل المشركين وأسْرهم.

قُتل ابنا ربيعة، وابنا الحجّاج، وأبو جهل، وقُتل زمعة بن الأسود، وأميّة بن خلف، وأُسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة.

ثم اتَّبع دُورَ الأنصار هناك، فبشّرهم داراً داراً، والصبيان يشتدون معه ويقولون: قُتل أبو جهل الفاسق.

وقام زيد بن حارثة على ناقة النبي القصواء يبشّر أهل السافلة، فلما جاء المصَلَّى صاح على راحلته:

قُتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وابنا الحجاج، وأبو جهل، وأبو البختري، وزمعة بن الأسود، وأميّة بن خلف وأُسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثيرة.



وسعى يهودي شاب إلى قصر كعب بن الأشرف، فلما وصله صرخ:

قم يا أبا سعيد فاسمع ما يقوله أصحاب محمد!!

وهرع كعب إلى باب قصره وقال بلهفة: ويحك ماذا يقولون؟!

فأجاب:

يقولون إن محمداً قد ظهر على قريش وقتل عظماءها!!

---

(١) شدّ الضحى: ارتفاعه.

وصاح كعب: ويحك أحقٌّ ما تقول؟!

وأجاب الشاب: واللّه يهود سمعناهم يصرخون بهذا بين ظهراني أهل يثرب!!

واربدَّ وجه كعب، وعَلَته سحابة من الحزن العميق والغضب المرير، ثم دخل قصره فلبس ثيابه، وامتطى فرسه، ثم أسرع إلى بني النضير يستجلي حقيقة الخبر.

وفي بني النضير سمع عدو الله ما يسوءه، وأخبر بمقتل زعماء مكة، فصاح ساخطاً:

(أترون محمداً قتل هؤلاء الَّذين يسمِّي هذان الرجلان.. فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس!!

والله لئن كان محمدٌ أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرض خيرٌ من ظهرها!!).

ثم جعل يضرب كفّاً على كفّ، ويقول:

أسفاً عليك أبا الحكم، أسفاً عليك يا عتبةُ ويا شيبةُ. أسفاً عليكم يا سادة الحرم!!

ثم التفت إلى مَنْ حوله وجعل يقول ـ وقد داخله حَزَن عظيم وهَمٌّ مبرِّح ـ:

أترون هذا النبأ صادقاً أم كاذباً، أحقٌّ أن محمداً وأصحابه من جلابيب قريش قد قتلوا هؤلاء الأشراف؟

وهل يقومون لهم في معركة؟ وأنَّى لهم أن يغلبوهم وأولئك أكثر عدداً؟

ترى أيُصدَّق هذا الخبر، أم هذين الرجلين يهذيان؟!

وأجابه رجل إلى جانبه:

هوِّن عليك يا أبا سعيد، إني لأرجو أن يكون هذا الخبر كاذباً، وأن

محمداً وأصحابه قد لاقَوا شرّ هزيمة . .

إنها قريش زعيمة الحرب . . ومن يقوم لها قي القبائل؟!

وقال آخر :

انتظروا يا قوم فبعد قليل ستظهر جليّة الأمر ، وتنكشف لنا الحقيقة .



ومضى يوم وتبعه يوم آخر ، وأشرقت شمس يوم رائع من أيام المدينة ، وعاد رسول الله ﷺ إلى مدينته الطيبة سالماً غانماً ، وخرج الناس يستقبلونه ، وعلت الفرحة الوجوه ، وسيق الأسرى بين يدي رسول الله مقرّنين ، ورآهم الناس ، وشاع في أطراف المدينة الخبر فأقبل يهود ينظرون ، وجاء كعب بن الأشرف ليتأكد من الخبر ، فرأى ما ساءه ، فكُبت وذلّ ذلّة عظيمة ، ورجع إلى قومه وهو أغضب ما يكون فقال لهم :

يا معشر يهود ، والله ما كنت أحسبني أن أعيش إلى زمن أرى فيه ملوك الناس تُصَرّع ، ويظهر عليها هذا الّذي يزعم أنه نبي وأصحابه المستضعفون!!

والله لَبَطْن الأرض خيرٌ لكم من ظهرها اليوم!!

هؤلاء سَرَاة الناس قد قُتلوا وأُسروا ، فما عندكم؟!!

فقالوا :

عداوته ما حيينا!!

فقال كعب :

وما أنتم وقد وطىء قومه وأصابهم؟! ولكني أخرج إلى قريش فأحضّهم وأبكي قتلاهم ، فلعلّهم ينتدبون فأخرج معهم .



وفي عشية ذلك اليوم عاد كعب إلى بيته وهو أشدّ ما يكون حَزَناً وهمّاً ، وأحسّت زينب زوجته بدخوله ، فأسرعت إليه تهشُّ له وتبشُّ في

وجهه على عادتها، لكنه أعرض عنها ورأت هي ما به من الضيق والضجر فقالت له:

بأبي أنت وأمي، ما بك يا ابن عم؟!

فقال لها:

دعيني يا زينب، فوالله لقد أصابني من الهمّ ما لم يصبْني مثله في حياتي!!

وقالت زينب:

فدتْك نفسي، وما بك، وما أصابك؟!

فقال لها:

لقد تأكد لي أن محمداً قد ظهر على قومه، فقتل أشرافهم، وأسر آخرين، وقد ساقهم غدوة هذا اليوم بين يديه ودخل بهم يثرب والناس يرمقونهم والبِشْرُ يعلو وجوههم.

وقالت زينب:

وما لنا معشر يهود ومحمد، دعوه وقومه؟

فأجابها كعب:

ويحك ما أضعف رأيك، كيف لنا معشر يهود نرضى بظهور محمد وقد سلبنا عزّنا الَّذي كنّا ننتظر، وزعم أنه النبي الأخير الَّذي ينتظره الناس، وهل بعد هذا يبقى مجد ليهود؟!

وسكت كعب، وسكتت زينب.

ثم صاح:

لا والله، سوف لا أدع محمداً تهنأ له نفس، ويرتاح له بال.. سوف أسعى إلى قريش في مكة، فأبكي قتلاها، وأنشدها من الشعر ما يهيج أساها، وأحضّها على أن تثأر لنفسها من عدوها.

وصاحت زينب:

وما لنا ولهذا يا ابن عم، دَعْ قوم محمد يكيدون له وابْقَ هنا إلى جنبي أسعدْ بقربك. . إنه لم يمضِ بَعْدُ على زواجنا سوى أيام معدودات، إنه والله لا طاقة لي على فراقك.

وقال كعب:

لا والله، لا بدّ أن أخرج إلى قريش، فأواسيها، وأذمّرها على عدوّنا وعدوّها.

فصاحت زينب ثانيةً:

بالله عليك يا ابن عم أبْقِ على نفسك، ولا تحمّلْها ما لم يحمله أحدٌ من قومك.

ونظر كعب إلى زوجته نظرةً مشوبة بالغضب، وقال لها:

زينب، إنه لا راحة لنا معشرَ يهود وقد سَلَبنا محمد النبوّة، ثم ها هو ذا إلى جوارِنا يكيدنا بدعوته ويجمع العرب عليها، وهل ننتظر منه إلا مثلَ ما فعل بإخواننا بني القينقاع؟!

يجب علينا أن نبادره بالقضاء عليه قبل أن يواجهنا بشيء نكرهه. ولا بدَّ لي من السعي إلى قريش لأُحرضها عليه، ولأُبرهن لها أن يهود يثرب يقفون إلى جانبها في حربها لمحمد.

وأجابته زينب:

أليس بنو قينقاع قد نقضوا عهدهم مع محمد فعاقبهم على ذلك؟

ألستَ أنت قد عاهدته أن تُسالمه ولا تعين عليه عدواً فكيف تنقض عهدك معه، إني والله أخشى أن يصيبك منه سوء يا ابن عم.

وصرخ كعب في وجه امرأته قائلاً:

حتى أنت يا زينب تدافعين عن محمد؟ لبئس ما تقولين!!

وسكتت زينب قليلاً، وأشاحت بوجهها عن زوجها، وتواردت عليها

الخواطر سريعاً، وأدركت أن زوجها يسعى إلى حتفه بظلفه، وأشفقت على نفسها أن تفجع به، فسالت دموعها على خدّيها غزيرة، ثم أقبلت على زوجها وجعلت تتوسل إليه بدموعها وتقول:

أُناشدك الله يا ابن عم ألاّ تخرج من يثرب وتفارقني، إني والله أخشى عليك أن تصيبك شوكة تؤلمك، فكيف ما هو أشدّ من ذلك مما تعرِّض نفسك له؟!

ورقَّ كعبٌ لدموع زوجته وقال لها:

اسمعي يا زينب، إن فراقك أمر صعب على قلبي، ولكني والله لا أستطيع أن أخلد في بيتي وأدع محمداً يعلو أمره وتقوى شوكته.

وهذه فرصة العمر لن أدعَها.. سوف أخرج إلى قريش وأُحرضها على عدوها، وسوف أعود إليك سالماً غانماً، وسوف أعيش معك فرحة العمر الكبرى يوم يتم لنا القضاء على محمد ونرتاح منه.

وأيقنت زينب أن زوجها مصمِّم على خروجه، وأدركت خطورة ما سيقدم عليه؛ فما كان منها إلا أن انفجرت باكية، ثم تركته وانصرفت إلى حجرتها.

٦

غادر كعب بن الأشرف يثرب وارتحل إلى مكة، حتى إذا وصلها وضع رَحْله عند المطّلب بن أبي وَدَاعة السَّهْمي، فرحب به هذا وأكرمه هو وزوجته عاتكة، وقالا له: ما جاء بك يا ابن الأشرف؟ فأجابهما: جئت أندب قتلاكم، وأُواسيكم، وأقول لكم: إن يهود يثرب قد آلمهم ما أصابكم، حتى لكأن المصاب مصابهم، وهم جميعاً معكم على عدوكم.

وسرّ الزوجان بما سمعا وقالا له:

وَصَلَتْكَ رَحِمٌ يا أبا سعيد، ولنِعمَ الصديق أنت في الشدائد.

وشاع في مكة كلِّها أن كعب بن الأشرف قد جاء يواسي قريشاً في مصابها، فسرّ الناس لصنيعه، وشكروا له مواساته، وأخذ هو يَطَّوف في بيوتات مكة بيتاً بيتاً، فيعزِّي في القتلى، ويخفِّف من المصاب، ويقوِّي النفوس، ويشحن القلوب بالحقد على محمد رسول الله، ويخبر كل من يلقاه أن قلوب اليهود وعواطفهم مع قريش، وأنهم سوف لا يتأخرون عن مناصرتها على عدوهم المشترك.

وفي غداة يوم من الأيام وقف كعب في جمع حاشد من رجالات قريش عند الكعبة وصاح فيهم:

اسمعوا يا معشر قريش، فلقد والله آلمني ما أصابكم في بدر، ولقد عزَّ عليّ أن تصابوا بساداتكم وأشرافكم، وكم هو موجع لقلبي أن أُعزِّيكم بأبي الحَكَم بن هشام وبعُتْبة بن ربيعة، وبشيبة بن ربيعة، وبأمية بن خَلَف، وبغيرهم من السادة البهاليل..

ولقد قلت في هذا المصاب أبياتاً أُريد أن أُسمعكم إياها.

وصاح الجميع، هاتِ، أنشدْ، جُزيت خيراً.

وأصاخ الجميع أسماعهم لكعب، وشرع هو ينشد:

طَحَنَتْ رحى بَدْرٍ لمَهْلِك أهله ... ولِمثل بَدْرٍ تستهلُّ وتدمعُ[1]
قُتلت سَرَاةُ الناس حول حياضهم ... لا تَبْعَدوا إنَّ الملوكَ تُصَرَّعُ
كم قد أُصيب به مِن ابيضَ ماجدٍ ... ذي بَهْجة يأوي إليه الضُيَّعُ[2]
طَلْق اليدين إذا الكواكب أخلَفتْ ... حَمّال أثقال يسودُ ويربَعُ[3]

(١) رحى الحرب: معظمها ومجتمع القتال، تستهل: تسيل بالدمع.
(٢) الضيّع: جمع ضائع، وهو الفقير.
(٣) طلق اليدين: كثير المعروف. أخلفت: أي: لم يكن معها مطر، وذلك على ما كانت العرب تنسب إلى هذه الكواكب. يربع: أي: يأخذ الربع، أي: إنه كان رئيساً، لأن الرئيس في الجاهلية كان يأخذ ربع الغنيمة.

ويقــول أقــوام أُســرُّ بسُخْطِهــم ... إن ابـنَ الأشـرف ظـلَّ كعبـاً يجـزعُ
صـدقـوا فليتَ الأرضَ سـاعـة قُتِّلـوا ... ظلَّــت تســوخ بــأهلهــا وتُصــدَّعُ
نُبِّئــت أنَّ بنــي المغيــرة كلَّهــم ... خَشَعوا لقتل أبي الحكيم وجُدِّعوا[1]
وابنــا ربيعــة عنــده ومُنبِّــهٌ ... مــا نــال مثــل المهلكيــن وتبَّــعُ[2]
نُبئـت أن الحـارث بـن هشـامهـم ... في الناس يبني الصالحات ويجمعُ[3]
ليــزورَ يثــرب بــالجُمــوع وإنمــا ... يحمي على الحَسَبِ الكريمُ الأروعُ[4]

وما إن انتهى كعب من إنشاده حتى صاح الجميع:
لا فُضَّ فُوكَ يا أبا سعيد.

ثم جعلوا يمتدحونه بشتى ألوان المديح، فمن قائل:
وصلتْكَ رحم، قد والله شفيت قلوبنا.

ومن قائل:
أجدتَ وأحسنتَ، ولنعم الصديق والحليف أنت يا ابن الأشرف.

ومن قائل:
لله درّك يا ابن الأشرف، فأنت نِعمَ العون في المصائب.

ومن قائل:
قد طوقتنا بيد من الإحسان سوف لا ننساها لك يا أبا سعيد.

كل ذلك وكعب يشمخ بأنفه ويتعالى بهامته، ويتمايل طرباً لما يسمع من هذا الثناء والتمجيد.



(١) التجديع: قطع الأنف، وأراد به هنا ذهاب عزّهم. أبو الحكيم: هو أبو الحكم بن هشام، أي أبو جهل.
(٢) ابنا ربيعة: هما عتبة وشيبة. منبّه: هو منبّه بن الحجاج السهمي.
(٣) الحارث بن هشام: هو أخو أبي جهل، وقد أسلم فيما بعد رضي الله عنه.
(٤) الأروع: الّذي يروعك بحسنه وجماله.

مضى على كعب ما يزيد على الشهر وهو لا يزال في مكة يحرّض أهلها على رسول الله ﷺ، ويواسيهم ويشدّ من أزرهم، ويبذل لهم الوعود السخية في أنه سيكون معهم هو وسائر يهود حتى يتم لهم الخلاص من محمد رسول الله.

وحسب كعب أن مكره سيخفى على النبي ﷺ، ولم يشعر الخبيث أن أمره مكشوف لدى المسلمين إلا بعد أن وصلته رسالة من امرأته تتوسل إليه أن يعود إليها، وتخبره أن المسلمين على علم بكل ما يقوم به من مكة، وأن أنباءه تصلهم تباعاً، وأنهم يحصون عليه حركاته وسكناته.



وقبل أن يقفل كعب عائداً إلى المدينة شهدت مكة منه أخسَّ ضروب الكذب والفجور، وذلك حتى يؤرث أحقاد قريش على النبي ﷺ.

ففي مساء يوم من الأيام وبينا كعب في وسط جمع من أشراف قريش قال له أبو سفيان:

يا ابن الأشرف، أُناشدك:

أديننا أحبُّ إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأيُّنا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق؟

إنّا نُطعم الجزور الكوماء[١]، ونسقي اللبن على الماء، ونطعم ما هبّت الشمال[٢].

فما كان من هذا العدو الفاجر إلا أن أجاب على الفور:

أنتم أهدى سبيلاً!!.



(١) الجزور الكوماء: الناقة المشرفة السنام، عاليته.

(٢) ونطعم ما هبّت الشمال: أي: نطعم في الشتاء حيث تقل الأقوات كلما هبّت ريح الشمال، وهذا غاية الكرم.

ولم يغفل القرآن الكريم هذه الشهادة الفاجرة، فقد سجّلها على هذا العدو الماكر، وفضح أمره، وكشف حقده، وأبقاها مسجَّلَة في سجل خالد، لترسم صورة الأعداء الحاقدين الَّذين لا يتورعون عن أقبح أنواع الكذب والفجور لتحقيق غاياتهم الخسيسة!!

لقد أنزل الله على نبيّه في شأن كعب:

﴿ألم ترَ إلى الَّذين أُوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت، ويقولون للَّذين كفروا: هؤلاء أهدى من الَّذين آمنوا سبيلاً، أولئك الَّذين لعنهم الله، ومَنْ يلعنِ الله فلن تجد له نصيراً﴾.



عاد كعب إلى يثرب بعد رحلته الخبيثة الماكرة، وحينما دخل قصره أسرعت إليه زوجه زينب وارتمت عليه وهي تبكي من الفرح، وجعلت تتودد إليه وتقول له:

الحمد لله الَّذي ردّك إليَّ سالماً، والله لقد حرمني غيابك النوم، وسلبني الراحة والطمأنينة، ومن يوم أن غادرتني وأنا حزينة كاسفة البال، أنتظر متى تقدم عليَّ.

وقال كعب:

لا بأس عليك يا زينب، وأنا شاكر لك ما تحملتِه أثناء غيابي، وها أنا ذا قد عدتُ إليك سالماً مُظَفّراً، ولو علمتِ ما فعلتُه في رحلتي لطابت نفسك، ولغمرك السرور والبهجة.

وسألته زينب:

وماذا فعلتَ في رحلتك فدتْكَ نفسي؟

وأجابها وقد انتفخ زهواً وكبراً:

لقد طوّفت على جميع بيوت مكة، فواسيت أهلها، وندبت قتلاها،

وأنشدتهم الشعر، ولم أدَعْهم إلا وهم جميعاً على قلب رجل واحد، قد أجمعوا على حرب محمد والانتقام منه، وعمّا قريب ستشهدين ما يسرّك يا زينب.

وقالت هي:

وما سأشهد يا ابن عم؟

وأجابها:

ستشهدين الجموع الكثيرة تحت راياتها، تنحدر إلى يثرب، يقودها ابن حرب أبو سفيان، لتثأر من محمد، وتلقنه درساً لن ينساه ما عاش.

وقالت زينب ساخرة:

قد رأينا ما فعلت الجموع، وما صنع الأبطال في بدر!

وتبرّم كعب من كلامها، وقال لها:

زينب، عليك أن تفهمي أن المعركة المقبلة مع محمد سيكون لها شأن وأيّ شأن، فإن لي فيها تدبيراً كبيراً، لقد أنشدت أهل مكة شعراً يحرّك الحجارة الصمّ، فكيف بالقلوب الموتورة؟!

اسمعي مني بعض ما قلت.

وبادرته زينب:

بل أنت اسمع مني أنشدك أبياتك التي تفخر بها.

وقال كعب:

هاتِ أنشديني.

وقالت هي:

إنك تريد أن تسمعني أبياتك التي مطلعها:

طحنتْ رحى بدر لمهلك أهله   ولمثل بدر تستهلّ وتدمع

وفيها تبكي سادة قريش وتقول:

ويقــول أقــوام أُسَــرُّ بسُخْطِهــم إن ابـنَ الأشـرفَ ظـلّ كعبـاً يجـزعُ
صَـدَقـوا فليـت الأرض سـاعـة قُتِّلـوا ظلــت تســوخ بــأهلهــا وتصــدَّع

وفيها تحرِّضهم أيضاً على الجمع لمحمَّد وتقول:

نُبئــت أنَّ الحــارثَ بــنَ هشــامهــم في الناس يبني الصالحات ويجمعُ
ليــزورَ يثــرب بــالجمــوع وإنمــا يحمي على الحَسَب الكريم الأروعُ

وشُدِه كعب وهو يسمع امرأته تنشده أبياته التي قالها في مكة، وقال لها:

ويحكِ ومن أخبرك بها؟

وأجابته زينب:

ألم أُخبرك يا ابن عم فيما كتبتُ إليك أنَّ أخبارك كلَّها قد وصلت إلى محمد.. ألم أقل لك إنه على علم بكل حركة تحركتَها في مكة، وبكل كلمة نطقتَ بها.

وها هو ذا شاعره حسان بن ثابت يستعد ليجيبك على قصيدتك، أو أنه قد أجابك.

يا ابن عم أُناشدك وأتوسل إليك أن تَقِرَّ في بيتك وتترك عداوة محمد، ودعنا نعِش حياتنا الزوجية سعداء مسرورين، ودَعْ محمداً لقومه يكيدون له ويفعلون به ما يشاؤون.

وأجابها كعب بلهجة قريبة من الصياح:

ومن قال لك يا زينب أني أخشى محمداً وأصحابه، ومن أخبرك أني أخاف ممّا بلغهم عني في ذهابي إلى مكة؟!

إني سأجهر بها حرباً سافرة ضدّ محمد حتى نستأصله من هذه المدينة ونرتاح منه، ولسوف أمدّ يد العون لكل من يُعاديه ويحاربه.

ورأت زينب أن زوجها قد بلغ به الغضب مبلغه، فما أحبّت أن تستمر

في محاورته، وأرادت أن تغيّر مجرى الحديث، فقالت له:

يا ابن عم، إنك الآن قد قدمتَ من سفرك، وأنت متعب مضنى، دَعْنا من محمد وأصحابه، وهيا قم إلى طعامك، ثم خذ لنفسك قسطاً من الراحة، وأرِح ذهنك من هذا الحديث، فدَتْك نفسي.

٨

رجع كعب إلى يثرب وهو أخبث ما يكون نَفساً، وأشدّ ما يكون عداءً، وأفحش ما يكون لساناً، وأخذ يهجو رسول الله وأصحابه، ويشبِّب بنساء المسلمين، ويعلن عداوته صريحة سافرة.

وأقبل على كعب قومه من اليهود يزورونه ويسلِّمون عليه، وجعل هو يخبرهم ويتباهى أمامهم بما صنع في مكة، ويبشِّرهم بقرب الخلاص من عدوهم محمد.

وكان في جملة من زاره بعض أصحاب رسول الله من الأوس والخزرج، ممّن كانوا له أصحاباً قبل الإسلام، ولم يتورع كعب عن التحدّث إليهم بما فعل في مكة، وشجعته سفاهته وغروره على إنشادهم الشعر الَّذي قاله، وجعل ينصحهم بالتخلّي عن النبي، ويحذرهم من مغبّة متابعته.

* * *

ونُقلت أخبار كعب إلى رسول الله ﷺ، وعلم ما رجع به من مكة من شديد العداوة، واطّلع على أشعاره، وقيل للنبي إن وقاحته قد بلغت حدّاً لا يطاق، وإنه قد شبّب بالمسلمات وبامرأة عمه أُم الفضل امرأة العباس، وقال فيها:

أراحلٌ أنت لم ترحل بمنقبة	وتارك أنت أُمَّ الفَضْلِ بالحرمِ
إحدى بني عامرٍ جُنَّ الفؤاد بها	ولو تشاء شَفَتْ كعباً من السقمِ
لم أرَ شمساً بليلٍ قبلَها طلعتْ	حتى تجلَّت لنا في ليلة الظُلْمِ

وغضب النبي ﷺ من صنيع كعب، وعلم أنه ليس بمرعوٍ عن غيّه، وأنه قد تنكر لعهده، وأعلن الحرب على المسلمين، فلن تنفع معه إذاً غير لغة القوة، ولن يكفّ شرّه إلا الإطاحة بهامته.

وعبَّر رسول الله أولاً عن تبرمه بكعب أمام أصحابه بمناشدته الله عزّ وجلّ أن يكفيَه شرّه، وسمع الصحابة رسول الله ﷺ يقول:

«اللهمّ اكفني ابن الأشرف بما شئت في إعلانه الشرّ، وقوله الأشعار».

***

وتمادى كعب في طغيانه واشتطّ في عدوانه، فأعلن النبيُّ رغبته بالقضاء عليه، وقال في أصحابه:

«من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟».

وقام محمد بن مسلمة فقال:

يا رسول الله، أتحبّ أن أقتله؟

فقال النبي ﷺ:

«نعم».

فقال محمد بن مسلمة:

أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، ولكن ائذن لي أن أقول فيكَ شيئًا.

وأجابه النبي ﷺ:

«قـل».

٩

أوى محمد بن مسلمة إلى بيته، وجلس يفكر كيف يفي بوعده الَّذي قطعه لرسول الله في قتل طاغوت يهود «كعب بن الأشرف»؟ ثم سأل نفسه:

كيف أتمكن من قتله وقد اتخذ لنفسه حصناً منيعاً، لا يكاد يغادره إلا قليلاً، وفي جمع من قومه، ثم إن يهود بني النَّضير إلى جانبه كثير متوافرون؟!!

وشغل التفكيرُ بمقتل كعبٍ محمدَ بن مسلمة عن كل شيء، وعظم عليه أن يعجز عن الوفاء بوعده للنبي، وشغله ما به من الهمّ العظيم عن الطعام والشراب، حتى لقد مضى عليه ثلاث ليالٍ وهو لا يأكل ولا يشرب إلا النزر اليسير.

وأُخبر النبي ﷺ بما صنع محمد بن مسلمة، فدعاه وقال له:
«لِمَ تركت الطعام والشراب»؟

فأجاب:
يا رسول الله، قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أم لا؟

فقال له النبي ﷺ:
«إنما عليك الجهد».

ثم استدرك عليه السلام قائلاً:
«وشاور سعد بن معاذ في أمره».



وخرج محمد بن مسلمة من عند النبي وتوجه إلى سعد بن معاذ، وقرأ سعد في وجه محمد ما يعتمل في قلبه وفكره، فقال له:
أراك مهموماً يا أبا عبد الرحمن، أخبرني ما الَّذي أهمَّك؟

وأجابه ابن مسلمة:
يا أبا عمرو، تَعْلَم أنَّ رسول الله قد شكا لنا أذيَّة كعب بن الأشرف، وقال: «مَنْ لي بكعب بن الأشرف؟» وأني قلت له: أنا لك به، وقد وعدته بقتله، ثم بدا لي كِبَر هذا الأمر، فجئت أستشيرك؟.

وقال سعد:

وماذا في الأمر من كبير، هيا انهض في طاعة الله ورسوله، فاذهب إليه واشْكُ إليه الحاجة، وسَلْه أن يسلفكم طعاماً[1]، ودبِّر أمرك معه، واستعن بفتيان الأوس، وعليك بأبي نائلة، فإنه رضيع كعب، وصاحبه في الجاهلية، ورجل هذه القضية.

وذهب محمد بن مسلمة إلى أبي نائلة وقال له:

يا أبا نائلة، لقد أمرني رسول الله بقتل أخيك كعب طاغية اليهود، وفكرت فيمن أستعين به، فلم أرَ خيراً منك معيناً في هذا الأمر.

وأجابه أبو نائلة:

سمعاً وطاعة لله ولرسوله، هيّا نقتله وأنا معك، ولكن ابْغِنا إخواناً آخرين لعلّه حصلت بيننا وبين يهود مناوشة.

فقال محمد بن مسلمة:

نعم، سأحدِّث بهذا الأمر عبّاد بن بِشْر، والحارث بن أوس، وأبا عَبْس بن جبر.

وقال أبو نائلة:

نِعْمَ من ذكرتَ من الرجال يا أبا عبد الرحمن، قم إليهم ننتدبهم للفتك بهذا العدو الظالم.



وسعى محمد بن مسلمة وأبو نائلة إلى الرجال الثلاثة فحدّثاهم بالأمر، فنشط هؤلاء جميعاً لهذه المهمة، ثم مشوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا:

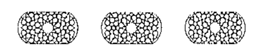
---

(١) يسلفكم: يبيعكم دَيناً، ويُوفّى الثمن فيما بعد. والطعام هنا: القمح.

بلغنا أنك تريد قتل كعب بن الأشرف يا رسول الله، وها نحن أولاء طوع أمرك، سنقتله ونأتيك بهامته.

فقال لهم النبي ﷺ:
«نعم، لقد آذانا بشِعْره، وقوّى المشركين، واستعلن بعداوتنا».
وقالوا جميعاً:
سمعاً وطاعة يا رسول الله، ولكن لا بدّ لنا أن نقول شيئاً؟

فأجابهم عليه الصلاة والسلام:
«قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حلٍّ من ذلك».



وجلس أفراد العُصْبة المؤمنة يمكرون بكعب، ويخطِّطون لقتله، وقال محمد بن مسلمة:
سوف أسعى إليه، وأشكو إليه الحاجة، وأستسلفه الطعام، وأرهنه السلاح، فما رأيكم؟

فقال الجميع:
نِعْمَ الرأي ما رأيت، اذهب إليه وكلِّمه في هذا.



مضى محمد بن مسلمة غداة اليوم التالي إلى كعب فطرق عليه بابه، فأسرعت زوجته إلى الباب، ثم عادت مسرعة وهي مذعورة وقالت له:
قد جاءك رجل أسود ضخم يخيف الناظر إليه.

وفكر كعب فيمن يكون هذا الرجل، ثم قال:
ما أراه ـ والله ـ إلا محمد بن مسلمة الأوسي... ما جاء به؟ لقد كان لنا فيما مضى نديماً وأخاً، فلما جاء محمد أفسده علينا!!

وخرج كعب، فإذا به يرى محمد بن مسلمة، فقال له:

ما جاء بك يا ابن مسلمة، ألم تهجرنا وتقطع حبال الودِّ التي كانت بيننا؟

وتبسَّم محمد، وقال:
جئت الآن لأصلها يا أبا سعيد.

وسلّم محمد بن مسلمة على كعب، فردّ عليه كعب السلام بفتور ثم أدخله قصره.

وقال كعب على الفور:
قل يا ابن مسلمة ما جاء بك؟

وشعر محمد بن مسلمة بخوف كعب وقلقه من مجيئه، فأحبّ أن يطمئنه، فقال له:
يا أبا سعيد، إنَّ هذا الرجل[١]، قد سألنا صَدَقة، وإنه قد عنّانا[٢]، وإني قد أتيتك أستسلفك!!

وذهب عن كعب قلقه، وتلاشى خوفه، وعادت البهجة إلى وجهه، ثم رفع رأسه قائلاً:
وأيضاً ـ والله ـ لَتَمَلُّنَّه!!

فقال محمد بن مسلمة:
إنَّا قد اتبعناه، فلا نحبّ أن نَدَعَه حتى ننظرَ إلى أيِّ شيء يصير شأنه. وقد أردنا أن تسلفنا.

وقال كعب:
نعم، ولكن ارهنوني[٣].

وقال محمد:

---

(١) هذا الرجل: يريد الرسول صلوات الله عليه. وهذا من التعريض اللطيف، حيث لم يذكر اسم النبي عليه السلام.
(٢) عنانا: أتعبنا.
(٣) ارهنوني: أعطوني رهناً.

أيُّ شيء تريد أن نرهنك يا أبا سعيد؟

فقال كعب:

ارهنوني نساءكم!!

وتعجَّب محمد وقال:

كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل الناس؟! إنّا لا نأمَنُكَ فأنت امرؤ حُسّان[١] تعجب النساء؛ فأيُّ امرأة تمتنع منك لجمالك؟!!

فقال كعب:

ارهنوني أبناءكم!!

فردّ محمد:

كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم، فيقال: رُهن بوَسْق أو وَسْقين[٢]، هذا عارٌ علينا!!

ولكن نرهنك السلاح وقد علمت حاجتنا إلى السلاح اليوم.

وأجاب كعب:

نعم، هات السلاح.

وقبل أن يمضي محمد بن مسلمة قال لكعب:

إنَّ معي رجالاً لهم نفس الحاجة، أفآتي بهم؟

فقال كعب:

نعم جىء بهم متى شئت.

وأبدى محمد سروره من كعب، وقال له:

جزيت خيراً يا أبا سعيد فلَنِعْم المعينُ أنت في الشدائد، ولسوف آتيك بهم عما قريب ليلاً فاكتم عني.

---

(١) حُسّان: حسن جميل.

(٢) الوسق: ستون صاعاً.

عاد محمد بن مسلمة من عند كعب، وسعى أول ما سعى إلى أبي نائلة فقال له:

قد خدعتُ صاحبك إن شاء الله، واتَّعدتُ معه أن نذهب إليه ليلاً ومعنا السلاح!!

وقال أبو نائلة:

الحمد لله الَّذي جعله ينخدع لك، وذهب بيقظته وحذره، ولكن دَعْني يا أبا عبد الرحمن أذهب إليه أنا أيضاً، فأمكر به، وأقوِّي من خديعتنا له، فإني أخاف أن يفطن لخديعتك ويتراجع عمَّا وعدك به!!

فقال محمد بن مسلمة:

اذهب إليه إن شئت، لقد أفقده حقدُه رشدَه، وما أراه والله إلا سينخدع لك كما انخدع لي.

❁ ❁ ❁

وسعى أبو نائلة إلى كعب، فلما دخل عليه قصره فوجىء به هذا فقال في نفسه: واللَّهِ ما جاء به إلا الحاجة، لقد افتقر كما افتقر محمد بن مسلمة!!

وأقبل كعب على أبي نائلة فقال له:

مرحباً بأخي، ما جاء بك يا أبا نائلة؟

فأجاب:

ويحك يا ابن الأشرف، إني قد جئتك لحاجة أُريد ذكرها لك، فاكتم عني.

وردّ كعب:

افْعَل، هاتِ اذكر حاجتك.

وقال أبو نائلة:

دعنا الآن من ذكر حاجتي، وهاتِ أسمعني ما قلتَ من الشعر حديثاً، وأنا سأسمعك بعض قريضي.

وقال كعب:
اذكر حاجتك أولاً.

فردّ أبو نائلة:
لا، تعال نتناشد الشعر، فإني في شوق لسماعه وإنشاده، أريد أن أجْلُوَ به همّي.

وقال كعب:
إنَّ ما قلتُه حديثاً يسوؤك ويسوء صاحبك[1]!!

وقال أبو نائلة:
وإن... هات أنشد.

وطرب كعب لقول الشعر وقال لصاحبه: اسمع إذنْ.

ثم أخذ ينشده أشعاره وأبو نائلة يقول له كل حين:
يا له من شعر!!

وبعد أن انتهى كعب من إنشاده قال لأبي نائلة:
هات أنت أسمعني من شعرك.

وانبرى أبو نائلة ينشد كعباً من أشعاره وكعب يقول له بين الحين والآخر:
أحسنت وأجدت يا أبا نائلة.

وأطال أبو نائلة من إنشاده الشعر وتضايق منه كعب، فجعل يقول له بين الحين والآخر:
اذكر حاجتك يا أبا نائلة!!

---

(١) صاحبك: أي النبي ﷺ.

وتنهد أبو نائلة أخيراً من أعماقه وقال:

قد أكثرت عليَّ اليوم من قولك لي: اذكر حاجتك، وأنا أُريد أن أتسلَّى عنها بقول الشعر!!

ماذا أقول لك يا أبا سعيد... لقد كان قدوم هذا الرجل[1] علينا بلاءً من البلاء!!

عادتنا به العرب، ورمتنا عن قوس واحدة[2]!!

وقُطعت عنّا السُّبُل[3]؛ حتى ضاع العيال، وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جُهدنا وجهد عيالنا!!

ثم ها هو ذا يسألنا الصدقة ولا نجد ما نأكل!!

وحدّق أبو كعب في وجه أبي نائلة وقال:

أنا ابن الأشرف!!

أما والله لقد كنت أُخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول!!

لقد قلت لك كثيراً:

لا تنفق أموالك فإني أخشى عليك الفقر، ولا تسارع في النفقة فإنك لا تدري ما يكون!!

وردَّ أبو نائلة:

لا تكثر عليَّ العتاب، وانظر في حاجتي.. إن معي رجالاً من أصحابي على مثل رأيي؛ منهم صاحبك محمد بن مسلمة.

وتبسّم كعب لذكر محمد بن مسلمة، وتابع أبو نائلة:

وقد أردتُ أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاماً أو تمراً، وتحسن في ذلك

(١) يريد النبي صلوات الله وسلامه عليه.
(٢) رمتنا عن قوس واحدة: أي اجتمعوا جميعاً على عدائنا.
(٣) السبل: موارد الرزق.

إلينا، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة.

وقال كعب:
أما إنَّ رفوفي تمتلىء تمراً من عَجْوة يغيب فيها الضرس!!
أما والله ما كنتُ أُحب يا أبا نائلة أن أرى هذه الخصاصة[1] بك، وإن كنتَ من أكرم الناس عليَّ، أنت أخي نازعتُك الثديَ!!

قال أبو نائلة:
جُزيت خيراً يا أبا سعيد على حفظ الرَّحم والوداد، ولقد حدّثتك حديثاً بشأن محمد فاكتمه عني.

فقال كعب:
سوف لا أذكر منه حرفاً، ولكن يا أبا نائلة، اصدقني ذات نفسك.

ما الَّذي تريدون في أمره؟

فأجاب أبو نائلة:
خذلانه والتنحِّي عنه!!

وهنا برق وجه كعب سروراً وقال:
سررتني يا أبا نائلة، فماذا ترهنونني؟

قال أبو نائلة:
ما تريد أن نرهنك؟

فأجاب كعب:
أبناءكم ونساءكم؟

فقال أبو نائلة:
لقد أردتَ أن تفضحنا وتظهر أمرنا!!
سوف نرهنك من السلاح ما ترضى به.

---

(١) الخصاصة: الفقر والحاجة إلى الشيء.

وقال كعب:

إنَّ في السلاح الوفاء، ائتوني بسلاحكم واحتملوا ما شئتم!!

وقام أبو نائلة يريد أن يمشي، فقال له كعب:

اسمع يا أبا نائلة، لقد جاءني بالأمس محمد بن مسلمة يطلب مني الطعام، وقد وعدته خيراً، ووعدني أن يرهنني السلاح، فأتِ أنت وهو ومن معكما جميعاً متى شئتم.

وأظهر أبو نائلة استغرابه مما سمع، وقال لكعب:

عجباً لك ولابن مسلمة، كيف لم تخبرني من أول الأمر بخبره، وكيف لم يخبرني هو؟!

وأجاب كعب:

أما أنا فأخبرتك، وأما هو فإنما أراد ما أردتَ، أراد ألّا يفتضح أمره!!.

غادر أبو نائلة كعباً بعد أن وعده أن يأتيه هو وأصحابه إذا أمسى، وخرج فأتى محمد بن مسلمة وبقية إخوانه، فأخبرهم أن الرجل قد خُدع، وأن فطنته قد ذهبتْ عنه، وأنه قد وقع في شباكهم، فأجمعوا أمرهم على أن يأتوه مساء يومهم، وأن يأتوا رسول الله قبل أن ينطلقوا إليه.

أما كعب فقد زُهي بمجيء محمد بن مسلمة وأبي نائلة إليه، ودخل على زوجته زينب وقال لها والسرور يطفح على وجهه:

ألم أُخبرك يا زينب أنّ أمر محمد في تناقص، وأنّا سنظهر عليه؟!

وردّت زينب عليه:

قلتُ لك يا ابن عم مراراً دَعْنا من محمد، فاكفُفْ عن ذكره، واترك التحرّش به وبأصحابه، ودَعْنا نَعِش أيام زواجنا الأولى سعداء مسرورين.

وقال كعب:

ويحك يا زينب، ما أقصر نظرك، وما أقلّ طموحك، ترضين بالسعادة المنغَّصة، والعيش النكد، وأنا أطمح لي ولك إلى سعادة أعظم، وعيش أهنأ، وسرور أتم!!

نعم هذا ما أطمح إليه، ولن يتم لنا هذا إلا إذا تخلّصنا من محمد، وسترين ذلك في مستقبل قريب.



١٠

أتم محمد بن مسلمة وإخوانه استعدادهم للفتك بطاغوت يهود «كعب بن الأشرف» في ليلتهم تلك، وقبل أن يمشوا إليه قدموا على رسول الله ﷺ فصلّوا خلفه العشاء، ثم مشى معهم إلى بقيع الغرقد، وودَّعهم قائلاً لهم:

«انطلقوا على اسم الله... اللّهمّ أعِنْهم».

وسرى الرجال الخمسة باتجاه قُباء، حتى إذا جاوزوه تركوا ديار بني النضير جانباً واتجهوا إلى قصر كعب ليبيّتوه هناك، وليريحوا المسلمين من عدوانه وشروره، وليقدِّموا بين يدي رسول الله عملاً يدخل السرور على قلبه.

كانت ليلة مقمرة رائعة، قد توسط القمر فيها كبد السماء، وأرسل بأشعته الفضية فملأ بها أرجاء الكون، وكان جبل أُحد شامخاً مطلاً على المدينة من شمالها وقد كساه النور الوهّاج حلّة بديعة، فبدا منظره ساحراً يأخذ بالألباب. وكان الناس قد أوَوا إلى بيوتهم فهدأت الرِّجْل، وسكنت الحركات، ولم يكن مَنْ يسعى في ذلك الليل غير أولئك العصبة الكريمة التي تبتغي مرضاة الله تعالى ومرضاة رسوله ﷺ.

وقبل أن يصل أصحاب رسول الله إلى قصر كعب قال لهم أميرهم محمد بن مسلمة:

سوف نأتيه ونتحدث إليه حتى يأنس إلينا، وسوف أقوم إليه المرّة بعد المرّة فآخذ برأسه فأشمّه وأشمُّكم، فهو رجل مِعْطار يحبّ العطر، وقد أعرس حديثاً، حتى إذا اطمأن إلينا قمت إليه فأخذت برأسه واستمكنت منه، ثم قلت لكم: دونكم عدوّ الله، فعالجوه أنتم بأسيافكم، وعجّلوه إلى أمه الهاوية.

وردَّ الجميع:

سمعاً وطاعة، سوف نفعل.

❊ ❊ ❊

كان كعب قد أوى إلى فراشه يريد أن ينام بعد أن رأى أن القوم قد تأخروا في مجيئهم إليه، بَيْدَ أنه شعر أن النوم قد هرب عن جفونه تلك الليلة، فقال لزوجه ـ وكانت إلى جنبه ـ:

تعلمين يا زينب، والله إني لأشعر أن النوم قد جفاني الليلة، فهو لا يجد إلى جفنيَّ سبيلاً!!

وقالت زينب:

وماذا بك فدتك نفسي.

فأجاب:

لا شيء، سوى آمال تداعبني وتغلبني على نومي.. إن نفراً من أصحاب محمد قد وعدوني أن يأتوني بسلاحهم حتى أُعطيهم الطعام، وأيّ شيء أدعى للسرور والبهجة أن تصبح أسلحة أعدائي بين يدي!!

إني سأصنع لقومي أمراً يحمدونني عليه أبد الدهر يا زينب، سوف أُريحهم من محمد!!.

❊ ❊ ❊

وبينا كعب يَسْمُر مع زوجته على فراشهما إذا ببابهما يطرق، فارتجف فؤاد زينب والتصقت بزوجها وقالت:

من عساه يكون طرقنا ليلتنا يا ابن عم؟!

وضحك كعب وقال:

ويحك يا زينب ما أشدّ خوفك، ومن ذا الَّذي يطرقني إلا بخير.

وصاح كعب وهو على فراشه:

من الطارق؟

فأجابه محمد بن مسلمة:

أنا محمد بن مسلمة ومعي أبو نائلة والقوم الَّذين أخبرتك عنهم، اخرج إلينا، فقد جئناك لميعادنا.

ورجف قلب زينب من جديد، وأحسّت وهي تسمع كلمات محمد بن مسلمة كأنها قِطَع من النار تكوي قلبها، وقالت لزوجها:

قل لهم لينصرفوا وليأتوك غداً نهاراً.

فقال لها:

ويحك.. كيف أقول لهم هذا وقد جاؤوني على موعد؟!

ثم صاح بهم:

انتظروا أنا نازل إليكم، ثم نهض ليقوم من فراشه، فأخذت زوجته بملحفته وقالت:

أين تذهب.. إنك امرؤٌ محارب، ولا ينزل مثلك في هذه الساعة؟!

فأجابها:

زينب، إنه ميعاد عليَّ، وإنما هو أخي محمد بن مسلمة، ورضيعي أبو نائلة.

فقالت:

ابقَ في فراشك واخلد إليه، فوالله ما طرقك هؤلاء ساعتهم لشيء تحب!!

وأجابها:

إنهم حدّثوني بحديثهم وشأنهم.

فقالت:

أرسل إذن إلى أمثالهم من قومك يكونوا معك.

فأجابها:

لو وجدني هؤلاء نائماً ما أيقظوني!!

فقالت:

فإذا أبيتَ عليَّ، فكلمهم من فوق البيت.

فأجابها:

دعيني يا زينب، إن الفتى لو دُعي إلى طعنة بليل لأجاب!!

فقالت ـ وقد شدّت على الملحفة بيديها ـ:

لا والله لا أدعك، والله إني لأسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم!!

لكن كعباً ضجر من كلام زوجته فضرب بيده الملحفة وقام سريعاً، ولم يلتفت إلى زوجته التي جرت وراءه تناشده ألاَّ ينزل.



كان الصحابة يصيخون السمع إلى حوار كعب وزوجه، وقد خافوا ألاَّ ينزل إليهم، فلما جاءهم امتلأوا سروراً، وأقبل هو عليهم تفوح رائحته، فحيّاهم، فردّوا عليه التحية، ثم قال لهم:

قد تأخرتم عليّ.

فقال له محمد بن مسلمة:

انتظرنا حتى أوى الناس إلى بيوتهم لئلا يشعر بنا أحد، وها قد جئناك يا أبا سعيد لميعادنا.. هذا رضيعك أبو نائلة، وهؤلاء إخوان لنا يريدون

منك ما نريد، وهذه اللأمة[١] قد جئناك بها رهينة.

وردّ كعب:

إن في اللأمة لوفاء، مرحباً بالقوم، سوف أُعطيكم حاجتكم من الطعام، ولكن هاتوا السلاح، وارجعوا غداً أُعطيكم الطعام، وإن شئتم فادخلوا الليلة نقريكم.

وقال محمد بن مسلمة:

دعنا منك ومن قِراك يا ابن الأشرف، فوالله لقد صَدَعَتْ رؤوسنا الليلة برائحتك، ثم أقبل عليه وأخذ برأسه وجعل يشمّه، ثم قال لإخوانه:

دونكم فشمّوا أبا سعيد، فإنكم لم تشمّوا عطراً مثل عطره!!

وأقبل عليه أبو نائلة والتزم رأسه فشمَّه طويلاً، ثم قال:

ويحك ما أطيب عطرك هذا يا ابن الأشرف!!

وشمخ كعب برأسه عالياً ثم قال:

وكيف يا أبا نائلة، فوالله لا أدّهن إلا بالمسك الفتيت بالماء والعنبر، ولا أمسك عنه حتى يتلبَّد في صدغي.

ثم أقبل أبو عبس بن جبر فشمّ رأسه وقال:

حُقَّ لأبي سعيد أن يكثر العطر فقد تزوج من قريب!!

وقال عبّاد بن بشر:

ولم لا يتعطر وعنده أعطر النساء وأجمل النساء!!

وضحك الجميع ضحكة رنَّت في الأفق، وزَهَا كعب زهواً كبيراً ثم قال:

هيا يا قوم ادخلوا نقريكم قبل أن تنصرفوا.

لكنَّ أبا نائلة قال له:

---

(١) اللأمة: السلاح.

دعنا الليلة من القِرى يا ابن الأشرف، وسِرْ بنا إلى شِعْب العجوز نتماشى في هذه الليلة المقمرة، نسمر، ونتناشد الشعر، ونرتوي من رائحتك الطيبة.

وأجاب كعب:

نعم، هيا بنا نتمشى.

❁ ❁ ❁

ومشى القوم في هدأة الليل الرائع، وبدأ كعب يلومهم على متابعتهم لرسول الله ﷺ، وأخذ يعبِّر لهم عن حزنه لما أصابهم من الفاقة ولما فقدوا من أموالهم، وسكت القوم ولم يردّوا عليه، ومضى هو في حديثه وهو يحسب أنه يلاقي القبول عندهم.

ولما طال حديثه والقوم ساكتون قال له أبو نائلة:

دعنا من هذا الحديث يا ابن الأشرف فوالله لقد أكثرت علينا الليلة منه، أما ترى هذا القمر الجميل وروعته، هات أنشدنا من شعرك ما يزيدنا سروراً على سرور في ليلتنا هذه.

وطرب كعب لقول الشعر، واهتزت جوانبه لإِنشاده، فقال لهم: اسمعوا إذن.

ثم أنشدهم أبياتاً يفخر بها بقومه اليهود، وكان مما جاء فيها قوله:

فَهُمْ أهلُ سماحٍ وقِرىً ... وحِفاظٍ لم يعانوا بصَلَفْ
سكنوا من يثرب كُلَّ رُبىً ... وسهول حيث حَلُّوا في أنفْ
وهمُ أهلُ مشاريب بها ... وحصون ونخيل وغُرَفْ
ونخيل في تلاعٍ جمة ... تخرج التمر كأمثال الأكف

ولما انتهى كعب، صاح الجميع:

لا فُضَّ فوك يا أبا سعيد، فلقد أسعدتنا وشنّفت آذاننا بقولك الجميل.

❁ ❁ ❁

كانت زينب زوج كعب ـ ومنذ أن فارقها زوجها ـ قد أحسَّت وكأن فؤادها قد خُلع من بين جنبيها، فقد شعرت أن زوجها خُدع عن نفسه الليلة وأنه غامر مغامرة كبيرة بخروجه مع القوم، وأنه ربما يصرع من ليلته، لذا لم يهدأ لها بال، ولم تسكن لها نفس، فصعدت إلى ظهر قصرها، وجعلت تتابع زوجها، وترنو إلى بعيد إلى شِعْب العجوز الَّذي سلكه مع القوم، وأخذت تترقب رجوعه على أحرّ من الجمر.

وأحسّ محمد بن مسلمة أنه قد آن الأوان للفتك بهذا العدو، فأقبل عليه، وقال:

والله إني لا أكاد أرتوي من شمِّ رأسك الليلة يا أبا سعيد، دعني أشمّه وأمسح به عينيَّ ووجهي قبل أن نفارقك.

وأمسك محمد بن مسلمة برأس كعب، وسلسلت يداه في شَعره، ثم أخذ بقرونه وصاح:

«اقتلوا عدوَّ الله».

وتساقطت السيوف سريعاً على كعب حتى أثخنته، فصاح صيحة ردّدتها جنبات ديار بني قريظة والنضير، ثم سقط على الأرض صريعاً، وأسرع محمد بن مسلمة فاحتزّ رأسه، ووضعه في مخلاة ثم انطلقوا سريعاً.

❁ ❁ ❁

وسمعت زينب صيحة زوجها فارتجف قلبها وأدركت أنه قد صُرع، فجعلت تصيح بأعلى صوتها:

يا آل قريظة والنضير، أدركوا كعب بن الأشرف فقد قتله أصحاب محمد!!

وذُعر اليهود لصيحة كعب ثم لصيحة زوجه، وفزعوا إلى حصن كعب، فوجدوا المرأة تبكي وتنتحب، فقالوا لها:

ويحك ماذا جرى، أين زوجك؟

فأجابتهم:

لقد طرقه الليلة جماعة من أصحاب محمد، فمشى معهم إلى شِعْب العجوز، ولقد حذرته من الخروج معهم، فما سمع لي، ثم جلست أنتظر قفوله على ظهر بيتي، فما شعرت إلا بصيحته، فأدرِكوه فإنه الآن في شِعْب العجوز.

وهُرِع اليهود إلى صاحبهم، حتى إذا وصلوا إليه راعهم منظره، فقد رأوه قد فارق الحياة وأن هامته قد بانت عن جسده، وحزن اليهود عليه حزناً عظيماً، ثم حملوه وعادوا به إلى زوجته يشاركونها بكاءها وحزنها، ويندبون جميعاً صاحبهم.

أما أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم بعد أن فتكوا بعدوِّهم عادوا مسرعين إلى المدينة، حتى إذا وصلوا إلى بقيع الغَرْقَد رأوا النبي ﷺ قائماً هناك يصلي ينتظرهم، فلما رأوه كبّروا، فكبّر رسول الله لتكبيرهم وعرف أنهم قتلوه.

وانتهى الصحابة إلى رسول الله ﷺ، فقال لهم:

«أفلحت الوجوه»!!

وأجابوه جميعاً:

ووجهك يا رسول الله.

ثم رمَوا برأس كعب بين يديه، فحمد الله على قتله.

وفي الصباح سعى جماعة من ملأ يهود إلى رسول الله فقالوا:

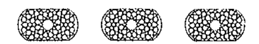
قد طُرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا قُتِل بلا جُرْمٍ ولا حَدَثٍ علمناه!!

وأجابهم رسول الله ﷺ:

«إنه لو قرَّ كما قرَّ غيره ممّن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنه نالَ

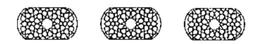
منَّا الأذى، وهجانا بالشعر، ولم يفعل هذا أحدٌ منكم إلا كان له السيف!!».

وذعر يهود لما سمعوا، فعادوا من حيث أتوا مرعوبين خائفين!.



وانتشر في المدينة أن كعباً قد صُرع فكبت المنافقون، وفرح المؤمنون وردّدوا:

لقد سعى كعب إلى حتفه بظلفه، إنه تمادى في غيِّه ولم يردعه رادع، فكان لا بدّ أن ينال جزاءه العادل، وقد كان.



وهكذا أُضيفت لتاريخ الجهاد في الإسلام صفحة جديدة، وسجل المؤرخون:

... في ليلة أربع عشرة من ربيع الأول من السنة الثالثة لهجرة النبي ﷺ صرع جنود الإسلام الأوائل طاغوت يهود كعب بن الأشرف، وألحقوه بطاغوت قريش «أبي جهل» الَّذي كان قتل من قريب.. وهذه هي نهاية كل طاغية يكيد لله ولرسوله ولدينه، وهذا جزاؤه المقدّم في الدنيا، ويوم القيامة يُرَد إلى أشد العذاب وبئس المصير!!.



المراجــع:

رجعت في صياغة قصة مصرع هذا الطاغية إلى أكثر من أربعين مرجعاً من كتب الحديث والسيرة والتراجم، وهذه أهمها:

ـ **سيرة ابن هشام:** ٢/ ٥١ ـ ٥٨.
ـ **أنساب الأشراف:** ١/ ٢٨٤.
ـ **حياة الصحابة:** ١/ ٥٦٧.
ـ **مغازي الواقدي:** ١/ ١٨٤.
ـ **فتح الباري:** ٨/ ٣٣٩.
ـ **شرح المواهب اللدنية:** ٢/ ٨.



جمـل جـابـر

١

حزن جابر بن عبد الله صاحب رسول الله ﷺ على أبيه «عبد الله بن عمرو» الذي استشهد مع النبيِّ في يوم أُحد. . فقد كان يتمنى أن يمتد العمر بهذا الوالد فيتمتع بحياته، ويشهد مع رسول الله مشاهد أخرى، ولكن ما الحيلة والقدر غالب!! لقد مضى هذا الوالد شهيداً كريماً، وحُرم جابر من حبّه وحنانه الَّذي كان يؤثره به على أخواته البنات السبع.

وكان مما زاد في حَزَن جابر أنَّ والده قد ترك له هذا العدد من الأخوات، وعليه أن يعولهنَّ، وأنه قد مضى إلى ربه وعليه ديون كثيرة وعلى جابر أن يقضيها، وهو لا يملك قضاءها ولا يدري كيف يقضيها!!

وركبت جابر همومٌ ثقيلة، وبدأ يشعر بوطأتها، ورآه رسول الله ﷺ فقرأ في وجهه ما يعتمل في صدره فأقبل عليه، وبشَّ في وجهه، ثم قال له:

«ما لي أراك منكسراً».

فقال جابر:

يا رسول الله، استشهد أبي يوم أُحد، وترك عيالاً ودَيْناً.

فقال النبي ﷺ:

«ألا أُبشِّرَك بما لقي الله به أباك»؟

فأجاب:

بلى يا رسول الله.

فقال عليه الصلاة والسلام:

«ما كلَّم الله أحداً قطُّ إلا من وراء حجاب، وإنه أحيى أباك فكلَّمه كِفَاحاً[١]، فقال: يا عبدي، تَمَنَّ عليَّ أُعْطِك، فقال: يا رب، تحييني فأقتل ثانيةً، فقال سبحانه: ﴿قد سَبَق مني أنهم إليها لا يرجعون﴾».

ثم تلا رسول الله ﷺ على مسامعه قوله تعالى:

«﴿ولا تحسبنَّ الَّذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياءٌ عند ربهم يُرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالَّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأنَّ الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾».

وبرق وجه جابر سروراً بعد الَّذي سمعه من رسول الله ﷺ، وافترَّ ثغره عن ابتسامة عريضة، وسُرَّ سروراً بالغاً للَّذي جرى لوالده من الكرامة عند ربه!!.

❁ ❁ ❁

هوّن على جابر ما سمعه من رسول الله ﷺ من مصابه بأبيه، فقد كان شاباً عاقلاً يقرأ القرآن ويتدبره ويصغي إلى رسول الله ويعقل عنه؛ لكن همَّ مؤونة أخواته ورعايتهن، وهمَّ اشتداد الغرماء عليه في دَيْن أبيه، قد عظم عليه، وسلبه الكثير من راحته، لذا كنت تراه شديد الحزن، كسير النفس، طويل التفكير!!

وفكر جابر في حاله وما هو به من الهمّ وماذا عليه أن يفعل؟ ورأى أنَّ عليه أن يتزوج من امرأة ثيب عاقل تحنو على أخواته وتجمع رؤوسهنّ، ففعل ذلك، وصرف قلبه عن التطلّع إلى البنات الأبكار اللاتي يَلِقْن بشاب مثله، ووفق جابر كل التوفيق في زواجه، فقد رفعت زوجه عنه شيئاً من

---

(١) كفاحاً: أي مواجهة وبدون حجاب.

همّه الَّذي كان يحمله من أجل أخواته. وبقي همٌّ آخر كبير هو همُّ الدَّيْن، فالغرماء جعلوا يطلبون منه وفاء دَيْن والده ويكررون عليه الطلب، وجعل واحد منهم ـ وكان يهودياً وكان دينه أكبر الديون ـ يشتد في الطلب ويغلظ عليه.

وأخذ هذا الشاب الصغير يستعرض في ذهنه كيف يفي دَيْن أبيه ويتخلص منه، وعظم عليه الأمر، فالديون كثيرة، وليس في يده وفاء لها إلا ما تركه له أبيه من بستان فيه نخيل.

وصحَّ عزمه أخيراً على أن يستعين برسول الله ﷺ، فهو لا يردّ طالباً، ولا يخيِّب راجياً، وهو الشفوق الودود الرحيم..

وغدا جابر بكرة يوم إلى رسول الله وقال له:

يا رسول الله، إن أبي ترك عليه دَيْناً ولم يترك لنا مالاً.. ما ترك إلا حائطاً[1] فيه نخيل.. ولا والله لا يبلغ ما يخرج نخيله سنين ما عليه!! فانطلق معي لكي لا يفحش عليّ الغرماء.

ووعد رسول الله جابراً خيراً، وقال له:

«إنّا سنأتيك قريباً من وسط النهار، فاذهب وصنِّف تمرك على بيدرك، فالعجوة على حِدَة وغيرها على حدة..».

ومضى جابر مسرعاً إلى بستانه وقد ظهر سرور عليه كان قد غاض في نفسه مدة، وجلس ينتظر مجيء رسول الله ﷺ، ويرجو الله أن يجعل له من ضيقه فرجاً ببركته عليه السلام.



وبَيْنا جابر جالس ينتظر أَخَذَ الغرماء يفدون إليه ويطالبونه بديونهم، وأخذ هو يعدهم خيراً ويقول لهم:

انتظروا قليلاً، فها هو ذا رسول الله قادم يريد أن يعينني في دَيني.

---

(١) الحائط: البستان.

وسكت الغرماء حينما سمعوا بذكر النبي عليه السلام، لكن اليهوديَّ لم يكفَّ عن مطالبته، بل اشتدَّ عليه وقال له:

يا جابر، ما لي ولأبي القاسم، اقضني أنت ديني، إني سوف لا أُمهلك بعد اليوم أبداً.

وسكت جابر، ولم يردّ على اليهودي شيئاً، وأحزنه ما قاله له، وأخذ يتمنى لو ذهب الغرماء بكل ثمر نخيله، وأنَّ ذلك يقضي عنه بعض دَين والده، ويكفّ عنه غرماءه إلى الموسم القابل.

❁ ❁ ❁

وانتصف النهار، وأقبل رسول الله ﷺ يمشي بين جماعة من أصحابه مسرعاً كأنما ينصب من عَلٍ، حتى إذا وصل سلَّم، ثم أرسل وراء اليهودي، فجاءه، فقال له:

«أنْظِر جابراً طائفة من دَيْنك الَّذي على أبيه إلى العام القابل».

لكن اليهودي ردَّ قائلاً:

ما أنا بفاعل.

ثم جعل يتعلل بالعلل والمعاذير.

ومضى النبي ﷺ فطاف حول بيادر التمر، ودعا بالبركة، ثم عاد وقال لجابر:

«ادعهم، وكِلْ لهم».

ومكث بعدها قليلاً ثم انصرف عليه السلام.

ونادى جابرٌ أول ما نادى اليهوديَّ، فجعل يكيل له من العجوة حتى وفّاه سائر دينه!!

ثم نادى بقية الغرماء وجعل يكيل لهم حتى وفّاهم كل ديونهم، وبقي التمر على حاله!!.

❁ ❁ ❁

سُـرَّ جابر بالذِّي حصل له من بركـة النبي سروراً بالغـاً، وشعر أن همَّه قد انجاب عن فـؤاده، وعاد إلى بيته والسرور يطفح علـى وجهه، واستقبلته زوجته وأخواته وقلنَ له جميعاً:

أخبرنا... ماذا جرى؟

فقال والسرور بادٍ على وجهه:

قد وفّـى الله ذمة أبـي.. لقد جاءني رسـول الله وطاف حـول التمر ودعا بالبركة، فجاء الله بالبركة.

وقد ابتدأت أكيل لهم وأنا راضٍ أن يؤدِيَ الله أمانة والدي ولا أرجع إليكن بتمرة واحدة؛ لكن الله سلّم البيادر كلها، حتى كأنه لم ينقص منها تمرة واحدة!!

وفرحت زوجة جابر وأخواته وحمدن الله على ذلك كثيراً.



قضى والد جابر شهيداً ولمّا يبلغ ابنـه بعد العشرين من عمره، وكان جابر يتـوق إلى الجهاد فـي سبيل الله وحضور الغـزوات مع رسـول الله ﷺ؛ إلا أنَّ والده كان يمنعه مـن ذلك، ويطلب منه أن يرعى أخواتـه، ليتسنى له أن يحضر هو مع رسول الله مشاهده.. لقد منعه من حضور غزوة بدر وغزوة أُحد من أجل ذلك، ثم مضى هذا الوالـد شهيداً كريماً إلى ربّه، فهل يبقـى لجابر من عذر ألّا يخرج مع رسول الله في حروبه؟!

لا، أبداً، وأنَّ جابراً الآن هو أشوق ما يكون إلى الجهاد، وها هو ذا يخرج إلى القتـال في اليـوم التالي ليوم أُحُـد؛ وهو بَعْـدُ لمّا ينفض يديـه من تراب والده.. أجل لقد خرج مع رسـول الله إلى غزوة «حمـراء الأسد» وكانت هذه الغزوة أول مشاهده مع النبي، ثم استمـرت مشاهده معه إلى أن توفي صلوات الله وسلامه عليه.

وإن ينسَ جابر شيئاً من ذكرياته في غزواته مع النبي عليه السلام، فلم ينس أبداً ذكريات له غالية عليه، نقشها على صفحات فؤاده، حصلت له في غزوة من الغزوات قِبَل نجد. لقد عاش جابر عمره المديد الَّذي زاد على تسعين سنة وهو يحدِّث الناس بقصص ما جرى في تلك الغزاة لا سيما قصة الجمل التي حصلت له خاصة، والتي تمتع أجيال من التابعين بسماعها منه، بل قد تمتع أجيال من المسلمين كثيرة بقراءتها في دواوين الإِسلام.

وإلى القارىء الكريم قصة «جمل جابر» كما أخبر بها هو في الروايات الكثيرة التي أثرت عنه بشأنها.

كان هذا في الغزوة التي سميت بغزوة «ذات الرقاع».. لقد انتهت الغزوة، وها هو ذا رسول الله وصحبه المجاهدون قد قفلوا راجعين يرددون:

«لا إلّه إلاّ الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. آيبون تائبون عابدون ساجدون، لربنا حامدون. صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ومشى الركب يغذُّ السير، وتأخر رسول الله عن إخوانه لبعض حاجته، ثم أسرع يريد إدراكهم وإذا به يرى جابراً في مؤخرة الركب قد علا جملاً أحمرَ بطيئاً يمشي الهوينا، وهو يزجره لكنه لا يستجيب له.

وبادره عليه السلام قائلاً:

«ما لك يا جابر»؟

وأجاب:

يا رسول الله، أبطأ بي جملي.

وقال النبي:

«استمسك يا جابر واعطني هذه العصا من يدك».

وناول جابر رسول الله العصا، ثم استمسك على جمله.

وأمسك النبي عليه السلام العصا فضرب بها الجمل وزجره، فكأنما نَشِط من عِقال[1]، ومضى مسرعاً يسابق جميع الإبل، بل لقد سبقها كلها، وأصبح جابر في مقدمة الركب بعد أن كان في مؤخرته، وعجب الناس مما جرى له فجعلوا يسألونه ويتعجبون وأخذ هو يقول لهم:

«أصابته بركة» ولا يزيد على ذلك.

***

وضحك النبي لما جرى لجابر، فقد صار لا يستطيع أن يردّ جمله عن الإسراع، ولقد مشى أمام رسول الله، بل لقد أصبح بعيداً عنه.. وأسرع عليه الصلاة والسلام حتى إذا صار إلى جانبه اقترب منه وقال له:

«كيف ترى بعيرك يا جابر»؟

فأجاب:

هو بخير يا رسول الله قد أصابته بركتك، وإنه ليمشي الآن مِشية ما مشى قبل ذلك مثلها!! وها أنا ذا كما تراني يا رسول الله، أحبس خطامه لأسمع كلامك، فمعذرة مني إليك.

وقال النبي ﷺ:

«أتبيعني جملك هذا يا جابر»؟

فأجاب:

بل أهبه لك يا رسول الله.

وقال النبي:

«لا، ولكن بِعْنيه».

(١) العقال: ما يربط به البعير فلا يستطيع القيام، والمراد: كأن الجمل فك من رباطه.

وصعب على جابر أن يتخلّى عن جمله فليس لهم ناضح[١] غيره، ثم هو قد عُوفي ببركة رسول الله؛ لكنه صعب عليه أكثر أن يردّ طلب رسول الله، فقال له:

نعم، فسُمْنيه يا رسول الله.

فقال النبي:

«قد أخذته بدرهم».

وتعجّب جابر من هذا الثمن الَّذي دفعه النبي بالجمل وقال:

إذن تغبنني[٢] يا رسول الله!!

وقال النبي:

«فبدرهمين»!!

وردَّ جابر:

لا، يا رسول الله.

وقال النبي:

«فبثلاثة»!!

وردَّ جابر:

لا، يا رسول الله.

ثم جعل النبي يزيده في ثمنه حتى بلغ أُوقية ذهب.

وتذكَّر جابر ساعتها أنَّ لرجل عليه أُوقية من ذهب.

فقال للنبي عليه السلام:

نعم يا رسول الله، إنَّ لرجل عليَّ أُوقية من ذهب، فهو لك بها.

---

(١) الناضح: الجمل الَّذي يستقى عليه الماء.

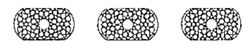
(٢) تغبنني: تنقص عليّ الثمن.

وردَّ النبي عليه الصلاة والسلام:
«قد أخذته».

لكن جابراً قال للنبي عليه السلام:
يا رسول الله، أشترط عليك أن أركبه حتى أبلغ المدينة.

فتبسم النبي عليه السلام وقال:
«لك ظهره إلى المدينة».

ثم مشى جابر إلى جانبه عليه السلام، وأخذ يزجر جمله لئلا يسرع، وجعل النبي عليه الصلاة يقول:
«اللهمّ اغفر لجابر، اللهمّ اغفر لجابر»، حتى عدَّ له جابر خمساً وعشرين مرة!!.



تابع الركب الميمون سيره إلى المدينة المنوَّرة حتى كان قريباً منها، ونظر النبي عليه السلام إلى أمام فرأى جابراً يسبق الركب ويتعجَّل المسير، فاقترب منه وقال له:
«ما يعجِّلك يا جابر»؟

فردَّ عليه:
يا رسول الله، إني حديث عهد بعُرْس.

فقال النبي عليه السلام:
«أثيِّباً أم بكراً»؟.

فردَّ جابر:
بل ثيِّباً.

وقال النبي:

«أفلا جارية[1] تلاعبها وتلاعبك»!!

وردَّ جابر:

يا رسول الله، توفي أبي ولي أخواتٌ صغارٌ، فكرهتُ أن أتزوج مثلهنَّ، فلا تؤدبهنَّ، ولا تقوم عليهنَّ، فتزوجت ثيباً قد جرَّبت وخرجت من حدِّ الشباب لتقوم عليهنَّ وتؤدبهنَّ!!

وأعجب النبيَّ ﷺ صنيعُ جابر، فقال له:

«أصبتَ إن شاء الله».

ثم استدرك عليه السلام قائلاً:

«أما إنّا لو قد جئنا صِرارا[2] أمرنا بجزور فنُحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعتْ بنا[3]، فنفضت نمارقها»[4].

وقال جابر:

والله يا رسول الله، ما لنا نمارق!!

فبشَّره عليه السلام قائلاً:

«إنها ستكون».

ثم التفت إلى صاحبه الشاب فقال له:

«إذا قدمت، فالكَيْس الكَيْس»[5].



(١) الجارية: الفتية من النساء.
(٢) صرار: موضع على ثلاثة أميال من المدينة.
(٣) وسمعت بنا: أي زوجة جابر.
(٤) النمارق: جمع نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة، والمراد أن الزوجة تستعد لاستقبال زوجها.
(٥) الكيس: الجماع، والعقل. قال العلماء: كأن النبي عليه السلام جعل طلب الولد عقلاً.

ووصل الركب إلى صِرار، وإنه قد شارف المدينة المنوَّرة، ونادى منادي النبي الناسَ أن ينزلوا فنزلوا، ثم أمر عليه السلام بجزور فنحرت، فأكل الناس جميعاً منها، وكَفَتهم طيلة يومهم.

وتسامع أهل المدينة بمقدم رسول الله وأصحابه، فاستعدَّ الناس لاستقبالهم، وأراد بعض الصحابة أن يعجِّلوا، فقال لهم عليه السلام:

«أمهلوا، حتى ندخل ليلاً[١]، كي تمتشط الشَّعِثَة[٢]، وتستحدَّ المغيبة»[٣].

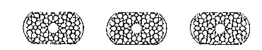
٣

عاد الغزاة إلى مدينتهم الطيبة، وأقبل رسول الله ﷺ أول ما أقبل على مسجده، فصلّى فيه ركعتين ثم دخل بيته.

ومضى جابر إلى بيته، فاستقبلته زوجته أحسن استقبال، وجلس هو يقصّ عليها ما جرى له مع رسول الله ﷺ بشأن الجمل، فضحكت، وقالت له:

دونك... سمع وطاعة، فإذا أصبحت فخذ الجمل واذهب به إلى رسول الله، وقل له:

هذا جملك يا رسول الله، بارك الله لك فيه.



وفي الصباح غدا جابر بجمله إلى رسول الله يجرّه من خطامه، حتى إذا وصل المسجد عقله بجانبه، ثم دخل المسجد فرأى رسول الله بين جماعة من أصحابه، فجلس قريباً منهم، ثم قام النبي عليه السلام فخرج

---

(١) أي عشاء.
(٢) الامتشاط: تسريح الشعر، حتى إذا قدم عليها زوجها وجدها متجملة حسنة الحال.
(٣) تستحدّ المغيبة: أي تزيل المرأة التي غاب عنها زوجها شعرها وتتنظف.

ورأى الجمل، فقال:
ما هذا؟

فقال جابر:
هذا جملك يا رسول الله، الَّذي ابتعتَه مني.

وتبسم عليه السلام، وجعل يُطيف بالجمل ويقول:
«الجمل جملنا»!!

ثم قال لبلال:
«يا بلال، أعْطِه أوقية ذهب، وزده»!!

ومضى جابر مع بلال، فأعطاه أوقية من ذهب، وزاده قيراطاً.

وفرح جابر بهذه الزيادة، ومشى إلى أهله رضيَّ النفس مسرور الفؤاد وبينا هو في الطريق إذا برجل يناديه:
يا جابر، أجِب رسول الله.

وقال جابر في نفسه:
ماذا يريد مني رسول الله، وخطر على باله أنه قد يردّ له جمله ويكرمه بذلك، ولم يُعجب هذا الخاطرُ جابراً، فقد كره أن يستردَّ شيئاً أخذه منه رسول الله.

وأقبل جابر إلى النبي عليه السلام حتى إذا وصل قال له:
«استوفيتَ الثمن»؟

فردّ عليه:
نعم، يا رسول الله، وجزاك الله خيراً على ما زدتني!!

وتبسم عليه السلام لجابر، ثم قال له:
«يا ابن أخي، خذ برأس جملك فهو لك»!!

وردّ جابر:

كيف يا رسول الله.. الجمل صار جملك، وقد قبضتُ الثمن!!

وقال عليه السلام:

«الثمن والجمل لك»!!

ثم أقبل على جابر وربّت على كتفه وقال:

«أتظن أني إنما ماكستُك لأذهب بجملك؟ ما كنت لآخذه»!

وشكر جابر لرسول الله لطفه وكرمه ودعابته معه، ثم أمسك بخطام الجمل، واستاقه إلى بيته والسرور يملأ جوانحه.

وفي الطريق لقي جابرٌ يهودياً يعرفه، فأخبره بقصته مع رسول الله، فجعل اليهودي يضرب كفّاً على كفٍّ ويتعجب، ثمَّ قال له:

اشترى منك البعير، ودفع إليك الثمن، ثم وهبه لك!!

وأجابه جابر:

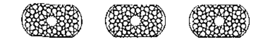
نعم، إنه رسول الله، وإنه أجود الناس وأكرمهم[1]!!

ووصل جابر بيته، وحكى لزوجته ما جرى له، فضحكت طويلاً وقالت:

لقد ظننتُ ـ واللهِ ـ أنَّ رسول الله سيفعل هذا!!

وقال جابر:

وأنا ـ والله ـ لقد استشعرتُ هذا وأنا أُراجع رسول الله بثمن البعير وهو يماكسني ونحن في سفرنا!!.



---

(١) قال ابن الجوزي:

هذا من أحسن التكريم، لأن من باع شيئاً فهو في الغالب محتاج، فإذا تعوض من الثمن بقي في قلبه من المبيع أسف على فراقه، كما يقول:

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك نفائس من رب بهن ضنين

فإذا ردّ عليه المبيع مع ثمنه ذهب الهمّ، وثبت فرحه، وقضيت حاجته، فكيف مع ما انضم إلى ذلك من الزيادة في الثمن!!.

قال الراوي:

وضمَّ جابر إليه جمله، وعظم شأنه عنده، وصار يحوطه برعاية زائدة عمّا مضى، وأقام هذا الجمل عنده زمان النبي ﷺ وزمان أبي بكر.

وفي خلافة عمر أصابه عجزٌ، فجاء به إلى أمير المؤمنين، فأخبره بقصته، فقال له:

اجعله في إبل الصدقة، وفي أطيب المراعي.

ففعل جابر ذلك، وترك جمله إلى أن جاء أجله.

أما الزيادة التي أعطاها رسول الله لجابر، فقد جعل الله له فيها بركة عظيمة، فما زالت تنمو وتزيد سنين طويلة، وهو أثير بها، لا يخرج عنها ولا يعطيها لأحد، حتى فقدها يوم الحرَّة[١].

قال الراوي:

مَضَت قصة جابر، ولكنَّ الناس لم ينسَوْها، لقد بادر أئمة الإسلام إلى تدوينها في كتبهم، لتقرأها الأجيال المسلمة، ولترى فيها بعض ما كان عليه رسول الله من الخلق الرفيع، والكرم العظيم، والبرِّ الكبير بأصحابه[٢].

---

(١) يوم الحرّة: يوم حصل في عهد يزيد بن معاوية، حينما دخل جنده المدينة وحصل فيها ما حصل بسبب خروج أهل المدينة عن طاعة يزيد وخلعهم له، وقد خالفهم في ذلك عدد من الصحابة كان على رأسهم عبد الله بن عمر.

(٢) قال الإمام أبو القاسم السهيلي شارح السيرة النبوية لابن هشام:

(في هذه القصة إشارة إلى ما كان أخبر به رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله أن الله أحيى والده وكلّمه وقال له: تمنَّ عليّ، وذلك أنه شهيد وقد قال الله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ وزادهم على ذلك في قوله: ﴿ولا تحسبنَّ الَّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ والروح للإنسان بمنزلة المطية، كما قال عمر بن عبد العزيز. قال: فلذلك اشترى رسول الله من جابر جمله وهو مطيته، فأعطاه ثمنه ثم ردّه عليه وزاده مع ذلك، ففيه تحقيق لما كان أخبره به عن أبيه).

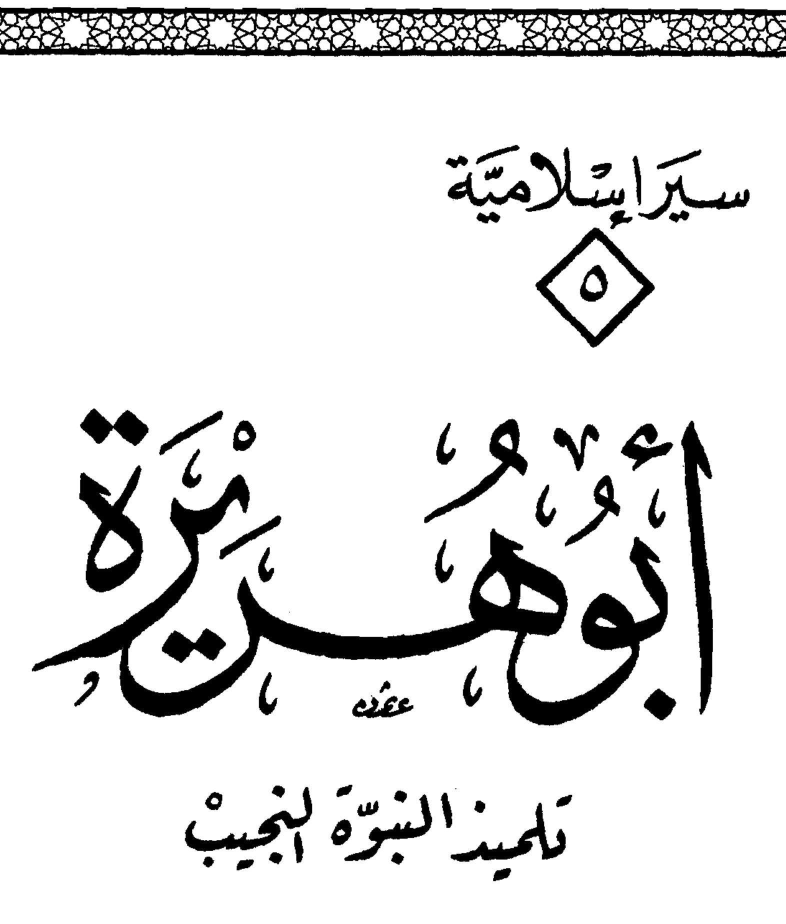
=

المـراجـع:

ـ فتح الباري: ٦/ ٢٤٢، ٧/ ٤٠٤، طبعة عيسى البابي الحلبي.
ـ حياة الصحابة: ٤/ ٥٤٨، طبعة دار القلم بدمشق.
ـ جامع الأصول: ١/ ٤٠٩، طبعة دمشق.
ـ سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٠٦، تحقيق السَّقا وزملائه.

= انتهى كلام السهيلي، وقد عقَّب عليه الحافظ ابن كثير فقال: وهذا الَّذي سلكه السهيلي ها هنا إشارة غريبة وتخيّل بديع، والله سبحانه أعلم. (البداية والنهاية ٤/ ٨٧).

الفهـرس



بقلم

محمد علي دولة

سير إسلاميّة

٦

أبو موسى الأشعري رضي الله عنه

الرّبّاني العابد والفاتح المجاهد

بقلم

محمّد علي دولة

سير إسلامية

٧



بقلم

محمد علي دولة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com





تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم ـ دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

www.alkalam-sy.com

الدار الشامية ـ بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير ـ جدّة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١


ISBN 978-9933-29-021-4